أُطلس الحَنين المُستحيل

أُنورادا رُويْ







تَرجَمة :
محَمَّد دَرويش

روَايَة

دار الآداب

أنورادا روي

أطلس الحنين المستحيل

ترجمة: د. محمّد درويش

رواية

دار الآداب - بيروت



أطلس الحنين المستحيل

أطلس الحنين المستحيل

أنورادا روي / روائيّة هنديّة
الطبعة الأولى عام 2014
ISBN 978-9953-89-449-2

Originally entitled An Atlas of Impossible Longing
Published by Arrangement with Maclechose Press,
an imprint of Quercus Editions Ltd (UK)



تمّت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق



دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com





@DarAlAdab



daraladab.com

إلى بابا

الذي ما يزال هنا . .




أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

المحتويات


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية



مقدّمة المترجم

الحنين إلى ما هو آيل للزوال

لا ندري ما الذي يدور في ذهن القارئ العربي، وكذلك الروائي أو الناقد العربي أيضًا، عندما يعرف أنّ هذه الرواية الهنديّة الأولى للكاتبة والروائيّة الهنديّة أنورادا روي والصادرة أصلاً باللغة الإنكليزيّة العام ٢٠٠٨ قد تُرجمت حتى الآن إلى خمس عشرة لغة من لغات العالم الحيّة، وها هي الترجمة السادسة عشرة تصدر اليوم باللغة العربيّة لتؤكّد مكانة هذه الأديبة التي ما زالت في مقتبل العمر من جهة أولى، ولم تصدر بعدها إلّا رواية ثانية العام ٢٠١١ من جهة ثانية! ليست القضيّة لغزًا مستعصيًا على الفهم إذا ما علمنا أنّ كلّ شيء ممكن في عالم الأدب عندما يلتزم الأديب بتقديم نموذج أدبي، روائي في هذه الحالة،

يتفوّق على كثير من النماذج المطروحة في سوق الأدب، لا سيّما إذا كان هذا النموذج يمثّل صورة إبداعيّة لثقافات محلّيّة يمتزج فيها الماضي الموغل في قدمه مع الحاضر الذي لا يستطيع إبطاله الخروج من دائرة الحنين القاتل، أحيانًا، إلى كلّ ما يشدّهم إلى ذلك الماضي ـ الماضي الذي لا يخلو في كثير من الأحيان من الخرافة والكهانة والتقاليد الأسريّة والمجتمعيّة التي قد لا يستطيع أحد تجاوزها بأيّ حال من الأحوال، لأنّها تشكّل أصلاً جزءًا لا يتجزّأ من شخصيّته وحياته عامّةً كانت أم خاصّةً (أموليا المهاجر من مدينته إلى سونغاره سعيًا وراء الرزق وهربًا من ماضٍ يؤرقه، وزوجته كانابالا التي لا تجد في حياة البلدة الصغيرة أيّ حياة بعد أن ابتعدت عن أهلها وذويها في كلكتا الصاخبة، وبابوبيكاش الذي يضطرّ إلى مواجهة الحياة في أشدّ صورها قساوة، ونرمال، ابن أموليا وكانابالا الذي هام حبًّا بتاريخ بلاده العريق فراح ينقّب في آثار قلعة موغلة في القدم في إشارة واضحة لربط الماضي بالحاضر، وغيرهم من شخصيّات هذه الرواية).

هذا من جهة أولى. أمّا من الجهة الثانية فلا بدّ من الإشارة إلى أنّ مقومات نجاح هذا العمل الروائي تكمن في منهج الروائيّة في معالجة أحداثه، تلك الأحداث التي تمتدّ على مدى ثلاثة أجيال وتغطّي مساحة زمنيّة لا تقلّ عن نصف قرن من الزمان (١٩٠٧ ـ ١٩٥٦) يمتزج فيها التاريخ الأسري الآيل للزوال لهذه الأجيال بتاريخ الهند السياسي المفعم بالاضطرابات والتقلّبات العنيفة والآمال العظيمة والخيبات والانكسارات المريرة التي يسجّل الإنسان وقائعها المأساويّة من دون أن يتمكّن في كثير من الأحايين من التغلّب عليها أو في الأقلّ من تجاوزها بأقلّ ما يستطيع من خسائر وآلام، خاصّة أنّ هذا الإنسان يعلم جيّدًا، كما هو الحال في هذه الرواية، أنّ الهروب من هذه الوقائع إلى بناء علاقات

يختارها بنفسه قد لا يكون مخرجًا آمنًا، فضلاً عن أنّ السعادة المنشودة لا يمكن أن تستمرّ زمنًا طويلاً. فالحنين إلى الحبّ يظلّ عنصرًا طاغيًا في الرواية، الحبّ الكارثي بين الزوج نرمال وزوجته شانتي، والحبّ المأساوي بين السيّدة بارنوم وعشيقها، والحبّ بين باكول ابنة نرمال والفتى موكوندا، ذلك اليتيم المجهول الأصل (من طبقة المنبوذين) الذي تكفّل أموليا بنفقات ظلّ يصرفها عليه بعد أن جيء به إليه ليربّيه، ولكنّه أودعه في ملجأ الأيتام حتى كبر ثم نقل إلى مدرسة خارجيّة جعلته يشعر أنّه عُرّض لخيانة لهذا المنفى الجديد الذي انتقل إليه. هذه الشخصيّات، وأخرى غيرها، تسعى إلى الخلاص من قدرها وجذورها التي تراها معوّقًا أساسيًّا في سبيل سعادتها وتقدّمها، وترى أيضًا العالم يسير من حولها من دون أن يلتفت إليها، بل ويقسو عليها قسوة لا طائل من ورائها.

فكيف صنعت الروائيّة مثل هذا العمل الإبداعي الجبّار، وهو الأوّل كما أشرنا، وحقّق نجاحًا مدوّيًا منذ صدوره؟

إنّه عمل روائي بانورامي، إذا جاز التعبير، قوامه خيال يفوق الحدود وإن كان يستند في كثير من الأحيان إلى تجربة حياتيّة واسعة من عمر المؤلّفة. فهي التي أمضت طفولتها متنقّلة في جميع أرجاء الهند بحكم عمل والدها في المسح الجيولوجي الذي تطلّب منه الكثير من التنقّلات. ولا يغيب عن الذهن أنّ الانتقال من أحد أجزاء الهند إلى جزء آخر يشبه الانتقال من قارّة إلى قارّة كما تقول أحيانًا، لأنّ الاتّصالات قبل ثلاثين أو أربعين عامًا كانت غير معروفة، كما كان التلفاز والإنترنت غير معروفين، ومع ظهور هذه الوسائل تغيّر كلّ شيء في الهند كما في سائر أنحاء العالم، تغيّر المأكل والشراب، واللغة وطرز العمارة، أساليب التعليم والسياسة ومناهج التربية. واضطرّت

الكاتبة إلى الانتقال إلى كلكتا للدراسة الجامعيّة ومن هناك سافرت إلى كيمبردج للالتحاق بجامعتها العريقة. وبهذا ترى أنّ جذورها تغور في كلّ مكان وفي اللامكان، وأنّ هويّتها المعاصرة هي هويّة المنتمي واللامنتمي في الوقت نفسه. وعندما اشتغلت في إحدى دور النشر في دلهي، وجدت نفسها تنفق وقتًا طويلاً في مكان واحد أوّل مرّة في حياتها. أمّا الآن فهي تعيش رفقة زوجها وكلبها في بيت صغير يقع في إحدى بلدات سفوح تلال الهملايا (حيث تجري وقائع روايتها الثانية «الأرض المطويّة»)، بعد أن أسّست هي وزوجها العام ٢٠٠٠ دار نشر مستقلّة باسم بيرمانينت بلاك المتخصّصة في نشر الكتب عن سياسة الهند وتاريخها، وقد أصدرت الدار منذ ذلك العام ما يربو على المئتين وخمسين كتابًا، وتستقطب كتّابًا ومفكّرين من شتّى بقاع العالم ممّن تخصّصوا في الكتابة في التاريخ والعلوم الاجتماعيّة، ومنهم من هو راسخ العلم في ميدانه المعرفي، ومن هو في مقتبل العمر.

وترى الروائيّة أنّ ثمّة مؤثّرات لا تغيب عن الذهن في هذه الرواية، ولا سيّما الأشرطة السينمائيّة لساتياجيت راي ومؤلّفات بيبهوتيبهوشان، الكاتب البنغالي الذي تتّصف أعماله بالشاعريّة وقوّة التأثير والروح الإنسانيّة. كما لا تنسى المؤلّفة ذكر بعض الروائيّين الذين تأثّرت بهم مثل تشيخوف وديكنز وياسوناري كاواباتا وفرجينيا وولف وآن ستيفنسون وأحمد علي الذين تؤكّد أنّها تقرأ مؤلّفاتهم مرّات ومرّات. أمّا عن الأدباء الهنود المعاصرين الذين يكتبون بالإنكليزيّة، فهي تشيد بالأديب ڤيكرام سيث الذي ترى فيه روائيًّا خصب الخيال يكتب رواياته في سونيتات تتطلّب مهارة وتقنيّة إلى درجة بالغة من الدقّة التي تؤكّد أنّها عنصر أساسي في جذب القارئ وشدّه إلى متعة القراءة، وهي بهذا تؤكّد أنّ اللغة هي الأساس في الرواية الجيّدة، وأنّها لا تستطيع قراءة أيّ عمل

روائي مكتوب بلغة تتسم باللامبالاة، ولا تريد أن تكتب يومًا ما رواية تفتقر إلى عنفوان اللغة وقوّتها.

بقي أن نشير إلى أنّ صحيفة الواشنطن بوست أشادت بالرواية، وقالت إنّ القارئ سرعان ما يجد نفسه بعد الصفحات الأولى وقد جرفته الأحداث المتلاحقة فيها، وأكّدت أنّ القارئ سوف ينتابه الإحساس نفسه الذي يمرّ به عند قراءة رواية من طراز الآمال الكبيرة لتشارلز ديكنز أو رواية اختيار صوفي أو مطيّر الطيّارة الورقيّة. أمّا صحيفة نيويورك تايمز فوصفت المؤلّفة بأنّها تحدّد ملامح شخصيّات روايتها في مهارة، وأنّها تمتلك دقّة ملاحظة في كلّ ما يحيط بها من أجواء طبيعيّة، وأنّ المؤلّفة تعرف جيّدًا كيف يمكن للحياة الخاصّة (للشخصيّات) أن ترسم شكل العالم الخارجي الكبير.

إنّ الحنين الذي يطغى على أجواء الرواية هو حنين الشخصيّات المستحيل، حنين يطحنه الزمان والعادات ووضاعة البشر واستغلالهم في كلّ زمان ومكان، وهي رواية عن العزلة والوحدة، على حدّ تعبير المؤلّفة نفسها، والحبّ والطبيعة المفقودة والهجرة إلى المدن، وهي موضوعات تتطلّب أسلوبًا هادئًا، بطيء الإيقاع، ولهذا جاءت الأحداث في النصف الأوّل من القرن العشرين الذي كان أسلوبه وإيقاعه يختلفان الاختلاف كلّه عن أسلوب الأحداث التي تحدث في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين.

الدكتور محمد درويش

بغداد ـ أيلول ٢٠١٣

توطئة

البيت الظاهر في الصورة يطفو على نهر بلون لطيف هو السَّبيدج الغامق.

البيت مبنّي ضخم باهظ النفقات وعمل يبدو رومانيًّا بأعمدته المستدقّة والمتسامقة حتى سطحه المقوّس. أمّا أشجار النخيل التي تحفّ به من جوانبه فتبدو مثل شعر أشعث وهي تنعكس في السماء، مائلة إليه وطويلة، في حين تتجمّد دوّامات الماء عند سقّاطة مصراع نافذة تضربُ أعمدة شرفته الطويلة.

كان النهر يغيّر اتّجاهه وينعطف مزدريًا مجراه القديم، ظمآن إلى تربة جديدة. وعلى مدى سنوات طويلة، كانت البلدة الصغيرة ـ يسمّونها بلدة ولكنّها لا تتألّف إلّا من منزلين أو ثلاثة منازل مبنيّة بالآجر، وتمتدّ وراءها حقول شاسعة وأكواخ مسقفة بقشّ وقصب ـ وعلى امتداد ذاكرة

البشر تراقب النهر بحدوده غير الواضحة وتسخر منه. واليوم، يمكن لهؤلاء الناس أن يروا أنّ النهر تزداد جرأته قليلاً عند كلّ فصل من فصول الرياح الموسميّة أثناء تقدّمه باتّجاه البيت متجاوزًا على قدم وليس بوصة كما كان دأبه سابقًا. في صورتي، ما زال النهر بعيدًا يصدّه سور الدرج الذي يهبط إليه، يلطم الحجارة اللزجة التي تطأها أقدام النساء في طريقهنّ للاستحمام.

ثم يبدأ النهر البنّي الظاهر في الصورة بالارتفاع ويتحوّل الدرج المؤدّي إلى المنزل إلى نهر، كما تصبح الشرفة نهرًا أيضًا. ويرتفع النهر حتى تجد النوافذ وهي تنفتح على المياه. وفي إمكاني رؤية الناس يسبحون من وراء نوافذ غاطسة، محبوسين في غرف غارقة بالماء وكأنّهم في جزيرة أطلنتس[1] المهجورة. أراقب أشجار النخيل وهي تصطدم بالسطح المزخرف. وفي حين يأخذ البيت بالتلاشي، تطفو شجرة الباكول المزهرة على الجهة اليسرى من الصورة كأنّها قارب فوق صفحة ماء في رحلة لا نهاية لها.

(المؤلفة)

---

(١) أطلنتس Atlantis: جزيرة خرافيّة في المحيط الأطلسي غربي جبل طارق، زعموا أنّها غارت في أعماق المحيط (المترجم).

القســـم الأوّل

البيت الغريق

واحد

من تحت وهج النيران الدافئ الذي ينير الباحة في وسط الأكواخ الطينيّة المسقفة بالقشّ، انتقلت أكواب مصنوعة من سعف النخيل تحتوي على عصارة النخيل الطازجة من يد إلى يد في سرعة كبيرة. كان الرجال يلبسون المئزر والنساء يرتدين الساري قد بدأوا الرقص حفاة الأقدام مثيرين الغبار، في حين كان الدخان يلتفّ ويتصاعد من نيران الطبخ والتبغ. وطمست الطبول والدقّات الرتيبة المنبعثة من آلة وتريّة والغناء في صوت مرتفع الأصوات المنبعثة من الغابة.

وجلس في وسط هؤلاء القوم رجل نحيف الوجه، متغضّن الجبين، شعره الفاحم مصفّف إلى الخلف، ساكن الحركات مثل صورة جامدة معتليًا كرسيًّا ما زال يحتفظ بمسندي اليدين ولكنّه بلا مسند للظهر. كان أنفه الطويل بارزًا إلى أمام، كالسهم، من تحت عينين

غائرتين. وكان هذا الرجل قد أنفق المساء كلّه يدخّن غليونًا ويحمل في يده كوبًا واحدًا مهذّبًا من عصير النخيل يتظاهر بأنّه يرشف منه. وكان قميصه أبيض اللون مثل مئزره، خشن الملمس، وصدريّة سوداء بلون ثياب المحاماة.

لم يكن يبدو على الرجل أنّه يسمع صوت الغناء، ولكن عينيه ثابتتان على الراقصين: أليست تلك الفتاة ذات الساري الأحمر هي التي حضرت حاملة سلالاً من العشب الخطمي البرّي ورمت بها من دون عناية في ركن من أركان أرضيّة معمله؟ أوليس ذلك الرجل الذي يراقصها ويطوّق خصرها بذراعيه هو أحد جامعي العسل؟ يصعب عليه معرفة ذلك، وخاصّة أنّ الناس يرتدون مآزر وثياب ساري جديدة ويزيّنون رؤوسهم بورود وتتطاير حبّات الخرز من على رقابهم وسط وهج النيران. مال الرجل إلى أمام محاولاً أن يستدلّ على أيّ وجه يلتمع عرقًا سبق له أن التقاه وسط قوّة عمله الصغيرة.

ولكزه الرجل الشبيه بالضفدع والمرتدي حلّة بنّيّة اللون والجالس إلى جانبه في أضلاعه قائلاً:

ـ إيه يا بابو[1] أموليا، ثمّة شيء في هؤلاء الشابّات القرويّات يدفع الرجال المتزوّجين منذ زمن طويل إلى التفكير فيهنّ تفكيرًا فاحشًا! أتدري؟ إنّهنّ على استعداد لمضاجعة أيّ عدد من الرجال يرغبن فيه!

ثم أفرغ كوبه من عصير النخيل في فمه ولعق شفتيه، وأضاف:

ـ يا له من شراب مسكر.. ينبغي لي أن أبيع منه في متجري!

وقال قرويٌّ عاري الصدر بعد أن ملأ كوبه من جديد:

---

(١) بابو: لقب مخاطبة هندي بمعنى سيّد (المترجم).

ـ تعال ارقص وإيّانا يا صاحب[1] كواسجي! وأنت يا بابو أموليا، أرى أنّك لا تشرب شيئًا! هذه هي المرّة الأولى التي يأتي فيها ناس من خارج الغابة ضيوفًا على مهرجاننا الخاصّ بالحصاد. ولأنّني ألححت، وقلت إنّ صاحب كواسجي وبابو أموليا هما اللذان يقدّمان لنا خبزنا وملحنا.. فلا بدّ لنا من مكافأتهما بأسلوبنا المتواضع!

وقف رجل طويل القامة، مفتول العضل، على مقربة يصيخ السمع ويلوي شفتيه احتقارًا وازدراءً، في حين كان قريبه يحوم من حول الأصدقاء الأربعة أو الخمسة الذين أحضرهم كواسجي معه، ويتألّق احترامًا وهو يملأ أكوابهم. ومن وراء حزمة وهج النيران، وروائح الطبخ والضوضاء، ازدادت ظلمة الغابة وتحوّلت إلى ظلال. وفي بقعة ما، صدر صوت جاموس برّي حزينًا ومخنوقًا. وازداد قرع الطبول وشبكت الفتيات أيديهنّ من وراء ظهر كلّ منهنّ للأخرى، وتمايلن مع إيقاع الموسيقى وبدأ بالغناء:

فتاة شابّة ذات خصر نحيف
يكفي أن أحيطه بإصبعي،
تذهب إلى نهاية الطريق لإحضار الماء من البئر،
تهزّ ردفيها وهي تمشي الهوينى.
حياتي تصبو برغبة
وسريري أحمر اللون
ودثاري أحمر اللون،

(١) صاحب sahib: لقب بمعنى سيّد يخاطب به الهنود شخصًا ذا مكانة اجتماعيّة أو منصب رسمي (المترجم).

أريد منك البقاء وإيّاي

في أشهر المطر والسعادة الأربعة.

في غيابك لا أستطيع الأكل،

في غيابك لا أستطيع الشرب،

ولن أجد متعة في أيّ شيء..

لهذا أرجو منك البقاء طوال أشهر المطر

من أجل سعادتي.

انسحبت إحدى الفتيات الراقصات من بين شريكاتها في الرقص، بعد أن تنبّهت لأمارات انشغال البال البادية على محيّا أموليا، وفكّرت في نفسها كيف أنّ في وسع أيّ إنسان أن يظلّ ساكنًا من دون أن يتأثّر بالموسيقى أو يشرب من خمرهم! تقدّمت إلى أمام وقد افترّ ثغرها عن ابتسامة، وحبّات خرزها وأساورها تجلجل، في حين تألّق كتفاها العاريان تحت وهج النار، بينما لفَّ رداء الساري البرتقالي اللون جسدها الريّان لفًّا محكمًا. كان شراب عصير النخيل قد جعل رأسها يدور قليلاً عندما انحنت أمام أموليا. ولمّا حاول أن يندفع وَجِلاً مذعورًا مسّدت خدّه، وقالت:

ـ يا سيّدي المسكين، هل تعلّق آمالاً كبيرة على شخص ما؟

ثم مالت أكثر من ذي قبل وهمست في أذنه:

ـ ألن تأتي للرقص؟ إنّ الرقص يزيل الأحزان.

رفع أموليا بصره ونظر إلى ما وراء وجهها الطفولي المؤطّر بلفائف الشعر الذي كانت تنبعث منه رائحة زيت زكيّة وقويّة، إلى الزهرة البنفسجيّة الزاهية المثبتة في مؤخّر شعرها المعقود في شكل كعكة.

وكانت الزهرة ذات حلقة من تويجات بلون بنفسجي فاتح ووسادة من أعضاء التذكير. المؤكّد أنّها من فصيلة زهرة الحبّ. نعم، مؤكّدًا، ولكن من أيّ نوع؟

على الرّغم من غشاوة الكحول الذي جعل من بصر الفتاة ينحدر من شيء إلى آخر، إلّا أنّها لاحظت أنّ الرجل لم يكن يحدّق إلى وجهها وإنّما إلى الزهرة، فما كان منها إلّا أن انتزعتها وقدّمتها له. ثمّة غمّازة غائرة في وجنتها. وهدرت الطبول من جديد، وانطلقت أغنية جديدة، فما كان منها إلّا أن عادت إلى صديقاتها ضاحكة، تنظر إليه من فوق منكبها.

وهتف كواسجي وهو يضرب على فخذ أموليا:

ـ هه يا بابو أموليا، الفتاة تهواك. يمكنك أن ترفض الطعام والشراب، ولكن كيف يمكنك أن ترفض امرأة شبقة؟ هيّا، ارقص مع الفتاة! هذا هو العمل المطلوب في هذه الأماكن!

نهض أموليا من على كرسيّه وابتعد عن يد كواسجي، وقال بنبرة باتّة وقاطعة:

ـ عليّ الانصراف الآن.

كانت يده اليسرى ممسكة بالزهرة البنفسجيّة في حين تحسّس بيده الأخرى مظلّته.

أدرك أموليا أنّه شاذّ. فعندما كان حديث العهد بالبلدة المجاورة للغابة، حاول أن يكون جزءًا من المجتمع المحلّي وذلك بارتياد بعض الحفلات. وعلّق أثرياء سونغاره المحلّيّون الآمال عليه، ربّما بوصفه غندورًا من مدينة كبرى، مثقلاً بالحكايات والقيل والقال عن تلك المدينة، له معرفة بأحوالها، حاضر البديهة، منشّطًا لشهيّة سكّان البلدة

الصغيرة. كان يتلقّى عديد الدعوات المتطلّعة إليه.

ولكنّه بعد حضوره الدعوات القليلة الأولى التي رفض فيها عروضًا بتناول الويسكي وشراب الجنّ الوردي، وانتظاره، من دون أن يتكلّم كثيرًا، تقديم طعام العشاء وانتهاء الأمسية، أدرك أنّ حضوره في ذلك المكان ربّما لن يفيد شيئًا. أتراه بات حقًّا مواطنًا محلّيًا صادقًا بحضوره تلك الحفلات عندما أصبح ذلك الحضور نابعًا عن التزام؟

واليوم ظنّ أنّ هذه الاحتفالات في القرية التي يشكّل سكّانها القوّة العاملة له ستكون مختلفة. فأراد أن يحضرها من أجل تغيير الجوّ، فهو لم يشاهد السكّان القبليين إلّا في العمل، ولكن كيف يبدون عند اللهو، وكيف هي منازلهم؟ لقد وجد الفرصة سانحة لا تفوّت. غير أنّ كواسجي، الذي بدا أنّ فتيات القرية العاريات الأكتاف سوف يطلقن ما هو أكثر من جفائه المعتاد، أكّد له أنّ هذه الأمسية تشبه كلّ ما سبقها من أمسيات.

جال أموليا ببصره من حوله بحثًا عن شخص ما يعبّر له عن شكره وامتنانه، ولكنّ المكان كان يحتشد بالقوم الجالسين على عجيزاتهم يحتسون الشراب أو يرقصون وهم في عوالمهم الخاصّة بالنشوة والبهجة. كان قرع الطبول قد بدأ يتصاعد ولكن قلّما تمكّن نقر الأوتار من ملاحقة صوت الطبول. أين مظلّته؟ وحقيبة مكتبه؟ أما تزال عربته في انتظاره بحسب التعليمات؟ هل ثمّة من هو صاحٍ كي يرشده إلى العربة؟

قال كواسجي وهو يجذب كمّ أموليا:

ـ آه، اجلس، اجلس يا بابو أموليا. لا يمكنك الرحيل من دون تناول الطعام، وإلّا شعروا أنّ طعامهم متواضع لا تقبله نفسك وعندئذٍ سوف يشعرون بالإهانة. ما زال الليل في بدايته ولدينا حكايات نتبادلها!

هل سمعت بهذه الحكاية؟

وهنا ضحك كواسجي ضحكة متقطّعة توقّعًا لما سيقول.

جلس أموليا من جديد، قلقًا وممتعضًا، لا يتمكّن حتى من التظاهر بالابتسام أمام الضحكات المختلفة التي رافقت المناقشة عن السبب في اختلاف الرائحة المنبعثة من ثقبي أيّ امرأة وإن كان الثقبان متجاورين.

هتف أحد أصدقاء كواسجي:

ـ ذلكم يشبه الاختلاف بين شاي دارجيلنغ وشاي أسام.

وقال ثالث:

ـ كلاهما يُزرع في تلال الهند الشرقيّة لكن رائحتهما مختلفة تمامًا، أيّها اللوطي! إنّه كالاختلاف بين رائحة مياه البواليع ومصرف المياه!

ثم وكز أحدهما الآخر وأشارا إلى الفتيات الراقصات بالقرب من النار.

قال آخر ضاحكًا:

ـ إنّها لك. ما رأيك لو أخذتها إلى البيت لتؤكّد فرضيّة أسام ـ دارجيلنغ؟

برز القروي الطويل القامة والمفتول العضلات من بين الظلال ممسكًا بقبضة إحدى يديه قضيبًا طويلاً من خشب الخيزران. وفي خطوتين سريعتين، كان يقف على رؤوسهم وبيده سلاحه. انكمش كواسجي إلى الوراء في مقعده، فلاحظ السمسار الخَنوع التهديدَ، فانطلق مسرعًا من إحدى الزوايا، وتفوّه ببعض الكلمات من فوق منكبه وموجّهًا إيّاها إلى قارع الطبل، ثم إلى إحدى النساء وكانت تُشرف على قِدْر الطعام. وهنا صمتت الطبول، وتوقّف الراقصون عن الرقص في

ارتباك من دون إكمال الرقصة. وصاحت المرأة:

ـ سوف نتناول الطعام الآن قبل أن يهرب الدجاج من الرزّ!

بيد أنّ العزف الوتري تواصل، وكان العازف في حال من جذل يحول من دون توقّفه. أمّا الرجل صاحب القضيب الخيزراني فتنحّى جانبًا من دون أن يحوّل أنظاره الجامدة عن كواسجي.

* * *

في مكان ناءٍ، تناهى إلى سمع كانابالا أصوات قرع الطبول خافتًا وكأنّه خفقة في ليل. ليلة أخرى من الانتظار. في التاسعة والنصف سيّارة الجيران. أبواب تغلق بقوّة. صياح موجّه إلى الحارس. العاشرة. أزيز الساعة وهي تحشد طاقاتها للدقّات الطويلة القادمة. حفيف الأشجار. غراب وحيد أربكه نور القمر، الريح تلطم بابًا. العاشرة والنصف. البوم ينعب، بومة لبومة، والثعالب على مسافة بعيدة. ثم يتناهى صوت خافت لحوافر خيل. أقرب. صوت الحوافر وصوت العجلات على الطريق. ضربات سوط على الجلد. صبيّ العربة يسبّ ويلعن، ويقول أموليا:

ـ توقّف هنا!

كان صوته أعلى ممّا ينبغي.

تركت كانابالا نسختها القديمة من ملحمة رامايانا واتّجهت نحو الباب، واستطاعت أن تشاهد زوجها وهو يحدودب كي يتحرّر من مظلّة العربة الواقية وهو الطويل القامة قياسًا بها وهي الواطئة. استدارت وعادت أدراجها إلى السرير وأمسكت بكتاب رامايانا من جديد. وعندما دخل أموليا الغرفة وجال ببصره من حوله بحثًا عن نعاله، لم تقل له إنّها وضعته من تحت الطاولة. ولمّا سألها:

ـ هل تناولتِ الطعام؟

تظاهرت بأنّها مستغرقة في قراءة الكتاب. وعندما قال:

ـ هل الوالدان نائمان؟

ردّت قائلة:

ـ على وجه التوكيد. فالوقت متأخّر جدًّا.

ـ لم يقدّموا وجبة العشاء إلّا في الساعة العاشرة، ولم يرغبوا في أن أنصرف من دون عشاء. ماذا تتوقّعين منّي أن أفعل؟

أجابت كانابالا:

ـ لا شيء. أعرف...

وفي هذه اللحظة لمحت شيئًا ما جذب أنظارها فأمسكت عن الكلام.

ـ ماذا؟

ـ ماذا؟ تلك؟ آه، إنّها زهرة.

ضاع صوت أموليا من تحت قميصه الذي كان يخلعه جذبًا من فوق رأسه. كان في وسعها مشاهدة صدرته البارزة عليها أضلاعه ومعدته المقعرة. نظرت من جديد إلى الزهرة، البنفسجيّة الغامضة، الذاوية. كان قد وضعها تحت المصباح القريب من السرير. وكان في وسعها أن تشاهد من تحت نور المصباح شعرة واحدة طويلة سوداء اللون ملتصقة بحافّة ساقها اللزجة.

قالت:

ـ أعرف أنها زهرة، ولكن لماذا أحضرتها إلى المنزل؟

أجاب تاركًا الغرفة:

ـ أردتها أن تتماهى و. . .

سبق لها أن طرحت عليه هذه الأسئلة مرارًا وتكرارًا:

ـ هل ثمّة نساء يأتين إلى الحفلات التي يرتادها؟ زوجة المضيف؟ أصدقاؤها أو أقرباؤها؟ لماذا لا يمكن له أن يصطحب كاناباﻻ؟ فكان يضحك دومًا في لطف أو يقول مجيبًا ومغضبًا:

ـ أنا لم أصادف أيّ نساء في هذه الحفلات ولا أتطلّع إلى لقائهنّ.

وماذا بشأن احتفال اليوم في قرية القبيلة؟ هل يمكن له أن يأخذها إلى هناك؟ إذا كانت هي نفسها امرأة قبليّة، فإنّها ليست مضطرة إلى موافقة رجل.

قفل أموليا راجعًا إلى غرفتهما حاملاً كتابًا ضخمًا بغلاف سميك وجلس بالقرب من المصباح وفتحه على دفّتيه، ووضع نظّارته ذات الإطار الأسود على عينيه. التقط الزهرة بيد وقلّب صفحات الكتاب باليد الأخرى، ملقيًا نظرة على الصفحات تارة وعلى الزهرة تارة أخرى وهو يتمتم في صوت خفيض: المؤكّد أنّها زهرة الحبّ ولكن أهي رمز؟ فأنا لم أشاهد مثل هذا العرق في سونغاره.

انصرفت كاناباﻻ واستندت إلى وسادتها وأغمضت عينيها. كانت تسمع حفيف الأوراق وأموليا يتمتم في صوت خافت. وتمنّت مدفوعة بدافع مفاجئ ومتّقد لو أنّها تمكّنت من أن تطأ على نظّارته وتهشّمها.

وضع أموليا الزهرة قبالة صورة توضيحيّة في الكتاب وهمس: نعم. رمز. إنّها رمز. لا بدّ أنّ روكسبرغ على صواب.

* * *

في العام ١٩٠٧ تقريبًا، وعندما انتقل أموليا من كلكتا إلى سونغاره، كان ما يزال في وسعه أن يلاحظ أنّ البلدة شقّت طريقها ربّما قبل مئة سنة، من الغابة والصخور. فقد كانت البلدة تتربّع على سهل صخري يمكنه أن يرى من حافّته، بل من منزله أيضًا شريطًا معتمًا من الغابة وظلالاً غير منتظمة تميل إلى الزرقة لتلال تمتدّ وراءها. وفي الأفق البعيد، ثمّة أسوار مهدّمة من حجارة ترجع إلى القرون الوسطى ـ وخرائب قلعة استمدّت البلدة اسمها منها. وكانت أجزاء من الأسوار وأحد الأبراج التي حُكم عليها بالموت والكافية لإشعال خيال أموليا يمكن الاستدلال عليها من بين الآثار. في المقدّمة ثمّة بركة ضحلة محاطة حافّاتها بنقوش حجريّة. أمّا وراء القلعة، فيشاهد قاعَ جدول ماء جافّ وموغل في القدم يفصلها عن الغابة والهضاب. ويقال إنّ مدينة بأكملها سوف يعثر عليها يومًا ما مدفونة من حول القلعة. وزعم البعض أنّ سونغاره كانت أحد مراكز التعليم عند البوذيين في غابر الأزمنة، وأنّ بوذا نفسه خلد إلى الراحة تحت إحدى الأشجار أثناء إحدى رحلاته. وكان أموليا قد شاهد في أوّل زيارة له للقلعة أنّ ثمّة شجرة قديمة وارفة من أشجار تين البنغال ذات جذور بارزة كثيفة بلون الحجارة. وكانت للشجرة عقدة على جذعها الرئيس تبدو تحت نور معيّن ـ وكأنّها وجه رجل متأمّل.

وعندما أتى أموليا بأسرته إلى سونغاره، فإنّ هذه البلدة لم تعد مركزًا من مراكز التعليم، بل اكتسبت أهمّيّة جديدة بعد اكتشاف علماء طبقات الأرض خامات الميكة[1]. وكانت ثمّة مادّة تدرّ ربحًا أوفر تحت الغابة على بعد مسافة قليلة منها وهي الفحم. وفي وسط حقول مؤلّفة من

---

(١) خامات الميكة ores of mica: مادّة شبه زجاجيّة تتميّز بقابليّتها على الانفلاق السريع إلى رقاقات بالغة الرقّة (المترجم).

رقع مزروعة بالدخن والخضروات نشأت مستوطنة بريطانيّة صغيرة من الناس الذين أشرفوا على مناجم الفحم وعلى خامات الميكة الأقرب من مناخ سونغاره الصحّي، والذي كانت برودته الشديدة في فصل الشتاء تحتاج إلى نيران الحطب. وقبل أن يمضي زمن طويل، أصبح للبلدة بقعة بيضاء بالقرب من القلعة حيث عاش عدد قليل من عمّال المناجم وشكّلوا مجتمعًا خاصًّا بهم.

وبمرور الزمان، بات لبلدة سونغاره شارعها الرئيس وعدد قليل من الدكاكين، وكان واحد من هذه الدكاكين الأولى هو فينليز، يديره تاجر فارسي يوفر احتياجات المغتربين من الموادّ الغريبة كالقهوة والفاكهة والسمك المعلّب والمخرّمات وملابس النساء الداخليّة ودبس السكّر وشحم الماشية والسكائر والجبنة. وكان الهنود يتوافدون إلى المتجر سعيًا وراء الأقمشة والأزرار والأدوية وموادّ التجميل ليعودوا حاملين علبًا فيها أنصاف الخوخ ويتساءلون عمّا يمكنهم أن يفعلوه بها.

كانت الغابة تراقب المشهد. وكان معروفًا أنّ الفهود تجول في بقاعها المجهولة.. وكانت القصص تدور حول نمور وبنات آوى يشربون معًا من مياه الجداول التي تشقّ طريقها فيها من على حصًى مدوّر الشكل ورمادي وبنّي اللون. واختفت الأبقار والماعز، وأحيانًا الكلاب. وكان من العبث الذي لا طائل من ورائه البحث عن بقاياها. وإلى أن ظهرت المناجم وظهر معها أمن المجاميع والطائفة، فإنّ أحدًا من البلدة لم يكن بذلك الطيش كي يتجرّأ ويدخل إلى البرّيّة الكامنة عند حافّة منازلهم: البرّيّة الخضراء الداكنة والغريبة الممتدّة أميالاً ولا تنتهي إلّا حيث تبدأ مناجم الفحم.

كانت الغابة ما تزال منطقة خاضعة للسكّان القبليين الذين يتمتّعون ببشرة لامعة وسوداء مثل صخرة مبلّلة وبأجساد مستقيمة ونحيفة. وكانت

الزهور بتويجاتها المزركشة مستقرّة في شعر النساء الأسود. كان السكّان فقراء، يبدو العدد الأكبر منهم وكأنّهم يتضوّرون جوعًا ولكنّهم على الرّغم من ذلك لازموا الغابة، لا يخرجون إلّا لمامًا، جماعات جماعات. واضطرّ البعض منهم إلى الذهاب إلى البلدة عندما ظفرت المناجم بأجزاء من غابتهم. وعاشوا حياتهم في سقائف وأكواخ، يشتغلون في أيّ شغل يمكنهم العثور عليه، ووظّف أموليا عددًا كبيرًا منهم.

كان أموليا قد طرق سمعه عن بلدة سونغاره عندما كان في مدينة كلكتا، فجاء يزورها وتجوّل في أرجاء البلدة الصغيرة كافّة وريفها المحيط بها. وكان إدراكه عن إمكانيّة السكن فيها أشبه ببركة أو رحمة. فكما يكلّمك بعض الناس من فورهم فتشعر برابطة قربى حقيقيّة تجاههم مثل حقيقة لمس اليد، فقد شعر أموليا بصلة ما إزاء بلدة سونغاره. وعلم أنّه إنْ تخلّى عنها في تلك اللحظة، فإنّه لن يتمكّن أبدًا من التفكير فيها، وأنّ كلّ حياته ستبدو وكأنّه قد ضحّى بها.

وفي سونغاره، وفي وسط قوم لم يكن يعرف لغتهم، شيَّد موليا معمله الصغير لصناعة الأدوية والعطور المستخلصة من الأعشاب والزهور والأوراق. وكان أهالي الغابة يعرفون أين يجدون الزهور الخطميّة البرّيّة لاستخلاص الزيت العطر الأحمر وزهور الليل ذات الأريج والأعشاب الصغيرة لصنع عجينة خضراء ذات رائحة قويّة يمكنها أن تحوّل البثور الصلبة والعنيدة إلى فتات بين ليلة وأخرى. وتعلّم أموليا بإصرار، لم يكن يدري أنّه يتمتّع به، لغة الأهالي واللغة الهنديّة، كما تعلّم منهم القدر الكافي عن نباتاتهم حتى تمكّن من توسيع مدى منتجاته.

ونظر الأقرباء في كلكتا إلى أموليا نظرة تشوبها الحيرة والانزعاج.

فهو لم يفعل شيئًا يضطرّه إلى الهروب، فما السبب في هذا النفي الاختياري من المدينة الكبيرة والعيش في البرّيّة؟ هل في العالم شيء لم تمنحه كلكتا لرجل مثله؟ وفي خلفيّة أحاديثهم كان ثمّة إحساس في أنّ رحيله إهانة لنمط حياتهم وإعادة رسم نموذج كان قد أكمله توًّا.

* * *

كان المنزل الذي شيّده أموليا في سونغاره يبدو في غير محلّه، فهو منزل بلدة مرتفع متعدّد النوافذ في وسط أرض ذات أشجار خفيضة وحقول قليلة العمران في ذلك الوقت. وصمّم خارطة المنزل بمساعدة مهندس معماري أنكلو ـ هندي تلقّى تدريبه في مدينة غلاسكو، وكانت الخارطة تحتوي على مزيج متّسم بحسن التمييز بين العمارة الشرقيّة والغربيّة. كان المنزل يطلّ بواجهته إلى جهة الجنوب، موليًا واجهته بعيدًا عن الطريق العامّ. وكانت الشرفات الممتدّة على طول الواجهة الجنوبيّة والجهة الشماليّة مزوّدة بصفوف من النوافذ. أمّا في الجهة الغربيّة، فثمّة شرفات وسطوح صغيرة تسمح بدخول أشعّة الشمس الآذنة بالمغيب. وكانت هذه الشرفات تطلّ على باحة مجاورة للمطبخ المشيّد على الطبقة الأرضيّة، في حين كانت هذه الجهة والجهة الجنوبيّة تحيط بهما حديقة تحفّ بها الأشجار والأعشاب المزهرة. وإذا كان بقيّة الأهالي قد منحوا بيوتهم أسماء كبيرة، فإنّ أموليا منح منزله رقمًا. وعلى الرّغم من وجود بيت واحد لا غير في ذلك الطريق، إلّا أنّ أموليا ثبّت لوحة في قطعة الأرض الخالية كُتب عليها بحروف سود كبيرة: (٣ دولغانج رود). وكان الرقم ٣ يمثّله هو وولديه الاثنين.

منزل رحيب. وكان المهندس المعماري قد قال راضيًا بعد أن فرغ من إكمال تصاميمه: «منزل يكفي لأن تنشأ فيه أسرة». ولكن على الرّغم من كلّ الشرفات والنوافذ، فقد اتّضح أنّ البيت ينطوي على أسرار

وغموض بعد أن تحوّل إلى قطع من الآجر والجصّ ـ إذْ لم يأت أحد إلى الباب الخارجي للمنزل ٣ دولغانج رود، سونغاره، مدفوعًا بحافز لا يقاوم ليقول مثلاً: فكّرنا في زيارتكم. فالجهة الشماليّة من المنزل التي تواجه الطريق العامّ والتي تحتوي على صفوف من نوافذ ذات مصاريع، بدت وكأنّها تقول للزوّار إنّ الأفضل الوقوف في الطبقة العليا ومشاهدتهم وهم يروحون في طريقهم بدلاً من استقبالهم والترحيب بهم.

وفي الجهة المقابلة من الطريق العامّ، لم يكن إلّا ذلك البيت الوحيد في الجوار، وكان واحدًا من تلك البيوت الريفيّة ذات الطبقة الواحدة التي شيّدتها شركة المناجم لموظّفيها الإداريين وكان الاسم المرفوع على البوّابة هو: ديفيي بارنوم، وهو رجل قلّما شاهده أحد في المنطقة. وكان للمنزل مدخل مسقوف عند بابه تقف تحته العربات والسيّارات تجنّبًا لأشعّة الشمس أو المطر. ومن تلك الخلوة، كان بارنوم يستقلّ صباح كلّ يوم السيّارة التي توصله إلى محلّ عمله. كان يغادر المنزل في الساعة التاسعة والنصف تمامًا ولم يكن لينظر يمنة أو يسرة في الوقت الذي كانت السيّارة تشقّ طريقها من خارج البوابة لتنطلق من فوق الطريق العامّ. هذا ولم يسبق لأحد في المحلّة من مشاهدته.

شاهد أموليا بارنوم أوّل مرّة في أيّامه الأولى في بلدة سونغاره عندما كان ينفق معظم وقته في الهواء الطلق للانتهاء من بناء منزله، وتحت أشعّة الشمس ليراقب العمّال وهم منهمكون في عملهم. وفي يوم من تلك الأيّام، دخلت سيّارة بارنوم من الرواق المعمّد ولم تتوقّف إلّا على بعد بضع ياردات من البوّابة. ولاحظ أموليا الذي كان يقف منتظرًا على قارعة الطريق مجيء سيّارة تسليم الموادّ، رجلاً يفتح باب المقعد الخلفي من السيّارة أعقبه صبّ اللعنات بلغة إنكليزيّة: «يا للجحيم!». قال ذلك بارنوم وهو يرمي إلى ركل غطاء السيّارة الأمامي، وبعد ذلك

شبك يديه محاولاً سلوك مسلك آخر وأضاف: «أرجوك أيّتها السيّارة العتيقة اللعينة، هذه المرّة لا أكثر». ازدادت حيويّة بارنوم من تحت أشعّة الشمس الساطعة في ذلك الصباح، والتصقت خصلات من شعره برأسه الأصلع في خطوط مبلّلة، والتمعت وجنتاه تحت حرارة الشمس وبانت حلقات ورديّة لامعة على رقبته.

لكن أموليا ابتعد عن الطريق على الرّغم من الرغبة في المشاهدة.

اختفى السائق تحت غطاء السيّارة بينما اتّخذ بارنوم مكانه من وراء عجلة القيادة لإدارة المحرّك، لكن بلا فائدة. فأحضر السائق ذراع التدوير وحشره في مقدّمة السيّارة وبدأ يديره في حين ضغط بارنوم على دوّاسة البنزين. صدرت عن المحرّك بضعة أصوات وكأنّها تتنحنح في خشونة، ولكن من دون أمل.

ترجّل بارنوم من السيّارة مرّة أخرى وحدّق في قلق إلى الطريق الخاوي. ولم تبدُ عليه أيّ علامة تشير إلى أنّه شاهد أموليا الذي سمح لنفسه أن يبتسم ابتسامة متكلّفة غير مرئيّة، وهو يعلم أنّ مكاتب المناجم تقع على بُعد بضعة أميال، وعلى الطرف الآخر من البلدة.

لكن صوتًا مفاجئًا دفع بارنوم إلى أن يرفع بصره إلى أعلى.

ممّا لا ريب فيه أنّ ثمّة وقع حوافر على مسافة بعيدة.

اختلس أموليا نظرة خاطفة إلى وجه بارنوم الذي لاحت عليه علامات الترقّب، وابتهج عندما تبيّن له أنّ الرجل شاهد مصدر الصوت: ليس صوت عربة تجرّها الخيول، بل عربة متداعية محمّلة بالآجر. وانتظر بارنوم إلى أن أفرغت العربة حمولتها، وكان الرجال يعملون في بطء تحت حرارة الشمس متظاهرين بالنعاس على طريقتهم. وكان سائق السيّارة قد أمسك عن تدوير المحرّك ووقف مترهّلاً تحت ظلّ نبتة

معترشة ذات لون برتقالي برّاق.

هرع بارنوم إلى منزله فدخله وخرج من جديد. ولم ينظر إلى أموليا، بل ألقى نظرة خاطفة قلقة إلى العمّال الذين كانوا يضيّعون الوقت سدًى وإلى الجواد النحيل الذي كان يتنفّس من داخل كيس العلف المعلّق برقبته. وفي مكان ما، تناهى إلى الأسماع صوت جرس بقرة، وكان الصوت الباعث على الارتياح يناقض وجه بارنوم المكشّر وحركاته الغضوب. وصاح في وجه العمّال: أسرعوا! أسرعوا أيّها اللوطيّون! أفرغوا صفيحة المربّى العتيقة التي لا تساوي فلسين أيّها اللوطيّون!

وفي نهاية المطاف أُفرغت العربة من حمولتها وانصرف العمّال إلى شأنهم، وتربّعوا من فوق أجزاء من بيت لم يكتمل بناؤه وأشعلوا لفافات تبغهم الرخيص وتنهّدوا عن إعياء وإنهاك. لم يهتمّ أموليا لشأن المتمارضين المتهرّبين من العمل برهة وجيزة حبًّا في تغيير الجوّ، واستبدّت به الدهشة لمرأى بارنوم وهو يبذل جهودًا جبّارة لحشر نفسه في الجهة الخلفيّة من العربة ذات الجوانب الثلاثة. وكان مضطرًّا إلى الجلوس على أرضيّتها المغبرّة حيث كان الآخر، وولّى ظهره السائق في حين تدلّت ساقاه ببنطاله وحذائه اللمّاع من العربة، مواجهًا بذلك أموليا والعمّال، ولكنّه أفلح في تفادي النظر إليهم مباشرة. وهكذا عادت العربة في بطء سالكة وجهة البلدة.

وبعد مرور بضعة أيّام، راقب أموليا عمليّة حفر أحد الآبار في بقعة قرّر أن تكون حديقة، فجاء أحد الخدم من منزل بارنوم وهتف في صوت عالٍ وسط هدير ضربات المطرقة الثقيلة والغناء العالي الذي كان العمّال ينشدونه تزامنًا مع الحفر:

ـ لقد منع الصاحب هذا العمل!

فقال أموليا محاولاً أن يفهم ما قيل له وسط الضجيج:

ـ ماذا؟

ثم صاح بالعمّال:

ـ انتظروا! توقّفوا!

ـ يقول الصاحب إنّ الضجيج ممنوع في وقت ما بعد الظهيرة، فقد وصل المنزل لتناول الغداء وأخذ قسطًا من النوم. العمل ممنوع من الساعة الواحدة وحتى الرابعة مساءً.

تبختر الخادم بسلطته البريطانيّة المستعارة ورمق أموليا بنظرة نهائيّة، ومضى في سبيله قبل أن يتلقّى ردًّا، فما كان من أموليا إلّا أن بدأ يرغي ويزبد بعد رحيل الخادم واستشاط غيظًا عقيمًا لا فائدة منه مدركًا أنّ عليه طاعة الأوامر.

وعندما انتقلوا في نهاية الأمر إلى المنزل الجديد، وسألت كانابالا في صوتٍ عالٍ يومًا ما إن كان من غير المناسب عدم زيارة الجيران مرّة واحدةً في الأقلّ، نهرها أموليا قائلاً: «لا ضرورة لذلك. يا لها من فكرة! هل نسيت أنّهم بريطانيّون؟ نحن في نظرهم لسنا سوى سكّان غابة أجلاف».

كان أموليا الهندي الوحيد الذي شيّد له بيتًا في تلك البقعة من الأرض، في البرّيّة على مقربة من مساكن عمّال المناجم ومخابئ الثعالب، وبعيدًا من زحمة السوق الرئيسة ومن قرع طبول رام نافامي وخطب الوطنيّين الرتيبة ونداءات المولى والأصوات المتنافرة المنبعثة من الأبواق في كواكب الأعراس ووميض الانفجارات في الاحتفالات بالأضواء التي تقام في عموم الهند. كان يسمع هذه الأصوات طوال النهار وهو في المعمل، كلٌّ ينتظر انتقاله بعربته اليوميّة في اتّجاه منزله

كلّ مساء. كان ينتظر تلك اللحظة المدهشة التي ينحسر فيها صراخ البلدة من خلفه لتحلّ محلّه أشجار مظلمة وسكون يردّد الصدى لا تقطعه إلّا نداءات من أعماق الغاب وشدو طيور في الغسق.

وفيما خلا اللحظة الراهنة، كانت تلك الأشهر القليلة المنصرمة ندبًا ظهرت على واجهة قناعته، إذْ بدأ يدرك أنّ الناس ينظرون إليه بوصفه غريبًا في دولغانج رود، وعلم أيضًا أنّه في حين كان حنينه إلى العزلة سببًا كافيًا له كي يبقى غريبًا، إلّا أنّ القضيّة كانت مختلفة في رأي زوجته.

* * *

كان الصمت الذي يعني إشباعًا لرغبة في نفس أموليا ينطوي على معنًى آخر عند كانابالا، إذْ وجدته جبسًا داخل ناقوس زجاجي شعرت أنّها لا تستطيع فتحه لتنشّق الهواء. وكرهت منذ البداية ذلك المنزل الفسيح وحجراته الخاوية التي تردّد الصدى والحديقة البرّيّة المترامية الأطراف حيث حفيف الأوراق وثمار العلّيق المتساقطة على العشب. وبدلاً من الرغبة في استقبال الزوّار وغياب العروض المسرحيّة والاحتفالات، وجدت أمامها رنين أجراس البقر وضربات حوافر الخيل من حين إلى حين وقرع الطبول القبليّة قرعًا شبحيًّا من أماكن نائية ونقيق مئات الضفادع بعد هطول الأمطار والأصوات المبهمة القادمة من الغابة ليلاً. أمّا في كلكتا، فقد كان منزل الأسرة يحتشد بالأطفال والعمّات والأعمام، وفي كلّ وقت ثمّة احتمال بتجاذب أطراف الحديث وأصوات ضحك قريب يبعث على الراحة والاطمئنان، فضلاً عن القيل والقال ورنين أواني المطبخ وشجار القريبات ودقّات أجراس عربات الركشة[١]

---

(١) الركشة rickshaw: عربة نقل تتّسع لشخص واحد ويجرّها شخص واحد أيضًا (المترجم).

وجلبة السوق البعيدة وصياح الباعة الجوّالين، وتمتمات ما بعد الظهر الصادرة عن حدّاد عاجز يزورهم حاملاً بعض العلب الحاوية على طرف صغيرة جديدة وميزان فضّة صغير الحجم يزنها به.

هذا، وقد دفعها السكون المردّد للأصداء إلى ثرثرة غير متوقّعة في الأشهر القليلة التي أعقبت الوصول إلى سونغاره، إنّه سكون المكان، السكون الذي كانت تستطيع أن تسمع نَفَسها وهي تتنفّس، وتسمع فيه صوت العرق يسيل أسفل وجهها وتسمع أوراق الشجر تسقط والأزهار تتفتّح.

ولكن لم يكن لديها من تكلّمه، فالمنطقة لا تضمّ سكّانًا من غير البريطانيّين، ولكن حتى لو كان ثمّة سكّان في الجوار فإنّ كانابالا التي لا تتكلّم إلّا باللغة البنغاليّة لا تمتلك لغة تكلّمهم بها. ثمّة ثلاثة خدم بنغاليّين جاؤوا وإيّاهم من كلكتا. وكان من بينهم خادمة تمسّد رأس كانابالا من بعد ظهر كلّ يوم ما يبعث على النعاس. وكانت كانابالا تثرثر مع الخادمة ثرثرة لا حدود لها، ولم تتوقّف إلّا عندما استرقت السمع ذات يوم لتجد الخادمة والبستاني يضحكان ضحكًا مكبوتًا على شيء تفوّهت هي به. وبعد هذه الحادثة بدأت تنتظر عودة أموليا من العمل.. وفي اللحظة التي كانت قد سمعت فيها صوت البوّابة وهي تُفتح هبطت السلالم مسرعة لتطلب من الخدم إعداد الشاي له، ثم اندفعت نحو البوّابة لتبدأ هلوستها: «ماذا حدث اليوم؟ هل وصلت أيّ رسائل من الأهل؟ ماذا تظنّنا سنأكل في وجبة العشاء؟ أتدري ما قاله غورانغا لأنوبها اليوم عندما كانت تغسل الثياب؟».

وهكذا دواليك، إلى أن أتى اليوم الذي كان فيه أموليا شديد التذمّر، فصاح في وجهها: «اتركيني وشأني! ألا تستطيعين تركي وشأني برهة وجيزة من الزمان؟ برهة وجيزة لا أكثر!

بدا وكأنّه قد نسي في تلك الليلة ما كان قد قاله لها عندما داعب شعرها وجذبها إلى صدره. أمّا هي فقاومته وأشاحت بوجهها جانبًا كي لا يقبّلها على شفتيها. كانت تشعر بالامتعاض وتتلوّى ألمًا في أعماقها بسبب عبارته، اتركيني وشأني! وفي اليوم التالي كانت منكسرة الخاطر، ولم تعد كما كانت، وتملّكها إحساس أنّها لا تستطيع لملمة أفكارها في كلمات مفيدة. وفي سكون ما بعد الظهيرة، أخرجت المفاتيح القديمة التي احتفظت بها بدافع الأمل والارتباط، المفاتيح الخاصّة بغرف كلكتا غير المستعملة وضغطت عليها في قوّة، وسارت نحو البئر وتوقّفت وتنهّدت تنهيدة عميقة ورمت بها إلى أعماق الماء الحالك السواد.

* * *

مرّت الأعوام مرورًا أسرع من ذي قبل على أثر تلك الحادثة. وتزوّج ابنهما البكر كمال، في حين اجتاز الابن الأصغر نرمال تلك العتبة الحرجة التي تقف بين الغلام والرجل، واكتسب قوامها الصغير انتفاخات غير مريحة نتيجة التقدّم في السنّ. كان ينبغي لها أن تكون قاب قوسين أو أدنى من الرضا والقناعة، ولكنّ الثرثرة اليوم، وبعد مرور عشرين سنة على هجرتهم إلى بلدة سونغاره، بدأت تحاصرها من جديد، مهدّدة بتحطيم الحواجز التي وضعتها لصدّها.

بات أموليا يقضي أوقاتًا أطول فأطول في المعمل، وكان في هذه الأيّام يغادر البيت في وقت مبكر من الصباح ولا يعود أدراجه إلّا في جنح الظلام. وكان كثير الشكوى والتذمّر من المنافسة الشديدة التي يلجأ إليها المقلّدون والشحّة الصغيرة في تجهيز الدكاكين ومن وجود الآخر الذي سوف يعوّض عنه.

وفي ليلة من الليالي سألته بعد أن استلقيا على السرير:

ـ ومع ذلك، ألم يكن في وسعك الرجوع إلى البيت في وقت مبكر من المساء؟

فقال أموليا:

ـ لا تكوني غبيّة يا كانان، فأنا لا أستمتع بالتسكّع، فثمّة عمل ينبغي إنجازه. فمن أين ستأتي النقود عندما تضطرّين إلى إرسال خمسة وعشرين ثوب ساري إلى أسرتك لأداء شعائر الصلاة القادمة؟

تلعثمت كاناباﻻ قائلة:

ـ لم أكن أعني ذلك. كنت أتذكّر لا غير أنّنا جئنا إلى هنا أوّل مرّة، وأنّك كنت تعود إلى البيت فنجلس بجانب النافذة نحتسي الشاي في كلّ مساء.

قال أموليا مستلقيًا على جنبه:

ـ مرّت عشرون سنة على ذلك الشاي. وكان المعمل وقتئذٍ صغيرًا، والعمل قليلاً.

فتنهّدت وقالت:

ـ أشعر بالفراغ، فهذا نرمال في الكلّيّة وكمال يعمل وإيّاك طوال النهار. لا أعني أنّ الأبناء هم رفقة الأمّهات. ولكنّني أتمنّى لو أنّني رزقت بابنة.

فقال أموليا وقد كتمت الوسادة أنفاسه:

ـ لو كانت لك ابنة لكانت الآن في صحبة زوجها ولا تمسك بيدك. لماذا لا تكلّمين زوجة ابنك؟ فلدى مانجولا كلام كثير.

ـ ليس الأمر كذلك.

انتظرت منه ردًّا، ثم لمّت أطراف شجاعتها وقالت:

ـ الأفضل العيش في كلكتا حيث يقطن أفراد أسرتي، والبيت مفعم بالحياة طوال الوقت.

ثم توقّفت عن الكلام بعد أن شعرت بكلّ الشكوك القديمة وقد عادت إليها وهي تسمع صوتها. أمّا أموليا، فقد ابتسم وقال:

ـ لو كنتِ مسؤولة لما كان ثمّة أميركا ولا أستراليا، ولما استقلّ الناس السفن والبواخر وسافروا إلى أصقاع نائية ولكانوا قد اكتفوا بالجلوس في أحضان أمّهاتهم طوال حياتهم. انتظري وسوف ترين. فبعد سنوات معدودة، ستجدين الناس في مدينتك كلكتا وقد احتشدوا في هذه المنطقة.

غاص أموليا أكثر من ذي قبل في دثاره وتنفّس هواء تلك الليلة البارد، ومدَّ أصابع قدميه الدافئة.

لكن كانابالا استرسلت، هامسة إلى حدٍّ ما:

ـ لماذا لم تسألني قبل أن ننتقل إلى هذه البلدة؟ لماذا لم تخبرني عن بناء هذا المنزل؟ كنت أودّ أن أكون بالقرب من أقربائي. ألم تفكّر في ذلك؟

كانت كانابالا قد تفوّهت بمثل هذا الكلام مرّات ومرّات من قبل، وأرادت أن تكفّ عن المضيّ فيه ولكنّها لم تستطع. فهمست في عمق الليل باتّجاه أموليا.

ـ أأنت نائم؟ هل سمعت تلك البومة؟

ولكنّها سمعت شخيرًا خفيفًا ثم تنهيدة.

كان الصرير والحفيف ينبعث في تلك الليلة. وحمل الليل إليها صوت ثعلب، فتردّدت أصداء ثعالب أخرى جوابًا فتضاعف عدد

الأصوات على امتداد الغاب والمزارع وتشكّلت دوائر من الصوت من حول المنزل. كانت الثعالب قد أصبحت الآن رفيقة ليالي سهرها الطويل، وتذكّرت كيف حدّق كلّ فرد إلى أموليا عندما صرَّح لهم برغبته في العيش في بلدة سونغاره، غير مصدّقين، في حين ضحك والد كانابالا وقال: «كلّ ما سوف تسمع من أصوات هو صوت الثعالب يا أموليا». أرادت أن تخبر أبيها لاحقًا أنّ الأصوات لن تكون أصوات ثعالب فحسب. ففي ساعات سهرها وحيدة، كانت تحدّق من خارج النافذة عندما تناهى إلى مسامعها زئير اعتقدت أنّه زئير أسد يتردّد صداه في الغابة.

كان زئير الأسد سرًّا لم تتمكّن من إطلاع أحد عليه. فقد كان الآخرون نيامًا، غافلين عن يقظة الغاب المفعمة بالحياة. وشعرت أحيانًا أنّها كانت تنظر إلى المنزل من الخارج نظرة شبيهة بنظرة ابن آوى المحسوبة والمجرّدة أو أقرب من ذلك، إلى النوافذ وإلى طائر يمرق وسط الليل كأنّه بومة، فتجد زوجها مستلقيًا على السرير في حجرة نومهما، بينما كان كمال وزوجته ينام أحدهما في حضن الآخر في ركن من أركان سريرهما المزدوج. أمّا نرمال فكان نائمًا في غرفته العلويّة فاغرًا فاه، مخفيًا سيكارته في درج اعتقد أنّ أحدًا لا يعرف به. ولم تتوقّف إلّا برهة وجيزة من الزمان عند نافذة غرفة نرمال، ولكنّها أسرعت وابتعدت، فاهتزّ المنزل بحركتها.

يومًا ما تمنّت لو أنّها اختفت عن الأنظار بين الأشجار من دون أن يعثر عليها أحد مرّة أخرى.

وهمست كانابالا في خضمّ الظلمة الحالكة:

ـ أشعر أنّني وحيدة في هذا المكان.

ولكنّها شعرت بالارتباك لمّا سمعت صوتها، فالتفتت لتحدّق إلى النافذة الطويلة المجاورة للسرير التي كانت تؤطّر شجرة يستخرج منها المسواك وينيرها ضوء القمر وتبدو غائمة من خلل الكلّة.

* * *

كان العام هو ١٩٢٧ والوقت هو باكورة يوم من أيّام الصيف. .

وكدأبه، استيقظ أموليا من نومه في الساعة الرابعة والنصف وغادر المنزل ليتمشّى في العتمة قبل أن يستيقظ أيّ فرد آخر. هكذا كان حاله منذ أن جاء إلى سونغاره ـ وإن كان يتذكّر أنّه لم يرغب قط في رفع رأسه من فوق الوسادة عندما كان في كلكتا ـ كان كلّ شيء وحيدًا في ذلك الوقت: الغابة والهواء العليل والسماء البنفسجيّة. رنا إلى المرتفعات المنخفضة الممتدّة إلى ما وراء الخرائب، فرآها أوّل الأمر أكمة ذات ظلال قبل أن تكشف من بعد ذلك عن قمم الأشجار المدبّبة الحالكة السواد على امتداد محورها، بينما مالت السماء إلى الشحوب من خلفها وهي تتهيّأ لاستقبال الشمس. في وقت ما، لم تكن تشبه أيّ مرتفعات أو سلسلة تلال أو أكمة وإنّما بقيّة باقية من حيوان ما قبل التاريخ لم يتمكّن من رؤيته إلّا وحده. وفي حين ازداد بياض السماء، رجع ليحتسي كوبه من الشاي الحارّ بلون القشّ ويأكل قطعتين من الخبز المحمّص المدهون بالزبدة. وفي الساعة الثامنة والنصف كان قد غادر المنزل مستقلًّا عربة يجرّها جواد واحد، ومن شأنه أن يصل مكان عمله قبل ساعة من وصول أيّ شخص آخر، فيلقي نظرة على الحسابات والمعمل بعيدًا عن عيون الآخرين.

لكنّه ما كاد يترجّل من العربة في صباح ذلك اليوم حتى قفز رجل من المجهول ورمى بنفسه على التراب وأمسك بأحد كاحلي أموليا وكأنّها حافّة هاوية. حاول أموليا أن يجذب قدمه بعيدًا وشعر أنّ أحد

جوربيه السوداوين بدأ يرتخي من حول ربلة ساقه، فنظر إلى أسفل، في اتّجاه مؤخّر رأس الرجل، ولكنّه لم يستدلّ على هويّة الرجل حتى بعد أن رفع هذا الأخير رأسه من فوق حذاء أموليا الجلدي الأسود الخفيف.

قال أموليا في حدّة:

ـ دعني أذهب أيّها الأب، دعني أذهب أرجوك. ما خطبك؟ ألا يمكنك النهوض من هذا المكان؟

ـ أنت أبي وأمّي أيّها الصاحب. أنت كلّ ما أملك في هذا العالم! ليس لديّ سواك!

ظنّ أموليا أنّه استدل على الرجل أخيرًا من سماعه صوته، وإن كان مشوبًا بالبكاء والاضطراب. فقبل بضعة أيّام لا أكثر، كان قد سمع هذا الصوت نفسه عندما دخل غرفة تعبئة القناني، يقول ضاحكًا: «إنّ ابن الزنى العجوز لم يأت ليدسّ أنفه هنا اليوم. أتظنّه قد مات؟».

كان الرجل المتكلّم يحكّ جسده من تحت قميصه الطويل. فردّ عليه زميله وقتئذٍ:

ـ هؤلاء الضعفاء النحيلون سوف يعيشون إلى الأبد.

فضحك الرجل الأوّل وقال:

ـ وعندئذٍ سنعيش مئة عام.

ثم توقّف عن الكلام لمّا شاهد أموليا يدخل. ولم يبتسم أموليا، فقد كان يجد صعوبة في تحقيق أيّ نوع من أنواع الألفة مع عمّاله. يستحيل أن يقول: «آه يا رامشاران، كيف حال ولدك؟ أما زالت زوجتك بعيدة في قريتها؟ هل أنت متأكّد من أنّك لا تطارد الفتيات الحسناوات بعد أن ولّتك ظهرها؟

جذب أموليا قدمه من بين يدي رامشاران، وقال في صوت جافّ ومقتضب:

ـ ما خطبك يا رامشاران؟ كفّ عن هذا البكاء والعويل!

ثم أدخل مفاتيحه البرونزيّة واحدًا تلو الآخر في ثقوب الأقفال الثلاثة المثبتة على باب المعمل، ودخل وعلّق مظلّته على مشجبها الاعتيادي والتفت إلى رامشاران وتنبّه أوّل مرّة أنّه ليس بمفرده معه.

ثمّة امرأة واقفة على بعد مسافة قصيرة من الباب، يزيّن بشرتها السوداء اللون الأصفر القذر لرداء الساري العتيق الذي ترتديه، بينما انتشر شعرها الذي لوّحته الشمس من تحت عقدته. كانت رشيقة القدّ وفي مقتبل العمر، أكبر سنًّا قليلاً من فتاة مراهقة ويفترّ ثغرها عن ابتسامة بدأت تفقد رونقها عندما نظر أموليا في اتّجاهها. واستدلّ على شخصيّتها، فهو لا يمكن له أن ينسى وجه الفتاة التي أعطته زهرة الحبّ البنفسجيّة بعد أن انتزعتها من فوق شعرها أثناء رقصة الحصاد في قريتها قبل عامين. ولكن أين الحيويّة التي تذكّرها وألق وجهها ذي الغمّازتين وضحكتها المشاكسة؟ للمرأة مظهر ينمّ عن جوع شديد مثل مظهر إناث الكلاب السائبات المتضوّرات جوعًا وهنّ يطعمن صغارهنّ. كانت تحمل صرّة بين ذراعيها على نحو فاتر الهمّة جعل أموليا يظنّ أنّها سوف تسقط بين دقيقة وأخرى. وعندما تحرّكت الصرَّة، أدرك أنّ فيها طفلاً.

ـ إنّها تقول أيّها الصاحب إنّ ولدي هو الذي تسبّب في حملها وقد وصلت إلى هنا في هذا الصباح حاملة هذا الطفل... لا يمكن أن تكون صادقة... فولدي متزوّج، وهو رجل صالح، ولديه أبناء من صلبه ولكن الجبان لم يخرج من بيتنا كي يرمي بها خارجًا... ما الذي ينبغي لي أن أفعله أيّها الصاحبْ؟ فإذا عدت بها إلى الغابة فسوف يذبحنا سكّانها

بالمناجل لهذا السبب... وسوف يعاقبونها بالحرمان لخروجها مع رجل غريب... وهي تردّد أنّ علينا أن نهتمّ بشأن الطفل، ولكن ماذا نفعل أيّها الصاحب، فنحن فقراء ولدينا ثمانية أفواه نطعمها بمرتّب واحد. ثم ما الذي سيقوله الأقرباء عنّا؟

ارتفعت نبرة صوت رامشاران أكثر فأكثر حتى قال أموليا:

ـ اهدأ! اهدأ.

جلس رامشاران على عجيزته في أحد أركان الحجرة ودفن وجهه بين ركبتيه، وبدأ يئنّ ويتأوّه:

ـ سوف يقتلوننا... سوف يقتلوننا كلّنا إذا ما أعدنا الطفل إليهم.

قلَّب أموليا دفتر الطلبات الواردة ومفكّرته، وقرّر أن ينهي يومه بعد أن تبيّن له عدم فائدة البقاء، فدوَّن بعض التعليمات لمحاسبه. وبعد أن حشرت المرأة ورامشاران نفسيهما إلى جانب سائق العربة في المقدّمة، جلس هو في المقعد الخلفي يراقب الطريق الذي بدأ يفسح المجال بظهور المزارع والأرض ذات الشجيرات الخفيضة، واتّجهوا جميعًا إلى إرساليّة ملجأ الأيتام النصرانيّة الواقعة خلف حدود بلدة سونغاره.

عاد في ذلك المساء إلى البيت بعد الغسق واستحمّ كي يتخلّص من عرق نهار بطوله، ساكبًا الماء مرّات ومرّات على جسده النحيف البنّي اللون وهو يتنهّد في ارتياح. ثم خرج من الحمّام مرتديًا مئزرًا ناعم الملمس وقميصًا طويلاً، وشعر أنّ شيئًا ما في أعماقه أخذ يتجلّى للعيان في آخر الأمر. كان يعرف أنّ زوجة ابنه لا بدّ وأن تركت كوب شاي كبير الحجم ومقدارًا من الطعام. فجلس يأكل وحيدًا يحدّق إلى نهاية الحجرة التي يزيّنها من جهة الشرق شبّاك ملوّن الزجاج يمتدّ على طولها. هكذا شاء أن يكون موضع الشبّاك. كان يتحلّق من حول طاولة

مستديرة يزيّن كلّ رِجل من أرجلها مخالب أسد برونزيّة، طاولة كان قد اشتراها من مزاد. بينما كان يمضغ الطعام، شعر أنّ العقدة في داخله بدأت تتراخى، والقلق من أحداث النهار يتلاشى.

وبعد أن أفرغ كوبه في جوفه، تجوّل في الحديقة، فشاهد أنّ البقعة التي كانت مزروعة بالشوك والسبانخ البرّي قد تحوّلت الآن إلى بساط من عشب ناعم. وكانت حديقة المطبخ معتمة بسبب براعم فاكهة بلون الزيتون متدلّية على جانبي الأشجار الباسقة. كما تجمّعت ثمار جوز الهند الخضر إلى أعلى، وفي بعض الأحيان، كانت الضوضاء المنبعثة من سقوطها على الأرض تفجّر سكينة ما بعد الظهر. وكانت الشجيرات صغيرة عندما زُرعت، يصعب معها تخيّل أغصانها الصغيرة ذات الأربع أو الخمس أوراق تختزن طاقة كي تنمو إلى ارتفاع يبلغ الثلاثين قدمًا. أمّا أغصانها فكانت تحتكّ بعضها ببعض للحصول على فسحة من المكان، في حين كانت تصعب رؤية السماء من خلل مظلّة الأوراق في الأعالي.

وتحت ظلال هذه الأشجار ثمّة كرسي هزّاز منخفض، وكان أموليا قد جاء إلى هذه البقعة في ذلك المساء، كما في كلّ مساء، بعد أن طاف في جميع أنحاء الحديقة. وكان من دأبه أن يتفحّص الأشجار واحدة تلو الأخرى ويلقي نظرة على كلّ برعم جديد، وكلّ شتلة مصفرّة تخلّت عن محاولة النموّ، وكلّ فسيلة بدأت ترفع من رأسها. كان أموليا ينظر إليها في رقّة، ويرغب في تمسيدها والتربيت عليها وكأنّها حيوانات صغيرة. لقد تمكّن من إنشاء حديقة في مكان قفر، وقلع الأعشاب الضارّة وزرع عوضًا عنها أشجار الفاكهة، والشجيرات المزهرة والنباتات المتسلّقة، ولكنّه لم يكن عشوائيًا في عمله، إذْ كان يأنف من لون أشجار الكاشنار الوردي الصارخ والبرتقالي، وزرع عوضًا عنها زهورًا تتألّق بالبياض في الظلمة وتعطّر الليل بأريجها، وكان رضوخه الوحيد في اللون هو

الأعشاب الواطئة لنبتة أمس واليوم وغدًا التي عثر عليها في صعوبة شديدة، وكانت تتحوّل من اللون البنفسجي إلى اللون الأبيض تقريبًا في غضون ثلاثة أيّام فيفوح في الجوّ عطرها. أمّا بقيّة الحديقة فكانت بيضاء صافية: زهور المنغوليا ذات التويجات بلون الكريمة من على أوراق خضر لامعة، وزهور الياسمين الزكيّة الرائحة وزهور آلهة كانابالا. كان ثمّة عدد قليل من ورد الغاردينيا والشيفاليك التي تسمح بتدفّق عبيرها، والورود العطرة ذات الجذوع البرتقاليّة. غير أنّ ذلك الظهور القصير للون من تحت التويجات البيض كان مقبولاً بوصفه نوعًا من أنواع الشعر. وكان قد ثبّت على السور نبتة ليليّة قيل إنّها تؤوي الأفاعي، ولكن أموليا كان على استعداد للتعرّض لخطر سمّها لقاء العبير المنبعث من زهورها البيض.

ولكن أموليا أخفق في ذلك المساء في ملاحظة أنّ البراعم على الغاندهارج بدأت تتفتّح، وأنّ المانغو سرعان ما ستتحوّل إلى زهرة. لم يكن قادرًا على التفكير في شيء سوى ذلك الطفل غير الشرعي الملتفّ داخل ساري ممزّق بنّي اللون، وفي أمّه التي أوقفته عن البكاء بعد أن لفّته بردائها الساري من حوله وألقمته ثديها في سهولة جعلته يبدو وليد أسابيع وليس أيّامًا من الرضاعة. كانت امرأة تدعو إلى الرثاء، ناعسة إلى حدٍّ ما حتى جاء الوقت لمفارقته. ثم بدأت سلسلة من الشهقات والنشيج العالي استمرّت طوال الرحلة بالعربة من ملجأ الأيتام البعيد حتى البلدة. والآن، وبعد مرور ساعات، ما يزال يسمع نشيجها وليس نداء الطيور في الغسق. حدّق في رزانة إلى الطريق بينما كان رامشاران يهمس: «كفّي عن البكاء أيّتها المرأة الغبيّة!» في حين لم يتكلّم سائق العربة طوال الطريق إلاّ مع حصانه، وكأنّه غافل عن ركّابه أو يستهجن مشوارهم الآثم.

وقال أموليا محدّثًا نفسه: ينبغي لي أن أرعى الطفل. ثم جلس على

مصطبة في الحديقة وأخرج غليونه وفتّش في جيبه عن علبة ثقاب. ليس ثمّة طريق آخر. الأجور. . . الأفضل أن يتذكّر أخبار الدائرة عن دفع المال لملجأ الأيتام في الوقت المحدّد. ثم تساءل إن كان في حاجة إلى إضافة موضوع الأجور إلى وصيّة على أن ينصّ على ضرورة الدفع ما دام الحال يقتضي ذلك. وفكّر أنّه يستحسن القيام بذلك. لا ضرورة لإخبار أيّ فرد في البيت عن الطفل، ولا حتى كمال. لا ضرورة لأن يواجهوا شيئًا بغيضًا.

كان في وسع كانابالا أن تشاهد من شرفة الطبقة العليا من المنزل بياض قميصه القطني وقد تغيّر لونه بفعل ألوان المساء المتلاشية. ولم تكن قد عكّرت عليه وحدته المسائيّة في الحديقة ولكنّها اتّجهت إليه في ذلك اليوم مدفوعة بحافز قويّ لم تعرف كنهه، وسارت حافية القدمين من فوق العشب. لم يشاهدها وهي تتقدّم نحوه. وعندما وقفت أمامه وسألت:

ـ بم تفكّر؟

رفع بصره إليها وكأنّه ذهل بسبب حضورها. استغرق لحظة كي يركّز في وجهها، وكانت عيناه فزعتين وكأنّه ينظر إلى إنسان غريب. ثم ردّ عليها:

ـ آه، أهذه أنت؟ ماذا؟

ولمّا لم تقل شيئًا يُذكر، عاد للتفكير في الترتيبات الماليّة من أجل اليتيم. . يسحب الأنفاس من غليونه وهو يتخيّل أعمدة دفتر حسابه المصرفي.

مكثت كانابالا في مكانها دقيقة أو دقيقتين ثم استدارت لتعود أدراجها إلى المنزل راغبة في أن يناديها أموليا، ولكنّها لم تتوقّع ذلك

منه إلّا قليلاً. لم ينادِها. فنظرت من ورائها مرّة واحدة إلى قوامه الهادئ الجالس على شكل زاوية مثل ظلّ على مصطبة الحديقة، من دون أن يتنبّه لها. وفكّرت أنّه يبدو مثل شجرة من أشجاره، وابتعدت. وأضحت المئات القليلة من الأقدام التي تفصل شرفة الطبقة العليا عن مصطبة الحديقة مسافة شاسعة يستحيل عبورها.

* * *

في شهر تشرين الأوّل من ذلك العام، حلّ أوّل الضيوف على المنزل بعد فاصل زمني استغرق سبع سنوات. لقد جاء أقرباء يزورونهم من كلكتا لقضاء إجازة، وهم ابن عمّ أموليا وزوجته وثلاثة أطفال. ولم تكن كانابالا معتادة على الزوّار لذلك أنفقت شهر أيلول برمّته استعدادًا لوصولهم، وكانت متوتّرة أكثر ممّا هي متشوّقة، وأدركت أنّها لا تستطيع البوح بذلك لأيّ شخص، وكان أموليا يقول لها:

ـ أنتِ دائمة التذمّر. تقولين إنك وحيدة، وعندما يحضر الزوّار تقولين إنّك لا ترغبين في مجيئهم.

لهذا السبب شكت كانابالا أمرها لنفسها، ووجدت مرّة تلو الأخرى عزاءً في الحديث إلى نفسها. واكتشفت أنّ في وسعها أن تصبح من دون بذل أيّ جهد شخصين اثنين، وأن تتجاذب أطراف الحديث الذي يستمرّ أحيانًا طول ما بعد الظهيرة.

ثم هناك قلق آخر. فقد حضر الأقرباء حاملين اقتراحًا بالزواج. لقد بلغ نرمال الآن الرابعة والعشرين من عمره، وحصل على وظيفة له في مدرسة البلدة لتدريس التاريخ. صحيح أنّ المرتّب لم يكن جيّدًا ولكنّ المدرسة حكوميّة، فضلاً عن أنّه ابن رجل ثري إلى حدٍّ معقول ممّا يجعله عريسًا مقبولاً.

ـ لماذا تؤجّل شيئًا يتطلّب العمل الآن؟ لقد كبر بما يكفي، فماذا تنتظر؟ اسمع يا أموليا: يصعب اليوم العثور على فتيات لطيفات وخجولات مثلما يصعب...

كان قريب أموليا يلتقط قطعة السمك من طبقه، وأضاف:

ـ العثور على سمك نهري لذيذ وطازج في سونغاره!

ثم ضحك لهذه النكتة التي أطلقها، ولكنّه أوضح بنبرة استرضائيّة عندما لم يجد أيّ ابتسامة ردًا على كلامه:

ـ إنّ الطعام الذي تطهوه زوجة أخي مدهش، ولكن ما عساك تفعل إزاء السمك الذي تحصل عليه هنا؟ إنّه ببساطة ليس شبيهًا بالسمك الذي...

فقال أموليا محاولاً ألّا يبدو نكدًا، سريع الغضب:

ـ نعم، ليس شبيهًا بالسمك الذي تحصل عليه من نهر الغانج.

كانت الزيارة توشك أن تنتهي، وكان قد سمع الملاحظات عن السمك بضع مرّات.

ـ هل تتذكّر ابنة أخت نهار ـ هل تتذكّرها؟

ـ أتذكّرها.

ـ حسنًا، إنّ اسمها شانتي أو مالاتي؟ ـ نعم، شانتي ـ إنّها في السادسة عشرة، وتناهى إلى سمعي أنّها فتاة لطيفة تحبّ البيت. وقد التقيتها قبل بضع سنوات وكانت فتاة جميلة. أمّا البيت الذي يملكه والدها فهو بيت رائع، يقع على ضفّة النهر. جميل. إنّها أسرة ثريّة طيّبة من طبقتنا الاجتماعيّة نفسها. لم يكن في وسع نرمال أن يختار أفضل منها... صلصة الطماط لذيذة. لا أظنّ ثمّة صلصة أفضل منها.

قال أموليا:

ـ إنّها مصنوعة من ثمار المانجو الخضراء التي تزرع في كلكتا. نعم، إنّني موافق.

بدأ القريب مرتبكًا قليلاً وإنْ لبرهة وجيزة من الزمان. واستأنف كلامه:

ـ إن شئت، فسوف أعود وأجري بعض التحرّيات. ما رأيك؟ وسوف أكتب إليك بعد أن أتبيّن رأيهم، وبعدئذٍ يصبح في وسع نرمال الذهاب لرؤية الفتاة. يمكنني الذهاب وإيّاه، فالزواج هو زواج نرمال في كلّ الأحوال!!

احتسى القريب قدحًا من الماء في قناعة واضحة ونهض.

في وقت متأخّر من ذلك المساء قالت زوجة قريب أموليا، وهي تلتقط فطيرة مقليّة ومحشوّة باللحم والخضروات والبهارات وتلتهم لقمة منها:

ـ لكن هذا المكان الذي تعيشون فيه... لا أدري، أعتقد أنّني لا أقوى على السكن في هذه المنطقة، أعني في سونغاره. نعم، أعرف أنّ البلدة نظيفة وكثيرة الضوضاء. لكنّ الازدحام والضوضاء يجعلانني أنبض بالحياة! المكان صامت إلى أبعد الحدود هنا. أحيانًا أظنّ أنّني أصبت بالصمم.

وهنا نظرت المرأة في اتّجاه كانابالا وأضافت:

ـ ولا أظنّ هذا المكان يفيدكِ أيضًا.

ردَّت كانابالا في سرعة لتتفادى تحليل صمتها المنطوي على مخاطر:

ـ ماذا في وسعي أن أقول؟ أعرف أنّ في وسعكِ شراء هذه الفطائر

من المحلّات في كلّ مكان من كلكتا الآن، ولكن ليس في هذه المنطقة. وفي شيام بازار يمكنني أن أرسل شخصًا ما إلى نهاية الزقاق ليشتري ما يكفي لإقامة مأدبة من دكاكين الحلويات. أمّا هنا، فأنا أعدّ المانجولا.

قالت المرأة عن رضًى:

ـ آه، حسنًا. إنّها لذيذة، كما أنّ المأكولات البيتيّة أفضل على الدوام. صحيح؟ سأخبرك أنّ في مستطاعنا أن نشتري كلّ شيء، ولكن فاجني شقيقك وهو يوافق على أكل فطيرة أو شريحة لحم من أحد المحلّات. يمكنه أن يشمّ رائحة الطعام البائت من على بعد ميل.

شعرت كانابالا بالارتباك، فقد كان كلام المرأة ينطوي على إسكاتها وإطرائها في الوقت نفسه. نهضت ونفضت رداءها ونادت من أعلى السلالم باتّجاه المطبخ:

ـ مانجولا! هات بعض الفطائر إن كنت قد فرغت من القلي.

مرَّ اثنا عشر يومًا منذ أن جاء الزوّار الذين صرّحوا أنّ آثار سونغاره لا يمكن مقارنتها بنصب ڤكتوريا التذكاري في كلكتا، ولا مقارنة الغابة بحدائق النباتات العظيمة. وأمّا سلسلة المرتفعات، فهي تحتاج إلى مشقّة وجهد للوصول إليها. وفي متجر فينلايز، فقد ضحكوا على ما فيه من بضاعة ريفيّة. وكان قريب أموليا قد سأل زوجته: ما الذي يمكن لهذا المتجر أن يقول لهوغ ماركت. هه؟

ثم قال للفتى البائع الذي بانت عليه الحيرة: ألم تسمع قطّ بجبنة باندل؟ جبنة باندل؟ جبنة بـ ـ ا ـ ن ـ د ـ ل؟ لا؟

وسرعان ما وجدوا أنفسهم من دون شيء يفعلونه، وأمضوا الإجازة محتجزين في دولغانج رود، واستهلكوا أيضًا كلّ ما لديهم من قيل وقال

عن أقربائهم. وبعد أن واجهت كانابالا سأم الزوّار واستنكافهم، بدأت تحنّ إلى العزلة التي اتّصفت بها حياتها اليوميّة.

انتهى الأسبوعان، وحان وقت سفر الزوّار. وجرى استدعاء عربتين في حدود الساعة الرابعة، وتقرّر أن يذهب أموليا وكمال إلى المحطّة في صحبة خادم يحمل سلّة طعام استعدادًا لرحلة الليل.. وكانت تحتوي على عشاء وفطور فضلاً عن دورق فخّاري يحوي ماءً باردًا. وساد بعض الارتباك عندما علموا أنّ أحد الجياد أعرج، فما كان من الخادم إلّا أن استقلّ العربة الأخرى ليأتي بعربة ثالثة. وأثناء الانتظار، قال قريب أموليا مخاطبًا كانابالا:

ـ سوف أرسل لك صورة الفتاة حالما أصل كلكتا، وأنا على ثقة أنّها ستروقك ـ إنّني على دراية ببيتك وسوف تكون البنت كنَّةً رائعة. إنّ اسمها شانتي، وأنا واثق أنّها تغنّي جيّدًا وتطبخ جيّدًا وأنّها عاشت حياة منعزلة عن الناس دومًا. لهذا فهي مدلّلة، ولا تشبه فتيات كلكتا. أمّا بخصوص هذا الفتى الطائش...

ثم قهقه مشيرًا إلى نرمال الذي وقف ينظر إلى الطريق الخالي متمنّيًا ظهور العربة، واستأنف كلامه:

ـ فهو بحاجة إلى من يجعله مستقلًّا. سوف أعدّ كلّ الترتيبات!

عادت كانابالا إلى الطبقة العليا بعد رحيل العربات ووقفت عند النافذة، تلوح عليها البقيّة الباقية من ابتسامة الوداع. وبينما هي تلتفت، فإذا بها تشاهد نفسها على واجهة خزانة الثياب الأماميّة اللامعة المصنوعة من خشب الساج. كان رأسها لامرئيًّا، مفقودًا في النقوش المعقّدة التي تبدأ من منتصف أبواب الخزانة وصعودًا إلى أعلى. كان جسدها يبدو من دون الرأس مثل جسد شخص غريب، ومضحك بسبب

الانتفاخات؛ انتفاخ كبير، لا، بل أشبه بتلّ في منطقة الصدر، وتقوّس بصلي الشكل في منطقة المعدة، ثم تداعي الساقين من تحت الساري القطني.

التفتت كانابالا إلى المرآة بجانب الخزانة. متى استقرّ هذا اللغد في هذه المنطقة؟ متى ظهرت هاتان الشعرتان على ذقنها؟ متى تحوّل لون بشرتها إلى لون تبغ زوجها؟ حدّقت إلى انعكاس صورتها وشعرت أنّها لا تقوى على التنفّس وحنجرتها آخذة بالانكماش والتقلّص.

* * *

وكما هو مألوف من كلّ الزوّار، فقد أبدى زوّارهم ملاحظات مفصّلة عن مظهرهم. فتراهم يقولون من جهة:

- لقد ازداد وزنك الآن يا كمال، وأصبح لديك كرش. إنّها أوّل علامات الثروة وراحة البال.

ومن جهة أخرى يقولون:

- يا إلهي! لقد اسودَّت بشرتك يا أموليا اسودادًا حتى باتت رؤيتك صعبة في الظلام!

لكن تعليقهم على زوجته هو الذي أثار حفيظة أموليا، فقد تناهى إلى سمعه صوت زوجة قريبه وهي تقول لكانابالا:

- لقد سمعت من هنا وهناك يا أختي الكبيرة أنّ صحّتك ليست على ما يرام... لكن انظري إلى شكلك! يبدو أنّ عمرك مئة سنة وليس خمسين! صحيح أنّ بشرتك دكناء دومًا، وتفتقرين إلى لون بشرة والدتك الأبيض، ولكن انظري إلى نفسك! فهذه بشرتك أشبه ما تكون بقطعة جلد يابسة، وهل هذه فروة رأسك التي أشاهدها من خلل شعرك. أعرف

أنّ الماء في سونغاره رديء النوعيّة، فأنا يمكنني أن أشاهد نصف شعر رأسي وقد تساقط في غضون أسبوعين قضيتهما في هذه البلدة! تعالي معي إلى كلكتا وسوف أعتني بكِ. حقًّا. تدليك بالزيت، كريمة ودقيق لوجهك، والاستحمام بماء الورد... وعندما أُعيدك ثانية، فسوف يظنّ الأب أموليا أنّك عروسة جديدة!

تذكّر أموليا زمنًا كانت فيه كانابالا صغيرة وجميلة، شعرها الجعد يرفض الانسياب، وذات عينين برّاقتين بأجفان سميكة، وتستخدم الكحل صباحًا ومساءً. وكانت تتسابق في صعود السلالم في شيام بازار ـ تلك السلالم القديمة الطراز والشديدة الانحدار، المظلمة والمتموّجة. كانت تندفع مرتقية السلالم كلّ درجتين مرّة واحدة وهي تحمل أطباق الطعام، وفي إحدى المرّات حملت آلة أرغن أيضًا، فقد كانت لا تطيق صبرًا على الخدم كي ينجزوا أعمالهم. وتتذكّر زمنًا كانت تخطو فيه إلى سطح البيت الأدنى لتراه وهو يسير في نهاية الزقاق الضيّق ويتّجه نحو البيت وتسأله على أثر وصوله مباشرة: هل تذكّرت أن تشتري لي المخرّمات؟

والآن؟ اضطرّ إلى أن يهضم تعليقات أقربائه في لمح البصر، ولكن كان في وسعه سماعها ترنّ في رأسه على مدى أيّام بعد رحيلهم. وأدرك أنّه لاحظ في الشهرين الماضيين التغيّرات التي طرأت عليها والتي لم تكن مقتصرة على مظهرها. صحيح أنّه لم ينسَ كانابالا طوال تلك السنين التي شيّد فيها المعمل والمنزل وزرع الحديقة. وفكّر في نفسه: كيف يمكن أن أنساها بعد أن عشت وإيّاها كلّ يوم من أيّام حياتي منذ أن كنت في سنّ التاسعة عشرة وكانت هي في سنّ السادسة عشرة؟ واعترف، لكن صحيح. فمثلما يعود لسانك باستمرار إلى سنّ مؤلم بدلاً من سنّ صحّي، فإنّ كانابالا لم تعد كسابق عهدها. بدأ أموليا يفكّر فيها طوال النهار، وحتى أثناء العمل.

بدأ يدوّن ملاحظات في مفكّرته. واعتقد أنّ ثمّة فائدة من وراء ذلك تتمثّل في فهم ما كان يحدث فهمًا تامًّا، ويسعى إلى ترتيب الأحداث قليلاً. اختار صفحة من صفحات يوم الأحد، وبهذا فهو ليس في حاجة للعمل ودوّن ملاحظاته بخطّ يده الأخرق والمتشنّج:

تجرّ (ك) قدميها جرًّا بدلاً من أن تسير. بالأمس شاهدها تتشبّث بالجدار أثناء هبوطها السلالم إلى المطبخ. ولمّا سألها ما خطبها. ردّت أنّها مصابة بدوار وواهنة القوى وضعيفة الركبتين. تبدو في صحّة وعافية ولكنّها تشكو من اعتلال صحّتها. رداء الساري يبدو مجعّدًا أو ملطّخًا بالكركم، إلخ. كريهًا. أخبرتها بذلك في الليلة الفائتة فسألت: وهل تنبعث منّي رائحة كريهة؟

لاحظت الشفتين تتحرّكان حتى عندما تظنّ أنّها وحيدة. أتحدّث نفسها؟ أمر يبعث على القلق. الأصابع نفسها تتحرّك على نحو قلق من فوق الأثاث، وكذلك جسدها، إلخ. حتى عندما يكلّمها شخص ما وكأنّها تكتب طوال الوقت. أحاول أن أفكّ مغاليقها ولكن مستحيل. تذمّرها أقلّ ولكن صمتها أطول. هل ثمّة شخص آخر يلاحظ ذلك؟ كيف أسأل؟

مثل هذه المداخلات ازدحمت من فوق صفحة يوم الأحد. أمّا الصفحة التالية ففيها ما يأتي: مطلوب زيت جوز الهند، ٢٥ غالونًا، ادفع لسالم «تحديث دفتر الطلبيّات». مصاريف ملجأ الأيتام مدفوعة عن هذا الشهر. وهلمّ جرًّا. أمّا صفحة يوم الأربعاء ففيها كلمة واحدة مدوّنة على امتداد الصفحة: طبيب.

استدعى أموليا الطبيب الذي فحص ضغط دم كانابالا واستفسر منها عن الإمساك والغازات. ثم فحص ركبتيها وجعلها تسير في خطّ مستقيم

من إحدى جهتي الغرفة إلى الجهة الأخرى. وفي نهاية المطاف التفت إلى أموليا وقال:

ـ ليس فيها أيّ علّة يا سيّدي. لا شيء تمامًا. كلّ ما تعانيه هو تشوّش في الذهن، فالسيّدات ينتابهنّ الضجر في الأماكن الصغيرة. والسيّدة في حاجة إلى تسلية!

وبعد أن انصرفت عربة الطبيب، قال أموليا مخاطبًا إيّاها في كآبة:

ـ ربّما ينبغي لك أن تفعلي شيئًا ما. إنّ السبب في كلّ ما تشعرين به هو كثرة أوقات فراغك.

فقالت كانابالا:

ـ ولكنّني أشتغل طوال النهار. أتدري كم هو العمل الذي أؤدّي لأجعل الأمور تسير على مجراها في هذا البيت؟

فقال أموليا:

ـ هذا لا يكفي. ينبغي لك أن تفعلي شيئًا آخر. لماذا لا تفكّرين بتنمية هواية من الهوايات؟ الخياطة؟ الحياكة؟ رسم اللوحات؟ انظري إلى نساء براهمو: إنّهنّ يقرأن ويعزفن على آلة البيانو ويتكلّمن في كلّ المواضيع كالرجال.

ـ أتسمح لي أن أفعل كلّ ما تفعله نساء براهمو؟ إنّك لا تسمح لي حتى بالذهاب بمفردي إلى كلكتا، وعلى كمال أن يرافقني ـ أو حتى نرمال، ولكنّهما لا يرغبان في ذلك

ـ لن تكوني قادرة على الذهاب بمفردك. وأنا أرسلهما في رفقتك من أجل سلامتك.

ثم وضع أموليا قدميه في نعاله واستأنف القول بنبرة متساهلة، متسامحة:

ـ أخبريني! هل في وسعك معرفة الطريق إلى أيّ مكان؟ ربّما أنت في الخمسين من عمرك. ولكنّك سوف تظلّين فتاة صغيرة تائهة في شوارع أيّ مدينة كبيرة. ماذا بشأن شيام بازار الواقعة في الجهة الأخرى من محطّة هوراه. هيّا الآن! اطلبي من مانجولا أن تأتيني بكوب شاي.

ثم وضع غليونه في جيبه وخرج إلى الحديقة.

* * *

بعد مرور شهر على رحيل الأقرباء، وصل مظروف أشدّ سمكًا وصلابة ممّا هو مألوف. وفي داخله صفحتان من ورق دفتر ملاحظات أزرق اللون، وعليهما كتابة بخطّ أخرق وصورة. سلّم أموليا الصورة إلى كانابالا وبدأ يقرأ الرسالة. وبينما كانت كانابالا تبحث عن نظّارتها التي لم تألفها حتى الآن، هتف:

ـ يا لها من مصادفة! كان والد الفتاة محاميًا لعمّي قبل تقاعده! وقد ساعده في قضيّة بوكورباري.

أتت كانابالا بصورة عروسة نرمال المنتظرة وقرّبتها من الدائرة الصفراء المتذبذبة لضوء المصباح الجالسة على مقربة منه. مدَّت يدها ورفعت من الفتيلة قليلاً ووضعت نظّارتها على عينيها. قال أموليا:

ـ يبدو أنّ المنزل الذي يملكون في مدينة مانوهاربور على ضفّة النهر أشبه بقصر، وأنّ هذه البنت، واسمها شانتي، هي الطفلة الوحيدة. ليس لها أمّ ولا أخوات ولا أخوان. شيء رائع أن تكون البنت بلا عدد أكبر ممّا ينبغي من الأقرباء.

وبعد صمت قصير وقناعة واتته الكلمة المناسبة:

ـ غير معقّدة.

تفحّصت كانابالا الصورة من تحت نور المصباح، فوجدت البنت بيضويّة الوجه تميل إلى النحافة قليلاً، معقوصة الشعر إلى الخلف في ضفيرة واحدة التفّت مثل أفعى وعادت من جديد إلى كتفها وامتدّت إلى مقدّمة رداء الساري البسيط والضيّق الحافّات. لم تكن حديثة العهد لا في ثيابها ولا في تصفيفة شعرها، وهذا ما فكّرت فيه كانابالا، وإن كانت لا تملك أيّ فكرة عن آخر صيحات الأزياء. لم يكن وجهها يتّصف بأيّ صفة مميّزة باستثناء تعابير التأمّل التي لاحت عليه والعينين اللتين بدا لونهما فاتحًا غريبًا لا تعرف ما كنهه. كانت واسعة القزحيتين تملآن العينين، طويلة الرموش، مرتبكة النظرات بسبب الحاجبين السميكين اللذين كانا يضغطان على عينيها. وتساءلت كانابالا إن كانت الصورة مهذّبة في ستديو التصوير.

كان نرمال أصغر سنًّا من أخيه الأكبر بثمانية أعوام، يشبه زهرة من زهور الخريف، عزيزًا على كانابالا لأنّه وُلد متأخّرًا. وتداركت نفسها وهي تفحص كلّ ملمح من ملامحه بكلّ التفاصيل الأثيرة لديها عندما كان طفلاً صغيرًا. وفي حين نشأ كمال نشأة تعوزها الصفات اللافتة للنظر، رديء الطبع، سريع الغضب، نكدًا، وظهرت عليه علامات النّغد، فإنّ وجه نرمال وحركاته السريعة ومسحة اللامسؤوليّة والضحكة المفاجئة والمجلجلة التي تجعل عينيه تتراقصان، كلّ ذلك أقنع كانابالا أنّها ليست منحازة عندما شعرت أنّه بات رجلاً وسيمًا، بهي الطلعة. كانت تعلم أنّ من غير المفترض بالأمّهات أن يؤثرن أحدًا من أبنائهنّ على الآخر، ولكن نرمال هو الأوّل الذي صعد إلى غرفتها مباشرة بعد عودته من المدرسة، ثم من الكلّيّة، والآن من الشغل، ليقصّ عليها كلّ ما جرى من أحداث ذلك اليوم. وما كان ليفعل شيئًا من دون مشورتها، وكان اعتماد أحدهما على الآخر اعتمادًا كلّيًا. هكذا فكّرت.

رنت إلى الصورة من جديد وهي في يدها، صورة المرأة التي سوف ينتمي إليها نرمال. وشعرت أنّها مرهقة لا تقوى على التفكير فيها.

وقال أموليا مادًّا يده:

ـ دعينا ننظر إلى الصورة. ما رأيك؟ أعتقد أنّ على نرمال الذهاب لرؤية الفتاة. إنّني متفائل من هذا الزواج.

وهنا قالت كانابالا في نفسها: تمامًا، مثلما تفاءلت بسونغاره!

* * *

تزوّج نرمال بشانتي في مارس ١٩٢٨، وجرت مراسيم الزفاف في مانوهاربور. وقيل إنّ والد العروسة استنهض همّته بعد مرور سنوات من العزلة ليدعو كلّ أقربائه المنسيّين وجيرانه من القرويّين. وأضاء ضفّة النهر بمئة مصباح ومصباح. وقبل الزفاف بأسبوع، جلس عازفو آلة الشهناي فوق منصّة من الخيزران عند مدخل المنزل يعزفون على آلاتهم الموسيقيّة. وكان بابو بيكاش لا يروقه عويل الشهناي، ولكنّه كان مصمّمًا على تحقيق كلّ الآمال التقليديّة التي يمكن أن تراود أسرة العريس. وكان فريق العريس المؤلّف من أموليا ونرمال وكمال ومانجولا قد غادروا سونغاره مستقلّين قطار الليل في المدينة، وبعدها يستقلّون القطار إلى مانوهاربور فرحين مسرورين.

سوف يظلّ منزل كنّة المستقبل الرائع بسلالمه المصنوعة من الخشب ومراياه وثريّاته وموقعه على ضفّة النهر وحديقته المدهشة أسطورة في نظر كانابالا. وعلى الرّغم من أنّ بعض النسوة كنّ ينبذن مثل هذه الخرافات، إلّا أنّها كانت تعلم بوصفها والدة طيّبة أنّ حضورها إلى هذا الزفاف من شأنه أن يجلب الحظّ السيّئ لنرمال. ولهذا، فقد التزمت بالتقاليد والأعراف ولم ترافقهم في سفرهم، ولبثت وحيدة في

سونغاره رفقة خادمين وثلاثة طبّاخين موقّتين، راضية من غير تذمّر بالعادات ولكنّها توّاقة ومتشوّقة تعدّ العدّة لعودة فريق الزفاف الذي مكث بعيدًا عنها أسبوعين، لم تفعل أثناءها شيئًا سوى إصدار الأوامر للخدم ولإعداد الطعام والاستعداد بقوّة استمدّتها من ماضيها. فكانت تنهض في ساعة مبكرة من الصباح وتأوي إلى فراشها منهكة في كلّ ليلة. فالحلوى الإسفنجيّة لا بدّ أن تكون مشبعة بالكريمة بما يكفي لأن يُسمع صوتها في الغرفة المجاورة. وينبغي أن تتوافر بكمّيات كبيرة. أصدرت تعليمات إلى الطبّاخين المستأجرين من كلكتا لإعداد أفضل أنواع سرطانات البحر. وتقرّر إحضار الأسماك من كلكتا بوساطة قطار الليل محفوظة في الثلج، وهيّأت قائمة بالموادّ المطلوبة كي لا تنساها.

في اللحظات الهادئة، وبعد أن يكون الخدم قد رقدوا للنوم، تظلّ وحيدة رفقة خادمتها الناعسة. كانت تأتي بعلبة مجوهراتها وتضع جانبًا كلّ ما تملكه من زينة ترجع إلى أيّام جهاز عرسها لتقدّمها هديّة للعروسة. وتريّثت قليلاً وهي ترنو إلى أساورها الذهبيّة الثقيلة الوزن التي تزيّن نهاياتها رؤوس أفاع تهواها، صلبة الملمس وذات عيون من الزمرّد. لا بدّ أن تتزيّن بها زوجة نرمال. أمسكت الأساور بإحدى يديها وحاولت أن تجرّبها مرّة أخيرة قبل أن تضعها جانبًا.

في الليلة التي تسبق وصول فريق الزفاف، أيقظ نعيب بومة كانابالا من أحلامها المتقطّعة. كانت منقطعة الأنفاس، وظمآنة ملتفّة بالملاءة عندما استيقظت. كانت الظلمة حالكة في الخارج، ولكنّها شعرت بالحاجة إلى الخروج من المنزل والسير نحو الغاب.

نهضت كانابالا من على سريرها وكأنّها سائرة في نومها وعبرت من فوق الخادمة التي كانت راقدة على الأرض، وفتحت باب غرفة نومها وهبطت السلالم. ولدى وصولها الباب الرئيس، شاهدت سلسلة من

حديد يربطها قفل ثقيل الوزن. وكان الخادم الأكبر سنًّا غورانغا مستلقيًا أمامه وقد علا شخيره. ونسيت كانابالا مدى سلامة إحكام قفل الباب كلّ ليلة وحاولت أن تفكّر في مكان المفتاح ـ إنّه في خصر الخادم على وجه التأكيد. وتذكّرت الباب الجانبي فأسرعت إليه، ولكنّها وجدته مقفلاً أيضًا.

قطع هدير قويٌّ سكون الليل الذي لم يكن ينتابه إلّا نعيب بومة: إنّه زئير أسد! زئير أسد لا يمكن سماع غيره! فما كان منها إلّا أن اندفعت وارتقت السلالم متناسية تغيير ثيابها وصعدت إلى السطح.

أخيرًا باتت في ظلمة الليل البهيم ومن تحت القمر الهلال تحدّق في ظلمة الغابة التي فقدت ملامحها. وزأر الأسد ثانية، فلم يردّ عليه ثعلب أو بومة. لبثت واقفة في مكانها، ذهنها مزدحم بأفكار سمحت لها بألّا تفكّر في شيء إلى أن انقشع الغبش وتناهى إلى أسماعها صوت أوّل طير يشدو.

* * *

استقرّ نرمال وشانتي في الغرفة الواقعة عند إحدى نهايتي سطح الطبقة العلويّة، وهي الغرفة الوحيدة في تلك الجهة من السطح. وأنفقا الليلة الأولى معًا على سرير شديد الوخز والرطوبة بسبب كثرة الزهور التقليديّة، وكان ضجيج الأقرباء الزائرين وسفاهتهم تتناهى إلى مسامعهما وهما نائمان. وفي الساعة الباردة التي تسبق الفجر، تبيّن لنرمال وهو نصف مستيقظ أنّه وعروسته انكمش أحدهما في حضن الآخر طلبًا للدفء. فلمّ أطراف شجاعته وقبّلها على جبينها، ولكن شانتي واصلت نومها.

وسرعان ما تخلّص نرمال من بين ذراعي شانتي وأسرع إلى الباب

عندما سمع طرقًا مدوّيًا. أمّا شانتي فاعتدلت في جلستها من على السرير، تفرك عينيها الناعستين باستمرار. ولمّا فتح نرمال الباب، دخلت أمّه مسرعة، وهتفت:

ـ هيّا! فات الوقت. ألا تريان الشمس وقد باتت في كبد السماء؟ سرعان ما سيرجع والدك من تنزّهه.

نظر نرمال إلى الساعة الجداريّة وقال:

ـ أمّاه، الساعة ما تزال الخامسة والنصف!

فقاطعته كانابالا:

ـ لا تجادل، فالمنزل محتشد بالأقارب، وسرعان ما سوف ينهضون من نومهم، فهل تريد أن يضبطوك متلبسًا بالشخير؟ ثمّة أعمال كثيرة ينبغي القيام بها!

حدّق نرمال إلى أمّه في دهشة وهي تروح وتجيء في الغرفة وترتّبها. وشاهد أمّه وهي ترفع رداء الساري وتطويه بعد أن كانت شانتي قد تركته من فوق كرسي في الليلة الفائتة. وكانت ثيابه التي ارتداها بالأمس مرميّة على الأرض، قميصه الحريري ومئزره مجعّدان ومركونان في ركن من أركان الغرفة وكأنّهما دليلان على سرعته الخاطفة. وانتقلت نظراته المحدقة إلى السرير وملاءته المجعّدة والوسادتين القريبتين إحداهما من الأخرى، وما تزال آثار رأسيهما بادية عليهما، في حين كانت الزهور منتشرة في أرجاء الغرفة كافّة وبدأت رائحة عفنة تنبعث منها. لم يتمكّن من إلقاء نظرة إلى شانتي التي رأته من طرف عينها يبذل محاولات لا جدوى منها لتقليد جهود حماتها في ترتيب الغرفة.

وقبل أن يتمكّن من التوقّف، قال:

ـ لا ضرورة لأن تفعلي كُلّ هذا يا أمّاه. أنت لا تنظّفين غرفتي، ولهذا دعيها وشأنها! وسأنظّفها في وقت لاحق.

حاول أن يُخرج والدته من الغرفة وإغلاق الباب من خلفها، وتمنّى لو كان يعيش على جزيرة نائية عن أسرته وعن أبويه ونظرات أقربائه الخاطفة والمختلسة وهم في انتظاره في الطبقة السفلى.

قالت كانابالا متبسمة ابتسامة مصطنعة:

ـ ولدي الراشد يخبرني بما ينبغي لي أن أفعله بعد يوم واحدٍ من زفافه.

ثم استدارت نحو شانتي التي بدأت الآن تعدل من ملاءة السرير وتكنس الزهور، وأضافت:

ـ يا كنّتي شانتي، اذهبي واستحمّي، فالماء ساخن. ولا يسع الخادم تسخينه مرّات ومرّات.

ثم عادت الأمّ إلى نرمال لتقول:

ـ وأنت أيضًا اذهب واستحمّ. اذهب إلى الحمّام في الطبقة الأرضيّة؛ وأرسل مانجولا إلى هنا كي تبيّن لشانتي موضع كلّ شيء، وسوف تصحبك إلى الطبقة الأرضيّة لتناول الفطور بعد أن تفرغا.

وقفت كانابالا بالقرب من الباب وكأنّها حارس تراقب شانتي وهي تبحث عن مفاتيح خزانة ثيابها الجديدة. وفي لحظة ارتباك شعرت أنّها بدأت تستعيد وعيها، أو تظهر من تحت مياه عميقة لتملأ رئتيها بالهواء، رأت شانتي وقد ازداد ارتباكها بسبب بيتها الجديد والناس الجدد الذين يحيطون بها والرجل الجديد الذي بات زوجًا لها، والمسافة البعيدة التي تفصلها عن أبيها وعن كلّ شيء سبق لها أن عرفته، وبسبب فشلها في

العثور على المفتاح المناسب. ورأت كانابالا في شانتي نفسها وهي في سنّ السادسة عشرة، في الصباح الذي استيقظت فيه لتجد أموليا إلى جانبها، رجلاً نحيلاً ومجهولاً أضحى زوجها بين ليلة وأخرى، رجلاً لم تقع عليه عيناها إلّا سريعًا من خلال النقاب في ذلك المساء الذي سبق زفافها. وشعرت بالرقّة والحنان يطغيان على جميع جوانبها ليتغيّر شكل وجهها العابس. فسارت نحو شانتي وأمسكت بالمفاتيح والتقطت المفتاح الذي تحتاج إليه. وبصوت رقيق سبق لها أن احتفظت به لمخاطبة أولادها، قالت:

ـ سرعان ما سوف تعتادين على كلّ شيء، وعندئذٍ لن تبدو الأشياء غريبة من بعد ذلك.

كانت شانتي رواقيّة طوال الوقت، حتى في الاستئذان للانصراف من أبيها ومن غرفتها المطلّة على النهر. ولكنّها بإزاء عاطفة كانابالا غير المتوقّعة، شعرت بشفتيها ترتعشان، وقبل أن تتمكّن من التوقّف، دفنت وجهها في ردائها الساري المجعّد على أثر النوم وانفجرت باكية.

بعد مرور أسبوعين من الزمان، جلست كانابالا منتظرة كدأبها نرمال من أجل شرب شاي المساء. كان البيت خاويًا من ضيوف الزفاف باستثناء واحد من الأقرباء. وبدأت الأمور تعود إلى مجاريها، ولكن ليس تمامًا كما ظنّت كانابالا. فقد بدأ نرمال يعود إلى المنزل في وقت مبكر أكثر ممّا مضى حتى وإن كان حديث العمل. وتساءلت كانابالا بما قد يدور في ذهن تلاميذه وهم يشاهدونه ينسلّ من المدرسة قبل نصف ساعة أو ساعة من الوقت المحدّد في بعض الأيّام. المؤكّد أنّ الصبيان الذين يلقّنهم الدروس، وهم أذكياء لا يصغرونه إلّا قليلاً، كانوا يسخرون من مدرّسهم الذي كان في عجالة من أمره ليعود أدراجه إلى المنزل ويكون في رفقة عروسته الجديدة.

وعلى طريقته في كلّ مساء، كان نرمال يأتي إلى غرفة والدته أوّلاً ليجلس ويتجاذب وإيّاها أطراف الحديث، ولكن كان في وسعها أن تلاحظ أنّه لم يكن متحمّسًا في سرد أحداث اليوم التي مرّت به. كان يجلس على طرف الكرسي كأنّ جلوسه في وضع صحيح سيلزمه البقاء مدّة أطول. اختلس النظرات إلى ساعة الجدار المثبّتة قرب أحد أركان الغرفة، ثم نهض قليلاً وهو يقول قبل أن يفرّ إلى غرفته:

ـ إنّني منهك وبحاجة إلى الاستحمام.

وكان في وسع كانابالا أن تتوقّع من الأمسيات التي مضت أنّه لن يظهر للعيان إلّا عند وقت تناول العشاء.

كان السطح السفلي في تلك الليلة مساحة من الأرض أكثر خواءً وأشدّ حلكة. سارت كانابالا إلى الطرف الأقصى منها ولبثت واقفة قرب الحاجز الأدنى. وكان في وسعها وهي في محلّها أن تنظر إلى داخل منزل بارنوم حيث كانت الأنوار تنبعث ساطعة من كلّ نافذة، وكان العشب يحتشد بناس رافعين كؤوسهم، يروحون ويجيئون. وإلى الخلف من المنزل، وفي نطاق ضوء النهار، كان في وسع الذين يعرفون مكان القلعة أن يستدلّوا على آثارها. عادت أدراجها إلى الوراء إلى الغرفة التي يشغلها نرمال وشانتي، ذات النوافذ الفرنسيّة الطويلة الأربع المطلّة على السطح. وكانت الستائر محكمة الإغلاق مثل عينين نائمتين.

دفعت كانابالا الباب وفتحته. لم يطرق أحد بابًا في البيت، زد على ذلك، فإنّ الساعة ما تزال السابعة والنصف وهو ليس وقت إقفال الأبواب!

كان نرمال على السرير، رأسه في حضن شانتي التي كانت تغنّي له أغنية ما وتداعب شعره بأصابعها، ووجهها قريب جدًّا من وجهه. أمّا

رداؤها فقد انزلق من كتفها.

نظر الاثنان إلى كاناباﻻ وهي تدلف إلى الغرفة، فجفلا وابتعد أحدهما عن الآخر في سرعة خاطفة، وكأنّهما يريدان القول إنّ أحدهما لم يلمس الآخر. وتوقّفت شانتي عن الغناء من دون أن تكمل عبارتها ووثبت مذعورة، فاغرة الفم، من على السرير وابتعدت مرتبكة وشغلت نفسها بشيء ما قرب طاولة الزينة.

وبعد هنيهة قال نرمال:

ـ كنّا نوشك على الهبوط إلى أسفل يا أمّي.

ردّت كاناباﻻ:

ـ ﻻ ضرورة لذلك. أمّا أنت يا شانتي، فقد حان الوقت لكي تبدأي في مساعدتنا في إعداد طعام العشاء.

استيقظت كاناباﻻ في الصباح التالي ثقيلة الأطراف، تشعر بخواء مظلم في أعماقها. ولم تستطع النهوض من فراشها. إذْ كانت منهكة بسبب معارك الليل. فقد شعرت بالسقف يُطبق عليها، والعوارض الحديد وأعمدة سريرها الأفعوانيّة الليّنة والبدينة تحاول أن تخنقها. كانت قد شعرت بهزّة فاستيقظت، تتنفّس في صعوبة، نبضات قلبها تدقّ في شدّة. ولمّا نظرت إلى الجهة الأخرى من السرير أدركت أنّ الوقت ليس هو جوف الليل البهيم لأنّ مكان أموليا على السرير كان خاليًا، فقد خرج ليتمشّى وﻻ بدّ أنّ الوقت فجر.

فكّرت في القريب الذي لبث في منزلهم من بعد الزفاف، وكان يُدعى شوتو ـ دا. وقد وجدوا صعوبة بالغة في التخلّص منه على الرّغم من أنّه كان طبيبًا وكان الكلّ يتوقّعون منه أن يكون رجلاً كثير المشاغل. كان ممتلئ الجسم، ثرثارًا، ينتظر وجبات الطعام التي يقضي وقته نائمًا

بين وجبة ووجبة. فعزمت كاناباﻻ على أن تضع جانبًا امتعاضها منه وأن تخبره عن بعض عوارض مرضها.

ضغط شوتو ـ دا سمّاعته على صدرها مندهشًا من طراوته وضخامته، وقال في نهاية ما ظنّته كاناباﻻ فحصًا طويلاً لرئتيها وقلبها:

ـ خفقان فحسب، وهذا أمر اعتيادي في مثل عمرك. ربّما لديك بعض الغازات. أخبري أموليا ليشتري لك ملح الفواكه، أو ربّما يأتيك بشيء ما من معمله الشهير - فلديه علاج لكلّ شيء. صحيح؟

ثم ضحك، وومض وجهه المرح ببريق العرق، في حين اندفعت عيناه من وراء نظّارته السميكة. وتساءل عن سبب جوعه بمثل هذه السرعة بعد وجبة الفطور!

واستفسر بنبرة غير مكترثة:

ـ لعلّ في وسع مانجوﻻ أن تعدّ لي بعض العصير.. يا له من هواء منعش في هذا المكان. إنّ المرء ﻻ ينتابه مثل هذا الشعور في كلكتا.

وقالت كاناباﻻ بطريقتها المعهودة في الخروج عن الموضوع مدار الحديث، والتي ظنّت أنّه شيء من الماضي:

ـ بل الرزّ نفسه أطيب مذاقًا. صحيح يا شوتو ـ دا؟ إنّ المرء ﻻ يستطيع حتى أن يتمالك نفسه!

اختلس الطبيب نظرة حذرة، ولكنّه فكّر بعدئذٍ أنّه لم يسمع جيّدًا. المرأة تبدو منشغلة التفكير انشغاﻻً مسالمًا كعهدها. فنهض واقفًا لينصرف وفكّر في اﻻنتظار في الشرفة حتى يحتسي شرابه مؤملاً أن يصل ومعه شيء ما.

وقال لكاناباﻻ:

ـ ينبغي لي أن أذهب. لا بدَّ أنّ مهنتي في حالة سيّئة ولكنّك لا تدعينني أنصرف! ثم هذا الطفل!

وهنا ضحك ضحكة متقطّعة على ابنه الصغير الذي كان يجلس محدودبًا من حول الطاولة خارجًا يحدّق بانشداه من فوق أحد الكتب، وأضاف:

ـ إنّه متعلّق بكِ كثيرًا.

أظهر خاتمه الياقوتي الأصفر للولد، وقال مدمدمًا كعادته:

ـ انظر إلى هذه! إنّها عين النمر الذي اصطدته وقتلته في الغابة في الليلة الفائتة. أمّا العين الأخرى فما تزال في رأس النمر. وما يزال في وسع كلتا العينين الرؤية، والعثور على الصبيان المشاكسين!

نظر الولد البالغ من العمر تسع سنوات إلى أبيه مزدريًا ذلك الادّعاء الكاذب.

* * *

كانت لغرفة الطعام العلويّة نوافذ كبيرة على امتداد طولها ممّا يجعلها تسبح في ضوء النهار الذي ما يزال باردًا. كان ذلك الصباح الذي أعقب رحيل شوتو ـ دا. وكانت كانابالا قد فرغت من الاستحمام وارتدت ثوبًا جديدًا، واتّجهت نحو السلالم معتمدة في سيرها على الجدران والكراسي ومن بعد ذلك على حاجز السلالم كي تسند بدنها. وبدأت تهبط الثلاث عشرة درجة الأولى من السلالم قبل أن تنعطف لتهبط الدرجات الخمس عشرة الثانية. بدت الجدران لها وقد أخذت تميل نحوها أكثر ممّا ينبغي، فتوقّفت عند فسحة الدرج متقطّعة الأنفاس ومحدّقة من دون أن يراها أحد إلى خارج الشبّاك الذي كان ينير السلالم ويؤطّر الشجرة البازغة من فوق السطح الصغير في الطبقة الأولى. كان

في ميسورها سماع صوت شانتي تغنّي في المطبخ. شانتي الفتاة صغيرة، حلوة الكلام ولكن صوتها في الغناء كان ينبعث قويًا وخفيضًا وكأنّه صادر عن جسد أكبر حجمًا. كانت تغنّي عن الإجازات والسحب في السماء.

جرجرت كانابالا قدميها في اتّجاه المطبخ وتوقّفت خارجه، في الممرّ، لتستعيد أنفاسها. وكان في وسعها أن تسمع صوت مانجولا التي جلست لثرم الخضروات وهي تقول:

ـ آه، كنت معتادة على الشدو بهذه الأغنية قبل زمن طويل عندما كنت أتمتّع بصوت جميل. غنّي أغنية أخرى. لقد بات في هذا المنزل القديم والكئيب قدر من المتعة في الأقلّ. وسوف تعرفين بعد برهة وجيزة من الزمان كم هو خانق هذا الجحر من هذه البلدة الهندستانيّة. كم أشتاق إلى أقربائي، فأنا قلّما أراهم مرّة واحدة في كلّ ثلاث سنوات.

أجابت شانتي بصوتها الهادئ:

ـ أنا معتادة على المناطق الصغيرة، ومتى ما ذهبت إلى كلكتا فإنّني أشعر وكأنّني أسرع عائدة إلى قريتي على ضفّة النهر.

ـ آه، انتظري. إنّ غدًا لناظره قريب. أنت سعيدة الآن، ومتزوّجة حديثًا، وهذا نرمال يهرع إلى البيت ليراك ويجلس وإيّاك، يتحدّث إليك ويفعل أشياء لا يعلمها إلّا الله!

بدت شانتي تقهقه:

ـ آه، لا.

ـ لكن انتظري حتى تمضي بضع سنوات على زواجك، وعندئذٍ

سيكشف لك هذا المنزل عن ألوانه الحقيقيّة.

ثم ساد الصمت بين الفتاتين برهة وجيزة، وصكّ سمع كانابالا صوت المجرشة الناعم وكأنّها تجرش مادّة ما. لا بدّ أنّه الخردل الخاصّ بالسمك كما ظنّت. ثم تساءلت وكأنّها في غيبوبة إن كان السمك قد جرى شقّه. واستعادت في ذهنها الطقس اليومي. غورانغا سيعود مبكرًا حاملاً السمك الذي اشتراه ـ وهو سمك الكارب المألوف في سونغاره ـ وسوف يعرضه على مانجولا كي توافق عليه. وكان من شأن مانجولا أن تقف بعيدة عنه لتحمي ثوبها النظيف الذي ارتدته من بعد الاستحمام خشية أن يتلوّث بالأسماك. وسوف تتلوّى شفتاها وتنطق ساخرة:

ـ سمك الروي من جدّي؟ ألم تستطع العثور على أسماك أصغر حجمًا من هذه يا غورانغا؟ أو ميتة. هه! قل لي: هل تراهم يجعلون هذه الأسماك تتضوّر جوعًا قبل أن يبيعوها لك؟ وهل امتصّوا دمها أوّلاً؟ آه من أجل بعض الأسماك الحيّة التي تسبح في دلو من الماء برهة وجيزة وتنزف دمًا حقيقيًّا عند ذبحها!

تمايلت كانابالا وأصابها الغثيان وهي تتذكّر طقوس تقطيع السمك اليوميّة. فتشبّثت بالباب كي تقف معتدلة. لقد فوّضت كنّتها القيام بذلك العمل بعد أن أصبح لديها كنّة، إذْ تشعر بالغثيان بسبب رائحة السمك وملمسه. ولم تستطيع البتّة غسل السمك أو طبخه وإنْ كانت تأكله ـ كلّه سوى الرأس بقدر من التسامح وإن من دون متعة.

ولمّا ساورها ذلك الإحساس القديم بإخراج رأسها من الماء من أجل التنفّس، شهقت وأدركت أصوات كنّتيها في المطبخ.

كانت مانجولا تقول:

ـ هيّا، غنّي لنا أغنية أخرى.

وانبعث ذلك الصوت الواطئ الأجشّ من جديد من المطبخ يشدو أغنية حزينة. اقتربت كانابالا أكثر وواصلت شانتي الغناء وهي تقطّع ثمرة وكأنّها نسيت يديها الملوّثتين بالزيت ونسيت من في المطبخ. كانت أكياس الخضراوات الرطبة المكسوّة بالذباب مرميّة من حولها وقد تناثر بعض من محتوياتها. وكانت أطراف البصل الأخضر بارزة من أحد تلك الأكياس مع رؤوس القرنابيط البيضاء. وشانتي تغنّي وكأنّها في زمن آخر ومكان آخر، ذقنها يستند إلى ركبتها المرفوعة إلى أعلى والعينان مركّزتان في الثمرة التي كانت تقطّعها ولكن بعيدًا عن هذا المكان، بعيدًا عن سونغاره ومانجولا الجالسة قريبًا تقطّع البطاطس إلى شرائح. وكان شيبو يطحن خارج المطبخ في فناء الدار، في محاولة منه كي لا يصدر ضجيجًا أكثر من المعتاد.

وقفت كانابالا بجانب الباب تدلّك ركبتها وترنو إلى المشهد الساكن، وقالت:

ـ يا له من صوت! لماذا لا تجدين لك عملاً في الشوارع أيّتها الغانية؟

وانطلق صوت شفرة مانجولا وهي تسقط على الأرض، وهرع شيبو قادمًا من الفناء ودخل المنزل ووقف قرب الباب فاغرًا فاه. توقّفت شانتي عن الغناء وتحوّل صوتها إلى شهقة قصيرة ملؤها الهلع وهي تندفع خارجة من الغرفة، ملوّثة ثوبها الجديد بيديها المكسوّتين بالزيت.

واسترسلت كانابالا في كلامها وكأنّها لم تقل شيئًا غير اعتيادي:

ـ هل قطّعت الثمرة. دعيني أطّلع على نوع التوابل التي طحنتها يا شيبو. لماذا كلّ هذه الفوضى اليوم؟

وفي اليوم التالي، وبينما كان أموليا يرتدي ثيابه للخروج إلى المعمل، سألته كانابالا:

ـ من تراك تضاجع في هذه الأيّام أيّها الغندور؟ أهي زوجة براهمو المرتدية ثوبًا جديًا.

ثم ابتعدت قبل أن يتمكّن أموليا الذاهل من التفوّه بكلمة وذهبت إلى الشرفة، فاندفع أموليا من ورائها. كان نرمال جالسًا إلى طاولة العشاء في الطرف القصي من الشرفة، وبجانبه كتاب ستيتسمان للكلمات المتقاطعة الذي أهمل شأنه من دون أن يملأ مربّعًا واحدًا فيه.

نظر أموليا إليها وكأنّه ينظر إلى مسخ بأربعة رؤوس بدلاً من رأسين وقال:

ـ أتدرين ما قلتِ؟

نهض نرمال من على كرسيّه في سرعة خاطفة حتى كادت أن تنقلب، فاندفع ليحول من دون سقوطها، وقال في صوت متهدّج:

ـ أنا لم أقل شيئًا يا أبي!

لم يعره أموليا انتباهًا، بل أمسك بذراع كانابالا في حين حدّق نرمال إليهما غير مصدّق. فعلى امتداد سني عمره الأربع والعشرين لم يشاهد أحد والديه يلمس الآخر سوى مرّة واحدة، منذ زمن بعيد، عندما دلف غرفتهما مسرعًا في عصر يوم من الأيّام وكان يسعى وراء كرة رخاميّة صغيرة يلعب بها.

كان أموليا يهزّ ذراع كانابالا ويكرّر سؤاله:

ـ أتدرين ما قلتِ؟

كان وجهه يتلوّى على نحو لا يمكن إدراكه على بعد بضع بوصات

منه، بينما وقفت بضع خصلات من شعره بعد أن كان تشبّث بها.

قالت كانابالا وقد بدا الذهول على محيّاها:

ـ سألتك متى ستعود. ما سبب غضبك؟ هل ستتأخّر؟

فصاح بها أموليا:

ـ ليس هذا ما قلت.

ـ ما سبب صياحك؟ ماذا قلت؟

ـ ماذا قلت؟ ألا تشعرين بذرّة من خجل؟ كيف يمكنني أن أردّد ما قلت أمام الآخرين؟

فقالت:

ـ لكن ليس ثمّة أحد هنا سوى نرمال. هنا لدينا أسرار لا يعرفها أولادنا!

* * *

كانت شانتي أمسكت عن الغناء مرّة واحدة قبل الآن وذلك عندما وافت المنيّة والدتها. واعتقدت في ذلك الوقت أنّها لن ترغب في الابتسام أبدًا، فكيف بالغناء.

ولكنّ الأغاني عادت رويدًا رويدًا، فقد لاطفها والدها وقال:

ـ إنّني أحتاج إلى سماع أغنياتك. يكفيني سوءًا أن أضطرّ إلى تحمّل غياب والدتك، فلماذا أتحمّل غياب أغنياتك؟

وحاولت أن تغنّي ولكن صوتها كان يتقطّع بعد الأبيات القليلة الأولى من الأغنية في بادئ الأمر. ثم بدأت تروّض نفسها ترويضًا قاسيًا، فتسير وحيدة على ضفّة النهر عصر كلّ يوم منشدة للماء. وذهب

بها الأمر إلى أن تدندن في صوت خفيت من دون وعي منها حتى عندما كانت تنهمك في الأشغال المنزليّة. وفي يوم من الأيّام ضبطت والدها متلبّسًا وهو ينظر إليها فأدركت ما كانت تفعل، فالتفتت كي تُداري خجلها من كونها فرحة من جديد.

وظلّ فكرها يردّد ما قالته حماتها من أنّها غانية. لقد رأتني أغنّي لولدها، واقتحمت علينا غرفتنا مرّتين وليس مرّة واحدة، وفي اليوم التالي وصفتني بأنّني غانية. ما الذي سيقوله ذلك الخادم عنّي عندما تصفني حماتي أمام الكلّ بأنّني غانية؟ وكيف أخبر نرمال بذلك؟ هل تراه يصدّقني؟ إنّه يهيم حبًّا بأمّه، ولا يعرف عنّي إلّا القليل. وأنا؟ لا أكاد أعرفه حقًّا، على الرّغم من كلّ الأشياء التي يقولها لي وكلّ الأشياء التي نفعلها. إنّهم غرباء كلّهم. ما هذه الأسرة التي تزوّجتُ من ابنها؟ ما الذي أفعله هنا من دون صديقة واحدة؟

لو كان في وسعي العودة ليوم واحد لرؤية كلّ شخص، وأكون في غرفتي الخاصّة بي في مانوهاربور! إنّني أفكّر إن كانوا قد غيّروا شيئًا من تلك الغرفة! ثم هل يفكّر فيَّ كلّ من مالا وكوكو وبيني؟ وهل حلّت صديقة جديدة محلّي بينهم؟ أما زالوا يتنزّهون على امتداد ضفّة النهر يضحكون على كلّ شخص في مانوهاربور؟ هل أُخبر أبي بذلك؟ لا، سوف يقلق إن أخبرته. وهل هو وحيد يا تُرى؟ ما الذي يفعله طول الوقت وهو وحيد؟ وهل يتذكّر المانغو؟ هل ما يزال يقيسها كلّ أسبوع بالمسطرة؟

جلستْ على السرير محدثة صوتًا قويًا وأسندت رأسها على ذراعها الملتوي متعبة منهكة.

* * *

مضت الأيّام العشرة التالية من دون هيجان زوجته، فبدأ أموليا يفكّر أنّه حلم بما قالته له كانابالا في صباح ذلك اليوم الذي لا يصدّق. هل تراها حقًّا قالت له «مضاجعة»؟ هل هذا ممكن؟

هل يمكن أن يكون قد تخيّل كلّ ذلك في حلم من أحلام اليقظة؟ صحيح أنّ ذاكرته كانت مشوّشة في تلك الأيّام، ففي بعض الأحيان كانت ثمّة أشياء يريد أن يتذكّرها ولكنّها تنسلّ من ذاكرته كضباب الصباح. كان يراها ويعرفها ـ أقصد تلك الحقيقة، تلك العبارة، تلك اللفظة، ذلك الاسم الذي كان بحاجة إليه ـ ولكن عندما حاول أن يفهم، وأن يلفظها، فإنّه لم يعد يعثر عليها. هل مرَّ أسبوعان على قوله لمحاسبة شريكانت:

ـ لقد دفعت الأجر الشهري لملجأ الأيتام، فأين الوصل؟ أموليا دقيق جدًّا بخصوص دفع النفقات إلى ملجأ الأيتام بعد أن تمّ الاتّفاق عليها ليضمن حسن الرعاية التي يتلقّاها الطفل.

فردَّ شريكانت من دون أن يرفع رأسه وهو منهمك في إحصاء أعمدة أرقامه:

ـ أنت لم تدفع النفقات.

ـ ما هذا الهراء؟ لقد حرّرت ذلك الشيك على هذه الطاولة، وأنا أتذكّر ذلك مثلما أتذكّر شيكات الرواتب.

تردّد شريكانت وهو يقول:

ـ قلت إنّك ستدفع يا سيّدي ولكنّ الوقت كان متأخّرًا فتركته...

قال أموليا:

ـ أحضر لي دفتر الشيكات، وسوف أريك.

كان شريكانت على حقّ، إذْ لم يحرّر أموليا الشيك.

حال القلق الذي استبدّ بأموليا بشأن ذاكرته المضطربة أثناء وجوده في حديقته في ذلك المساء من دون ملاحظته أيّ شيء. ولم يتنبّه أيضًا للبراعم التي بدأت تحلّ محلّ الأزهار على أشجار المانغو. فقد اضطرب بسبب تلك الحادثة اضطرابًا شديدًا جعله حبيس نفسه طوال وجبة العشاء، بينما ظلّ كلّ فرد من أفراد الأسرة يحاول أن يتذكّر إنْ كانوا قد تسبّبوا في إشعال سورة غضبه.

وبدأ يفكّر تفكيرًا عميقًا في أنّ كانابالا تلفّظت بتلك الألفاظ التي يتعذّر التفوّه بها بعد يوم واحد من جداله مع شريكانت بشأن الشيك. ومنذ ذلك اليوم لم تتفوّه بكلمات غير مألوفة. وبدأ أموليا يجد صعوبة أكبر فأكبر في تصديق أنّها تلفّظت حقًّا بما يظنّ أنّها تلفّظت به. ربّما كان الأمر كلّه من نسج خياله، شأنه شأن الشيك غير المحرّر. وبدت الفوضى تعود أدراجها إلى زوايا السقف التي يعوزها الصفاء والبريق والتي احتشدت بنسيج العناكب. وكما هو شأن كلّ الأسرار التي كان المنزل يبدو فيها قادرًا على لملمتها داخله، فإنّه، المنزل، كان قد تشبّع بهيجان كانابالا، مخفيًا كلّ شيء عن العالم الواقع خارج جدرانه.

وفكّر أموليا أن تلك ليست هي نهاية كلّ شيء، لأنّ الذاكرة تثبت أنّها بالغة الدقّة في اللحظة التي تعتقد أنّها قد أخفقت.

وبعد مرور أسبوعين، شاهدت شانتي حماتها وهي تخاطب كمال قائلة له إنّه حمار مصاب بالسفلس.

وفي اليوم الذي أعقبه قالت لمانجولا:

ـ بشرة كالحليب الأبيض، مثل بقرة رخاميّة. ليس في سونغاره من هي أشدّ غرورًا وزهوًا من هذه البغي المتكلّفة الابتسام!

وبعد مرور أسبوع، وفي وقت تناول العشاء، تكلّمت كانابالا كلامًا حلوًا موجّهًا إلى أموليا، ولكن كلماتها كانت:

ـ لو قطعت رأسك إلى نصفين بالشفرة، فإنّني واثقة أنّني لن أجد سوى روث البقر.

لم يعد الأمر سرًّا الآن. فقد كان أموليا متأكّدًا من أنّ كنّتيه الشابّتين تتبادلان الآراء ووجهات النظر، وكان قلقًا على شانتي أكثر من قلقه على مانجولا، وشعر أنّه جدير باللوم عندما لاحظ قدرًا من خيبة الأمل والذهول على وجهها لأنّها عروسة جديدة أتى بها إلى المنزل لكي تتلقّى الإهانة على النحو الذي تلقّته! ثم الخدم؟ فمن غير المرجّح أنهم كانوا يجدون في الكتمان والوفاء قيمة أعلى من الدافع البشري للقيل والقال، خاصّة في بقعة صغيرة مثل سونغاره المتعطّشة للأحداث، والتي يوفر فيها خبر مرض بقرة من أبقار الجيران أو مشادّة بين أقرباء حديثًا يستمرّ أيّامًا.

تنهّدت مانجولا أمام شانتي في عصر يوم من الأيّام بعد أن جلست فوق سريرها تلفّ أوراق نبتة التنبول في شكل مثلّثات دقيقة، وهي تمضغ نبتة البان.

انبعثت رائحة التبغ في نبتة البان في اتّجاه شانتي، فما كان منها إلّا أن رفعت وسادة ووضعتها في حضنها طمعًا في الراحة. ولمّا رأت شانتي النبتة وقد دفعت مانجولا إلى أن تغمغم لحظة، سألتها.

ـ ماذا؟

ـ سمعتها تقول لوالد كمال أنّ له خصيتي ماعز! وفي الطبقة الأرضيّة، مسّدت رأس شيبو في الفناء. تصوّري! تمسّد رأس الصبي الخادم! وقالت...

فقالت شانتي غير راغبة في سماع الكلام من جديد:

ـ آه، نعم. سمعت عن ذلك أيضًا.

ـ . . . إنّه ولدها الحقيقي الوحيد، الولد الوحيد المهتمّ بها! أمّا بقيّة أطفالها فهم أولاد زنى من سائق العربة!

رفعت شانتي من بصرها مضطربة وحدّقت إلى وجه مانجولا المرح، وسألتها:

ـ ألا ترين أنّ الأمر يبعث على القلق؟ ما الذي سيحدث الآن؟

قالت مانجولا:

ـ آه، هراء. ما الذي سيحدث؟ لن يحدث شيء، فالمرأة العجوز بدأت تفقد عقلها. كلّهم كذلك. وينبغي لنا أن نبدي اهتمامًا أكبر بها. إنَّ غدًا لناظره قريب. وسوف تزداد بدانة. الواضح أنّها سوف تشقى من أجل حماتها ـ وقد أصيبت تلك بالخرف في سنّ الخامسة والخمسين، وكانت تلطّخ الجدار ببرازها ممّا اضطرّ حماتنا إلى إزالته. . ولهذا فإنّ إصابتها بلوثة من الجنون اليوم لا يبعث على الدهشة، وهي متقدّمة بخمسة أعوام. إنّها في الخمسين لا غير.

وضعت مانجولا كمّيّة أخرى من نبتة البان في فمها، وقالت بامتلاء:

ـ أتعرفين ذلك القول؟

ـ لم تكن شانتي تعرف أيًا من أقوال مانجولا، وقلّما فهمت شيئًا منها. . كما اعتقدت أنّ مانجولا تفبرك تلك الأقوال.

ـ ما ذلك القول؟

ـ عندما يبدأ الصمت بالكلام، فإنّ المانغو سوف يثمر في الشتاء.

* * *

قال أموليا في نفسه غاضبًا إنّها ليست مجنونة ولا يمكن أن تكون مجنونة! كان يسير عصر ذلك اليوم على امتداد الحقول ذات الأخاديد وحتى حافّة الغابة، في وقت كانت شانتي ومانجولا تجلسان على سرير مانجولا منهمكتين في القيل والقال. لم يستطع أموليا من تهدئة روعه كي يتمكّن من عمل أيّ شيء في المعمل، فنهض أمام دهشة شريكانت وذهوله وحمل مظلّته واستدعى عربة ومضى في سبيله.

كان في طريقه إلى القلعة الأثريّة، فقد كان يشعر بالراحة والاطمئنان وهو يجلس صامتًا وسط الصخور المتساقطة، لا يشغل تفكيره أيّ شاغل محدّد منتظرًا أن يثوب إلى رشده ويعود أدراجه. كانت القلعة برجه العاجي، يتّجه إليها كلّما شعر أنّه في حاجة إلى التفكير في معزل عن الآخرين بتلك الإمبراطوريّات الزائلة أو رمال الحجارة الموغلة في القدم، أو ربّما ذكرى أولئك الناس الذين عاشوا حياة حقيقيّة مثل حياته في هذه الحجرات الخربة والدهاليز المظلمة، أو ربّما التفكير بجذع تلك الشجرة الملتوي والبنّي المائل إلى الرمادي الذي يذكّره بوجه بوذا.

وصل حافّة القلعة وجلس فوق كتلة من صخرة متداعية. كان رجلاً طويل القامة، أشيب الشعر، شديد النحول يرقب وميض طائر الرفراف الأزرق والبنّي وهو يهبط إلى بركة كبيرة، ضحلة المياه وإن كان فيها شيء من الماء في هذا الوقت من السنة. تهدّلت طيّات من مئزره مثل موجة على الصخرة، لترتفع قليلاً أحيانًا عند هبوب النسيم فتلتقط شيئًا من الغبار. لم يتنبّه أموليا. فبعد ساعة أو زهاء الساعة سوف تأذن الشمس بالمغيب، وعندئذٍ تبدأ الطيور في مناداة أحدها الآخر.

تمنّى لو كان في وسعه أن يصغي إلى الطيور ولا يفكّر في شيء سوى ذلك، ولكن موجات الحنين تلاطمت في اهتياج واضطراب

داخله، واحدة إثر الأخرى وهو يصبو ويحنّ إلى عودة كانان التي عرفها. كيف تركها تنسلّ من بين يديه؟ هي ما تزال في نظره تلك الفتاة المراهقة الصغيرة التي تزوّجها، بعظمي الترقوة البارزين والغمّازتين المخترقتين وجنتيها وعمودها الفقري الناتئ عندما تنحني إلى أمام وعينيها المرتابتين إذا ما مازحها في موضوع ما.. لقد راقبتها وهي تتحوّل إلى امرأة، إلى أمّ. كم كانت عاقلة، مجبولة على الفطرة، وكم كانت رقيقة! فهي نادرًا ما جادلتني ولم تتفوّه بكلمة غليظة حتى عندما كانت تنهر الأطفال.

هل نسيت؟ أهذه علامات...؟

حاول أن يحزر ماذا حدث لها فانتقد نفسه، ثم سامح نفسه ووجّه اللوم إلى عمرها، وصعوبة المرحلة التي تمرّ بها؛ وفكّر أنّ الأفضل لو أنّه أمضى وإيّاها وقتًا أطول، وأنّه ما كان ينبغي له أن يبعدها كلّ هذه المسافة الطويلة عن أهلها في كلكتا.

وأخيرًا، نهض من مكانه واعتدل ثم قفل راجعًا إلى المنزل. ووطّد عزمه على ألّا تسير على هواها في المنزل بعد اليوم، ولن يسمح لها أن تصبح نكتة تتداولها ألسن أهل المنطقة.

* * *

اثنــان

كان نرمال يملأ استمارة موجّهة إلى دائرة مسح الآثار في الهند، بدأها بعبارة: «سيّدي العزيز...» ولكنّه توقّف، أصابعه ما تزال من فوق الآلة الكاتبة. «أرجو النظر في طلبي الخاصّ لوظيفة...» لكنّه شطب على العبارة، وبدأ يضرب على الآلة من جديد. «سيّدي العزيز، يشرّفني أن...» ولكنّه توقّف أيضًا وبدأ مرّة أخرى. «إنّني محاضر في مادّة التاريخ في مدرسة سونغاره...».

مرّت خمس سنوات منذ أن كتب جون مارشال في الصحافة عن اكتشاف الحضارات القديمة في منطقتي موهنجودارو وهارابا، وكان نرمال قد اقتطع مقالة مارشال من مجلّة ستيتسمان واحتفظ بها، وكان آنئذٍ منهمكًا في جمع القصاصات من كلّ ما يقع تحت يديه وإن كانت صحفًا قليلة تصل بلدة سونغاره. وكانت الطبعة الخاصّة من صحيفة

أخبار لندن المصوّرة التي نشر فيها مارشال أوّل مرّة عن الاكتشاف في العام ١٩٢٤ صعبة المنال. ولكن نرمال تمكّن من الحصول على نسخة من الصحيفة وصورها الرائعة عن الأختام والهضاب العظيمة بعد أن استفسر من أحد أصدقاء أموليا الذي كان يعرف موظّفًا في الحكومة الهنديّة فأرسلها له.

وكان الموظّف الحكومي قد وضع داخل الرزمة المرسلة إلى نرمال رسالة كان قد كتبها الموظّف البريطاني قبل بضعة أعوام. وكانت الرسالة تحتوي على وصف للهضاب الشبيهة بالتلال الممتدّة في جميع أنحاء المنطقة الشماليّة من الهند، وساد الاعتقاد بين الأهالي أنّها تضاريس طبيعيّة في حين أنّها، إن شئنا الحقّ، ليست سوى تراكم حضارات موغلة في القِدَم.

«عندما كانت الذئاب ما تزال تعوي في المناطق التي تقع عليها اليوم كنيسة نونردام وكاتدرائيّة سانت بول، ولم يكن أحد قد سمع بعد بالإسمين أثينا وروما، فإنّ أقوامًا من البشر كانت تقطن وتكدّ وتتعب في هذه المواقع، هم في الحقّ أجداد موغلون في القِدَم للقرويّين الذين يسكنون فيها اليوم. ولهذا ينبغي على محدثي النعمة الغربيّين أن ينظروا بقدر من الإجلال لهذه الآثار التي كانت آهلة بالسكّان وأن يعلموا أنّهم ليسوا سوى أبناء الأمس».

وفي سنوات لاحقة كان نرمال يتساءل عن اللاتناسب بين الملاحظة المقتضبة والتصوّر الهائل الذي خلقته في أعماقه.

قرأها مرّة واحدة ونظر إلى الصور في صحيفة أخبار لندن المصوّرة، صور الأختام والأوعية والآجر وهي تلمع ومن ورائها أرضيّة معتمة، ثم عاد من جديد إلى الرسالة وقرأها مرّات ومرّات. وبدأ وكأنّه

قد حُرم من إرادته الفرديّة ـ لأنّ مستقبله تقرّر في تلك اللحظة ـ وشُحن في الوقت نفسه بطاقةٍ لم يعرفها قبل الآن. وفي غضون السنوات الثلاث التي أعقبت ذلك، قام برحلات شخصيّة موظّفًا تقنيّاته في كلّ ما يمكنه الحصول عليه من قراءة المقالات هنا وهناك. وذهب إلى آثار سونغاره وألقى نظرة على الهضاب من ورائها، وكأنّ طبقة من غشاوة انقشعت عن عينيه، وبدأ يطلق عليها الاسم هضاب بدلاً من تلال، وشعر بحنين جارف إلى اليوم الذي سوف يتمكّن فيه من البدء بالحفريّات للعثور على ما تخبّئه من تحتها. لقد ذهب إلى ضواحي سونغاره حيث توجد معابد قديمة وآثار متفرّقة حاملاً معه أداة حفر صغيرة وشريطًا للقياس، وبدأ يحفر ويقيس إلى أن تجمّع من حوله عدد من أطفال القرية، يتجاذبون أطراف الحديث بينهم ويسخرون منه.

وكان قد قرأ في الآونة الأخيرة عن أنّ اكتشاف الآثار في منطقة موهينجو دارو وهارابا أدّى إلى تعظيم الموارد الماليّة لدائرة مسح الآثار لمواصلة عملها في وادي الهندوس. وفكّر نرمال في أنّ الدائرة قد تحتاج إلى متدرّبين إذا ما تلقّت الأموال. صحيح أنّه لا يملك تجربة في العمل ولكنّه حاصل على شهادة جامعيّة في التاريخ. ولكنّه فكّر أيضًا في السبب الذي سيدفعهم إلى توظيفه وهو معلّم مدرسة في بلدة صغيرة، في حين أنّ ثمّة علماء في اللغة السنسكريتيّة وخبراء في القطع والعملات المعدنيّة، فضلاً عن باحثين آخرين يجاهدون من أجل أن يكونوا جزءًا من إرث وادي الهندوس الذي يرجع إلى ثلاثة آلاف سنة.

وفكّر أيضًا: «يمكنهم أن يبدأوا بي في مكان ما، حتى وإن لم يكن في وادي الهندوس. وبالشهادات...» ولكن تفكيره في احتمال رفض دائرة المسح طلبه جعله واجمًا، مكتئبًا من فوره، فما كان منه إلّا أن أشعل سيكارةً وعبث بعلبة السكائر المعدنيّة. تثاءب ونظر إلى شعر

شانتي الذي كان أشبه بعاصفة مظلمة تجتاح الوسائد والملاءة. كانت غافية إلى حدٍّ ما، فأخذ نفسًا عميقًا ونفث الدخان من أنفه، وألقى نظرة خاطفة منزعجة إلى آلته الكاتبة، ثم دفعها جانبًا واتّجه نحو شانتي.

وهمس مداعبًا شعرها:

ـ ألا تعتقدين أنّ في الإمكان خلق عادة لكلّ شيء تقريبًا؟

فقالت في صوت مفعم بالنعاس:

ـ ماذا تعني؟

فقال:

ـ ها نحن هنا، أنا وأنت، ولم يكن أحدنا يعرف الآخر قبل عام ونصف العام، ولكنّني لا أستطيع كتابة رسالة لأنّني مستغرق في النظر إليك. . .

قالت شانتي رافعة رأسها:

ـ عد إلى مكانك وافرغ من كتابة الرسالة. هيّا، علماء الآثار في حاجة إلى المواظبة. كيف ستحفر بحثًا عن الآثار إن لم تواظب؟

فقال نرمال:

ـ إنّني مواظب في الأشياء التي أرغب فيها.

ثم مدّ يده من تحت الساري ولمس بطنها وأضاف:

ـ تصوّري لو كانت هذه هي الهضبة في منطقة هارابا، فكيف سأجد طريقًا إليها؟

ضربت شانتي على يده مبعدة إيّاها، وقالت:

ـ إن كنت قادرًا على أن تعتاد كلّ شيء، فعندئذٍ يمكنك أن تعتاد

على العمل من دون هذا الشيء!

ثم قهقهت، مخفية وجهها في الوسادة. ورفعت بصرها ووجهها ما زال مخفيًا إلى حدٍّ ما، وأضافت:

ـ ثم إنّني لست متأكّدة إن كان ذلك عملاً سليمًا مع اقتراب ولادة الطفل.

قال نرمال مستندًا إلى رأس السرير وممسكًا بسيكارته التي كانت في المنفضة:

ـ قبل عام ونصف العام لم أكن حتى متزوّجًا، واليوم سأصبح أبًا بعد أشهر قليلة. قبل عام ونصف العام لم أكن أعرفك، قبل عام ونصف العام كانت والدتي سويّة. واليوم لم تغادر غرفة نومها منذ عام ونصف العام... ويبدو كلّ شيء رتيبًا، بل أشعر بالسعادة. إنّني أنسى أمرها، أنسى أنّها سجينة غرفتها. ولكنّني أشعر أنّني في فخّ إن لبثت في المنزل يومًا واحدًا، وأنسى أنّها لا تستطيع الخروج أبدًا للقاء الآخرين أو لرؤية أشياء أخرى.

شعرت شانتي بأصابع القلق تقلّب معدتها عندما غيَّر نرمال فجأة من انتباهه لها إلى انتباهه إلى أمّه. فحاولت أن تبتسم، ولمست يده، وقالت:

ـ اهدأ. لنغيّر الموضوع. ألا تعلم أنّ الجنين يسمع وهو في رحم أمّه؟ أتريد من جنيننا أن يولد وينشأ ويترعرع حاملاً أفكارًا حزينة؟ إنّني لا أريد من الطفل أن يسمع إلّا الموسيقى والضحك. تعال إليّ!

* * *

في طبقة أدنى، كانت كانابالا تذرع غرفتها جيئة وذهابًا منتظرة آل

بارنوم. ففي عطلة نهاية كلّ أسبوع، كان ديغبي بارنوم يخرج رفقة زوجته، وكانت كانابالا المستيقظة كلّ ليلة تقريبًا اعتادت الجلوس على حافّة النافذة تراقب سيّارتهما وهي تمضي في طريقها، غامضة، ملؤها الوعود، ومتّجهة إلى أماكن تتجاوز حدود خيالها. وكان الزوجان يعودان متأخّرين جدًّا، فيصيحان في صوتٍ عالٍ حتى يستيقظ الحارس من نومه ويفتح قفل البوّابة كي يدخلا.

وفي تلك الليلة، لم يأت الحارس إلى البوّابة على الرّغم من كلّ الصياح، فما كان من بارنوم إلّا أن ترجّل من السيّارة وهرع سائقه من الجهة الأخرى. تلك هي المرّة الأولى التي رأته فيها كانابالا. اتّسعت عيناها غير مصدّقة إذْ لم يسبق لها أن شاهدت رجلاً سكّيرًا من قبل.

وصرخ بارنوم في وجه السائق:

ـ اغرب عنّي. اغربوا عنّي يا أولاد الزنى السود النائمين أثناء العمل!

ثم دفع السائق جانبًا، فتراجع هذا إلى الخلف غير مصدّق عندما شاهد سيّده يتّجه نحو البوّابة الشبيهة بجدار من خشب وبدأ يضرب عليها بقبضتيه ويستنزل اللعنات.

استبدّ الذهول بكانابالا التي لم تفقه شيئًا ممّا يدور، في حين تململ أموليا في نومه وجذب وسادته وغطّى بها رأسه. وتمنّت كانابالا أن يستمرّ في نومه تاركًا إيّاها وحدها تنفق الليل كعادتها معلّقة في عالم لا أحد يعرفه سواها.

ثم رأت كانابالا زوجة ديغبي بارنوم أوّل مرّة في حياتها، امرأة شاحبة الوجه وفارعة القدّ مثل ورقة يوكالبتوس، كانت ترتدي ثوبًا تتحرّك من تحته تضاريس جسدها في رقّة ونعومة، ويلتمع حريره من تحت

أضواء مصابيح السيّارة. وكانت تنتعل حذاءً بكعب عال وهي تندفع نحو زوجها وتتفوّه ببعض الكلمات التي لم تستطع كانابالا سماعها.

وصلت السيّدة بارنوم زوجها وجذبته من كمّه لتوقفه عن الضرب على البوّابة.

وهنا انطلقت ذراعه وسدّدت صفعة على وجه زوجته.

فما كان من كانابالا في هذه اللحظة إلّا أن لمست خدّها كأنّها هي التي تلقّت الصفعة.

تراجعت الزوجة إلى الوراء ممسكة بذقنها. أمّا السائق، فقد استبدّ به الهلع وانكمش بجانب السيّارة.

قالت السيّدة بارنوم في صوت صاف مثل صفاء صوت ملعقة ترنّ على قدح زجاجي:

ـ الرجل على حقيقته، كعهده دائمًا.

لكنّ الرجل بارنوم لم يعرها اهتمامًا بعد الآن، وعاد إلى البوّابة المغلقة وصاح:

ـ افتح يا راملال، يا من يزني بأخته! هل تسمعني؟ أنت مطرود!

ذرعت السيّدة بارنوم الطريق جيئة وذهابًا كأنّ شيئًا من كلام زوجها لا يعنيها. وواصل زوجها الصراخ بأعلى صوته، فدمدم أموليا:

ـ هؤلاء السادة الملاعين، يظنّون أنفسهم وقد ملكوا البلاد كلّها.

أرادت كانابالا أن تقول: «إنّهم يملكونها»، ولكنّها كادت أن تتوقّف عن التنفّس كي يعود زوجها إلى النوم. وتقلّب أموليا على جنبيه، وبعد دقيقة واحدة، سمعت كانابالا صوت شخيره من جديد.

وانفتحت البوّابة مصدرة صريرًا، ودفع بارنوم الحارس الشديد

النحول جانبًا حتى سقط على الأرض ودخل هو وزوجته، والسيّارة من ورائهما. نهض الحارس وتثاءب ونفض الغبار عنه، ثم بصق في اتّجاه المنزل وهو يقول:

ـ يا ابن الزنى، يا أيّها السكّير!

ثم أغلق البوّابة من جديد.

* * *

كانت النوافذ هي إطلالة كانابالا الوحيدة على العالم. وإذا ما سارت على طول الغرفة وأطلت من خلل النوافذ الثلاث ومالت إلى أبعد ما تستطيع، ففي وسعها أن تشاهد نهاية تقوّس الطريق من كِلاَ الجهتين. كانت تقضي النهار كلّه بجانب النوافذ، وأحيانًا معظم الليل.

وعند حلول الفجر، وبعد أن يكون الهواء معبقًا حتى تلك اللحظات ببرودة الليل، كانت كانابالا تنتظر لون السماء الباذنجاني حتى يكتسب الضياء واللمعان. وعندما يتغيّر لون السماء إلى أزرق، يأتي الرجل الذي وعد أن تكون ثمار نباتاته من نوع الببايا من منطقة رانتشي. ثم يأتي بائع الذرة الذي كانت تتدلّى من سلّة على رأسه حزم رفيعة من الذرة وكأنّها شعر ذهبي اللون. في الأيّام الأولى، عندما سكنوا أوّل مرّة في بلدة سونغاره، لم يكن الباعة الجوّالون يأتون إلى مثل هذه المنطقة النائية. أمّا الآن، فقد تناهى إلى مسامعها خبر بناء مجموعة جديدة من البيوت في نهاية الطريق، وفيها مواطنون هنود كالموظّفين والمعلّمين الذين من شأنهم أن يتبضّعوا من العربات.

كان في وسع كانابالا أن تعرف الوقت من نداءات هؤلاء الباعة الجوّالين. فبائع الزهور يأتي بعيد الفجر وبائع الفواكه في الصباح وبائع الخضراوات بينهما. أمّا الخبز الذي يُعَدّ في مخبز في السوق، فيأتي في

صندوق من صفيح مثبت باللحام على درّاجة هوائيّة تبعث صريرًا. وكان بائع الأساور يتّخذ موقعًا لعربته التي تدفع باليد والتي تتألّق باللونين الأحمر والذهبي، على مقربة من البوّابة أحيانًا، وينادي على مدى خمس دقائق لمرأى امرأة تطلّ من النافذة وتشمّ رائحة بيع.

كانت تعرف أنّها لا تستطيع الذهاب إلى البوّابة لشراء الأساور.

لم تغادر المنزل منذ زواج نرمال، ولم تغادر غرفتها غالبًا. وكانت تعرف أنّها تلفّظت بكلمات ما كان ينبغي لها أن تتلفّظ بها. لم تكن قادرة على معرفة مصدر الكلمات، ولم تكن قادرة أيضًا على تذكّر فحواها. ولكنّها كانت تعرف أنّها ارتكبت زلّة بالنظر إلى وجوه الناس. ولم تعد الدهشة تستبدّ بهم، ولكنّهم من جهة أخرى لم يتركوا لها مجالاً كي تلتقي الغرباء. وكان السطح خارج حدودها أيضًا لأنّهم كانوا يخشون أن تقفز من فوقه وهو ما هدّدت به في إحدى المرّات.

كان أموليا يرجع من العمل إلى البيت يوميًا وقت الظهيرة، فيجلس وإيّاها وهي تتناول وجبة غدائها، ثم يعود إلى عمله تحت شمس ما بعد الظهيرة بعد أن يكون قد ساعدها لتأخذ سنة من النوم. وفي كلّ مساء، وبعد أن يكون البستاني قد انصرف، يقودها أسفل السلالم ويخرج وإيّاها إلى الحديقة كي تتمشّى ثلاثًا وأربعين خطوة ذهابًا وثلاثًا وأربعين خطوة إيابًا على امتداد نصف ساعة. وكان الوهن يصيبها وتتقطّع أنفاسها وتضعف ركبتاها، ولهذا كان في أغلب الأحيان يمسك بها في آخر ما تبقّى لها من السير، ويشجّعها قائلاً لها:

ـ عليك أن تتمشّي. ساعدي نفسك على التمشّي وإلّا أصاب العفن عضلاتك.

فكانت تتوسّل إليه قائلة:

ـ لماذا؟ لماذا ينبغي لي السير في هذا الطقس الحارّ؟ إنّني لا أذهب إلى أيّ مكان. فلماذا أمشي؟

فيقول لها:

ـ يومًا ما سوف تجدين أنّك لا تقدرين حتى على النهوض من سريرك.

كانت في بعض الأحيان ساكنة وتهمس في أذنه بعد أن يكون الإرهاق قد أثار هيجانها:

ـ يا جمرة البقرة! أيّها الضبع النتن.

فيلوي قسمات وجهه، ولكنّه يظلّ يقودها إلى أمام. بعد انقضاء نصف الساعة، يساعدها على الجلوس على الأرجوحة ويشعل غليونه. ثم يخبرها بكلّ ما حدث أثناء النهار وعن البيتين الجديدين المجاورين لهما. كان أحد المنزلين يسكنه هنود وليسوا إنكليز كما أخبرها ذات مرّة، وهما زوج وزوجة متقاعدان قادمان من إحدى المناطق، وليس لهما أيّ أطفال.

وقال وهو ينفث سحابة دخان:

ـ هل رأيتِ؟ لقد أخبرتك أنّ القرار بالبناء في هذا المكان كان صائبًا. لاحظي كيف بدأت المنطقة تتغيّر اليوم.

أصغت إليه، وكانت تردّ أحيانًا بملاحظة ما، وأحيانًا تتفوّه بعبارات مثل:

ـ يا ابن الحمار! يا ذنب جرذي المجارير الصحّيّة. أيّها الضفدع ذو الثآليل.

تلك كلمات يبتكرها عقلها من دون سؤال. وإذا ما رأى أموليا أنّها

بدأت تتفوّه بمثل هذه الألفاظ، فإنّه يقبض على يدها ليوقفها عند حدّها. وإذا ما شعرت بضغط يده من فوق يدها، فإنّها تدرك أنّها تفوّهت بكلمات لا ينبغي لها أن تتفوّه بها، وتحاول أن تلتزم الصمت والهدوء. وكانت تفكّر في المفارقة الكامنة وراء لطفه الأخير ولكنّها لم تفصح له علانيّة عن تفكيرها. وكانت مانجولا تشاهدها كلّ يوم على مصطبة الحديقة، فتقول مخاطبة شانتي:

ـ انظري! لقد أفلحت العجوز في صنيعها. إنّها ترغمنا على خدمتها ليلاً ونهارًا، كما أنّ زوجها اكتشف الحبّ في أواخر عمره. آه يا أمّي! ما الذي ينبغي لي أن أدفعه كي أكون مثلها؟ ألا تعرفين ماذا يقولان؟ للفاكهة الناضجة سلّة مبطّنة بالقطن!

فكّرت شانتي الآن تفكيرًا عميقًا في أشياء أخرى عندما تكلّمت مانجولا على عادتها الكريهة عن حماتها. فبعد مرور شهرين سيصحبها نرمال إلى مانوهاربور وسوف تتمشّى على ضفّة النهر من جديد منتظرة ولادة طفلها. وحتى يحين ذلك الوقت، سوف تصمّ أذنيها وتغنّي الأغاني القديمة وتحمي بطنها بيديها وكأنّها تبغي سدّ أذنيْ طفلها الذي لمّا يولد بعد. وشعرت أنّ في وسعها أن تسمع من تحت غشاء بطنها المشدود شدًّا قويًّا ضربات قلب دقيقة مثل جواد، وحركة فم لم يأخذ شكله بعد يحاول أن يتفوّه بكلمات مخاطبًا بها أمّه.

* * *

تُقام حفلات في منزل بارنوم في بعض عطلات نهاية الأسبوع. وفي مثل أمسيات تلك الحفلات، كانت أوّل مركبة تصل إلى المنزل هي التابعة لفنليز يعقبها الكهربائي لإعداد المصابيح والأنوار لتنبعث من بعد ذلك روائح الطعام الغريب. وكانت الأنوار في المساء رائعة وجميلة من

على العشب وكان أصدقاء بارنوم يرتدون ثيابًا لمّاعة، يأتون ويذهبون في سيّارات لا تتركهم يترجّلون منها خارج البوّابة بل من تحت المدخل المسقوف الذي يحجب رؤيتهم. أمّا كانابالا، فقد كانت تنتظر وترقب وتنتظر أملاً في مشاهدة شخص ما، شيء ما.

لكنّ السيّدة بارنوم كانت هي الشخص الوحيد الذي يمكن رؤيته في انتظام، إذْ كانت معتادة على الترجّل من السيّارة متمايلة ذات اليمين وذات الشمال لدى العودة من الحفلات وتتريّث أمام البوّابة منتظرة الحارس، وبعدها تسير على امتداد طريق السيّارات ثم تجتاز العشب قبل أن تدخل المنزل، ثوبها الحريري الطويل يلامس العشب وكتفاها الأبيضان يلمعان في الظلمة. وكانت تراقبها بعينين ملؤهما الجشع.

كان ديغبي بارنوم يغيب عن المنزل أسبوعًا أو أسبوعين كلّ بضعة أشهر، ربّما متوجّهًا إلى المناجم في أعماق المنطقة. وكانت السيّدة بارنوم تغادر المنزل بمفردها في عصر تلك الأيّام وتعود مستقلّة سيّارة طويلة يقودها شابّ يرجّح أن يكون من أهالي إقليم التبت. وشاهدت كانابالا في إحدى تلك الليالي السيّدة بارنوم تميل من على نافذة السيّارة وتتحدّث إلى الرجل الغريب قبل أن تتّجه نحو المنزل، ولكنّها شاءت أن تنظر مصادفة إلى الجهة الثانية من الطريق المظلم الهادئ، فرأت وجه امرأة هنديّة تحدّق إليها في ابتهاج من نافذة المنزل.

وتمتمت:

ـ يا له من أمر غريب!

ولكنّها على الرّغم من ذلك استدارت من جديد ربّما لأنّها نصف إنكليزيّة ـ أمّا النصف الآخر فمجهول الأصل ـ ولوّحت بيدها إلى ظلّ كانابالا المعتم والساكن.

لم يسبق لكانابالا أن لوّحت لأيّ شخص طوال حياتها، لذلك ارتبكت، لا تدري ما تفعل، فرفعت يدها قليلاً، ثم أخرجت ذراعها من بين قضبان النافذة ولوّحت على نحو أخرق وكأنّها طفل في حافلة.

وفي اليوم التالي، وعندما عادت السيّدة بارنوم رفقة الغريب، أخبرته عن كانابالا، فرفع بصره ولوّح لها أيضًا، فتغضّنت زوايا عينيه وهو يبتسم لها. نظر هو والسيّدة بارنوم أحدهما إلى الآخر وضحكا، وقالت السيّدة بارنوم بضع كلمات باللغة الإنكليزيّة. كانت الليلة رائعة وهادئة وكان في وسع كانابالا أن تسمع كلّ كلمة تُقال، ولكنّها لم تكن تعرف الإنكليزيّة.

قالت السيّدة بارنوم:

ـ يا للمرأة المسكينة! يقول راملال إنّها مخبولة تمامًا، تتلفّظ بكلمات بذيئة أمام الناس. مضحكة. أليس كذلك يا حبيبي؟ هل يروقك إن تلفّظتُ بمثل تلك الكلمات؟

ضحك الاثنان، وقال الرجل:

ـ هيّا، قولي شيئًا ما، سوف يكون ذلك لذيذًا.

ظلّت السيّدة بارنوم تلوح لكانابالا كلّ ليلة بغضّ النظر عن الوقت الذي تعود فيه من أيّ مكان. وكانت كانابالا تنتظرها عند النافذة. وظنّ بارنوم أنّ زوجته غريبة الأطوار وهو يراها تترجّل من السيّارة خارج البوّابة. لماذا؟ وفي إحدى المرّات شاهدها تلوّح بيدها إلى أعلى على أثر عودتهما من مشوار للتبضّع، فقرّر أنّ الوقت حان ليكون صارمًا وإيّاها. الحقّ أنّ لاريسا لم تكن تملك أيّ إحساس باللياقة. إذ ما الذي سيظنّه الخدم وهم يشاهدون سيّدتهم تلوّح لامرأة مخبولة من أهل الحيّ؟ ثمّة شيء صحيح في كلّ ما يقوله الناس عن أصحاب الدم الهجين.

وكلّما طال أمد زواجه، ازداد إحساسه بصحّة القول.

* * *

في الأسبوع التالي سافر بارنوم في إحدى رحلاته الطويلة. وكانت كانابالا قد اعتادت مراقبة السيّدة بارنوم تخرج عصر كلّ يوم وتعود أدراجها، رفقة الشابّ، في وقت متأخر من الليل. كان الأمر كلّه ينطوي على عبث، كلّ ذلك الانتظار لمشاهدة ما ترتديه السيّدة بارنوم كلّ ليلة من ثوب جديد لمّاع لدى عودتها ولدى رؤيتها إيّاها عند النافذة لتلوّح لها.

لكنّ الليلة مختلفة، فقد تقلّصت حنجرة كانابالا ودقّ قلبها دقّات عنيفة وتجمّدت أصابعها وهي تشاهد السيّدة بارنوم والشابّ يعودان في سيّارته.

لعلّ الوقت كان الساعة الواحدة صباحًا. كانت الليلة مستنيرة بضوء هائل يشبه صفار البيض وينبعث من قمر يطلّ من وراء الأشجار المتمايلة تحت النسيم. مالت كانابالا إلى خارج النافذة إلى أكبر قدر سمح به جسدها البصلي، ولوّحت بيديها الاثنتين لدى توقّف السيّارة ومشاهدتها لهما وهما يترجّلان ويسيران على الطريق على بعد بضع ياردات من بوّابة منزل بارنوم. أدركت أنّها مضطرّة إلى إيقافهما.

كانت كانابالا قد رأت السيّد بارنوم في عصر ذلك اليوم، وكان قد قفل راجعًا مبكرًا، فلم يجد السيّدة بارنوم، وشاهدته كانابالا وهو ينطلق مسرعًا بسيّارته على أثر وصوله، ربّما بحثًا عن زوجته، وعاد من دونها. وبعد منتصف الليل بقليل، كان بارنوم ينتظر خارج البوّابة متواريًا عن الأنظار من وراء الأشجار. وكان في وسع كانابالا أن ترى من طريقة وقوفه متواريًا بأنّه كان قد صمّم على أن يضبط السيّدة بارنوم وعشيقها

متلبّسين معًا بالجرم المشهود ثم. . . ماذا؟ حدّقت كانابالا مسمّرة إلى تلك البقعة من شجرة البوغنفيليّة المعترشة التي اختبأ من خلفها.

واستبدّت الدهشة بالسيّدة بارنوم عندما شاهدت المرأة الهنديّة تلوّح لها بذراعيها، فما كان منها إلّا أن ضحكت ضحكة مرحة ورفعت يديها مقلّدة إيّاها. وخرج عشيقها من السيّارة وركض إليها. وشاهدت كانابالا أسنانه تلمع في الظلمة عندما ابتسم. كان الشارع منيرًا بضوء القمر فبدأ الاثنان ومن ورائهما ظلّان حادّا الملامح يسيران من خلفهما. كانت السيّدة بارنوم تقهقه وتلوّح وكأنّها تدفع بالشابّ المتشبّث بها بعيدًا عنها. وكان في الإمكان سماع صوت كعبي حذائها وهما يطرقان فوق إسفلت الطريق.

وصلا البوّابة، وعندئذٍ قبّل الشابّ أناملها وتمتم بكلمات ظنّت معها كانابالا أنّ النسمة حملتها إليها. رمت أنظارها بعيدًا في ذعر وهلع باتّجاه شبح القلعة البعيد والمظلم وظلال الغابة متمنّية حدوث شيء ما علمت أنّه واقع لا محالة.

وخطا بارنوم إلى أمام من خلف الأوراق وزهور البرتقال.

انحرفت السيّدة بارنوم إليه وهتفت في سرعة:

ـ هل كلّ شيء على ما يرام يا عزيزي؟ لقد استغرقت حفلة مونباي وقتًا طويلاً.

أخرج السيّد بارنوم يده من جيبه ولطم وجنتها بجانب مسدّسه وصاح:

ـ اخرسي!

فتراجعت زوجته مذعورة وشهقت شهقة ألم. وقبل أن يتمكّن

بارنوم من توجيه مسدّسه إلى الجهة الأخرى، شاهدت العاشق يثب من فوقه، فما كان من السيّدة بارنوم إلّا أن أطلقت صرخة مدوّية، فأغمضت كانابالا عينيها في رعب وفتحتهما بعد ثانية واحدة لتجد العاشق يغوص في سيّارته وينطلق مسرعًا. بقي بارنوم مستلقيًا على الأرض ينزف دمًا من رقبته، وتمكّنت كانابالا من مشاهدة نصل سكّين يلمع تحت ضوء القمر بجانبه.

نظرت السيّدة بارنوم من حولها، وجهها الذي ينيره ضوء القمر شبحي الشكل وانتزعت أحد قرطيها الطويلين ورنت إلى يدها وكأنّها مندهشة بها. بقيت ممسكة بالقرط وجثت بجانب بارنوم برهة وجيزة من الزمان، اندفعت بعدها إلى البوّابة واجتازتها وهي تركض إلى الداخل.

وفكّرت كانابالا أنّ المرأة، لحسن حظّها، لم تدع الحارس يقفل البوّابة في الليالي التي كانت تنفقها خارج البيت.

ظلّ الرجل المغدور مضطجعًا على الطريق وبجانب بطنه تشكّلت بركة سوداء لامعة في الوقت الذي استأنف فيه البوم حواره الليلي الناعم.

استلقت كانابالا بجانب أموليا، على الطرف البعيد من سريرهما الواسع، وحاولت أن تتنفّس تنفّسًا هادئًا على قدر ما تسمح لها أنفاسها المتقطّعة، وبدأت تفكّر في اختراع حكاية.

* * *

وفي صباح اليوم التالي كان أموليا يجلس حول طاولة في غرفة النوم يحتسي أوّل كوب شاي ويبسط صحيفته، عندما هرع نرمال ودخل الغرفة.

نظر أموليا من فوق صحيفته عابسًا:

ـ ماذا حدث يا نرمال؟ ألا تستطيع السير بدلاً من الركض؟ هل أنت مضطرّ إلى الركض دائمًا؟ من يصدّق أنّك سوف تصبح أبًا؟

ثم رشف أموليا من شايه وهو يبتسم ابتسامة مصطنعة.

ـ هذا الشاي مبالغ في إعداده، فهو مرّ المذاق. من أعدَّه؟

قال نرمال متقطّع الأنفاس:

ـ أتدري يا بابا؟ لقد حدثت جريمة قتل في المنزل المقابل. ويسود الظنّ أنّ المرأة قتلت زوجها، فقد تُرك ليموت على الطريق الليلة الفائتة، وكانت هي تجلس في الطبقة العليا تمشّط شعرها في منتهى البرود.

هتف أموليا متعجّبًا:

ـ ماذا؟ بارنوم؟ هذا مستحيل!

فقال نرمال:

ـ لا يا بابا. هذا صحيح. ألم تنظر خارج النافذة أبدًا في هذا الصباح؟ ثمّة جلبة. فقد شاهدت بعض رجال الشرطة من ذوي الرتبة العالية يدخلون الدار، ثم إنّ ثمّة ثلاثة آخرين من الشرطة داخل المنزل يبحثون عن السلاح.

سأل أموليا ونهض واقفًا ليتّجه نحو النافذة، مستبدًّا به حبّ الاستطلاع على الرّغم منه:

ـ سلاح؟ وكيف قُتل؟

ـ بسكّين. في المعدة وفي الصدر على ما يبدو. والشرطة ستصحب السيّدة لاستجوابها، وهي دائمة الترديد أنّها كانت خارج المنزل تقضي أمسيتها عندما رجعت وارتقت السلالم إلى الطبقة العليا مباشرة، ولا تعرف أيّ شيء عمّا حدث، ولم تكن تتوقّع عودة زوجها إلّا بعد أسبوع آخر.

وقف نرمال يطلّ من وراء نافذة أخرى، ملامح جسده واضحة من تحت قميصه الرقيق المجعّد بسبب نور الشمس المسلّط عليه. ونهضت كانابالا لتقف بجانبه، وتنبّهت إلى أنّ رأسها لا يصل إلى كتفيه، فرمقته بنظرة تنمّ عن فخر واعتزاز. وقالت له بلهجة رقيقة مؤتمنة:

ـ أليس في موت رجل خلاص؟ لقد كان حقًّا ابن خنزير.

فقال أموليا وصوته يتردّد في حلقه:

ـ المؤكّد أنّه كان يبدو أشبه بابن خنزير! لقد نقص العالم صاحبًا سيّئًا آخر! وربّما ستغادر المرأة هذا البيت الرحيب الآن و...

قال نرمال:

ـ المرجّح أن يزجّوا بها في السجن، أو يرسلوها إلى جزر أندامان. القاتلات... وما السيّدة بارنوم إلّا امرأة إنكليزيّة... وهم يكرهون الهنديّات من أصل إنكليزي. صحيح؟

قال أموليا:

ـ نعم، لديهم سجون خاصّة، وأظنّهم يملكون سجونًا خاصّة بالمجرمين البريطانيّين... في مخافر من فوق التلال.

فضحك نرمال وتساءل:

ـ إذًا لا يعاني قَتَلَتهم حرارة الطقس؟

نظر أموليا إلى ولده عابسًا ومضى يلقي بنظراته من النافذة باتّجاه البيت المقابل. وبعد مرور دقيقة واحدة، وضع نظّارته على عينيه من جديد وعاد إلى صحيفته.

أمّا نرمال فقد خطا إلى الوراء وابتعد عن النافذة وقال:

ـ الشرطة قادمة إلى منزلنا!

فقالت كانابالا:

ـ إنّني أريد مقابلة الشرطة.

خلع أموليا نظّارته ورمى بالصحيفة على الطاولة، فتطايرت في أرجاء الغرفة بفعل نسمات الهواء، وعاد إلى النافذة التي كانت تؤطّر المنزل المقابل الذي بدا له من دون أيّ تغيير سوى أنّ البوّابة كانت مفتوحة، يدخلون منها ويخرجون. ولاحت بقعة سوداء على الطريق بالقرب من البوّابة محاطة بخطّ أبيض. تحت شجرة البونغفيليّة البرتقاليّة الأزهار وقف ضابط شرطة أدنى مرتبة، فاتر الهمّة، تعوزه الحيويّة، يدخّن تبغًا رخيصًا. ثمّة شيء ما في الزهور البارزة من وراء رأس الضابط، الذي بدا وكأنّه يضع زهرة هنا وزهرة هناك على رأسه، جعل أموليا يتذكّر زهرة أخرى في شعر الفتاة القبليّة، الفتاة التي حاولت أن تجعله يرقص في فسحة الغابة، فابتسم في نفسه لهذه الذكرى المميّزة التي تعصى على النسيان.

عاد أموليا إلى الزمان الراهن جافلاً، فقد فتحت بوّابة منزلهم، وكان الشخص الذي فتحها هو أحد رجال الشرطة.

قال أموليا لنرمال:

ـ لن يزعج أحد والدتك.

ثم التفت إلى زوجته وقال:

ـ ولن تكلّمي أنتِ أيّ شخص. مفهوم؟ والآن، هل ماء الاستحمام جاهز أم لا؟ ماذا حدث اليوم؟ هل التصق كلّ فرد بإحدى النوافذ؟

ولمّا لم يجد جوابًا من نرمال أو من كانابالا، فقد خرج ووقف في أعلى السلالم وصاح:

ـ هل ثمّة أحد هنا يا شيبو؟ أحضر لي الماء. يا لكم من ثلّة من الحمقى. شيء ما يحدث لشخص غريب فإذا بكم تنسون كلّ شيء.

كانت كانابالا تنظر مليًّا إلى إحدى النوافذ العليا في البيت المقابل عندما سألها نرمال:

ـ هل أنت بخير؟

هتف شيبو في صوت متهدّج بعد وقت قصير وهو في الطبقة السفلى:

ـ لقد حضر رجال الشرطة يا بابو!

وهنا نسي أموليا كلّ شيء عن استحمامه، فعدَّل من ملبسه وهبط السلالم واتّجه إلى حجرة الاستقبال.

* * *

كان الشرطي قد فرغ من استجواب كلّ فرد، حتى غورانغا الذي قال متلعثمًا إنّه ينام يوميًّا في الساعة التاسعة والنصف وإنّه لم يشاهد شيئًا. نقر الشرطي إصبعًا نافد الصبر على ذراع الكرسي الجالس عليه ورفض متشاغلاً عرضًا آخر لشرب الشاي. ثم نادى على الخادم وقال:

ـ حسنًا. شاي. أحضر لي كوبًا من الشاي، فقد جفَّ ريقي بسبب كلّ هذا الكلام.

ثم التفت إلى أموليا وهو يمرّر أصابعه في شعره المتصبّب عرقًا وقال:

ـ أهذا كلّ ما هنالك؟ هل ثمّة شخص آخر في المنزل؟

قال أموليا:

ـ زوجتي فحسب، لكنّي لا أرى ضرورة لإزعاج زوجتي. صحيح

أيّها السيّد المفتّش؟ إنّها مريضة ولا تغادر المنزل. الحقّ أن لا صلة لأيّ فرد من أفراد هذه الأسرة بأولئك الناس.

قال الشرطي في حيويّة متجدّدة:

ـ تمامًا يا سيّد أموليا، تمامًا. إنّها لا تغادر المنزل، وأنت قلت إنّ غرفتك قبالة ذلك المنزل تمامًا. فما معنى هذا؟

سأل أموليا:

ـ ما معناه؟

ـ معناه أنّها شاهد، أنّها تنظر من مكان عال. شاهد نموذجي. علينا أن نطرح عليها سؤالاً إن كانت قد رأت أيّ شيء.

فكرّر أموليا كلامه وهو يرتعش:

ـ لكنّها ليست على ما يرام.

قال الشرطي مهدّئًا:

ـ لا ضرورة للقلق يا بابو أموليا. نحن بشر أيضًا. امنحنا فرصة، فنحن خدم في الحكومة، نؤدّي واجبنا.

* * *

جالت كانابالا ببصرها في حجرة الاستقبال بعينين ملؤهما الدهشة. ربّما مرّ عام على آخر مرّة تدخلها، وبدت لها معتمة وعفنة، كثيرة الكراسي المزوّدة ببطانة والمنقوشة أذرعها نقشًا كثيفًا بارزًا من تحت الملاءات التي تغطّيها. وفكّرت في السبب الذي أدّى إلى تغطيتها: ألم يأت أيّ زوّار؟ ألم يستخدموا الحجرة قطّ؟ ثم سألت أموليا هامسة:

ـ لماذا هذه الملاءات؟

فردَّ عليها في اقتضاب:

ـ الغبار.

ورأت سطوح الطاولات اللمّاعة وقد علاها الغبار. ماذا تفعل كنّتاها؟

قادها كمال من مرفقها لتجلس من فوق كرسي. وكان وجه كانابالا مغطّى بأحد طرفي الساري. ونظرت نظرة خاطفة من وراء ظلّتها في اتّجاه الشرطي.

قال المحقّق:

ـ والآن، هل رأيت أيّ شيء؟ أخبريني بكلّ شيء، حتى إن كنت تظنّين أنّه أمر تافه. أخبريني بخاصّة عن كلّ ما تعتقدين أنّه غير مهمّ.

ثم التفت إلى أموليا وكمال وقال:

ـ لقد علّمني عملي على مدى السنين أنّ الشهود غالبًا ما يغفلون عن ذكر أهمّ التفاصيل الحاسمة. وهم لا يعرفون ما الأشياء المفيدة في تحقيق الشرطة.

قال كمال لاويًا إبهاميه داخل حمّالتي بنطاله:

ـ مؤكّدًا، مؤكّدًا. لا يقدّر الشهود قيمة بعض الأدلة المعيّنة.

حاولت كانابالا أن تهدّئ من سرعة نبضات قلبها، فبعد كلّ عزلتها الطويلة، رأت أنّ الكلام أمام غريب عن موضوع بالغ الأهمّيّة، قد يسهم في إنقاذ حياة صديقتها. المؤكّد أنّها مخطئة، قالت وهي تأخذ نفسًا عميقًا:

ـ ما فائدة أن تكذب امرأة عجوز؟ نعم، لقد شاهدت شيئًا ما.

قال الشرطي وهو ينظر نظرة تحذير إلى أموليا:

ـ استمرّي في الكلام أيّتها السيّدة.

ـ كان المسكين قد عاد أدراجه لتوّه ولا بدّ أنّه كان منهكًا. إنّ هؤلاء البريطانيّين يعملون في جدّ. وكان بعيدًا عن بيته بضعة أيّام.

فسأل الشرطي:

ـ كم يومًا؟

ثم التفت إلى مساعده وقال مسرعًا:

ـ هل لاحظت كلّ شيء؟

ـ أعتقد ثلاثة أو أربعة أيّام.

ـ استمرّي.

ـ كان ثمّة بعض الرجال القبائل ينتظرون أمام البوّابة، ولم يكن الحارس حاضرًا. كان الوقت متأخّرًا، والطريق مظلمًا، فأحاطوا بالرجل، وبدأوا يتشاجرون ويتجادلون. وكان أحدهم طويل القامة، طويل الشعر، داكن البشرة.

وسأل الشرطي:

ـ وهل سمعتِ ما قالوه؟ هل كان أحدهم يملك سكّينًا؟ هل تمكّنتِ من مشاهدة وجوههم؟ هل في إمكانك الاستدلال عليهم؟

بدت كانابالا مرتبكة من تحت سيل الأسئلة المتلاحقة، فردّت عليها ببعض الكلمات غير المترابطة. أمّا أموليا، فقد انتابه الذعر ونهض واقفًا على قدميه كي يخرجها من الحجرة. ولكنّ الشرطي أشار له بالجلوس وعاد إليها.

ـ هل رأيتِ أيّ سلاح؟

كان الرجل الطويل القامة يحمل شيئًا ما في منطقة خصره، لكنّني لا أستطيع أن أميّزه بسبب حلكة الظلام، ولم أكن أرى بوضوح تامّ.

إنّني أعاني من ضعف بصري. . . وقد أخبرني الطبيب أنّني في حاجة إلى نظّارات جديدة، ولهذا السبب ينبغي إجراء فحص على عينيَّ أوّلاً. . . ونشب شجار يخصّ المنجم في الغابة والنقود. على أيّة حال، هم أناس فقراء الحال ولهم بيوتهم في الغابة. . .

حاول الشرطي أن يوجّه السؤال في صبر، لأنّ العجائز بحاجة إلى رعاية:

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ حدث بعض الارتباك والشجار، ولم أستطع معرفة ماذا كان يدور في وسط مجموعة الرجال. غير أنّهم غادروا المكان في سرعة خاطفة، وهربوا، وكان الرجل ممدّدًا على الأرض.

ـ وأين كانت السيّدة بارنوم؟ يقول الحارس إنّها خرجت من المنزل وطلبت منه الانصراف كدأبها كلّما كان زوجها خارج البيت.

ثم التفت إلى أموليا وقال:

ـ أمر غريب. صحيح؟ فالمرء يعتقد أنّها بحاجة إلى حارس أثناء غياب زوجها.

قالت كانابالا:

ـ آه، كانت في البيت طوال الليل بعد أن عادت أدراجها. وقد شاهدتها وهي ترجع. لا بدّ أنّ الوقت كان مبكرًا تمامًا ـ فأنا لم أكن قد تناولت وجبة عشائي. ثم صعدت إلى الطبقة العليا.

وهنا أمسكت كانابالا عن الكلام كأنّما تحاول أن تتذكّر، ثم استأنفت:

ـ يمكنني مشاهدتها بكلّ وضوح من نافذة غرفتي عندما تكون

الأنوار مضاءة، فهي غالبًا ما تنسى إسدال ستارتها. كانت تجلس قرب نافذتها. مؤكّدًا. وعزفت على آلة البيانو بعض الوقت.

ثم سألت أموليا:

ـ ألم تسمعها؟

فنظر إليها أموليا وقال: بيانو!

أراد أن يخبرها ألّا تثرثر كثيرًا. وفكّر أنّ الوقت لن يطول قبل أن تتفوّه ببعض العبارات البذيئة. فما الذي سيحدث لو أنّها وصفت الشرطي بأنّه غبي وزوج امرأة فاسقة تمامًا مثلما وصفت البستاني قبل أن تطرده.

ـ حسنًا، إنّها تعزف شيئًا ما كلّ ليلة، وقد أخبرني نرمال أنّ الآلة هي البيانو. ماذا أعرف أنا عن هذه الأشياء؟

ـ هل شاهدت السيّدة بارنوم تهبط السلالم؟

قالت كانابالا ردًّا على سؤاله:

ـ لم تعرف أنّه قد رجع. يا لها من امرأة مسكينة! ربّما لم تسمع صوت السيّارة أثناء عزفها على البيانو! لقد لبثت الليل كلّه جالسة في غرفتها لا تدري أنّ زوجها ينزف دمًا حتى مات خارجًا. ربّما كان في وسعها إنقاذه. لا بدّ أنّها معذّبة عذابًا شديدًا بهذه الأفكار.

كتب الشرطي شيئًا ما في دفتر ملاحظاته، والتفت بعد ذلك إلى أموليا وقال:

ـ لا بدَّ أن تكون شاهدة.

ردّ أموليا:

ـ مستحيل!

* * *

ثـلاثــة

مرَّ شهر ونصف شهر آخر. وبدا مقتل بارنوم يتلاشى من الذاكرة. ففي ظلّ غياب شهود يعتدّ بهم، فقد التحقيق مكانته الأوّليّة، وانتقلت الملفّات من مكتب إلى مكتب، حتى ضاعت صفحة هنا، وانطوت صفحة هناك وبانت من فوقها بقع شاي. كانت قضيّة مزعجة، فلم تكلّف شركة المناجم نفسها عناء تحقيق أكبر. كما أنّ مزاج ديغبي بارنوم السيّئ وفمه البذيء لم يكسباه عددًا كبيرًا من الأصدقاء في موقع عمله. فضلاً عن أنّ قضايا أخرى ظلّت مدفونة وقد تظهر على السطح من دون قصد. فالرجل الذي قيل إنّه عشيق السيّدة بارنوم رحل عن البلدة، وفقدت الشرطة أثره في كلكتا ـ التي هرب منها إلى سدني بأستراليا بحسب أقوال الناس. وبدا المنزل المقابل للمنزل رقم ٣ في دولغانج رود وقد ابتعد عن البلدة، ولم تعد تقام فيه حفلات، ولم تغادره السيّدة بارنوم إلّا نادرًا. ولم يعد الناس يتكلّمون في موضوع جريمة القتل.

ومضت الحياة من جديد. فوقّع أموليا صفقة مربحة مع أحد متاجر لوكنا الرئيسة، وسافر نرمال إلى مانوهاربور تاركًا شانتي رفقة أبيها حتى ترزق بالطفل.

وكانت التقاليد والعادات تقتضي أن يولد الطفل الأوّل في منزل طفولتها حتى لو استهجن نرمال تلك التقاليد والعادات قائلاً إنّ مانوهاربور ليست مكانًا مناسبًا لولادة طفل، فأقرب مستشفى منها إنّما يقع في البلدة المجاورة وهي بلدة نائية جدًا.

وتساءلت كانابالا التي نسيت موضوع المولود القادم إنْ كانت السيّدة بارنوم على دراية بما قالته للشرطة. لعلّها أوقعتها في ورطة. أو لعلّ أجوبتها كانت مختلفة. وحلّ محلّ لعنات كانابالا قلق، حتى اتّضح لأموليا أنّها كانت مشتّتة الذهن، غير مصغية عندما كان يخرج بها لتتمشّى في الأماسي. وبدت له غير متنبّهة إذا ما توقّف عن الكلام ومضى يدخّن غليونه.

كان الهواء في البيت رقم ٣ في دولغانج رود يبدو على وجه الخصوص عبئًا ثقيلاً وهو ينتظر المولود الأوّل، لأنّ مانجولا لم تحمل أبدًا، وبعد ثلاثة أعوام من الزواج بدأت تنظر إلى طفولتها على أنّها دليل على سخط الله من دون أن تعرف. وسعت إلى إيجاد ما يعوّض عن ذلك ويصلح الأمور، فاضطرّت كمال إلى أن يسافر بها في طول البلاد وعرضها، فتشدّ الخيوط من حول أشجار في تكايا الصوفيّة وتعلّق الأجراس البرونزيّة في معابد ديفي على التلال. كما أنّها لجأت إلى الصوم والصلاة واستحصلت على بركات كلّ الأولياء والصالحين، ولكن بلا طائل!

ولكن بعد أن علمت مانجولا أنّ طفلاً سوف يولد، فقد تنهّدت

وفكّرت طويلاً. واكتشفت أنّ شيئًا ما جعلها شاردة الذهن وتتوقّف على شرفة السطح أثناء أشغالها المنزليّة لتحدّق مدّة أطول من المعتاد إلى الغيوم وهي تسبح في السماء، وتجد أنّها تخاطب نفسها بضرورة تقطيع قماش قديم إلى قطع صغيرة، وبضرورة صنع وسادة مملوءة بحبوب الخردل السود لتصبح جمجمة الطفل في أحسن شكل. وكان لا بدّ لها من أن تغفو قليلاً بعد الظهر وهي منهكة تفكّر في ضرورة أن تفصّل دثارات من ثياب الساري القديمة. وكانت تتمتم: هل في وسع امرأة إدارة أسرة واسعة بهذا العدد من الأفراد؟ إنّ من شأن جدّتي الرائعة أن تكون حماة ممتازة، فهي لا تهتمّ بالأطفال أبدًا.

* * *

ضيَّق نرمال عينيه وهو ينظر إلى المرآة أثناء حلاقة ذقنه وتساءل إن كان يبدو مختلفًا، ميّالاً إلى أن يكون أبًا. ربّما سيبدو ذلك حقيقيًّا عندما تبصر عيناه الطفل. هل تراه سيكون ذكرًا؟ لا يهمّ. ولد أم بنت. لكن تخيّل أنّه ولد! سوف يصحبه معه في سفره ويتسلّق وإيّاه الجبال وينقّب في الآثار. وبدأ نرمال يشعر بوخز خفيف من الحماسة في مكان ما في داخله عندما واتته تلك الأفكار. مشّط شعره إلى الخلف بدءًا من جبهته المرتفعة التي ورثها عن والده وذهب إلى السطح السفلي ليدخّن سيكارته الثانية في ذلك الصباح. ولمّا حدّق إلى الأفق، لاحظ السحب الرماديّة من فوق أطلال القلعة والتلال وبقيّة السماء التي بدت على الرّغم من زرقتها معتمة قليلاً بسبب السحب المتناثرة فيها والتي كانت بلون الحليب الأبيض المتخثّر.

تنهّد نرمال فرحًا مسرورًا وجلس فوق الحاجز ليشعل سيكارته، لم تكن شانتي معه كي تشمخ بأنفها، وتقول:

ـ ما هذه الرائحة الكريهة؟ كيف يمكنك أن تدخّن هذه السكائر؟

حاولت أن تدخّن ذات يوم، وحاولت مرّة ثانية، فوجدت لدهشتها أنّ السكائر راقتها. وأُصيب نرمال بالصدمة واستبدّت به الفرحة في الوقت نفسه عندما رآها تحاول أن تجرّب التدخين. وضحك ضحكة قصيرة عندما تغلّب على هلعه وقال مناكدًا:

ـ سألتقط لك صورة وأطلع بابا عليها، وعندئذٍ سيرسلك إلى ستار تياتر للتمثيل.

فتردّ عليه شانتي:

ـ حسنًا، سبق لوالدتك أن وصفتني بأنّني غانية.

ـ أنت تعلمين أنّها لا تعرف ما تقول.

وتقول شانتي:

ـ على أيّ حال، ليس لائقًا إطلاق مثل هذا الكلام. فأنا لم أسمع مثل هذه الكلمات طوال السنوات التي أنفقتها في مانوهاربور.

ويقول نرمال مشيحًا بنظره جانبًا وهو منزعج:

ـ لا يمكننا الحصول دومًا على ما نريد. كما يؤلمني أن أرى أمّي وقد فقدت السيطرة على نفسها.

ـ إنّها لا تهينك أبدًا.

وهكذا تطوّر الكلام إلى خصام. ولم يتخاصما سابقًا إلّا على سبيل المزاح، وقد فوجئ كلاهما بذلك. والآن وجد نرمال نفسه وهو يدخّن السيكارة على السطح أنّه يحنّ حنينًا جارفًا إلى شانتي، بل يحنّ حتى إلى مخاصمتها. سوف يسافر إلى مانوهاربور بعد ثلاثة أسابيع عندما يولد الطفل، وفكّر في الطريقة التي يشغل فيها نفسه حتى يحين موعد سفره.

ربّما سيذهب في وقت أقرب من ذلك. ربّما سيوافق والده على ذهابه مبكرًا. وسيوافق رئيس قسمه على ذلك، فكلّ شيء مسموح لمن سوف يصبح أبًا. وهنا بدا في أفضل طريقة يخبر بها والده.

وسقطت أوّل قطرات المطر على وجهه، فرفع بصره إلى السماء، تاركًا إيّاها تمطر على وجهه وتبلّل سيكارته بين إصبعيه.

* * *

أربعـــة

لم تصل الأمطار الغزيرة التي كانت تطرق سونغاره إلى مدينة مانوهاربور النائية. وكان الهواء المخيّم على البلدة ثقيلاً وساكنًا، في حين اكتسبت ثمار المانغو بفعل حرارة الجوّ لون النار التي عجّلت في نضجها، وهي الصلبة والخضراء والصغيرة، فباتت حمراء مصفرّة معبقة برائحة الهواء الثقيل. لم تمرّ مثل هذه السنة على ثمار المانغو، فكانت تتدلّى اثنتان أو ثلاث فتثقل الشجرة، وكانت من قبل في أعداد لا تعدّ ولا تحصى ممّا جعل القائمين عليها لا يلتفتون إلى حراستها، فتربّع الصبيان على أغصانها يأكلون منها ويرمون لبّها الصلب على المارّة الغافلين عنها.

كانت شانتي ترنو متأمّلة إلى الحديقة والنهر، تاركة جانبًا فكرة حكيمة عن حالتها وسارت سيرًا وكأنّها تفتقر إلى الثقة إلى حافّة النهر.

وفكّرت في أنّ النهر كان قريبًا جدًّا على ما يبدو، هذا النهر الذي هو نهر طفولتها، وكان يبدو في كلّ عام وقد اقترب أكثر من ذي قبل، يحمل قدرًا سخرت منه، وشعرت بمصيرها وهو مرتبط بذلك الشريط العريض من الماء. لاحظت أنّ السلالم التي تذكّرتها وهي تلهو رفقة صديقاتها قد توارت عن الأنظار من تحت المياه. وظنّت أنّها لو حدّقت من الشرفة باتّجاه الماء الرمادي المائل إلى البنّي لرأت صديقاتها الثلاث وهنّ يسبحن من تحت، يحيط بهنّ نبات السرخس المكسوّ بالطحالب.

وشاهدت وجهها وهي تحدّق إلى صفحة الماء من تحتها.. والشعر ينتشر مثل دخان والجلد مغطّى بطبقة من الطين، والأفاعي تدخل آذانها وتخرج منها أذنيها الميّتتين. وهرولت إلى غرفة الصلاة بأسرع ما تستطيع ببطنها المنتفخة، وصلّت من أجل أن تزول الصورة من ذاكرتها ومن أجل أن يولد الطفل ومن أجل أن يكون نرمال حاضرًا في وقت ولادة الطفل.

في الطبقة الأرضيّة، جلس بابو بيكاش، والد شانتي، في إحدى شرفات القصر الفسيحة رفقة أشوين موليك، رجل العقارات الآخر في القرية. أمّا بابو بوتول، معلّم المدرسة، والعضو الثالث في نادي ما بعد الظهيرة ـ بفضل كونه أحد أفراد الطبقة الأرستقراطيّة ويحظى بقسط من التعليم إضافة إلى أنّه يتحدّر من مدينة كلكتا ـ فقد تمنّى حضور بعض المعارف القدامى كي يعرف الأهالي في باغ بازار المكانة الرفيعة التي تتمتّع بها شلّته.

وشعر بابو بيكاش أنّه في وضع دفاعي إلى حدٍّ ما أمام أشوين موليك. فالنقود التي يحتفظ بها في البيت، والنقود التي شيّد بها الأعمدة الروحانيّة والقوس الروحاني، والنقود التي بنى بها الدرج الذي ينزل إلى النهر على مدى السنين أضحت أقلّ ممّا كانت عليه سابقًا. من

ناحية أخرى، كان أشوين موليك موضع سخرية عندما بدأ مشروعه الخاصّ بزيت جوز الهند، وقال الأهالي إنّ الزيت يمثّل المهنة المناسبة لذلك الرجل الملوّث بالزيت. أمّا الآن، فمن الصعب الإنكار أنّه كان يملك سببًا لكي يعتدّ بنفسه. فهو لا يعطي أصدقاءه القروض فحسب، بل كان يرفض الفائدة عليها بهزّة من كتفه؛ وكان قد بنى له بيتًا على هضبة مرتفعة وراقب تقدّم النهر في اطمئنان يبعث على السرور. كان منزل بابو بيكاش الريفي رائعًا في عزلته وهو في مواجهة النهر وحده، تحيط به الحقول الخضر المزروعة بالرزّ، ولكنّه كان من جهة أخرى في وضع خطر.

وكان أشوين موليك يقول:

ـ الأمر يبعث على الشفقة بخصوص أشجارك المثمرة بالمانغو. ألم تكن تلك تجربة ممتعة لك!

فيقول بابو بيكاش:

ـ حسنًا. كنت أريد زراعة بعض الأشجار في حديقتي البنغاليّة الصغيرة. وقد بدت الأشجار رائعة إلى أن أغرق النهر الطرف القصي منها.

وتنهّد بابو بوتول وقال بنبرة إنكليزيّة:

ـ يا لها من مفارقة محزنة. فالمياه التي تنقذنا تتحوّل إلى مدمّر بكلّ بساطة، مثل شيفا، إله الدمار والانبعاث...

قاطعه أشوين موليك:

ـ ماذا حدث لذلك المشروع الذي كنت تملكه والخاصّ ببناء سدّ، أم تراه كان حاجزًا ما؟

ثم أخذ نفسًا من غليونه ذي التبغ المعطّر المستورد.

قال بابو بوتول في نبرة حزينة:

ـ هل يمكن لأيّ شخص أن يوقف غانغا الجبّار؟ أعتقد أنّ...

ردّ عليه بابو بيكاش:

ـ جاء المهندس من شركة بريثويت وأولاده، وقال...

وهنا استفهم أشوين موليك وهو يعرف الجواب:

ـ هل أرسلت الشركة سيّدًا أم أحد أبناء المنطقة؟

قال بابو بيكاش في سرعة مدركًا أنّ الشركة لم تقدّر المشكلة حقّ قدرها ولم تجد في إرسال رئيس مهندسيها الاسكتلندي عملاً مناسبًا:

ـ لقد أرسلوا د. ميترا وهو مهندس ذكي جدًّا.

لم يمرّ وقت طويل على إحساس بابو بيكاش بأنّه كان موضع سخرية. وقد جاء الناس لإلقاء نظرة على المهندس بعد أن تناهى إلى سمعهم أنّ بابو بيكاش استأجر شركة إنكليزيّة لتحلّ له مشكلته، ولكنّ الرجل ظهر وكأنّه مثلهم تقريبًا، فقد كان قصير القامة وبدينًا من الجهتين، وكانت صلعته تلمع من تحت أشعّة الشمس الحارّة، بل لم يكن مرتديًا حلّة وإنّما اكتفى بمئزر كالآخرين.

وأخبر بابو بيكاش مستمعيه المتشكّكين بأنّه:

ـ حصل على شهادته من اسكتلندا، ويعتقدون أنّه ممتاز، وقد جاء إلى هذا المكان وأنفق بضعة أيّام وعاين المشكلة. آه، وكان عند ضفّة النهر يمضي ساعات طوال رفقة آلات معقّدة. واعتقد أنّه لا يمكن إيقاف مثل هذا النهر العظيم وهو يغيّر من مجراه. وقال إنّ النهر وبحسب معدّل سرعة تيّاره في الوقت الراهن...

قال أشوين موليك في ازدراء:

ـ وهل يعرف هؤلاء المهندسون علم طبقات الأرض في هذه الأيام؟

لن يشكّل خطرًا على المنزل على مدى جيلين آخرين.

قال بابو بوتول وقد لاحظ سحنة بابو بيكاش تزداد اسودادًا:

ـ إنّه بيت جميل. بيت جميل يكون موضع إعجاب الأجيال القادمة التي ستراه. فالسلالم الوسطى من خشب الساج من بورما، والأعمدة العظيمة من روما والمرايا من بلجيكا. أمّا غرفة البليارد، فما أروعها! ليس ثمّة منزل يضاهيه في مانوهاربور سوى منزل بابو أشوين المدهش!

لزما الصمت، كلاهما متوتّر لأسباب متباينة صعب عليهما معرفتها. فقد كان الشكّ يراود بابو أشوين قليلاً، إذْ كان يعلم أنّ بيته أحدث بناءً وأنّه يشتمل على سلالم من الآجر والرخام وليس من خشب الساج المستورد من بورما، وذلك بسبب لحظة اقتصاد وتدبير قاتلة. أمّا بابو بيكاش، فكان يعرف أنّ الأهالي كانوا ينظرون إليه على أنّه رجل عجوز غريب الأطوار بحاجة إلى تهدئة واسترضاء. أمّا بابو بوتول، فقد تساءل إن كان قد بدا رعديدًا عندما عبَّر حقًّا عن إعجابه بطراز المنزلين.

مالت الشمس وقت العصر على الثلاثة، وقرّبهم الهواء الحارّ من بعضهم أكثر فأكثر، فازداد إحساسهم بالجوّ الرطب وتقطّعت أنفاسهم. وقضت ذبابة بدينة شذريّة اللون على نفسها في ثفالة الشاي.

* * *

وفي الوقت الذي عبق جوّ ما بعد الظهيرة بعبير الذرة المشويّة، توقّف ونظر إلى السماء كلّ من النساء المحنيات ظهورهنّ في حقول الرزّ

والأطفال المتنازعين لأمور تافهة في فناء مدارسهم الصغيرة المشيّد بالآجر الصلب والمعلّم الذي يلوّح بعصاه مهدّدًا وطيور الماء المفتّشة عن الطعام. كانت السماء تقترب كلّ يوم أكثر فأكثر. أمّا اليوم، فقد بدت زرقتها العالية والمستوية منتفخة وميّالة إلى الاسوداد.

كما أنّها أضحت أكثر دفئًا والهواء محسوسًا على نحو أكبر، ولكنّه كان بطيئًا من جهة أخرى، تفوح منه رائحة الرطوبة.

استلقت شانتي تنظر خارج النافذة وهي تربت على بطنها، تتناول حبّات خوخ جاوة الذي بات لونه أرجوانيًا أكثر في وعائها الفضّي. وكان في إمكانها أن تشاهد البلابل تشدو بعضها للبعض الآخر من على أغصان شجرة باتت تصل اليوم نافذة الطبقة الأولى. وفكّرت شانتي: كم كانت شجرة صغيرة عندما كانت تسقيها بالماء وهي فتاة صغيرة تتجوّل في الحديقة المتمرّدة وتبحث عن أعشاب جميلة. هزّت الخوخ في الإناء بأصابعها والتقطت خوخة كبيرة لامعة لتمصّها، متوقّعة أن يبقى طعمها الحامضي في بلعومها.

وجلس بابو بيكاش على كرسيّه في غرفته بالطبقة الأرضيّة وفي حضنه كتاب. لم يكن ينظر إلى الأسطر الموجودة في الكتاب وإنّما إلى الخطوط البيض على أرضيّة مكتبه الحمراء البرّاقة. وبدت له تافهة مثل خطوط طباشير رسمها طفل أخرق وتركها من دون أن يلمسها. ولكنّه أدرك أنّ الماء هو السبب، إذْ إنّه يغور عميقًا في التربة ويزحف باتّجاه أسس البيت المحفورة في أعماق التربة حتى ترك الآن أثر رطوبة على الأرضيّة الحمراء. وكان الماء ينتشر عند حافّات الغرف في ظلال سود غير منتظمة وجدت طريقها إلى أعلى الجدران مسبّبة انتفاخ الجصّ، وكأنّ شيئًا من خلفه يحاول أن يجد طريقه إلى الخروج. لم يكن بابو بيكاش مضطرًّا إلى لمس تلك البقع من جديد كي يدرك أنّ ملمسها رطب

مثل جبين شخص مريض، وباردة مثل شخص ميت.

في وقت مبكر من المساء، بدأت الأشجار تميل وتهتزّ، وداعب نسيم رقيق معبق برائحة البحر والأعشاب والتربة والمناطق النائية، الأوراق المنتشرة فوق مكتب بابو بيكاش، وتنقل وكأنّه شبح بين الستائر الساكنة، وبعثر خصلات شعر من رأس شانتي النائمة، وأغلق باب الشرفة محدثًا صوتًا عاليًا.

شاهدت كريبا الخادمة، وهي تمضغ ورقة شجر مخدّرة، السماء الرصاصيّة المترامية الأطراف من فوق النهر، والسحابة التي ازدادت حلكة وانتفاخًا وهي تزداد قوّة وسرعة وهي تندفع في اتّجاه المنزل. وقبل أن يفعل التبغ الملفوف في الورقة فعله، غطّت السحابة السماء، والتمعت صفحة ماء النهر الرائق وتبدّد لمعانها عندما لطم الماءُ الماءَ. وجمعت الرياح قوّتها، ومالت أشجار جوز الهند من على جانب البيت وكأنّها امرأة مخبولة العقل، كثّة الشعر، تحاول ملامسة الأرض. وفي منطقة قريبة، تناهى إلى الأسماع صوت شيء يسقط ويتحطّم.

فهرع الخادم إلى الطبقة العليا مرتقيًا السلالم درجتين درجتين محاولاً كبح جماح ثياب الساري المتمرّدة من على حبل الغسيل المثبت على كِلا جهتي السطح، وجذبها في قوّة ووضعها فوق كتفيه. . ولم يتوقّف إلّا لينحني من فوق الحاجز وينادي كريبا:

ـ انظري إلى المطر!

أمطرت السماء في غزارة، وكانت كلّ قطرة كبيرة الحجم تدفع أيّ زهرة إلى الارتعاش والتهدّل بسبب من قوّتها. والتقت السماء بالنهر.

في حين هطلت الأمطار على مدى ثلاثة أيّام، كان الأهالي يتبادلون التعليقات عن قوّتها وشدّتها، وهما أمران غير طبيعيين. فقد

تطايرت سقوف الأكواخ المبنيّة بالطين والقصب مسافات بعيدة وسط الرياح، وأحرق البرق من فوق الحقول مجموعة من أشجار الأريقة.

ونادى بابو بيكاش الخادم والبستاني للذهاب إلى الشرفة، وكان وجهه الليّن قد شوّهته تقطيبة، وزمجر:

ـ ألا يشاهد أيّ واحد منكما ما يحدث؟ ألا تريان الكراسي تحت المطر؟

فنظر الاثنان إلى أصابع أقدامهما.

ـ إلى أيّ شيء تنظران من فوق الأرض! هيّا ارفعا الكراسي! خذاها إلى داخل المنزل، فسوف تتعفّن قوائمها! وبدأ يرفع بنفسه أحد الكراسي الثقيلة من دون أن يتمكّن من المضي بها مسافة كافية.

فهتف البستاني:

ـ لا، لا، يا بابو! ما الذي تفعله؟

ثم اندفع إلى الكراسي وصاح بالخادم:

ـ هيًّا، تعال إلى هنا أيّها الغلام، فالكراسي لن تنتقل من هذا المكان بمفردها.

كانت الكراسي كبيرة الحجم وثقيلة الوزن، وكانت تميل إلى الوراء ميلاً يكفي لكي يأخذ المرء سنة من النوم في راحة. وبذل الخدم ما في وسعهم لنقلها.

في نهاية الأسبوع، كانت ثمّة ضرورة لرفع السجّاد من فوق الأرض وحفظه، وبدأ بابو بيكاش يرتدي قميصه ويرفعه قليلاً إلى أعلى كاشفًا بذلك عن ربلة ساقه الملساء والنحيلة. وحاولت شانتي ألّا تنظر إلى والدها عند ارتقائه السلالم إلى الطبقة العليا، وجلوسه على حافّة كرسي بجانبها مشتّت الأفكار.

أطلّا من وراء النافذة وتكلّما على عادة الناس.

وكان بابو بيكاش يقول:

ـ كيف تشعرين. آه! لو كانت أمّك على قيد الحياة لما راودني قلق.

وكانت شانتي تقول:

ـ هل تظنّ يا أبي أنّ البيت في خطر؟

بدأ صوت بابو بيكاش أكثر حدّةً ممّا كان يريد:

ـ لماذا؟ أهو مشيّد بالطين؟ ألم تشاهدي بأمّ عينيك مدى صلابة الجدران؟ ألا تتذكّرين كيف تكسَّرت أدوات العمّال المعدنيّة الصلبة عندما حاولوا هدم جدار المطبخ القديم؟

وبدأت شانتي كلامها قائلة:

ـ راودتني فكرة فحسب في ضرورة انتقالنا إلى. . .

قاطعها بابو بيكاش:

ـ ما من شيء يتطلّب منك التفكير فيه. إنّنا نمرّ بهذا الكلام الفارغ كلّما هبّت رياح موسميّة. وهو ما حدث لأبي وجدّي. فبعد أسبوع أو أسبوعين، سوف يقلّ تساقط المطر، وينخفض مستوى الماء. أيّام قليلة بلا أمطار تكون كافية.

دفع بابو بيكاش كرسيَّه إلى الوراء وغادر الغرفة لكي يتناول وجبة غذائه. أمّا شانتي فوضعت وجهها على وسادتها. كانت تقف على قدميها كلّ يوم تقريبًا أثناء الأشهر الستّة الأولى من حملها، وها هي الآن تعاني الشقيقة التي تفصل وجهها إلى نصفين وتجعلها راغبة في خلع رأسها. وكان جلدها قد تمدّد واكتسب لمعانًا ورقّة وكأنّه منديل ورقي

يحول من دون حدوث مدّ. ولو وخزت نفسها بإبرة فسوف يسيل ما في داخلها كما ظنّت. كانت تراودها أحلام في الليل فتخشى النوم من جديد. وفي بعض الليالي كانت الحلي المزوّدة برأس أفعى لكلّ واحد منها، والتي كانت حماتها قد وهبتها إيّاها، تضيّق من حول عنقها مثل أنشوطة فتستيقظ من نومها، يدقّ قلبها دقّات عنيفة.. وما تزال تسمع صوت حماتها يرنّ في أذنيها وترى فمها وقد التوى في ازدراء وهي تلفظ تلك الكلمات مرّات ومرّات. ولفظت الكلمة «غانية» فتموج شعرها. «اذهبي وغنّي في الشوارع أيّتها الغانية». وفي ليلة أخرى رأت شانتي نرمال يغرق في النهر رويدًا رويدًا، شيئًا فشيئًا، مناديًا إيّاها في يأس: «أخرجيني. أعطني يدك، استدعي شخصًا ما». رفع بصره إليها متوسّلاً. ولكنّه لم يكن قادرًا على الحركة، فتوقّفت وراقبت الماء وهو يغطّي قمّة رأسه، وينسكب من على جانبيه، ويجري في اتّجاه المنزل، حاملاً، وإيّاه أعشابًا من الفصيلة الخبّازيّة.

أخذت شانتي تفتح عينيها وتنظر إلى البلابل اليقظة العيون فوق شجرة الباكول كي تفرغ رأسها من الصور التي احتشدت فيه.

كانت كريبا تقدّم السمك لبابو بيكاش في غرفة الطعام؛ وكانت أكبر منه ببضع سنوات، ولهذا فكّرت أنّ من حقّها أن تقول ما يحلو لها:

ـ ما هي إلّا بضعة أيّام ولن تجدي نفسك مضطرة بعدها إلى شراء الأسماك، لأنّها سوف تسبح فوق طبقك.

ولمّا لم تلق جوابًا، استأنفت كلامها:

ـ لقد اضطررت إلى وضع عدد كبير من الآجر من تحت المدفأة كي ترتفع فوق مستوى سطح الماء! إنّني أفرم اللحم وأقطّعه من فوق الطاولة، ولم يعد في وسعي الجلوس القرفصاء على الأرض! هل يمكن

لمن هي في مثل سنّي أن تعمل وهي واقفة زمنًا طويلاً.

بان الوجوم على وجه بابو بيكاش، وقال:

ـ ما فائدة التذمّر؟ ما الذي يمكنني أن أفعله. فأنا لم أكن السبب في تساقط الأمطار. صحيح؟ ثم إلى أين نذهب بعد أن نهجر بيتنا؟ هل القضيّة هي قضيّة أسابيع قليلة؟

وقالت كريبا:

ـ ستنمو لي في غضون أسابيع قليلة زعانف وحراشف. أتدري، إنّني باقية في هذا البيت بسبب تلك الفتاة البائسة الرقيقة كالزهرة، وبلا أمّ. لو كانت أمّها هنا...

ثم عادت إلى المطبخ، قدماها في الماء المنتشر على الأرضيّة، والتفتت لتلقي نظرة إلى بابو بيكاش وغمغمت:

ـ الله يعلم كيف يمكنه أن يأكل مثل اللقلق، يلتقط الطعام وهو مغمور في الماء حتى كاحليه.

* * *

واستمرّت الأمطار.

وفي خضمّ صوت طرقات الماء، صكّت أسماع كريبا صرخة، وكان اسمها واردًا في الصرخة، فما كان منها إلّا أن ارتقت السلالم في عجالة وهي تسمع اسمها يقترب متقطّعًا من أذنيها «كريبا ـ دي، كريبا ـ دي»، وعند وصولها الطبقة العليا شاهدت شانتي تتشبّث بطاولة تستند إليها وقد تسمّرت في مكانها من فوق بركة بين قدميها، مبللّة الثوب. وتأوّهت شانتي متسائلة:

ـ ما الذي يحدث لي يا كريبا ـ دي؟ ما هذا الذي يخرج منّي؟

فما كان من كريبا إلّا أن نادت على أحد الخدم:

ـ أسرع أيّها الغلام! أين أنت؟ أذهب وأحضر والدة جوناكي!

رفع الغلام من مئزره إلى أعلى. كانت والدة جوناكي، وهي قابلة في القرية، تسكن وراء حقول الأرزّ وبركة القرية، وهي مسافة يصعب اجتيازها أثناء هطول المطر. وأسرع الغلام ليأتي بمظلّة وإن كانت لا تفيد كثيرًا تحت زخّات المطر المنهمرة من السماء.

حثّت كريبا خطاها إلى حجرة المكتبة حيث كانت تتوقّع أن تعثر فيها على بابو بيكاش، ولكنّها لم تجد أحدًا فيها، ولكنّها على الرّغم من ذلك لبثت واقفة وكأنّها مشلولة الحركة. كانت الرفوف الدنيا من الكتب لا يمكن رؤيتها بالعين المجرّدة إلّا قليلاً من خلل الماء الموحل الذي بدأ يأخذ بالارتفاع أمام ناظريها. انزلقت صفحة من ورق وارتعشت الكتابة من فوقها قبل أن يسيل الحبر ويجري مثل دوّامة زرقاء اللون. وطافت ورقة شجر واجتازت قوائم الكرسي. أمّا على الطاولة، فثمّة صورتان، الأولى لشانتي والثانية لوالدتها، وكانتا تبتسمان في هدوء وترنوان إلى أسفل حيث الماء. فالتقطت كريبا الصورتان وخاضت في الماء يائسة.

ووجدت نفسها وجهًا لوجه أمام الخادم عند السلالم وحدّقت إليه في فزع.

ـ أما زلت هنا أيّها المغفّل! كيف سيولد الطفل في رأيك إن بقيت واقفًا في هذا المكان؟ اذهب واحضر والدة جوناكي!

لكنّ الغلام ردَّ في صوت خفيض أجش:

ـ لكنّ النهر اخترق ضفّتيه، وإذا خطوت خطوة واحدة خارج البيت، فإنّ المياه سوف تصل إلى رقبتي، ولا بدَّ أنّ الطبقة الأرضيّة من

البيت غارقة بالمياه الآن.

أسرعت كريبا تعدو على السلالم من جديد وهي تشهق، وشعرت بألم في ركبتيها، وفي منتصف الطريق آلمتها ركبتها اليمنى ألمًا شديدًا لم تعد تقوى عليه، فاضطرت إلى التوقّف والضغط على أسنانها حتى هدأ الألم قليلاً. وهنا صادفت بابو بيكاش يميل على أحد أعمدة الشرفة العليا، محدّقًا في النهر المنتفخ، عيناه غائرتان في رأسه، والطبقة الجلديّة المحيطة بهما تكسوها التآليل. وفي لحظة من الزمان نسيت كريبا عمرها الذي أنفقته في محاولة احترام سيّدها وصاحت في أعلى صوتها:

ـ أنظر إلى أين أوصلتنا الآن! عنيد مثل بقرة تسمّرت في منتصف الطريق! ماذا سنفعل في هذا الوقت؟ ألم أقل إنّنا ينبغي أن نرحل من هذا المكان؟ أنظر الآن إلى الفيضان، وإلى الطفل الذي يُولد الآن!

ردّد بابو بيكاش:

ـ الطفل!

ـ إنّك لا تعلم أنّ المسكينة شانتي بدأت تعاني آلام المخاض! ولادة قبل شهر من موعدها! هل تلاحظ أيّ شيء؟ ولا يستطيع أحد الخروج لإحضار القابلة! هل تتوقّع منّي أن أتذكّر كيف أساعدها في ولادة الطفل؟

ابتعد بابو بيكاش ونظر إلى الخارج. كان قميصه القطني شفّافًا من جرّاء ماء المطر، يكشف عن جسده اللامع في الأماكن التي التصق عليها.

وقال متمتمًا:

ـ سوف ينهار المنزل اليوم بسبب النهر الذي كسر ضفّتيه وهو الآن

يبحث عن مسار جديد.

لكن كريبا لم تسمعه جيّدًا بسبب هدير الأمطار، فسأل:

ـ أيمكنكِ سماع هدير الأمطار؟ أيمكنكِ الإحساس بقوّتها؟

حاولت كريبا أن تقاطعه، ولكنّها تخلّت عن الفكرة وعادت مسرعة إلى شانتي.

ـ سوف يستولي النهر على هذا المنزل. إنّ هذه القصور الضخمة ليست سوى رمز للغطرسة. كان جدّي يتباهى بالرخام الإيطالي، وسيصبح هذا الرخام الآن فراش النهر؛ سوف تسبح الأسماك داخل الرفوف المصنوعة من أرقى أنواع خشب السّاج وخارجها، وتقضم منحوتاتنا العاجيّة؛ وتضع الضفادع بيوضها في أوانينا الخزفيّة الإنكليزيّة، وتلتفّ أفاعي الماء من حول أعمدتنا؛ سوف تتهاوى النوافذ ويجرفها الماء حتى تصل البحر. ويحدّق تمثال جدّي النصفي إلى الأعشاب.. سوف يلوّن حبرُ جرائدِنا بلون أسود، وتتفتّح براعم الطحالب في أماكنها، وتطفو الأسرّة والمراسي مثل قوارب، وتخلو الغرف فاسحة المجال أمام الأسماك كي تقتات عليها.

وانهمرت أمطار خطوطًا حادّة من فوق الشرفة وبلّل النسيم ثيابه ووجهه الذاهل، وتمتمت شفتاه همسًا بكلمات غير مسموعة:

ـ الغطرسة، الغطرسة!

* * *

خمسة

تلك السحب التي تجمّعت من فوق مدينة مانوهاربور وتفجّرت عليها قبل أسبوعين لم تتوّقف عند بلدة سونغارة. فقد تساقطت أمطار كافية لكي تملأ بركة الماء الضحلة قرب القلعة وتغسل الأشجار من الغبار العالق بها وتساعد الأرض على أن تتنفّس هواءً دافئًا ورطبًا. وبعد أن توقّفت الأمطار القليلة، انطلق نرمال إلى مدرسته وكمال وأموليا إلى المعمل.

هدأ المنزل، كعهده دائمًا، بعد أن انصرف الرجال إلى العمل. وبعد فوران الماء الساخن للاستحمام، وبعد الفطور وكيّ الملابس في آخر لحظة، بدأ المنزل يتنهّد في ارتياح على أثر خلوّه. وران سكون قبل أن تتناهى إلى الأسماع أصوات الطحن والقلي وبقيّة أشغال المطبخ. كان صوت البستاني مسموعًا وهو يسحب الماء من البئر لسقي النباتات

التي كانت ذاوية، متغضّنة في حرارة أواخر فصل الصيف. وكان الحبل يهبط أسفل البئر ويصعد من جديد في رتابة مختلفة. تشاجرت الخادمة مع أحد الخدم في ركن من أركان الفناء، وفرغت مانجولا من نقاشها اليومي مع غورانغا عن المدّة التي بقيت فيها الأسماك ميتة قبل أن يأتي بها إلى المنزل. ثم انطلقت نحو المطبخ تصبّ اللعنات:

ـ ولا أحد يمدّ لي يد العون لتقطيع الخضراوات بعد اليوم، فقد سافرت شانتي، وبقيّة الناس مرضى... اطحني الخردل أيّتها المعتوهة بالفلفل الأخضر الحارّ، بالفلفل الأخضر الحارّ.

وبعد برهة وجيزة سُمع صوت هسيس الزيت يرتفع بالخضراوات والسمك. ومرّ الوقت، وسقطت ثمرة سفرجل محدثة صوتًا قويًا في الحديقة، فما كان من غورانغا إلّا أن خرج والتقطها من فوق الأرض ليصنع شرابًا من لبّها البرتقالي الزكي الرائحة.

وأخيرًا، فرغت مانجولا من وضع الطحين والكريما على وجهها، وذهبت إلى الحمّام للاستحمام من جديد.

رنّ الجرس.

ففتح غورانغا الباب ووثب بعيدًا عنه، إذ رأى لاريسا بارنوم ومن ورائها حاجبها بزيّه الرمادي وقبّعته الرماديّة وأزراره البرونزيّة.

أمرته قائلة:

ـ اسألهم!

فسأل الحاجب غورانغا:

ـ أين أمّك؟ السيّدة تريد رؤيتها.

فتلعثم الخادم:

ـ في الطبقة العليا، ولكن...

سألت السيّدة بارنوم:

ـ ماذا يقول؟

ـ ... يقول إنّها لا تريد رؤية أحد.

فترجم الحاجب العبارة، فهتفت السيّدة بارنوم:

ـ يا له من كلام فارغ. إنّني مضطرة إلى رؤيتها، فإذا كانت في الطبقة العليا، فسوف أرتقي السلالم إليها.

وهكذا استقبل المنزل رقم ٣ في دولغانج رود أوّل زوّاره البريطانيّين، زائرًا صعد إلى غرف النوم في الطبقة العليا، حيث جالت السيّدة بارنوم ببصرها وأنظارها المستطلعة من حول أوّل بيت هندي تدخله وهي ترتقي السلالم المعتمة المؤدّية إلى شرفة أموليا الملوّنة الزجاج ومنها إلى غرفة نومه. وكان لوقع كعبيْ حذائها العاليين صدًى من فوق الأرضيّة الباردة والصلدة. ولمّا سمعت مانجولا الصوت الغريب في الحمّام ومن خلل شلّال الماء تساءلت عمّن يكون صاحب الصوت، ولكنّها سرعان ما عادت إلى دلوها ودورقها.

واندفعت السيّدة بارنوم مسرعة داخل غرفة كانابالا وقالت في صوت مرح.

ـ حسنًا. ها أنت هنا، وقد التقينا أخيرًا!

جفلت كانابالا ووثبت من مكانها هاتفة:

ـ آه، سيّدتي. ما هذا؟

أمرت السيّدة بارنوم الحاجب الواقف عند الباب:

ـ أخبرها!

قال الحاجب باللغة الهنديّة:

ـ ترغب سيّدتي في أن ترافقيها برهة وجيزة من فضلك. ولن يأخذ المشوار وقتًا طويلاً.

كانت كانابالا لا تفهم اللغة الهنديّة وإن لم تكن تتكلّم سوى اللغة البنغاليّة. ونظرت إلى الحاجب وإلى السيّدة بارنوم في دهشة شلّتها عن الكلام، إذْ بدا لها أنّها لم تغادر البيت منذ أمد طويل، ناهيك عن أنّها لم تغادره في صحبة غرباء. مستحيل. هكذا قالت.

قالت السيّدة بارنوم.

ـ غير معقول، غير معقول أبدًا.

ثم اتّجهت نحو كانابالا، وأمسكت بذراعها في قوّة محاولة أن تقودها خارج الغرفة.

وقالت في صوت يبعث على الطمأنينة:

ـ لا تقلقي. سنذهب إلى الجهة المقابلة من الطريق. لا شيء يبعث على القلق، وسوف ترجعين إلى المنزل قبل أن يعرف بخروجك أيّ شخص. ألا تدركين أنّ إحدانا تعرف الأخرى منذ زمن طويل ولكنّنا لم نلتقِ قطّ.

رفعت كانابالا وجهها إلى وجه السيّدة بارنوم الباسم والواثق والقريب منها. يا له من أمر غريب! ثيابها بلون بشرتها تمشي وهي تدفع بمنكبيها إلى الوراء. وتنبّهت إلى أنّ شحمتي أذنيها طويلتان ومثقوبتان بحجارة خضراء، أسنانها مصفرّة، تفوح منها رائحة السكائر والورود. سبق لكانابالا أن نظرت إلى السيّدة بارنوم على مدى أيّام وأماسي طويلة لا يفصل بينهما سوى طريق وحاجز نافذة ومسافة من الأرض، وبدا

الاقتراب منها أشبه بالمستحيل. وشعرت كانابالا بقوّة قاهرة تحول بينها وبين البقاء في الغرفة أكثر ممّا بقيت. وراودها الشعور في أنّ في مستطاعها أن تفعل أيّ شيء، أيّ شيء من أجل الخروج من المنزل، فنظرت إلى أسفل، باتّجاه ثوبها، فلاحظت أنّه ليس بذلك الساري الملائم للخروج، فعدّلت من وضعه قائلة:

ـ ينبغي لي أن أغيّر ثوبي!

لكن لم يسمع أحد تمتمتها القلقة.

تخلّت السيّدة بارنوم عن ذراع كانابالا وهي واقفة بجانب النافذة نفسها التي كانت تشاهد كانابالا تطلّ منها كلّ ليلة ملوّحة لها بيدها. تفحّصت المشهد من تلك النافذة وباتّجاه منزلها على الجهة المقابلة من الطريق، وشجرة البوغينفيليّة بجوار البوّابة، والنافذة في الطبقة العليا المسدلة الستارة في وجه العالم، ورواق العربات المسقوف في مقدّمة المبنى. وفكّرت لاريسا بما يمكن أن تكون كانابالا قد رأت في تلك الليلة. كم يبدو مختلفًا كلّ شيء من هذا الجانب من الطريق! ثم صكّت أسماعها أصوات همهمة من ورائها ومناداة على الخادم:

ـ حذاء. أعطها حذاءً!

تكهّنت كانابالا بما هو مطلوب منها، فذهبت ووضعت قدميها في حذاء مخملي جيّد الصنع، خمري اللون، كان أموليا قد ابتاعه لها ذات مرّة من متجر وايتوايز في كلكتا، ولم يسبق أن وضعته وسارت به من قبل. مشت واجتازت الشرفة وهبطت السلالم وخرجت من البوّابة ووصلت الطريق مفعمة في خيال دفعها إلى الترنّح. كان الضوء ساطعًا أشدّ ممّا ينبغي، والأشجار ناعمة وباسقة على غير عادتها. ولم تكن قد خرجت من المنزل في الغسق منذ شهور. منذ شهور وهي ترنو إلى

العالم الخارجي من إطلالتها من النافذة أو من ضوء المساء عندما يصحبها أموليا إلى الحديقة لتتمشّى. وتعثّرت ثانية، فأمسكت بها السيّدة بارنوم من مرفقها وقالت:

ـ تشجّعي، فكلّ شيء سوف يسير على ما يرام. كلّ ما هنالك هو أنّ الأمر قد يبدو غريبًا بادئ ذي بدء. أولاد الزنى! يحبسونك في الطبقة العليا.

وهنا فكّر الحاجب أنّ المستحسن عدم ترجمة كلّ كلمة ترجمة حرفيّة..

كانت السيّارة تقف خارج البوّابة، فجلس الحاجب في مقعد السائق بينما جلست المرأتان في المقعد الخلفي، وساور كانابالا شعور بالهلع واتّسعت عيناها وهي تنظر إلى السيّدة بارنوم متسائلة في صوت مرتعش:

ـ إلى أين نذهب؟

فهمت السيّدة بارنوم السؤال على الرّغم من أنّها لم تعرف اللغة. فضحكت ضحكة مرحة وقالت:

ـ مفاجأة. إنّها مفاجأة!

وترجم الحاجب العبارة ترجمة مناسبة وهو يدير المحرّك.

هدرت السيّارة إلى نهاية الطريق، وبدأت تسرع أكثر فأكثر، دفعت كانابالا إلى أن تطلّ من خارج نوافذها ذاهلة، يدقّ قلبها دقّات عنيفة بسبب السرعة وما يجري لها. ولم تستطع التركيز على شجرة واحدة أو مبنًى واحد أو أجمة من الأدغال عندما أضحى كلّ شيء جزءًا من الماضي. واندفعت الريح إلى شعرها وتسبّبت في هروب بعض الخصلات من تحت شعرها المعقود على شكل كعكة. أمّا حافّة الساري

فقد انزلقت من على رأسها، ولم يكن في وسعها فعل أيّ شيء لتثبته مرّة أخرى. سلّمت وجهها مكشوفة الرأس ومتطايرة الشعر للهواء المندفع الذي جعل عينيها تدمعان. وساورها إحساس النشوة، زاد من عزيمتها. إحساس لا تستطيع أن تتذكّر أنّها مرّت به بعد زواجها مباشرة.

* * *

عاد أموليا إلى المنزل في منتصف النهار، وهو ما دأب عليه، وجلس فوق مصطبة بجانب الباب الرئيس يخلع حذاءه وينادي:

ـ أين أنت يا غورانغا؟ أحضر لي قليلاً من الماء!

ثم نهض بعد أن وضع قدميه في الخفّ وارتقى السلالم في اتّجاه غرفة نومه. كان الضوء المتسلّل إلى الغرفة الطويلة المطلّة على الشرفة من خلل النافذة ذات الزجاج الملوّن رقيقًا ومنعشًا له مسحة الرياح الموسميّة. توقّف أموليا متأمّلاً ومتعجّبًا ومنتشيًا بفكرة شهر من الأمطار في أقلّ تقدير، ومدّ يده ليمسك كأس الماء التي أحضرها غورانغا.

وسأل مستفهمًا:

ـ أين القوم؟ البيت غاية في الهدوء، فما الذي يحدث؟

قال غورانغا:

ـ لا . . . شيء يا بابو.

ثم أمسك بقدح أموليا الفارغ وهرع خارج الشرفة وكأنّه مطارد، فراقبه أموليا يتوارى عن الأنظار وتمتم:

ـ معتوه. . . خمس عشرة سنة في الخدمة ولم يتعلّم شيئًا . . . ولا يستطيع معرفة الحصان من الحمار.

انعطف إلى غرفة نومه قائلاً:

ـ هل أنتِ هنا؟ لقد عدت.

ثم سأل من جديد بعد أن خطا داخل الغرفة:

ـ هل أنتِ هنا؟

ثم اختلس نظرة إلى مكان خلع الثياب الذي تحجبه ستارة.

وقف أموليا محتارًا، عاقدًا حاجبيه، مفكّرًا في المكان الذي قد تكون فيه كاناباﻻ. ثم اعترف على غير عادته أنّها قد تكون في حجرة مانجوﻻ، فجلس وفي يده الجريدة منتظرًا دعوة مانجوﻻ إيّاه لتناول وجبة الغداء. بسط الجريدة وبدأ يقرأ في الأعمدة الافتتاحيّة، ولم يكن الصمت ليقطعه شيء سوى حفيف الصحيفة وقرع أجراس البقر الرتيب.

وأدرك من معدته الخاوية أنّ وقتًا طويلاً قد انقضى، فترك الصحيفة جانبًا وكأنّ كلّ ما تحتويه كلام فارغ، ونهض.

صاح بأعلى صوته وهو يحدّق إلى الممرّ في اتّجاه كنّته الكبرى الغائبة:

ـ كنّتي!

فظهرت مانجوﻻ للعيان تمسح يديها في ثوبها وقد بدا القلق على محيّاها. وكانت في هلع شديد بسبب مزاج أموليا، شأنها شأن بقيّة أهل البيت.

تلعثمت عندما طرح أموليا السؤال وهي تقول:

ـ لقد خرجت الأمّ. كنت أستحم... السيّدة بارنوم... تسمّر أموليا في محلّه لحظة من الزمان، ثم ابتعد عنها من دون أن ينبس بكلمة. لقد تركت زوجته المنزل متحدّية إيّاه ـ وهي التي تعلم بالأنظمة والقوانين حتى في حالتها المضطربة ـ وهازئة بنفسها مع شخص غريب. وأنّ الشخص الغريب المقصود امرأة أنغلو ـ هنديّة قاتلة! لم يستطع ذهنه

أن يستوعب كلّ هذه الحقائق دفعة واحدة، ولهذا استدعى غورانغا وأرسله إلى الجهة الأخرى من الشارع ليعود بها، ولكنّه عاد بعد عشر دقائق من دون أن يملك الجرأة على الكلام.

لم يستطع أحد ممّن هو في منزل السيّدة بارنوم معرفة المكان الذي ذهبت إليه كانابالا، لأنّ السيّدة بارنوم وحاجبها أخذاها في سيّارتهما.

جلس أموليا في كرسيّه المجاور للنافذة وحدّق إلى الجدار المقابل له مشلول الحركة بسبب ثورته ودهشته. ولم يقدر على التفكير في العودة إلى المعمل. من أين يبدأ البحث عن زوجته؟ ما الذي تريد بارنوم أن تفعله بها؟ ربّما حدثت بعض التطوّرات في تحقيقات الشرطة وأنّ السيّدة بارنوم تبغي إسكات كانابالا. ربّما كذبت الشرطة على بارنوم وأخبرتها أنّ كانابالا توشك أن تشهد مقسمةً ضدّها، ولكن هل يمكن للمرء أن يخفي أيّ شيء عن امرأة قتلت زوجها من أجل عشيقها؟

جلس أموليا معتدلاً لا يتفوّه بكلمة لأيّ شخص، غير قادر على تهدئة فكره. تلصّصت مانجولا من خلل الباب ونظرت إلى وجهه الغارق في التفكير وجسده المتصالب، ومضت في سبيلها، وجلست في حجرتها تأكل في عجالة من أمرها وجبة خفيفة سرقتها لتعوّض بها عن وجبة الغداء المنسيّة. أمّا غفوة ما بعد الظهيرة فهي بعيدة عن التفكير. ماذا لو استدعاها حماها؟ وغمغمت في صوت خافت متذمّرة: يا لها من امرأة مثيرة للمتاعب! ما الذي تخطّط له هذه المومس العجوز؟

* * *

انطلقت السيّارة مسرعة من خوف طريق ملساء لتنعطف من بعد ذلك في شارع ضيّق كثير الحفر. وانتشرت من حولهم حقول معشوشبة وأرض رطبة تطلق روائح وحشائش نافرة أمام أعينهم مباشرة معبقة

بالمطر المتساقط منذ وقت قصير. ظلّت البيوت من ورائهم ولم تعد ثمّة مبانٍ سوى كوخ أحد القرويّين أو سقيفة حارس المحاصيل الزراعيّة. وازدادت المطبّات في طريق السيّارة فتمايلت وترنّحت أكثر فأكثر إلى أن مرّوا من أمام ظلّ شجرة يوكالبتوس ومساحة من حقل مفتوحة، وعندئذٍ عرفت كانابالا أين هي وإن كانت غير قادرة أن تصدّق عينيها.

ففي الجانب الآخر من الأفق، يمتدّ العمود الفقري لسلسلة التلال واضحًا، جليًّا، أقرب ممّا رأته في أيّ يوم مضى. ونظرًا لهذا القرب، فقد شاهدت الأدغال والأشجار من على السفوح بارزة، ممتدّة إلى الأرض المستوية التي باتت غابة والتقت قاع جدول جفّت مياهه. إنّها الغابة نفسها التي كان في وسعها مشاهدتها من نافذتها، الغابة التي فيها أسدها.

انحرفت السيّارة عن الطريق القذر وانعطفت من حول ناصية، وهنا قالت السيّدة بارنوم:

ـ والآن! هل شاهدت هذا من قبل؟

كانوا يقفون أمام أطلال القلعة. كانت السيّارة قد توقّفت، ولكن كانابالا لم تتنبّه إلى السيّدة بارنوم تمدّ يدها لتساعدها على الترجّل من السيّارة عندما خطت إلى أمام، متردّدة في بادئ الأمر، ثم أسرعت من بعد ذلك تحثّ خطواتها واسعة وقويّة في اتّجاه الجدران الصخريّة الموغلة في القدم، فلمستها بيد ملؤها الدهشة والعجب، ونظرت من حولها.. رأت شجرة تين البنغال الضخمة والمعمّرة التي نشرت مئات الأغصان في الهواء حتى تهدّلت ولامست الأرض. وقفت كانابالا بينها ورفعت بصرها إليها وهي متسامقة من فوقها. إنّها غابة مصنوعة من شجرة واحدة عملاقة. ولاحظت النسغ من على جذع الشجرة الرئيس

وقد بات معقودًا في شكل غريب، ولاح أقرب ممّا كان عليه سابقًا.

ترجم الحاجب الكلام الذي كانت تتفوّه به السيّدة بارنوم:

ـ يرمز هذا الشكل إلى وجه بوذا. يُقال إنّه كان يأتي للتأمّل في هذه البقعة. ويفترض بالشجرة أن تمنح السلام للناس. إنّها تمنحني السلام!

ثم ضحكت واستأنفت كلامها:

ـ هل نوغل في التقدّم أو نلبث في مكاننا؟

فقالت كانابالا:

ـ بل نتوقّف!

ـ حسنًا. أحضر سلّة الطعام أيّها الحاجب، وأحضر البساط أيضًا.

ثم تقدّمت السيّدة بارنوم إلى أمام وهي تنادي:

ـ تعالي. ثمّة ما هو أكثر هنا!

ثم مدّت يدها إلى كانابالا من جديد وجذبتها من ورائها. شاهدت كانابالا حذاءها المخملي، الخمري اللون الذي ظلّ ملفوفًا في ورقِهِ الخفيف سنوات طويلة، وقد بات عسلي اللون لما علق به من طين ووحل. وافترّ ثغرها عن ابتسامة مفاجئة ومتألّقة تنمّ عن سعادة تخلو من التعقيدات، ثم شاهدت بركة ضحلة من المياه، وعلى الأرض المحيطة بها نقش من زخرفة عربيّة باهتة. وكادت أن تركض في اتّجاه الماء ركضًا تعوزه البراعة، متذبذبًا، يعوق ثوبها حركة ساقيها. تركتها السيّدة بارنوم تمضي في طريقها وهي تراقبها. كانت بركة الماء باردة بسبب تساقط مياه المطر مؤخّرًا، ولم تكن عميقة، غير أنّ كانابالا نسيت أنّها امرأة في الخمسين من عمرها فخلعت حذاءها كالأطفال وغطّست أصابع قدميها أوّلاً ثم تركت قدميها تنزلقان وترتعشان عند لمسهما الماء البارد.

كانت السيّدة بارنوم منشغلة بسلّة الطعام. أمّا الحاجب، فقد بسط بساطًا برّاقًا مقلّمًا ومن فوقه غطاء مائدة غطّى جزأه الأوسط، وأخرج بضع علب من السلّة وزجاجة، كما أخرج الشوكات والمحارم، وبعدها تراجع إلى الوراء وقال بلغة إنكليزيّة:

ـ سوف أنتظر في السيّارة.

فقالت السيّدة بارنوم غير متأكّدة:

ـ نعم، أظنّ...

ثم أضافت:

ـ نعم، إذهب إلى السيّارة، وسوف أناديك إن احتجت إليك. شكرًا لك.

رأت كانابالا السيّدة بارنوم تجثم بجوارها وثوبها الأزرق كالطاووس في التراب، وكان في يدها زجاجة وخيط.

وغمغمت في نفسها:

ـ آه، دعينا نشاهد... أم م م. نعم.

ثم أحكمت شدّ عنق الزجاجة بالخيط ووضعتها في مياه البركة. وأمسكت بالنهاية الأخرى للخيط وربطته بشجرة، وفركت يديها فرحة وهتفت:

ـ الآن تبدأ نزهتنا.

* * *

عندما كان وقت الظهيرة في أشدّ حالات الصمت والسكون، تناهى إلى الأسماع صوت شخص ما أمام المنزل رقم ٣ في دولغانج رود. فجاء خادم إلى الطبقة العليا حيث غرفة نوم أموليا ومن ورائه شخص

غريب، أصلع الرأس، نحيف البنية يرتدي مئزرًا مجعّدًا وقميصًا رمادي اللون تعلوه بقع العرق. وكان يضع تحت ذراعه مظلّة سوداء، طويلة ومطويّة، ذات مقبض خشبي. وفي يده الأخرى، حقيبة صغيرة مصنوعة من قماش، قديمة وباهتة اللون تشبه الحقائب التي يستعملها الأهالي عند شرائهم الخضراوات من السوق. دخل الغرفة ووقف صامتًا بضع دقائق، ثم فتح فاه كأنّه يريد أن ينطق بشيء ما ولكنّه أغلقه ثانية. وبعد أن فعل هذا الشيء بضع مرّات قال أموليا:

ـ أجلس! من أين أتيت؟

لكنّ الرجل لبث واقفًا.

كرّر أموليا وقد بدأ نافد الصبر قليلاً:

ـ اجلس من فضلك. ما خطبك؟

لم يعتقد أموليا أنّ الرجل من أهل سونغاره، لأنّ ثيابه تدلّ على أنّه من ريف البنغال. ورأى أموليا نذر شؤم أمامه. ثم بدأ الرجل يتكلّم.

وبعد مرور بضع دقائق، فرغ من الكلام الذي اضطُرّ إلى البوح به. ومال ظهر أموليا المعتدل عادة في شبه دائرة وغار وجهه العظمي أكثر من ذي قبل. ثم وضع يديه على عينيه كأنّه لم يعد في وسعه تحمّل ضوء النهار بعد الآن.

وتناهى إلى سمع غورانغا الذي كان يحوم من حول المكان صوت أنين، صوتٌ هو بين الأنين والبكاء قادم من داخل الغرفة، فتراجع بضع خطوات إلى الوراء مذعورًا. وتساءل في نفسه عمّا يمكن أن تكون كانابالا قد فعلت، فشعر بابو أموليا بهذا الشعور. أين يمكن أن تكون!

* * *

جلستا على البساط وتحت شجرة قديمة وارفة الظلال، ولكن كانابالا لم تستطع أن تتبيّن معظم الأكلات المفروشة. كانت ثمّة قطع دقيقة من الشطائر الرقيقة الملفوفة بقماش جبنة رطب. وكشفت علب الغداء عن بسكويت بالكريما وأصابع شوكولاتة. وكانت إحدى العلب عميقة الشكل تحتوي على قطع صغيرة من الكعكة المزيّنة بالكشمش الأحمر كالياقوت، أخرجت السيّدة بارنوم جبنة وسكّينًا، وفتحت علبة من حليب مكثّف وغمست إحدى أصابعها فيه قائلة:

ـ جرّبيه، فهو ممتاز!

ثم غمست إصبعها من جديد.

سرت رجفة في أوصال كانابالا لما رأت ذلك، وفكّرت في نفسها: كيف يمكن لها أن تأكل أيّ شيء ملوّث بلعاب شخص آخر. فحاولت أن تبتسم، وأمسكت بقطعة بسكويت ولكنّها فكّرت إن كانت قطع الخبز تحتوي على لحم داخلها، أو إن كانت الكعكة تحتوي على البيض؟ ولكن ألن تشعر السيّدة بارنوم بالامتعاض إنْ هي لم تأكل؟

وهكذا بدأت تثرثر قلقة:

ـ عاهرة، غانية، ابنة شيطان! دجاجة مصابة بمرض السفلس!

وقالت السيّدة بارنوم:

ـ المؤسف أنّ إحدانا لا تستطيع فهم الأخرى! سوف نستمتع كثيرًا.

قضمت كانابالا قطعة البسكويت متمتمة بعبارات تنمّ عن فزع من خلل الفتات.

وقالت السيّدة بارنوم:

ـ لا بدَّ أنّ زجاجة النبيذ باردة الآن قليلاً. دعيني ألقي نظرة.

ثم أخرجت الزجاجة من الماء وفحصتها قليلاً، ومضت تقول:

ـ نعم، لا بدّ أنّها بردت.

ثم أمسكت مفتاح سدادة فلّين أخرجته من السلّة ونزعت السدادة، بينما انهمكت كانابالا في مراقبتها متطلّعة، وسكبت مقدارًا من السائل ذي اللون الأحمر الغامق في قدحين بلّورين خاصّين بشرب النبيذ. ثم قدّمت على نحو احتفالي أحدهما إلى كانابالا، وقالت:

ـ في صحّتك. هيّا اشربي، لا أحد يراقبك هنا. جرّبيه!

كانت كانابالا تعرف شيئًا عن كؤوس النبيذ. ففي المجلّات ثمّة طبعات منقوشة على الخشب تبيّن رجالاً فاسدي الأخلاق والخلق يحتسون الشراب من هذه الكؤوس. وكان يُقال أيضًا إنّ ممثّلات المسرح المبهجات للحواسّ والمتحرّرات خلقيًّا في كلكتا يشربن من مثل هذه الكؤوس. فهزّت رأسها رافضة.

قالت السيّدة بارنوم مبتسمة ابتسامة دمثة:

ـ إنّه طيّب، نبيذ لا أكثر وليس شرابًا كحوليًّا، وهو حسن المذاق.

كانت تأمل في أن يطمئن كلامها كانابالا، ولكنّ الأخيرة التي لم تفهم شيئًا ممّا كانت تقوله السيّدة بارنوم، هزّت رأسها من جديد وصرفت أنظارها إلى البركة.

وقالت السيّدة بارنوم في اكتئاب:

ـ كان ينبغي لي أن أحضر ليموناضة. أحيانًا أكون حمقاء. كان ديغبي على حقّ، فأنا بلا عقل، ولا أفكّر مليًّا في الأشياء. وكان يردّد دائمًا أنّني حمقاء وغبيّة. إنّه دمي الهجين، دمي الفاسد، غبائي.

كانت السيّدة بارنوم تكلّم نفسها تقريبًا وهي ترشف رشفات سريعة من النبيذ من دون أن تلمس الطعام.

رفعت كانابالا بصرها إلى المرأة الجالسة بجانبها. وفكّرت أنّها في مقتبل العمر، وأنّها في الثلاثينيّات من عمرها أو ربّما أكبر قليلاً ـ لعلّ اللون على خدّيها أحمر.

كان وجه السيّدة بارنوم دقيق التقاطيع، بارز العظام فوق رقبة طويلة تظهر مثل جذع من داخل ثوبها. وثمّة عقدة تبرز في رقبتها ومن تحت سطح جلدها الرقيق أثناء الكلام. وكانت أصابعها تُطبق على الكأس في إحكام، تهزّ رأسها وهي تتحدّث، ثم تتوقّف لتواصل الكلام بعد قليل. راقبتها كانابالا في افتتان، ولم يكن يهمّها إن كانت لا تفهم شيئًا ممّا تقول. كانت تعلم أنّ السيّدة بارنوم تقول شيئًا مضطرّة إلى قوله، شيئًا لا تقدر على الإفصاح به إلّا لها شخصيًّا، لكانابالا.

شقّ طائر من طيور الرفراف طريقه باتّجاه بركة الماء بعد أن أمضى بضع دقائق حاطًّا من دون حراك على إحدى الأشجار، زرقة جناحيه تماثل زرقة ثوب السيّدة بارنوم. وهنا جذبت كانابالا في غمرة حماستها شوكة وأشارت إلى الطائر.

نظرت المرأة الشابّة إلى المرأة المسنّة في فزع وكأنّها أدركت الآن أنّها ليست وحيدة. ثم ضحكت ضحكة قصيرة معتقدة أنّها كانت تفهم ما تقوله كانابالا، وقالت:

ـ نعم، كان ديغبي يعتقد حقًّا أنّني طائر صغير، متبختر ولا فائدة منه ـ أظنّني كذلك.

ثم رشفت رشفة أخرى من نبيذها وتنهّدت وهي تسترسل في حديثها:

ـ يا للمأزق الذي تورّطت فيه! يا للمأزق الشنيع!

ثم غشيتها لحظات تأمّل أصغت فيها إلى الطيور، ثم بدأت تتكلّم ـ وتتكلّم ـ وراحت تشعر بإحساس غريب بالخفّة يسري في أوصالها. وغمرها إحساس أنّ كاناڤالا تفهم ما تقول تمامًا ولكنّها عاجزة عن قول أيّ شيء. فتكلّمت مخاطبة الأطلال وكاناڤالا من دون توقّف إلّا لشرب مقدار قليل من النبيذ لترطيب حنجرتها. تكلّمت على أيّام طفولتها وعلى ديغبي ومغازلته إيّاها وعلى ديغبي وهو يضربها بحزامه، وفي يوم ما ضرب وجهها بأحد الأبواب. وتكلّمت على عشيقها والأشياء التي فعلها ولم يكن ديغبي ليفعلها. وتحدّثت بكلمات لم تكن تفكّر يومًا ما أنّها ستتفوه بها، وعن السهولة التي انزلقت بها السكّين في بطن زوجها أوّلاً، ثم في مكان آخر لا تعرف ما هو. وتحدّثت عن الدم وعن مقاومة الجلد وعن عرقلة العظام والألم الممضّ في فؤادها وبين ساقيها وفي تجويف معدتها بسبب عشيقها الهارب.

وأخيرًا شعرت السيّدة بارنوم بالإنهاك، فمدّت ذراعيها من فوق ركبتيها ودفنت رأسها بينهما.

بدت كاناڤالا وهي توشك أن تتّخذ قرارًا ما بعد أن رأت السيّدة بارنوم منكّسة الرأس. فأمسكت بالكأس البلّوري ورشفت رشفة كبيرة وهي تلوي شفتيها لمذاق الشراب. وشهقت لما شعرت بحرارة غير مألوفة في داخلها. فرفعت السيّدة بارنوم رأسها عندما سمعت صوت الشهقة وابتسمت غير مصدّقة لكاناڤالا التي صعَّرت خدّها، ورشفت رشفة أخرى طويلة ترنو إلى السيّدة بارنوم في خوف ونصر.

فابتسمت لها السيّدة بارنوم ابتسامة أعرض من سابقتها، والتمعت عيناها ببريق النبيذ والشمس المجلّلة بالسحاب، ومالت وقرّبت فمها

الرطب بشراب النبيذ من وجنة كانابالا وطبعت عليه قبلة رقيقة.

* * *

في حين كانت كانابالا ترشف رشفتها الأولى من النبيذ، خرج أموليا من غرفته رابط الجأش، معتدل القامة.

وقال مخاطبًا غورانغا الذي مكث بجانب الباب:

ـ تعال إلى هنا. أرسل شخصًا ما إلى مدرسة الأخ الأكبر. عليه أن يسرع وإذا ما وجد عربة، فأخبره أن يستقلّها، سوف يعود بنرمال إلى هنا. وإذا كان نرمال منشغلاً في التدريس في أحد الصفوف، قل له أن يقاطع الدرس وأن يذهب إليه، ويعود به إلى البيت من فوره. هل فهمت؟

أومأ غورانغا برأسه وهبط السلالم وهو يعرج، مسرعًا بالقدر الذي تسمح له به ركبتاه المصابتان بداء المفاصل. كان يعلم أنّ الزائر الغريب حاضر في مكان ما من الطبقة الأرضيّة وسوف يكتشف منه ماذا حدث.

وكما خمّن، فقد كان الغريب جالسًا في المطبخ يمسك كأسًا يحتوي على شيء ما، ومن حوله وقف في ذهول وفي نصف دائرة البستاني شيبو والخادمة. اندفع غورانغا وصرخ:

ـ أسرع أيّها الغلام! ثمّة عمل ينبغي القيام به!

وبعد أن أرسل شيبو إلى مدرسة نرمال وتيقّن من هو السيّد في المطبخ، جلس وهو ينخر بجانب الغريب، وقال:

ـ أخبرني إذًا. ما الخبر الذي تحمله؟ يمكنني أن أرى أنّك لا تحمل خبرًا سارًّا. لا شيء يبعث على السرور.

ثم أشعل لفافة تبغ رخيصة.

وبعد أن قدّم الغريب عددًا من الحجج، انطلق في الحديث من غير تردّد. وبدا أنّ الحدث الحقيقي الذي جرى قبل خمسة أيّام، والذي يصعب فهمه قد تحوّل إلى رواية، إلى شيء يحدث لأبطال القصص والروايات. وضع رأسه بين يديه من جديد، متظاهرًا باليأس الذي شعر به حقًّا في الأيّام القليلة الأولى، وبدأ يتكلّم وهو يتنهّد تنهّدًا عميقًا تشبُّهًا لاواعيًا ببطل رئيس شاهده يمثّل في أحد المسارح الشعبيّة.

* * *

بعد أن عاد نرمال أدراجه إلى البيت في آخر الأمر، وهرع مسرعًا إلى أبيه، كان أموليا، على العكس من الغريب، غير قادر على التعبير بالكلمات عمّا سمعه. فإذا كان قادرًا على أن يفصح القول عمّا حدث، يعني القدرة على فهمه واستيعابه وهضمه، وإلى حدٍّ ما، قبوله. تنحنح وطلب من ولده أن يجلس بينما توجّه هو إلى النافذة وقفل راجعًا من جديد. وللمرّة الأولى في حياته، قال نرمال في حدّة مخاطبًا والده.

ـ ماذا حدث؟ هل يمكنك أن تخبرني بما جرى؟ ما الموضوع؟

تكلّم والد نرمال وذكر أنّ فيضانًا عظيمًا حدث في مانوهاربور وأنّه اقتحم المنزل وعزله عن كلّ شيء، وأنّ شانتي جاءها المخاض في وقت مبكر جدًّا، قبل أوانه بشهر كامل، ولم يتمكّن أحد من الخروج من البيت لإحضار طبيب في وقت مناسب، وأنّ الخادمة التي كانت تفقه قليلاً في أمور الولادة بذلت أقصى ما في وسعها، ولكن لم يكن في الإمكان إلّا إنقاذ الطفلة وحدها وأمّا شانتي فلا. إنّها طفلة في تمام الصحّة والعافية، ولكن بأيّ ثمن باهظ. لقد توفّيت شانتي أثناء الولادة، وينبغي لنرمال السفر من فوره إلى مانوهاربور على الرّغم من أنّ الأوان قد فات لكي يشاهد جثمان شانتي. وضرب الفيضان الأرياف فعجز

الناس عن الوصول إلى أقرب بلدة حيث تتوافر فيها ثلاثة أجهزة هاتف... أو تلغراف... أو رسائل... لم يكن في الإمكان عمل أيّ شيء.

لكنّ الطفلة حيّة، وعليه السفر لإحضارها إلى هنا، وهي أنثى واسمها باكول، وهو الاسم الذي أرادت شانتي أن تسمّي ابنتها به.

* * *

ربّما بعد ساعة من الزمان، في الرابعة عصرًا، تناهى إلى الأسماع صوت أبواب سيّارة تغلق في قوّة. وبعد هنيهة، سمع صوت كانابالا وهي ترتقي السلالم. وتعثّرت في غرفتها، مزعزعة، دافئة الوجنتين، يصعب تمييز حذائها المخملي، شعرها متمرّد على دبابيسه وثوبها الساري مفتقر إلى الترتيب.

أحاطت كلمات غير منطوقة بالصمت وكانت تعلم أنّها في ورطة، إذْ لم يكن خليق بها أن تضطر إلى الخروج من البيت قطّ. فهل نسيت كيف يمكن أن تستبدّ سورة الغضب بأموليا؟ كان غضبه أشدّ عنفوانًا وهولاً من غضب دورفاسا موني[1] لا سيّما إذا ما امتنع عن الكلام نهائيًّا. نظرت في اتّجاهه نظرة خاطفة، ولم تكن تفكّر طوال طريق عودتها من النزهة إلّا في وجهه. كانت ترغب في أن تشبع ظمأها من آخر ريح وهي تجلس بجانب نافذة السيّارة المسرعة، وأن تطبع في ذهنها المناظر الطبيعيّة من قبل أن تعود حبيسة غرفتها من جديد، ولكن على الرّغم من محاولتها الإحساس بالبهجة التي انتابتها في طريق ذهابها إلى القلعة، إلّا أنّها امتلأت رعبًا من فكرة احتمال عودة أموليا

---

(١) دورفاسا موني Durvasa Muni: حكيم يرد ذكره في الميثولوجيا الهنديّة، عرف عنه حدّة الطبع والمزاج، (المترجم).

لتناول الغداء أثناء خروجها وعدم رؤيته إيّاها في المكان الذي ينبغي أن تكون فيه.

لم يكن أموليا يسدّد نظراته إليها، بل جلس ووضع رأسه بين يديه، مغمض العينين. لم يتنبّه أحد لحضورها. ومضى تصرّفها الذي بدا تمرّدًا يائسًا وثملها وحذاؤها المخملي التالف من دون أيّ تعليق.

* * *

سافر نرمال في تلك الليلة إلى مانوهاربور. وبدأ أهل البيت سهرة في انتظار الرضيع اليتيم الأمّ.

انتظروا أسبوعين، وتحوّل الانتظار إلى شهر، من دون أن يأتي أحد.

وفي اليوم الحادي والثلاثين كتب أموليا رسالة مهذّبة إلى بابو بيكاش:

سوف نرتاح راحة كبيرة لو عرفت من نرمال ما يخطّط له. لقد كان في صدمة كبيرة عندما سافر من سونغاره، وأنا وأمّه في قلق شديد. المؤكّد أنّه في أفضل حال ممكن وهو بينكم، لكنّ الآباء يقلقون على الرّغم من ذلك. نتمنّى لو كنّا وإيّاكم في هذا المصاب الجلل الذي دمّر أسرتينا...

عدّوا الأيّام منتظرين إجابة. تستغرق الرسالة خمسة أو ستة أيّام لأجل وصولها مدينة مانوهاربور... أو ربّما سبعة أو ثمانية أيّام ما دام أنّها تنتقل من بلدة إلى أخرى، وتتطلّب المدّة نفسها كي يصل الجواب. لهذا، فإنّ أسبوعين يكفيان لورود خبر.

في كلّ يوم كان ساعي البريد يمرّ على امتداد دولغانج رود ويقرع

جرسه، كانت كانابالا تنتظر قرب النافذة متمنّية لو أنّه توقّف أمام بوّابة منزلهم. ويفتّش أموليا في البريد الوارد صباح كلّ يوم لدى وصوله المعمل حتى من قبل أن يعلّق مظلّته على المشجب. كان الأمل يراوده صباح كلّ يوم، ولكنّه كان مستعدًّا لخيبة الأمل.

وبعد مرور عشرين يومًا، جاء الجواب.

كان الحبر الأزرق الذي دوَّن فيه بابو بيكاش رسالته يقول متقدّمًا على عبارات التحيّة المألوفة والاستفسار عن الصحّة، شيئًا محيّرًا ويثير أشدّ القلق:

كان نرمال عاجزًا تقريبًا عن النظر إلى طفلته، وكان مضطرب الحال لمّا وصل هنا ولم يتكلّم كثيرًا، وإذا ما تكلّم، فإنّ كلامه كان غير مترابط ورفض أن يخرج من الغرفة التي قضت فيها شانتي يومها الأخير. لم نشأ التدخّل. كان نرمال حاضرًا في تلك الليلة، ولكن عندما استيقظنا في صباح اليوم التالي كان قد رحل. لم يقل لنا شيئًا، وكنت أعتقد طوال هذا الوقت، وأثناء هذا الشهر، أنّه رجع إليكم ليحظى بقسط من الهدوء والراحة، ويعود إلينا بعدئذٍ من أجل الطفلة عندما يكون قادرًا على ذلك... إنّني أفهم شدّة حزنه، فأنا أشعر بذلك شخصيًّا، لقد فقدت ابنتي، طفلتي الوحيدة. لكنّ المصاب أعظم عنده لأنّه فقد والدة ابنته. إنّنا في ألم ممضّ وحزن عميق من أجل الطفلة التي لن تعرف أمّها.

هذا وأنّ كريبا، خادمة شانتي العجوز، تتولّى رعاية الطفلة. أرجوكم ألّا تقلقوا في هذا الشأن. أمّا فيما يخصّ الباقي، هل ثمّة شيء يُقال؟ إنّنا لا نفهم إرادة الله، ونحن نؤمن بأنّه رحيم، ولكنّنا نشكّ في ذلك في هذه الأوقات التي يبدو فيها الظلام بلا نهاية.

لم يعرف أحد أين نرمال لا في مانوهاربور ولا في سونغاره. لم يره أحد منذ شهر.

هل يتعيّن عليهم إبلاغ الشرطة؟ الاستفسار عنه في المستشفيات؟ في المشرحة؟ في أيّ مدينة؟ الاستفسار عنه من أنسبائهم في كلكتا؟ من أصدقائه في المدرسة؟ أين يمكنهم البدء بالبحث عنه؟

* * *

أنفق أموليا وكانابالا الأسابيع الثلاثة التالية يحدّقان إلى الطريق الخاوي وكأنّ نرمال سيظهر للعيان فيه. وكانا يرنوان في كلّ مرّة يسمعان فيها أحدًا قرب الباب. حاول أموليا أن يتظاهر بأنّه طبيعي: فكان ينصرف إلى معمله في كلّ يوم كعادته، ولكنّه يجلس ناسيًا ماذا يتعيّن عليه القيام به. وكان يجذب المجلّدات العتيقة من كتاب روكسبرغ وهوكر، وينظر مليًا إلى صور النباتات، ولكنّ الصفحة تظلّ مفتوحة في المكان نفسه على مدى ساعات. بدا له وكأنّ يدًا باردة وميتة تعصره من أعماقه فيستحيل عليه التنفّس. وبدا يخشى الخروج من المنزل، وفي نهاية المطاف، توقّف عن الذهاب إلى المعمل.

ردّد المنزل صدى السكون، وكان أهله يدبّون دبيبًا، وتوقّف البستاني والخادمة عن الشجار، يراودهما شعور أنّ الصمت يلتهم كلّ شيء.

وفي عصر يوم من الأيّام، بدّد الصمت أنين مؤلم صادر من أعماق أموليا. وقال في شهقة أنّ أسدًا يمزّق صدره إربًا إربًا، وتلاشى نبضه، وعاد من جديد، وتلاشى مرّة أخرى، تلاشيًا طويلاً في هذه المرّة.

وحضر الطبيب، وخبط على صدر أموليا ثم وضع قدحًا لامعًا أمام عينيه. ورفع رسغه الرخو وضغط بإصبعه عليه، باحثًا عن نبض. حاول

من جديد إحياء الخفقان في صدره، ولكنّه هزَّ رأسه ومرَّر إحدى يديه فوق عينيْ أموليا المحملقتين، ومضى ليضع سمّاعته في حقيبته.

أطلّت كانابالا من النافذة وهتفت ضاحكة:

ـ أليس هذا نرمال قادمًا من آخر الطريق؟

لكن نرمال لم يعد.

* * *

القســـــم الثانـــي

القلعة الأثريّة

واحـد

دلف صبي كثيف الشعر يرتدي كنزة خفيفة وسروالاً قصيرًا مترهّلاً حجرة الصلاة وفي يده ممسحة تنظيف. ثمّة عدد من التماثيل الصغيرة والصور لآلهة وآلهات مرصوفة فوق دكّة على امتداد أحد جانبي الحجرة المشيّدة بهيئة الحرف L، في حين جلس في الجانب الآخر رجل دين يفتّش في حقيبة من قماش وأخرج منها مجموعة من الكتب الدينيّة الصغيرة المطويّة بعض صفحاتها من الزوايا العليا. وكانت الأضلاع البارزة تبدو فوق صدره النحيف الذي يشطره إلى نصفين خيط رمادي وسخ له حرمته. وكان فمه مطّاطيًا وشفتاه طويلتين مكتنزتين وكأنّهما قادرتان على احتواء موزة على سعتها. ولمّا رأى الصبي يدخل، امتدّ الفم في تعبير ينمّ عن نفور واشمئزاز، ونهض واقفًا وخطا في همّة ونشاط إلى الشرفة من خارج الحجرة.

وورد إلى مسامع الغلام صوت رجل الدين يتمتم:

ـ يا إلٰهي! يا إلٰهي!

واستطاع أن يشاهد من طرف عينه رجل الدين وهو يرشّ بدنه بماء مقدّس من نهر الغانج، ثم صرَّ أسنانه ومدّ رأسه خارج الحجرة مناديًا:

ـ أنا متأكّد من أنّني لمستك أيّها الكاهن ولا بدّ لك من الاستحمام الآن. صحيح؟ ولكن لم يعد لدينا ماء ساخن!

نظر إليه رجل الدين نظرة خبيثة وقال في حدّة:

ـ يمكنك أن توقف لسانك أيّها الطائش! وسوف أعلّمك كيف تكون صفيق الوجه!

فضحك الفتى ورجع إلى حجرة الصلاة يمسح الأرضيّة بممسحة التنظيف الوسخة التي تفوح منها رائحة السمك، وبعدها عاد أدراجه إلى الشرفة منتظرًا. ما زال الصبح مبكرًا، وملامح المبنى المقابل ملطّخة وحدّ التلّ والغابة البعيد ابيضّ بفعل الضباب. وجاهدت شمس تشبه القمر كي تبزغ، وما زالت أضعف من أن تقدر على تجفيف العشب المبلّل بقطرات الندى. فنفخ كي يتأكّد إنْ كانت أنفاسه الحارّة تُحدث سحابًا. فأحدثت.

أوقفه صوت امرأة من خلفه، قطّبت في وجهه لمرأى كنزته الخفيفة ونهرته:

ـ ألا ترى أنّ الطقس باردٌ؟ اذهب والبس ملابس ثخينة.

ثم أحكمت شدّ وشاحها البنّي ودخلت حجرة الصلاة، وجلست على بعد مسافة قصيرة من رجل الدين، وقالت:

ـ نعم، أيّها الكاهن. يمكننا أن نبدأ الآن.

تحسّس رجل الدين حقيبة كتفه البرتقاليّة اللون والمصنوعة من القماش، وأخرج كتابًا آخر من كتبه بصفحاته المطويّة من بعض الزوايا العليا. وأمسك ببقايا من قلم رصاص كان موضوعًا في تلك المسافة الكائنة بين رأسه الأصلع وأذنه كثيفة الشعر ووضعه فوق دفتر الملاحظات.

وقال:

ـ المهمّ فالأهمّ. أخبريني عن اسمك كي لا أظلّ أسأل في كلّ صلاة أتلوها. أعرف المنبوذين وأشباههم، ولهذا لا يتعيّن عليكِ أن تقلقي بسببهم.

كان حديث العهد بالمنزل، يهتمّ بشؤون الأسرة في ذاك الصباح.

وبدأت المرأة كلامها:

ـ ربّ الأسرة هو بابو كمال، و. . .

قال رجل الدين وهو يلفظ الاسم في بطء كي يدوّنه، بينما راح لسانه يبرز من وراء شفتيه:

ـ على رسلك! كمال كوماز موكو. . .

ـ ثم هناك بابو نرمال، الأخ الأصغر، ولكنّه لن يأتي اليوم.

رفع رجل الدين بصره إليها وسأل:

ـ لن يأتي اليوم؟ ألن يحضر مراسم الاحتفال بآلهة المعرفة؟ أتراه يجاري العصر فلا يؤمن بالله؟

قالت:

ـ لا، إنّه يشتغل في مدينة مختلفة.

قال رجل الدين خائب الظنّ بجوابها العامّ:

ـ آه، حسنًا. من التالي؟

فردّت:

ـ النساء.

ثم بدأت تعدّد الأسماء:

ـ مانجولا زوجة كمال ووالدته كانابالا وابنة نرمال الطفلة الصغيرة باكول التي ما تزال في الحادية عشرة.

ـ باكول بلا أمّ؟ وماذا عن بابو كمال؟ بلا أولاد؟ زوجة عاقر؟

ثم رفع رأسه من فوق دفتر ملاحظاته.

تصلّبت وقالت:

ـ أعتقد أنّ هذا كلّ شيء.

ـ كلّ شيء؟ وأنتِ؟ ألا تحسبين نفسك من بين النساء؟ ما اسمك؟

ثم نظر إليها نظرة استهجان، وإلى ثوبها الساري الذي بهت لونه وبات مصفرًا، وإلى افتقارها للأساور وللّون الأحمر الذي يزيّن مفرق شعر المرأة المتزوّجة وقال:

ـ أرى أنّك أرملة، وبلا أطفال أيضًا. آه، مهما كانت إرادة الله، ففيها حكمة.

قالت في نبرة بدت مقتضبة:

ـ اسمي ميرا وأنا لست فردًا من أفراد الأسرة، وأنت غير مضطرّ لإدراج اسمي.

وكادت أن تنهض من مجلسها، ولكنّها توقّفت ومضت تقول:

ـ لكن.. نعم، ثمّة شخص آخر يدعى موكوندا.

ـ موكوندا؟

الصبي الذي مسح الغرفة قبل قليل، فهو يقطن هنا أيضًا، كما يوشك على أداء الامتحانات ولهذا يحتاج إلى بركات آلهة المعرفة.

ثم رنت إلى الخارج باتّجاه خيال موكوندا من على الشرفة وابتسمت.

ـ منبوذ؟

ـ لستُ متأكّدة.

ـ لستِ متأكّدة؟

ـ إنّه طفل وحسب. هل هذا يهمّ؟ وهو يتيم قمنا...

ـ بتوفير الحماية واللجوء له؟

وهنا أغلق رجل الكتاب ومدَّ يده إلى حقيبته وسأل:

ـ لماذا ينبغي السماح له بدخول حجرة الصلاة؟ هل يمكن للصفاء أن يغيّر من طبقته المنبوذة؟

أضحى موكوندا، ذلك الطفل الذي أودعه أموليا في ملجأ الإرساليّة، في الثالثة عشرة من عمره الآن. ولكن بموت أموليا، لم يعد أحد يعرف شيئًا عن أبويْ موكوندا؛ ومكانته في الأسرة يعتورها اللبس والغموض، فهو يأكل من طعامهم ولكن من طبق خاصّ به. وهو يعيش اليوم في بيتهم ولكن في حجرة منفصلة في فناء الدار. كانوا يمنحونه الثياب ولكنّها ثياب مستعملة. وكانت لديه فروض مدرسيّة ولكنّه كان يؤدّي الواجبات المنزليّة أيضًا. كان فتًى أخرق السلوك، مفرط في الطول والنحافة، ضيّق الصدر. وكان أحيانًا يتحسّس جنبيه، كلّ جنب

يؤلمه. وكان يعرف أنّه من منطقة قريبة، وربّما وُلد لأمّ من سانثال. ممّا لا ريب فيه أنّ عظام وجنتيه البارزة وسحنته الغامقة مثل الشاي جعلته يقارن نفسه بسكّان القبائل الذين رآهم، ولكنّه لا يملك وسيلة يتأكّد بها. هل تظهر امرأة ما من الغابة في أحد الأيّام وتدّعي أنّه ولدها؟

رنت ميرا في قلق إلى الشرفة، وكانت متأكّدة من أنّ في وسع موكوندا أن يسترق السمع، وشعرت بغصّة في أسفل رقبتها. إنّه الغضب المألوف، وأدركت أنّها ينبغي أن لا تقول شيئًا وإلّا...

تمالكت نفسها وقالت:

ـ من فضلك، أنا لست في حاجة إلى من ينصحني بشأن موكوندا.

ـ آه، ماذا لدينا هنا؟ فلفل أحمر حقيقي وحارّ!

التوى فم رجل الدين الشبيه بالموزة في قلق، وقال:

ـ إن لم تتركي هؤلاء الناس في بيوتهم، فإنّهم سرعان ما سوف يحتلّون بيتك! لكن هذا شأنك، كلّ ما أطلبه هو أن تبعديه عنّي وعن حجرة الصلاة.

ثم خفض صوته وهمس:

ـ لقد لمسني مرّة واحدة قبل قليل.

وقبل أن يمضي حديثهما إلى ما هو أبعد من هذا، دخل بقيّة أفراد الأسرة حجرة الصلاة، واتّجهوا إلى صورة آلهة المعرفة ساراسواتي التي حدّقت جاحظة العينين وساكنة من مقعدها من زهور اللوتس الورديّة في بحر من موج شذري، من دون أن تدرك وطأة الأمل والحنين في ما تبقّى من مجموعات عبوات الأصباغ والكتب وزجاجات الحبر والأقلام المكدّسة أمامها طمعًا في بركاتها. إنّها كتب باكول وأقلامها على وجه

التحديد، ولكنّها أيضًا دفاتر حسابات كمال تحسّبًا لما قد توفّره آلهة المعرفة من بركات.. وأضافت ميرا عددًا من كتبها إلى الكومة.

مطّ الكاهن فمه ثانية واستفسر عن مانجولا ـ ذات الردفين الكبيرين والصوت العالي والرقبة المحاطة بقلادة ذهبيّة سميكة، ممّا يوضح أنّها الأمّ.

ـ هل أنت متأكّدة من أنّ كتب الغلام ليست هنا؟

قالت مانجولا:

ـ آه، أيّها الكاهن. مؤكّدًا ليست هنا. لماذا ينبغي أن تكون هنا؟

تمتم رجل الدين ببعض التعاويذ بصوته الأنفي وطفق ينتف زهور الماريغولد وأوراق شجرة السفرجل استعدادًا لأداء شعائر الصلاة. وصكّت الأسماع بغتة صرخة قويّة من مكان ما في الطبقة الأرضيّة.

ـ أيّها الأحمق ذو الثآليل! أيّها التافه التعس!

فرفع الكاهن بصره إلى أعلى، غير أنّ الصوت تلاشى بغتة تمامًا مثلما تفجّر بغتة.

وانساب إلى سمع موكوندا وهو في الشرفة أصوات إنشاد تراتيم مكرّسة إلى ساراسواتي، وكان في مقدّمة الأصوات صوت الكاهن وهو يقول:

«Jaya jayo devi, chara chara shaarey, kucho jugo
shobhita mukta haare, veena, ranjita, pustaka haste...

وشعر بكرة من نار تهدر في جسده، وهو ابن الثالثة عشرة، وشعر بتلك الكرة تدور وتدور وتنمو وتكبر وتزداد حرارة واشتعالاً، فسار إلى أبعد نقطة في الشرفة حيث لم يعد في مقدوره سماع الأصوات، ورنا إلى

قلعة سونغاره متخيّلاً أنّ في إمكانه أن يرى شجرة تين البنغال المعمّرة الشامخة بجانبها، فارتقى السلالم المؤدّية إلى السطح ووقف بجانب الحافّة تمامًا، باسطًا ذراعيه وكأنّهما جناحان. وسرعان ما شعر أنّه بالغ الخفّة إلى حدٍّ خطير، بين السقوط والطيران. وهناك، خارج نطاق الرؤية، كانت الشمس تكافح من ورائه في السماء الرطبة، فما كان منه إلّا أن أغمض عينيه وبدأ يشدو:

أنت لست إلٰهي، لأنّك لم تفعل شيئًا من أجلي. ولكن على الرّغم منك، سوف أكون أفضل حالاً منهم كلّهم. يومًا ما، لن أكون محتاجًا لهم. يومًا ما، سأوفّر أنا لهم الملجأ.

* * *

انسلّ موكوندا عصر ذلك اليوم إلى خارج البوّابة متمنّيًا لو لم يصدر أيّ صوت صرير عنها، ثم عبر الشارع ودخل البيت الآخر الذي لم يعرف أحد غير باكول أنّه ذهب إليه في ذلك الوقت من النهار. كان يدري أنّ تلك الأوقات من العصر مخصّصة للأسرار، حيث المدارس والمصالح الحكوميّة والمعامل أفرغت المنزل من أصحابه، ومانجولا منشغلة في معجون التجميل والنظر إلى وجهها في المرآة، وميرا تحلم بالهروب، والطيور تتشاجر والكرز يتساقط من الشجر على الأرض المتربة من دون أن يلاحظه أحد، والقطط تبحث من غير أن يتنبّه لها أحد عن عظام سمك في حاويات فضلات وجبة الغداء.

كان منزل السيّدة بارنوم يشمخ عاريًا من تحت أشعّة شمس العصر التي لا ترحم. يومًا ما، كان المنزل المؤلّف من طبقتين أصفر اللون، ولكن بعد عشرة أعوام من وفاة السيّد بارنوم، لم يصبغ البيت مجدّدًا، فبات قذر المظهر كالأجرب. وفقدت البوّابة الخشبيّة بعض قطعها التي

لم تحلّ محلّها قطع جديدة، فكانت الفجوات التي تتخلّلها تمنح المارّة فرصة إلقاء نظرة على المبنى المسقوف المخصّص لركن العربات، والذي كان يمثّل ملاذًا للسيّد بارنوم من الشارع. وبدأت بعض أشجار التين الصغيرة المتينة ترسل أوراقها وأغصانها داخل التصدّعات والشقوق الماثلة في الجدران. ولن يمضي وقت طويل حتى تقتحم الأشجار المنزل وتهدمه.

لم يتنبّه موكوندا إلى كلّ هذه الأشياء، بل ترك نفسه يدخل من باب السيّدة بارنوم الأمامي الكبير والمفتوح، وهرع يرتقي السلالم، واثبًا درجتين درجتين كعهده على الدوام. دفع باب غرفة المعيشة الخالية وتوجّه مباشرة إلى أحد الرفوف في الركن المظلم بجانب المدفأة القديمة، واستلّ كتابًا هو الثالث من الجهة اليسرى وبكعب أزرق وذهبي، ثم جلس إلى مائدة الطعام وفتحه وأكبّ من فوق صفحة سبق له أنْ أشّر عليها. وبدأت أصابعه تتابع سطرًا طباعيًّا، وشفتاه تتمتمان همسًا ببعض الكلمات.

وبعد وقت قصير، دلفت السيّدة بارنوم وأنعمت النظر من فوق منكبيه إلى ما كان يقرأ. وقالت في صوتها المعهود الذي زاد التدخين من خشونته:

ـ ها أنت منسجم ونلسون؟

ثم وضعت إحدى يديها على كتف موكوندا، وداعبت أظافرها الطويلة خصلات شعره في مؤخّر رقبته، وأضافت:

ـ فتّش عمّا تعنيه كلمة «mizzen»، وكذلك كلمة «masthead».

قال موكوندا:

ـ أصيب في عموده الفقري، وسوف يموت.

فضحكت السيّدة بارنوم وهي تشعل سيكارة، وقالت:

ـ سوف يموت على وجه التحديد، وإذا لم يمت، كيف سيواجهه في لندن؟

كان نلسون بطل موكوندا منذ أن قرأ عن معركة الطرف الأغرّ في كتاب قصص المغامرات، ولكنّ السيّدة بارنوم كانت على ما يبدو تهزأ به على الدوام. عاد موكوندا إلى كتابه محاولاً التغاضي عن وجودها الساخر. كان مضطرًّا إلى أن ينهي قراءة الفصل في عصر ذلك اليوم، وأن يحفظ القصيدة الخاصّة بذلك الأسبوع قبل أن ينسلّ عائدًا إلى البيت في الوقت المحدّد كي يعدّ الشاي. ما من لحظة واحدة يضيّعها!

قبل عامين اثنين، ضبطت السيّدة بارنوم موكوندا متلبّسًا وهو يمسك كتابًا من على أحد رفوفها وهو يعتقد أنّها لم تكن تنظر إليه، وكان يحاول قراءته من دون نجاح. وسألته: ألا تذهب إلى المدرسة؟ لم لا يمكنك قراءة الكتاب؟ إنّه ليس صعبًا!

غمغم آنئذٍ ببعض الكلمات وحاول أن ينسلّ خارجًا، فشاهدت ذراعه، فأوقفته وقالت: أخبرني عن مدرستك. طرحت عليك سؤالاً فلا تكن فتًى فظًّا.

قال إنّ مدرسته ليست سوى سقيفة وأنّ صفّه الدراسي سبّورة يشاركه إيّاها غيره من الأولاد تتراوح أعمارهم بين الرابعة والخامسة عشرة، وفيها معلّم واحد يضربهم بالعصا كلّما شعر برغبة في ذلك، ثم يذهب ليحتسي الشاي في أحد الحوانيت عند الناصية.

أرادت السيّدة بارنوم أن تعرف عن حال باكول أيضًا، وسألته إن كانت لا تستطيع القراءة، لكنّه أخبرها بأنّ باكول تذهب إلى مدرسة أخرى فيها عدد كبير من المعلّمات وكلهنّ راهبات. ولديها معلّمة

خصوصيّة تأتي لتعليمها مساءً بين يوم وآخر. وحاول موكوندا أن يتعلّم من طريق استراق السمع ولكنّه لم يفلح. ولم يكن جريئًا ليطلب من مانجولا وكمال أن يحظى بتعليم خصوصي.

لم تقل السيّدة بارنوم شيئًا، ولكنّها شعرت بتوتّر في رقبتها بسبب الغضب. وقالت له: سوف تتعلم عندي بدءًا من يوم غد، وسأجعلك على ما يرام كالآخرين، بل أفضل منهم.

وهكذا كان موكوندا ينسلّ خفية إلى منزل السيّدة بارنوم من بعد ظهر كلّ يوم خشية منعه من الذهاب. كان أسلوب السيّدة بارنوم بسيطًا في تعليمه. فقد كانت تطلب منه أن يفتّش في رفوفها وأن يقرأ كلّ ما يسلّيه وأن يسألها إن كان يلاقي أيّ صعوبة في الاستيعاب. وأوضحت له كيف يستعمل المعجم الكبير الذي كان زوجها قد حصل عليه منذ سنوات طويلة هديّة رفقة أشياء أخرى. وضحكت وإيّاه على أشياء وجدها مضحكة ومسحت دموعًا كاذبة عندما قرأا معًا مقاطع من رواية من تأليف ديكنز يموت فيها الأطفال. وفي بعض الأحيان، كانت تتناول كتابًا ضخمًا مصوّرًا فتريه السفن وحيوانات الكنغر والمدن الأوروبيّة.

كانت رفوف السيّدة بارنوم تحتوي على شتّى أصناف الكتب: كتب السيّد بارنوم القديمة عن مناجم الفحم وقصص الرومانس العاطفيّة وقصص الجرائم ومختارات من روائع الأدب، ونسخ صفراء اللون من مجلّات أسبوعيّة نسائيّة تحتوي على ملاحق عن الحياكة ووصفات لإعداد الطعام. وشقّ موكوندا طريقه وسط كلّ هذه الكتب في جدّ واجتهاد من دون أن يميّز بينها، في حين كانت السيّدة بارنوم تواصل النظر إليه، يفتر ثغرها الوردي عن ابتسامة ملؤها الفضول. وكانت أحيانًا تقرع جرسًا موضوعًا فوق صينيّة بجانب منضدتها، وتستدعي الحاجب

كي يأتي بعصير الليمون الخالص لموكوندا، والمضاف إليه مقدار قليل من شراب الجنّ لها.

* * *

العام هو ١٩٤٠. مضت إحدى عشرة سنة على جريمة قتل بارنوم، وبات الآن منزل أموليا في سونغاره واحدًا من أقدم البيوتات في ذلك الجزء من البلدة. مرّت سنوات العشرينيّات والثلاثينيّات، تلك السنوات المفعمة بالازدهار عندما أصبح في دولغانج رود منازل فسيحة يسكنها البيض ممّن يعملون في شركات المناجم وزوجاتهم اللواتي احتللن المرتفعات العالية، ولم يضطررن إلى الهبوط إلى مناجم الفحم التي كانت تبقيهم مرتديات سراويل قصيرة بيضاء اللون وناعمة ويشربن الويسكي. وفي العام ١٩٣٥ انهار أحد مناجم الفحم على بعد بضعة أميال، وظلّ عالقًا تحت أنقاضه على مدى خمسة أيّام ثمانية وأربعون عاملاً إلى أن فشلت كلّ الجهود في إنقاذهم. وكانت تلك فضيحة، إذ ساد الاعتقاد بأنّ السلامة لم تكن من أوّلويّات العمل، لأنّ العمّال في المناجم كانوا من فقراء الهنود وأنّ مديري تلك المناجم الذين كانوا في حالة ذهاب وإياب فهم من المغتربين البريطانيين. لكن أحد هؤلاء المديرين كان يشعر أنّه مختلف عن الآخرين، فامتلأت نفسه رحمة ومودّة بعد الكارثة، وذهب لزيارة أسرة أحد العمّال المتوفّين حاملاً مبلغًا من المال على سبيل التعويض، لكنّه كاد أن يتعرّض للضرب ممّا جعل الشرطة تتدخّل وتعاقب العمّال.

كانت المناجم توشك أن تنفد من فحمها في كلّ الأحوال، وستغلق في غضون السنوات القليلة المقبلة، فقد رحل عنها المديرون البريطانيّون، وزحف الفقر والوحشة على البلدة. وإذا كان الأهالي قد جاؤوا إليها من قبل بحثًا عن عمل، فإنّهم بدأوا الآن في الرحيل عنها.

وكان مقدّرًا لدونغانج رود المنعزل على الدوام أن يغدو ضاحية غنيّة، ولكن بعد أن رحل المغتربون عنه تاركين بيوتًا خاوية من ورائهم، توقّف فينليز عن تخزين دبس السكّر وشحم المواشي، وتحوّلت البساتين إلى ما كانت عليه من أرض بريّة وامتلأ الطريق بالحفر نظرًا لانعدام الترميمات وبات من الصعوبة الحصول على سائق عربة يأتي إلى المنطقة ليلاً. أمّا في المنزل رقم ٣ من الشارع، فقد لوحظ أنّ حديقته أصابها الإهمال بعد وفاة أموليا ولم يُهتمّ بأمرها إلّا برهة وجيزة بستانيٌّ جوّال طُرد من العمل بعد أن تبيّن أنّه كان يزرع المخدّرات في أيّ ركن مشمس. وسرعان ما وصل ارتفاع العشب إلى الركبتين، وجذبت أشجار الكرز في الحوافي الطيور والقردة الصّخّابين.

أمّا منزل السيّدة بارنوم الواقع في الجهة المقابلة لمنزل أموليا، فقد أضحى يعرف باسم منزل السيّدة الكنّة، وهو بيت مجنون وسيّئ ووحيد. ولم يشر أحد إلى السيّدة باسمها الحقيقي إلّا أسرة أموليا، وأمّا الذين كانوا يعرفونها بالاسم لاريسا بارنوم فقد رحلوا عن سونغاره واتّجهوا إلى بقاع أخرى. لقد عاشت وحيدة وكان حاجبها هو خادمها الوحيد. وكان ثمّة بيتان آخران من خلف بيتها سرعان ما أضحيا مأوًى لعدد كبير من المستأجرين الهنود، على أثر رحيل البريطانيّين. وكان من بين أولئك الهنود أفضل ميان وهو موسيقار شابّ سوداوي المزاج، منقبض الصدر، يشتغل في تعليم الغناء. وتولّى عمله في البلدة بوصفه رجلاً ضاعت مواهبه في أجواء سونغاره المادّيّة التي لا تهتمّ بالثقافة والفنون الرفيعة. وكان لديه سبب للإحساس بذلك، ففي الوقت الذي حاول أن يخلق في نفوس تلامذته الانطباع بضرورة ممارسة الموسيقى وإتقان نغم واحد بالمران يومًا بعد يوم، سأله آباء القاصرات عند منحه مرتّبه:

ـ كم أغنية جديدة في هذا الشهر أيّها الأستاذ؟ كم أغنية ستتعلّم

قبل أن يتقدّم لخطبتها الخاطبون؟

وفي الأمسيات، كان يجلس من فوق الشرفة القديمة والعريضة مرتديًا مئزره ويغنّي عن إحباطه في صوت شجي يطرق أسماع بيت أموليا.

لم يستطع موكوندا أن يتخيّل أيّ مكان آخر حتى الآن. فبلدة سونغاره هي المنطقة الوحيدة التي يعرفها هو وتعرفها باكول، فهي البلدة التي حدّدت ملامح الآخرين لهما. كان عالمهما محاطًا بآروناغار من اليسار وبكلّ ما فيها من الدكاكين والبيوت الصغيرة، وقبالتهما منزل السيّدة بارنوم والتلال الممتدّة وراءه والقلعة، ومتجر فينلاي وسينما ابسارا في مكان أبعد قليلاً، ولم يكن مسموحًا لهما الذهاب وحدهما إلى تلك البقعة. وكانت الشوارع الضيّقة تتعرّج من فوق مسطّح البلدة المتموّج وتمرّ ببقايا قرى صغيرة. يستحيل فصل البلدة عن الريف. وكانت البيوت والدكاكين تشكّل خطًّا يحيط بالحقول الخردليّة اللون.

سكن موكوندا وباكول بلدة سونغاره وهما يحملان أسرارهما الخاصّة عن سكّانها ومناطقها. فهما يريان البلدة تعجّ بالسحر والمعاني، ولا يستطيع غيرهما أن يشاركهما في معرفتها. كانا معًا على الدوام منذ أن التحق موكوندا بأهل البيت وهو في السادسة من عمره وكانت باكول في الرابعة. واتّفقا على أنّهما يتيمان. وقد فكّرت باكول أنّها يتيمة في كلّ الأحوال لأنّ والدتها ميتة وأنّ والدها، عالم الآثار، بعيد عنها ومنهمك في الحفريّات في أماكن أخرى من البلاد، لا تراه إلّا في أوقات متباعدة، وربّما نسيت ملامحه!

* * *

اثنـــان

قال موكوندا راشقًا باكول بنظرة طويلة:

ـ إنّها ليلة ظلماء. أنتِ سارق قبور أعور العين، تزحفين إلى أعلى لسرقة هرم في الصحراء. إنّني ألاحقك وسوف أقبض عليكِ.

ردَّت باكول في ارتياب:

ـ ليس الوقت ليلاً، بل بعد الظهر، ولكن لِمَ أنا عوراء؟

لم يسمعها موكوندا، لهذا أشار إلى شجرة مانغو في وسط الحديقة، تشرئبّ من تحت شمس ما بعد الظهيرة، ناشرة ظلالها الوارفة من فوق مجموعة من الطيور كانت تطير إليها وتخرج منها، يوبّخ أحدها الآخر عندما اقترب منها موكوندا.

قال متحمّسًا:

ـ ذلكم هو الهرم.. كلّ ما هنالك رمال فحسب. انظري! لقد أحضرتُ لكِ شيئًا ما ـ هذا كلّ ما عندنا لنأكله على امتداد الأيّام التي سوف نقضيها في الصحراء.

ثم مدَّ يده ممسكًا حبّتي بصل وحفنة من الفول السوداني المجفّف.

الوقت هو عصر يوم الأحد. وكان بقيّة أفراد الأسرة يحلّقون بعد وجبة طعام ثقيلة في ملكوت سنة النوم، عندما كان الاثنان يتجوّلان في حديقة المنزل وسط الأشجار المعمّرة والعشب الطويل، حيث طأطأت زهور بريّة من تحت ثقل فراشات توقّفت عندها.

قالت باكول مؤنّبة:

ـ فول سوداني؟ وهل كان اللصوص يأكلون الفول السوداني في الأزمنة الغابرة؟

قال موكوندا مجيبًا في ارتباك:

ـ لا أدري. يمكننا أن نتظاهر بأنّها أيّ شيء يأكله اللصوص!

ـ أنت لا تدري؟ ظننتك تعرف كلّ شيء!

ـ لديّ عمل ينبغي إنجازه. أتريدين اللعب أم لا؟

شعر موكوندا بالإهانة، فرمى بحبّة بصل إلى باكول وسار في خطوات واسعة في اتّجاه البئر، وكان بئرًا كبيرًا صخريَّ الجدران، يغور عميقًا. وفي السنوات الثلاثين أو ما يقاربها، التي انقضت على قيام أموليا بحفره، لم ينضب البتّة، وإن كان الماء في فصل الصيف يصبح دائرة بعيدة من الضوء، موغلة في العمق، ويكاد الحبل السميك يفقده قوّته إلى أن يشعر أنّ الدلو المعدني لن يستقرّ في القاع، وعندما يرتطم الدلو بالماء ويصدر صوتًا، فإنّه كان يطرق السمع من مكان بعيد جدًا.

وفي أوقات الرياح الموسميّة، كان ماء البئر يرتفع كلّ يوم، أكثر فأكثر، حتى يغدو قريبًا جدًّا وكأنّ الحافّة وحدها هي التي تحول دون تدفّقه إلى الخارج، فيصبح في وسع أيّ فرد أن يمدّ يده ويسحب الماء بالدلو وكأنّه يسحبه من بركة مياه. وكانت ورود الياسمين البيضاء تتدلّى من فوق البئر فتسقط أزهارها الفوّاحة في الماء طوال اليوم.

كان من بين أشغال موكوندا الشاقّة التأكّد من أنّ الحمّامات والمطبخ فيها ما يكفي من خزين الماء في دلاء مأخوذ من البئر. وكان هو الذي يسحب الماء من البئر عدّة مرّات في اليوم، فيُنزل الدلو في حين تصدر البكرة صريرًا وصريفًا. ولمّا كان موكوندا منزعجًا الآن من باكول، فقد طوّح بالدلو داخل البئر وسحب الحبل في سرعة أكبر وأكبر حتى طغى صوت الصريف على صوتها.

ولم يسمع أيّ واحد منهما صوت البوّابة وهي تُفتح.

ولم يشاهد أيّ واحد منهما رجلاً ينفح سائق عربة أجرة ويترجّل منها، مجيلاً بصره فيما حوله وكأنّه غير متأكّد من المكان الذي يقف فيه.

كان رجلاً نحيف القامة، قميصه ذو الأكمام القصيرة أكبر ممّا ينبغي وكأنّه قد انكمش داخله. وكانت عيناه تلقيان ظلّا رماديًا من تحتهما، في حين كان شعره منتصبًا وجافًّا وغير منتظم. وبسبب طول قامته، تراه يسير مترهّلاً قليلاً أو لعلّ ذلك سببه التعب والإرهاق. وكان يظهر أنّه منهك أكثر من اللازم حتى لم يعد في مقدوره السير إلى ما وراء البوّابة على امتداد الممرّ الطويل المكسوّ بالعشب والتوجّه نحو المنزل، فلبث واقفًا في مكانه يحفّ به من جانبيه جذعان ضخمان، وكأنّه يحاول أن يقرّر ما الذي سوف يفعله، وكأنّه لا يعرف الاتّجاه الذي يتعيّن عليه

أن يسلكه. وشاهد الشخصين على مقربة من البئر، فراح يمشي نحوهما مجتازًا الحديقة من جهة إلى أخرى، متوقّفًا بين آونة وأخرى وكأنّه شاهد من يناديه.

كانت باكول تصيح في خضمّ صريف البكرة ورنين الدلو:

ـ لماذا لا يمكننا أن نلعب لعبة التمساح؟ إنّك لا ترغب في هذه اللعبة أبدًا!

قال موكوندا منتقدًا إيّاها في قسوة:

ـ تلك لعبة مملّة، وهي مخصّصة للأطفال.

رشقته باكول بنظرة وانصرفت من دون أن تبتسم.

ولكن ما إن استدارت حتى أضحت وجهًا لوجه أمام الرجل. كانت قد شاهدته قبل الآن، وكانت تعرف ذلك. فانحنى وجلس أمامها على عجيزته. وعندما ابتسم، بدت الظلال الرماديّة وقد ازدادت حلكة في حين كادت عيناه تختفيان، ولاح خطّ طويل غائر في كلٍّ من وجنتيه.

سألها الرجل في همس:

ـ ألا تتذكّرين من أنا؟

سرحت ببصرها إليه من دون أن تنبس بكلمة، وانزلقت خصلة من شعرها على عينيها، وداعبتها، ولكنّها لم تبعدها في حين علا طنين ذبابة من على وجهها. أمّا الرجل فأبعدها بيده.

قال موكوندا:

ـ بابو نرمال.

لم يسبق لنرمال أن رأى ابنته منذ خمس سنوات ـ منذ أن كانت في سنّ السادسة، وكانت رؤيته لها لا تزيد عن بضعة أسابيع، ولم يكن

يعرف ما يقول أو يفعل. كان يحمل معه تلك الصورة في إيفاده وسفراته، صورة باكول وهي في السادسة تتبعه حيثما ذهب، لا يسلّيها أيّ شيء ممّا يقول سوى أن تكون قربه، يقظة على الدوام. ولمّا رأى آنذاك استدارة أطرافها الطفوليّة وحالات صمتها، وقف محتارًا، مرتبكًا تمامًا مثلما هو الآن. ورأى أنّها باتت اليوم فتاة نحيلة، طويلة الأطراف، ترتدي ثوبًا ينزلق عن كتفها، ولها أنف ينتهي بنتوء صغير ورأس كثير التلافيف، تسدّد عينيها البرّاقتين غريبتي الألوان إليه. وتذكّر لون عينيها: إنّه يشبه لون عيني شانتي. وكان قد حمل ذلك اللون داخله أثناء سفراته، والآن، أخرج شيئًا ما من جيبه وأمسك بيد باكول ووضع شيئًا صغيرًا فيها، وعندما رنت إليه وجدت أنّه حجارة.

قال نرمال:

ـ إنّه لون غريب من ألوان الكوارتز، تذكّرت عينيك عندما عثرت على الحجارة، ولهذا طلبت قطعها وصقلها من أجلك.

وقال موكوندا:

ـ هل أحضرت لي السلاح؟ وعدتني أن تأتيني بسلاح من العصر الحجري!

قال نرمال مبتسمًا:

ـ أظنّ أنّ عندي شيئًا لك، ولكنّه قد لا يكون سلاحًا من أسلحة عصور ما قبل التاريخ. اطلب من أحد الناس أن يأتي لمساعدتي في حمل الحقيبة وعندئذٍ سوف نرى ما الذي تحتويه.

ـ حسنًا، يا بابو نرمال.

ثم سمعت باكو موكوندا وهو يهتف بصوت عالٍ. وقال:

ـ كم ستمضي هنا؟

قال نرمال:

ـ إلى ما لا نهاية. لقد جئت هذه المرّة لأعيش هنا.

ابتعدت باكول عن أصواتهما المتلاشية، وراحت تحدِّق بالحجارة اللامعة في يدها. كانت بلون يتراوح بين البنّي والكريما، تعكس جوانبها شمس ما بعد الظهيرة، وكانت في بعض أجزائها شفّافة تُظهر عمقها الذي كان باللون البنّي نفسه. وإذا ما رفعتها إلى أعلى باتّجاه الشمس ونظرت إلى داخلها لوجدت فيها مدينة ذات بنايات عالية تتألّق وتعيش حياة الحجارة السرّيّة.

وهنا رفعت باكول يدها إلى أعلى، وقذفت بها إلى الحائط فتسبّبت في تناثرها بعيدًا.

* * *

كان لدى باكول، أكثر من غيرها من معظم الأطفال، سبب يدفعها إلى الاعتقاد بأنّها بنت لقيطة بلا أمّ، وبالتالي بلا أب. وكان جزءًا من تراث الأسرة اختفاء أبيها بعد ولادتها والاعتقاد بوفاته. وكان قد عاد لوقت قصير بعد سبعة أشهر وستّة عشر يومًا، ثم سافر مجدّدًا، باحثًا عن عمل جدّي. ومنذ ذلك اليوم لم يعد إلّا لقضاء إجازات قصيرة الأمد. وكانوا يعرفون كلّ شهر إلى أين أخذه موقع عمله الأخير في التنقيب عن الآثار من خلل الحوالة البريديّة التي كان يرسلها. هذا كلّ ما هنالك.

قدَّم نرمال شخصين آخرين إلى المنزل، ميرا، وهي أرملة من الأقرباء البعيدين في حاجة ماسّة إلى منزل، وموكوندا الذي لبث حتى سنّ السادسة يعيش في ملجأ أيتام لا يعرف شيئًا عن وجود نرمال. وكانت نكتة كمال المفضّلة هي المتمثّلة في أنّ نرمال رأى أنّ واجبه قد

انتهى ومضى في سبيله بعد أن اعتقد أنّه وفّر والدة لباكول وهي ليست بوالدة، وشقيقًا ليس هو بالشقيق.

تشبّثت باكول بنفسها وانفردت بها، وبدت لها عزلتها حالة رومانسيّة ولا مفرّ منها. ولكنّها على الرّغم من ذلك، لم تكن في عزلة تامّة عن الآخرين لأنّ موكوندا كان رفيقها، وكانت هناك أيضًا جدّتها. عرفت باكول منذ طفولتها أنّ جدّتها وبالرّغم من مجيء الناس ورواحهم، كانت حاضرة على الدوام، في المكان نفسه، وحيدة في غرفة صغيرة مشيّدة في الشرفة لا تغادرها إلّا من أجل الاستحمام. ولم تعرف باكول جدّها، ولم تعرف إن كان موته سببًا في التحوّل الذي حدث لجدّتها أكثر ممّا لو كان حيًّا يُرزق. كان عظما الترقوة يبرزان عند رقبتها، عيناها متواريتان من وراء نظّارتها، وشبكة من الأوردة متعرّجة خضراء اللون من تحت بشرتها الرقيقة كالحليب. وكان ثوبها الساري يسبح تحت ضوء ينبعث من النافذة.

ولم تنجز جدّتها واجبات الجدّة التقليديّة ـ مثل سرد الحكايات الشعبيّة أو تعليمها قصائد الأطفال. وعوضًا عن ذلك، تعلّمت باكول منها خزينًا لا ينضب من اللعنات، وكلمات ما تزال تتردّد بين شفتيها وإن لم تعد تتلفّظ بها على نحو بريء في المدرسة. وعندما كانت باكول حديثة السنّ، كانت ركبتا جدّتها من القوّة ما يمكّنها من جلوسها عليهما، وإذا ما جلست فإنّها، وهي الطفلة الصغيرة، كانت تتبادل اللعنات مع المرأة الكبيرة وتضحك في بهجة وسرور. فإذا وصفتها كانابالا بأنّها قطعة من روث بقر، فإنّ باكول تنعتها بأنّها حمار عجوز. وإذا ما ردّت عليها كانابالا قائلة: «وأنت بومة قبيحة»، فإنّ باكول ينتابها الشكّ غير متأكّدة من أنّ الأمر لا يعدو أن يكون عبثًا وتعتقد أنّها موضع سخرية، فتصيح: «وأنتِ أيضًا!» وهكذا تمضي الأحوال إلى أن طرق

ذلك الكلام سمع مانجولا فأخرجت باكول من الغرفة وهي تولول محتجّة.

وعندما كانت باكول ترجع إلى غرفتها، كانت كانابالا تمدّ يدها إلى واحدة من العلب الأربع المعدّة التي كانت تحتفظ فيها ببعض الأشياء التي كانت ترسلها لها السيّدة بارنوم كلّ شهر: حلوى عين الثور ونوغة وبسكويت وحتى الشوكولا. وعلى الرّغم من أنّ المرأتين لم تلتقيا إلّا مرّة واحدة. فإنّ الأسرة كانت تعرف كلّ شهر أنّ رحلة السيّدة بارنوم إلى متجر فينليز قد تمّت عندما يأتي حاجب السيّدة بارنوم حاملاً كيسًا من ورق أسمر اللون مملوءًا بالحلوى اللذيذة. وكان من خلف الصفّ الأوّل من العلب على رفّ كانابالا علب أخرى تأتي من الجهة الأخرى من الشارع، وهي حليب مكثّف من نوع ميلكميد ومربّى هارتلي بقشور البرتقال وكأنّه من عالم النسيان. إنّها علب لم تتجرّأ كانابالا يومًا على فتحها.

وكانت لباكول علبها الخاصّة بها أيضًا التي تحتفظ بها تحت طبقة من ثياب الساري العتيقة في صندوق أمتعة جدّتها، تفتحها في أيّام تحتاج فيها إلى ما يبثّ الطمأنينة في نفسها، وكان العصر الذي عاد فيها نرمال هو عصر واحد من تلك الأيّام. وكان الصندوق يحتوي على بعض الحاجيّات القديمة التي اضطرّت باكول إلى دفعها جانبًا من أجل الوصول إلى ما يكمن تحتها. وكان ثمّة مظروف كبير متآكل من بينها، فجذبته وأخرجت منه صورة.

كانت الصورة تمثّل بيتًا، بيت والدتها، ملتقطة من الجانب الآخر من النهر، أو من مركب في منتصفه كما ظنّت باكول لأنّ ثمّة فسحة من ماء النهر تمتدّ بينها وبين المنزل الظاهر في الصورة. كان البيت يناظر تلك البيوت التي سبق أن قرأت عنها في الروايات: فيه دعامات طويلة

وشرفة واسعة ونوافذ طويلة وصفوف من الأشجار تمتدّ على جانبيه.

مرّرت باكول سبابتها المحاطة بحلقة سوداء والظفر المخشوشن الحافّة من على الصورة حتى وصلت الطبقة العليا. عندما كانت أصغر سنًّا وقادرة على تصديق قصص الجانّ، كانت كانابالا قد أخبرتها أنّ الصورة سرّيّة، وذهب بها الأمر حدّ إقناع باكول أنّ والدتها كانت تعيش في المنزل وفي وسعها أن تشاهدها وأن تسمع كلّ ما تقوله. لكن باكول لم يكن في مستطاعها مشاهدتها أو سماع صوتها.

وكانت كانابالا قد قالت لها:

ـ هل يمكنك أن تشاهدي من وراء شجرة تين البنغال (باكول) التي سمّيت باسمها، نافذة، أيّها الجدجد الصغير؟

لم تكن النافذة مرئيّة في الصورة ولكن كانابالا جعلتها تصدّق أنّها موجودة فيها.

ـ والدتك في الغرفة الكائنة من خلف النافذة التي لا تستطيعين رؤيتها، ولكنّها قادرة على رؤيتك.

عرفت باكول الآن أنّ والدتها كانت تطلّ خارج تلك النافذة طوال كلّ تلك الأسابيع الأخيرة التي ازداد فيها ارتفاع الماء أكثر فأكثر حتى لم يعد ثمّة مخرج. اشتاقت إلى أن تدفع الشجرة جانبًا وتفتح النافذة وتدخل الصورة ثم الغرفة التي تحتوي على سرير كبير كانت أمّها تستلقي من فوقه، وكانت هي تضطجع بجانب أمّها تصغي لأنفاسها.

كانت كانابالا قد قالت لها وهي ترفع خصلة من شعرها:

ـ كان شعر أمّك مجعّدًا، مثل شعرك تمامًا. وكان شعرها منفوشًا أيضًا. أتعلمين ماذا كانت المعلّمات يقلن عنها في مدرستها؟

ـ ماذا؟

وقالت كانابالا مجيبة يومئذٍ:

ـ كنّ يقلن إنّها مخبولة، وسوف يصفونك بهذه الصفة إذا ما تجوّلت في الجوار في هذا المظهر.

كان شعر والدتها مجعّدًا ينتشر مثل سحابة سوداء من فوق المخدّة، وتنبعث منه رائحة زيت الشعر من نوع جاباكوسوم وصابون الكمثرى ومعبق برائحة التبغ المعطّر. وصوتها؟ كيف كانت تبدو؟ كانت تسمعها وهي تقصّ عليها القصص والحكايات وعن أشياء لم يفعلها والدها حتى عندما كان في سونغاره. وعندما كانت باكول أصغر سنًّا، حاولت أن تطرح أسئلة عن والدتها وعن مانوهاربور، ولكنّ الوالد ظلّ يغيّر من مادّة الموضوع أو يزداد بعدًا عنها أكثر من المألوف.

ثم حدث أن أخبرتها السيّدة بارنوم بشيء ما أوضح لها سبب غيابها وأكّد لها أنّ القضيّة قضيّة وقت وعندئذٍ سيلتمّ شملها بأمّها. وكانت في بيت السيّدة بارنوم ساعتان معلّقتان على الجدار من فوق مدفأة في غرفة الاستقبال، تشير كلّ واحدة منهما إلى توقيتين ومكانين مختلفين من العالم. وكانت الساعتان تشيران إلى الوقت في بريطانيا والوقت في سونغاره، وكانت تقول لها إنّها تحبّ أن تعرف ما الذي يفعله الإنكليز طوال النهار، فعندما كانت تتناول فطورها كان الإنكليز ينهضون من أسرّتهم، وعندما كانت تجلس لتناول عشائها، فإنّهم لم يكونوا قد احتسوا شايهم بعد. كان يروقها القول: إنّ ماضينا هو مستقبلهم. وكانت هذه العبارة تعني لباكول شيئًا واحدًا لا غير، هو أنّ الوقت في مانوهاربور هو الماضي على الدوام، وهو الذي تعيش فيها أمّها منتظرة، منتظرة إيّاه ليصبح مستقبلاً تعود فيه باكول إليها.

* * *

سأل نرمال شقيقه:

ـ لم تعد ترتدي ثيابًا كالتي كنت ترتديها سابقًا. ماذا جرى؟

كان نرمال يشاهد شقيقه طوال حياته أثناء المراهقة مرتديًا بنطالات تشدّها حمّالات وقمصانًا وأربطة عنق تلائمها.

نظر كمال إلى قميصه الأبيض ومئزره، وضحك ضحكة قصيرة وقال:

ـ غاندي وما أشبه، كما تعلم. بقدر كبير من الروح الوطنيّة السائدة في البلاد، ظننت أنّني بوصفي صاحب مصنع للعلاجات التقليديّة قد أبدو في مظهر أفضل.

ولكنّه كان قد رفض تخطّي حدّ لباس نسيج القادي القطني المنزلي الصنع. وكانت قمصانه ومآزره من أجود أنواع الململ صيفًا وحرير التوسا شتاءً. وفكّر أنّ كِلاَ هذين القماشين هما من الأقمشة المحاكة تقليديًا. أمّا في هذه الأيّام، فإنّ مئزره مزيّن بحافّة رفيعة خمريّة اللون تناسب اللون الأحمر البارز من خارج جيوب قميصه الذي كان يعلو من فوق بطنه مثل هضبة صغيرة لينحدر من بعدها. وكان من شأنه أن يذهب إلى المعمل بعد مدّة قصيرة من الزمان، كما تخيّل، فالوقت يقترب من الساعة الحادية عشرة، ولكنّه لم يشعر برغبة في النهوض والذهاب كعهده كلّ يوم. وكانت تثير ضجره كلّ تلك الحبوب وجرعات الدواء المغلّفة تغليفًا رديئًا.

وسأل نرمال:

ـ وماذا عن بذلاتك؟ هل تراك رميت بها في النار بدافع من الوطنيّة؟

وقال كمال وهو يوسع من عينيه الصغيرتين الشبيهتين بعيني سمكة ميتة:

ـ آه، لا، هل أصبت بمسّ من الجنون؟ إنّها بذلات غالية الثمن، وربّما أحتاج إليها من جديد، إذْ سرعان ما سوف يتبخّر كلّ هذا الكلام المنمّق، وبعدئذٍ؟ لن أقدر على أن أبدو مثلك.

رنا نرمال إلى قميصه المجعّد وبنطاله الفضفاض في حيرة.

ـ في هذه القضيّة، لا أظنّك قادرًا على أن تبدو حتى مثل نفسك أيضًا، فمظهرك الخارجي لا يناسب موقعك الجدّي.

قال نرمال:

ـ ما زال ينبغي لي أن أنفق وقتي في الإشراف في الأنفاق، فأنا لا أتمكّن حتى من الجثو على ركبتيَّ من فوق التراب مرتديًا بذلة مخطّطة بخطوط رفيعة.

قال كمال بعد هنيهة:

ـ عجيب! إذا كانت دائرة المسح الآثاري عازمة على البحث عن حضارات مفقودة في سونغاره، فما سبب طول هذا الانتظار؟ على أيّ حال، لقد مضى على وجود الآثار بعض القرون من الزمان. صحيح ثمّة حرب تدور في أوروبا، ويبدو أنّنا بسبب من أسلوب هتلر سنصبح جزءًا من حضاراتك المفقودة!

ـ حسنًا. لم يدخل المشروع في الميزانيّة إلّا الآن، لأنّني كتبت مقترحًا بالحفر ووافقوا عليه.

قال كمال:

ـ مقترحًا.. وافقوا عليه؟ إيه؟ لماذا لم ترسل المقترح قبل الآن

إذًا؟ في الأقلّ، كان في مقدورك أن تقطن في هذه المنطقة وترعى ابنتك بدلاً من قضاء نصف عمرك هائمًا على وجهك في براري الهند.

نهض كمال من مجلسه مقتنعًا بتعليقه اللاذع ومضى بعيدًا عن الطاولة من قبل أن يتمكّن نرمال من التفكير في الردّ، الردّ عليه وعلى كمال وربّما على باكول أيضًا.

كان قد تجنب المجيء إلى سونغاره في السنوات العشر التي قضاها في دائرة المسح الآثاري التي التحق بها على إثر استقالته من عمله في التعليم. وبدلاً من ذلك، فقد عمد إلى تزييف اختفائه بعد موت شانتي مباشرة، وتطوّع للعمل وقتًا أطول ممّا هو مطلوب في مواقع في راجستان ومادهايا برادش في البنجاب، يحفر الأرض بحثًا عن حياة ماضية. وكلّما حصل على إجازة من العمل فإنّه كان ينفقها جائلاً في المناطق القريبة من الهملايا يسير على قدميه وعلى ظهر البغال، في مروج يانعة وغابات كثيفة ومن على سفوح جرداء مكسوّة بالثلوج، يجمع الأوراق والحجارة والمتحجّرات وريش الطيور، وبات لديه صندوقان كبيران مملوءان بما جمعه من أشياء، وكلّها مرتّبة ترتيبًا ينمّ عن عناية شديدة. وكان الصندوقان يسافران معه، ويستقرّان في خيمته عندما يذهب للحفر.

لكن شيئًا ما دفعه قبل عام واحد إلى تقديم مقترح بشأن بلدة سونغاره مؤكّدًا في نقاشه إنّ أطلال القلعة الشاخصة والهضاب المحيطة بها ربّما كانت تخفي بلدة موغلة في القدم، وإن على دائرة المسح الآثاري إقامة مكتب في مخيّم في الأقلّ من أجل البحث. وكان نرمال مدركًا المخاطر المنطوية على هذا المشروع: فإذا وافقت الدائرة على المشروع، فإنّه سوف يُرسل شخصيًا إلى سونغاره، وعليه الذهاب إلى منزله.

ووصف المقترح الذي قدّمه على أنّه مقترح «ذكي» و«مقنع»، وكان يتعيّن على نرمال أن يبتهج، ولكن إحساسًا بالحتميّة راوده. فقد رغب منذ سنين طويلة أن يقوم بالتنقيبات في الأرض المحيطة بقلعة سونغاره الأثريّة ليعثر على مدينته المفقودة، ولكنّ الذي دفعه إلى كتابة المقترح وتقديمه أخيرًا ليس هو حماسه المهني وإنّما كان شيئًا غير مرتبط بالآثار، حافزًا قويًا تتعذّر ترجمته إلى كلمات. هل يمكنه القول إنّه شعر أخيرًا بالتحرّر من شانتي في إحدى رحلاته إلى راجستان وهو يجول وسط الصخور المجعّدة الموغلة في القدم في سلسلة تلال أرافالي، حيث كانت الطبيعة الصفراء تتوهّج لتصبح حقولاً خردليّة، صفراء مخضرّة ومن تحتها تنثال أشجار البوغنفيليّة وكأنّها دم مسفوك؟ هل يمكنه الاعتراف في دخيلة نفسه بالإحساس بالشموليّة الذي انساب في أعماقه يومئذٍ؟ ها هي أخيرًا طمأنينة النظر والاستماع من دون الاضطرار إلى نزع قلبه ورميه بعيدًا تتحقّق عند أوّل أسوار قلعة راجبوت الأثريّة والجِمال الباسمة وصيحات الطاووس قليل الحظّ في الضوء الخافت.

كان قد قدّم مقترحه في الأسابيع التي أعقبت ذلك، وشعر آنئذٍ أنّه على أهبّة الاستعداد لمواجهة بيته وابنته.

* * *

سار نرمال إلى القلعة بهدف إجراء مسح موقعي شخصي. وكان قد طلب قبل الآن من دائرة الأشغال العامّة تزويده بعاملين أو ثلاثة عمّال لمساعدته في عمليّات الحفر. وسوف يرافقه أيضًا اثنان من الآثاريين الشبّان وهما مؤرّخان لم يسبق لهما أن شاركا في أيّ أعمال حفر. وفكّر نرمال وهو في طريقه أنّ العدد ليس كافيًا ولكنّه بداية! كما ينبغي له البدء بالحصول على معدّات، وكلّ ما يمكنه الحصول عليه من ميزانيّته.

كانت اللمحة الأولى لأسوار القلعة الواطئة والمهدّمة والهضاب الممتدّة من ورائها سببًا دفعه إلى أن يغذّ السير كعهده دائمًا، فهو لم يرها في السنوات الست الماضية لأنّه كان قد ابتُعث إلى بيكانر وسنده. وها هو الآن من جديد، تستبدّ به الحماسة عندما فكّر في أنّه يوشك أن يعيش في حلم خيالي. ففي شبابه، عاش سنوات طويلة يراوده هذا الحلم. والآن سوف يكتشف إنْ كانت الهضاب تخفي من تحتها مدنًا وثقافات، إنْ كان قعر الجدول اليابس هو ما تبقّى من نهر قديم غيَّر من مجراه فاضطر السكّان من على ضفّتيه إلى الهجرة عن مستوطنتهم.

سار سيرًا حثيثًا من حول المكان، ولكنّه حاول أن يهدّئ من غلواء نفسه، فجلس على مقربة من البركة الضحلة وأشعل سيكارة. وفكّر وهو يأخذ نفسًا أنّه لم يمرّ زمن طويل منذ أن جلس رفقة شانتي محدّقًا إلى الضوء الخافت والحدود المتكسّرة للأطلال وقد بدأت الظلمة تغيّبها عن الرؤية، لكن حدود ذكرياته عن ذلك الزمان كانت غائمة، والتفاصيل الصغيرة التي ظنّ أنّها لن تزول باتت اليوم متجاوزة حدود النسيان.

اضطرب نرمال لمّا وجد نفسه وقد سمح لأفكاره أن تشغله عن العمل الذي يتعيّن عليه إنجازه، فأخرج قلم رصاص وبدأ يخربش في دفتر ملاحظات كان قد أحضره معه. فدوَّن فيه ما يحتاج إليه من معدّات وموادّ وقوّة عاملة، فضلاً عن الكتب والمقالات التي يحتاج إلى البحث فيها. وبعد برهة وجيزة، حطّ عدد من الحمام الرمادي اللون الممتلئ جسمًا من حوله في إشارة تنمّ عن موافقته أن يكون نرمال جزءًا من الطبيعة. وشاهد وميضًا أخضر اللون عندما هبطت طيور الببغاء وثرثرت من فوق رأسه باحثة عن طعام.

لكنّه شعر في هذه اللحظة بتشتّت انتباهه لدى سماعه صوتًا غريبًا

على مقربة منه، صوتًا هو مزيج من الأنين والنحيب. فرفع بصره إلى أعلى، وجفل.

ثمّة صوت امرأة تقول له:

ـ هذا كلّ ما هنالك. اتركني وشأني.

ثم ران صمت أعقبه صوت المرأة وهي تقول من جديد:

ـ قلت كفى. هلّا توقّفت؟

نهض نرمال من مكانه ونفض عن بنطاله التراب. هل يمكن أن يكون ثمّة أحد في ورطة؟ كان الصوت ينبعث من داخل حجرة ذات قبّة في الأطلال التي كانت واحدة من عدد قليل من المباني التي ظلّت قائمة من دون أن يلحق أيّ ضرر بسقفها. فسار حتى لفّه ظلامها فهاجمته رائحة الغبار وقاذورات الحَمَام القويّة. وبعد مكوثه لحظة واحدة دخلها، وجد نفسه غير قادر على رؤية أيّ شيء في الظلمة التي داهمته بغتة، ولكنّه ظلّ يسمع صوت امرأة تحت ظلال القبّة، مدويًّا بفعل الفراغ.

وقال الصوت:

ـ أرجو ألّا تقترب أكثر يا بابو نرمال.

وقال نرمال:

ـ أهذه أنت يا ميرا؟

وفي هذه الأثناء اعتادت عيناه انعدام الضوء ورأى أنّ المرأة هي ميرا حقًّا. وداهمه الغمّ عندما قالت له: لا تقترب، وقال:

ـ لم أكن أنوي. . . الاقتراب أكثر. كلّ ما هنالك هو أنّني سمعت صوتًا ما، ففكّرت في احتمال أن يكون شخص ما في ورطة. وسوف أتركُكِ الآن.

ثم استدار ليرجع إلى البِركة.

فهتفت به وهي تلحقه ضاحكة:

ـ آه، لا. ليس هذا ما كنت أعنيه. أرجوك لا تخطئ فهمي... القضيّة هي أن...

ثمّة كلبة نحيلة البدن تسير من ورائها مضطربةً، وكان لونها أسود وبنّيًا، تساقط عنها فراؤها في بعض المناطق، وكانت منتفخة الضروع، متهدّلة إلى الأرض، ثم دفعت بخطمها في لهفة في يد ميرا وهي تئنّ.

كانت ميرا ما تزال تمسك في يدها بقطعة من الخبز، فرمت بها إلى الكلبة، وقالت:

ـ إنّ صغار هذه الكلبة في الداخل، وهي هائجة تمامًا بشأنهم. ولهذا طلبت منك أن تبقى بعيدًا.

أطرق نرمال ببصره إلى الكلبة متسائلاً عمّا وجدته ميرا فيها. كانت الكلبة تبدو مصابة بمرض الجرب، تنبعث منها رائحة قويّة وكريهة، لكنّ اللياقة دفعته إلى أن يسأل:

ـ هل تأتين يوميًا إلى هذا المكان لإطعامها؟

ـ تقريبًا... ولكن يصعب أحيانًا الوصول إلى هنا، ويساورني القلق والانزعاج في الأيّام التي لا أجيء فيها.

أمسكت عن الكلام وابتسمت ابتسامة خجول، واسترسلت:

ـ أعرف أنّ هذا التصرّف يبدو ساذجًا. فهم سيعيشون سواء معي أو من دوني.

ـ وأنت تقطعين كلّ تلك المسافة من أجل إطعام هذه الكلبة؟ لا بدّ أنّك تحبّين الكلابَ حبًّا جمًّا.

قالت ميرا:

ـ ليس من أجل إطعام الكلاب فحسب، بل لأنّني أحبّ السير على قدميّ أيضًا، وإلّا شعرت أنّني محبوسة في مكان ضيّق ـ كما أنّني أجلس هنا أحيانًا لأرسم. إنّها استراحة بعيدة عن أعمال المنزل.

لاحظ نرمال حقيبة من قماش تتدلّى من كتفيها، فانتابه حبّ الاستطلاع، وسأل:

ـ وماذا ترسمين؟ هلّا أريتني؟

قالت ميرا:

ـ آه، لا. إنّها ليست رسوم عظيمة بل تخطيطات لا أكثر.

ثم تشبّثت بالحقيبة في قوّة وأطلقت ضحكة واعية، ومضت في حديثها:

ـ ثمّة عدد كبير من تلميذات المدارس يرسمن مثلي من أجل المتعة.

وهنا غيّرت من دفّة الموضوع، وقالت:

ـ هل جئت إلى هذا المكان لإجراء مسح على الموقع؟ أعتقد أنّه بات موقعًا اليوم، صحيح؟ ولم يعد أطلال سونغاره القديمة فحسب.

ـ حسنًا، ليس مسحًا على وجه الدقّة...

ثم بدأ نرمال يشرح لها. وبعد عشرين دقيقة أدرك أنّهما يجلسان تحت شجرة تين البنغال، وأنّه ما يزال مسترسلاً في الحديث عن أشياء كثيرة: تجواله من فوق الآثار عندما كان غلامًا، وعثوره على بعض القطع المعدنيّة البرّاقة ذات مرّة فظنّ أنّها سلاح قديم، ومحاولته الحفر مستخدمًا أداة حفر صغيرة كالتي تستعمل في البساتين على أثر قراءته

كتابات مارشال وموهينجودارو، وتقديمه الطلب من أجل الحصول على وظيفة في دائرة المسح الآثاري من دون أن يخطر بباله أنّهم سيوافقون على طلبه ويمنحونه الوظيفة. وهنا أمسك عن الكلام مرتبكًا بسبب من ثرثرته، وقال:

ـ لست معتادًا الثرثرة، فأنا لا أستطيع أن أفكّر في أيّ شيء أقوله، أو أنّني أتكلّم من دون توقّف. أخرق حقًّا.

احتجّت قائلة:

ـ لا، لا. لو أنّني شعرت بالسأم لطلبت منك أن تتوقّف عن الكلام. لم أشعر بالسأم، ولكنّ الأوان فات ويتعيّن عليّ الذهاب، لأنّ وقت عودة باكول من المدرسة قد حان. سوف أتركك لعملك، ويكفي ما تسبّبت فيه من إزعاج لك.

وقبل أن يتمكّن من إبداء أيّ احتجاج أو يقترح عليها مرافقتها، كانت قد نهضت من مجلسها لتعود من حيث أتت. وفكّر:

ـ لقد جعلتها تشعر بالضجر، فهي لم تستطع الانتظار حتى تذهب.

سرح ببصره من ورائها وهي تمشي مشيًا سريعًا، وتساءل إن كان حديثه وإيّاها قبل قليل هو أوّل حديث حقيقي يتجاذب أطرافه معها. فجلس من جديد على مقربة من البركة وحاول الرجوع إلى ملاحظاته، ولكن أفكاره عادت مرّة أخرى إلى ميرا على الرّغم منه. فهي تعتني بباكول منذ ستّة أعوام ـ أم هي سبعة؟ ولكنّه نادرًا ما عرفها. كان يعلم أنّها أضحت أرملة وهي في ريعان الشباب، وإنْ كانت ما تزال حتى هذا اليوم في سنّ الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين. وقد حدّثه واحد من أقربائهما عن طريق الزواج مطوّلاً عنها، ثم كتب رسالة إليها مستفسرًا إن كانت تحبّ السكن في دولغانج رود وأن ترعى باكول.

وتذكّر البطاقة البريديّة المقتضبة في عباراتها التي وصلت ردًّا على الاستفسار، وكانت مكتوبة بخطّ اليد على نحو جعل الحروف تبدو وكأنّها ضربات فرشاة. والآن، وإذْ يتذكّر ذلك الخطّ، فكّر أنّ رغبة ميرا في الرسم أمر منطقي، لأنّ خطّ يدها كان مجموعة من الخطوط الجميلة التي في إمكانك النظر إليها والإعجاب بها حتى إن كنت لا تفقه شيئًا من معناها. ولكنّه فهم المعنى، وفهم أنّ معنى العبارات التي كانت مدوّنة هو أنّها سوف تكون مسرورة من المجيء إلى سونغاره من أجل العناية بالمنزل والطفلة لقاء المبيت.

* * *

بعد مرور عام واحد على وفاة زوجها، وصلت رسالة من نرمال يسأل فيها ميرا إن كانت ترغب في العيش في سونغاره وأن تكون جزءًا لا يتجزّأ من الأسرة وأن تهتمّ برعاية باكول. فقد توفّيت زوجته أثناء الوضع، وأوضح لها في رسالته أنّ عمله يقتضي منه البقاء بعيدًا عن المنزل مددًا طويلة من الزمان. وأصبحت المرأة التي كانت ترعى شؤون باكول طوال السنوات الأربع المنصرمة متقدّمة في السنّ علاوة على أنّ باكول أضحت في حاجة إلى شخص ما يوفّر لها ما هو أكثر من العناية الأساسيّة ـ فهي سرعان ما ستصبح في حاجة إلى مساعدة لتدبير فروضها المدرسيّة، وإلى شخص ما تتجاذب أطراف الحديث وإيّاه. وتأتمنه على أسرارها. ولاحظت ميرا أنّه لم يكتب لها عن مدى حاجة الطفلة إلى من يمنحها الحنان، وإن كان هذا الأمر مؤكّدًا في فحوى الرسالة في نهاية المطاف.

وحثّت والدة ميرا، وهي أرملة أيضًا ومعتمدة على ولدها، ابنتها ميرا على قبول العرض الذي تقدّم به نرمال، وقالت:

ـ سوف تكون البنت وكأنّها ابنتك، فأنت لن يكون لك أطفال من صلبك، فاجعلي من هذه الطفلة اليتيمة الأمّ ابنة لك. لعلّ الله قدَّر لك هذا الأمر منذ زمن.

لم تكن ميرا راغبة في طفلة، ولكنّها كانت تسعى إلى الهروب من والدي زوجها اللذين كانا يثوران ثورة عنيفة كلّما فكّرا في أنّ ولدهما قضى نحبه. وأنّ زوجته ما تزال على قيد الحياة. ولم تستغرق ميرا زمنًا طويلاً في التفكير حتى اتّخذت قرارها في نهاية الأمر وحزمت حاجياتها في صندوق صغير، واستقلّت القطارين المغادرين إلى سونغاره في خلال أسبوعين من الزمان.

مرّت ثمانية أعوام منذ وفاة زوجها، وكانت تعلم أنّ المفروض عليها هو أن تحزن عليه إلى الأبد، ولكنّه كان قد بدأ ينسلّ من قدرتها على الإمساك به. ولم تتذكّره إلّا جزئيًّا عندما كانت معدته تغور في بنطاله، إذْ كان قياسه ثلاثة وعشرين، أو عندما كان يعجز عن تناول الطعام من دون أن تسحق أسنانه كومة من الفلفل الحارّ. أمّا صوته، فهو الشيء الذي لم يعد ينساب إلى أذنيها كما كان ينساب سابقًا إنْ تنبّهت له في أيّ وقت. كيف كان شعورها وهو يلمسها؟ ما رائحته عندما يستيقظ من النوم ويتكوّر من جديد بجانبها؟ لقد أضحت ذكرياتها التي ظلّت تنبش فيها كثيرًا، من الماضي، وفقدت قوّتها السحريّة إعادته من جديد.

بدأت في أيّامها الأولى في دولغانج رود تشعر أنّ نرمال الذي لم يكن على صلة عائليّة بها سوى صلة الزواج روح تشبهها. فنرمال لم يتكلّم كثيرًا مع أيّ شخص، ولكن على الرّغم من ذلك، لاح لهما أنّ لديهما أشياء يريدان البوح بها إذا ما التقيا مصادفة على السلالم أو في البستان. لكن من سمع بأرامل تتزوّج من جديد؟ من سمع بأرملة تتزوّج بأحد أقربائها؟ لقد ترامى إلى أذنيها من يُثني على نرمال في إيوائها.

ولوضع حدّ لأفكارها، غادر نرمال سونغاره ليعمل في وظيفته الجديدة وكأنّه لن يعود مجدّدًا.

وعلى مدى سنين طويلة، تضاءلت نوبات السخط والغضب التي كانت تعتري ميرا حتى غدت تشعر أنّها تتربّع على عرش مريح من العمل اليومي الاعتيادي، وإنْ كان مثيرًا للضجر. ولكنّها شعرت في الأسبوع الأخير، ومنذ عودة نرمال تحديدًا عودة الارتباك إليها، وأدركت أنّ ثمّة شعلة صغيرة تومض في مكان ما داخلها، شعلة أدركت أنّها سوف تحرق كلّ شيء قريب منها إن لم تطأ عليها وتطفئها.

تمطّت ميرا للتخلّص من الوخز الذي بدأت تشعر به يدبّ بين كتفيها، فهرعت إلى البستان، فشاهدت باكول وهي تؤرجح ساقيها من فوق الغصن الثاني من أغصان شجرة المانغو.

فصاحت بها في لهجة جافّة غير مقصودة:

ـ لماذا ينبغي أن أخبركِ كلّ يوم أنّ الوقت قد حان لتلقّي دروسك؟ ألا تعلمين أنّ الأستاذ شوبي في انتظارك؟

لكن باكول تظاهرت بأنّها لم تشاهدها ولم تفهم الغضب الذي كان يتّقد في أعماقها، غضبًا ثقيلاً وحارقًا بين كتفيها ورقبتها. رنت إلى باكول متذمّرة. وكانت قد حاولت أن تكون صديقة لها، لكن ثمّة شيئًا عنيدًا، صعب المراس في أعماق الطفلة، زاد من صعوبة اقتراب الناس منها. ولم تبثّ باكول أسرارها إلى ميرا بل لم تكلّمها إلّا عند الضرورة.

وها هي الآن تتربّع في مكانها من فوق شجرة المانجو، وعلى مسافة مرتفعة تكفي لأن توضح بها أنّها لن تغادر موقعها، لأنّها اختارت أن تجلس هناك وليس لأنّ ميرا قطعت عليها وحدتها.

* * *

كرهت باكول التعليم الخصوصي، وكرهت شارب الأستاذ شوبي الكثيف الذي كان يغطس في الشاي، وفتات البسكويت العالقة به، وكلامه الذي يدندن به: إن لم تحفظي جداول الضرب عن ظهر قلب، فلن تتمكّني من الانتهاء من ورقة الرياضيّات. وفي اللحظة التي كان معلّمها يسمح لها بالانصراف، فإنّها كانت تدفع كرسيَّها إلى الخلف وتحشر قدميها في النعال وتركض إلى الجانب الآخر من الطريق في اتّجاه منزل السيّدة بارنوم. كانت تدري أنّ موكوندا فرغ توًّا من شربه عصير الليمون وقرأ الكتب المصوّرة بينما هي منهمكة في العمل في جدول الضرب والاستعارات المختلفة. زد على ذلك، فقد حلَّ عيد ميلاد السيّدة بارنوم من جديد، وإذا ما تأخّرت، فلن تحصل على أيّ قطعة من كعكة الميلاد.

قالت السيّدة بارنوم عندما رأت باكول:

ـ لقد جئتِ مبكرة، فالحفلة ليست قبل الساعة الخامسة.

ثم هزّت الجرس البرونزي بيدها هزّة متجبّرة، وقالت:

ـ ما دمتِ هنا، عليكِ أن تكوني نافعة. اركضي إلى المطبخ وآتني بالشطائر.

كانت الغرفة كبيرة الحجم ذات نوافذ بعماد حجري يقسّم كلّ واحدة إلى قسمين، وتطلّ على البستان ثم على منزل باكول في الجانب الآخر في الطريق. وكانت للنوافذ ستائر خضراء اللون مسدلة على الدوام ممّا يمنح الغرفة مسحة حوض زجاجي معتم ومفرط في زينته وزخارفه. وعلى أحد جوانب الغرفة ثمّة مدفأة ومن حولها عدد من الكراسي، وثمّة رفّ من فوقها وفي وسطه كرة أرضيّة زجاجيّة تستند إلى حامل ذهبي صقيل، وتبدو عليها القارّات والمحيطات وسلاسل الجبال.

وكان بجانب الكرة كرتان زجاجيّتان أخريان صغيرتان، تحتوي إحداهما على برج بيزا المائل بينما تحتوي الثانية على بيت ريفي صغير أحمر السقف. وإذا ما هززت هاتين الكرتين الزجاجيّتين فإنّك سوف تشاهد رقائق الثلج الصغيرة والهشّة تطفو في الأسفل، فتغيم المباني الصغيرة في زوايعها.

أمّا على الجدار الأبيض المائل إلى الرمادي من فوق رفّ المدفأة، فكان يتألّق نصل مقوّس لسكّين ذهبي مزخرف، وكان على الدوام موضع إعجاب باكول وموكوندا. وما إن بدأ الاثنان يتردّدان على منزل السيّدة بارنوم للّعب حتى قال لهما الحاجب بصوته الأجشّ:

ـ هذه هي السكّين التي لقي بها السيّد مصرعه، وما يزال شبحه يحوم في دولغانج ينشد العدالة، ولن تجفّ الأرض التي سُكب من فوقها دمه، ولا حتى في أشدّ فصول الصيف حرارة، وسوف أريكما يومًا ما.

في الجانب الآخر من الغرفة، ثمّة طاولة خشبيّة مستديرة ومن حولها ستّة كراسي. وكانت الطاولة قد خسرت إحدى أرجلها بسبب النمل الأبيض وحلّت محلّها رِجل أخرى بلون فاتح إلى حدٍّ ما، وقصرت قليلاً بعد تثبيتها، فباتت الطاولة تميل إلى أحد الجوانب. ورأت باكو أنّ الطاولة أُعدّت من فوقها أدوات الطعام الفضّيّة والمناديل لستّة أشخاص وكعكة مثبتة في منتصف طبقة فوق حامل متعدّد الطبقات، يزيد حجمها عن حجم الكعكة ستّ مرّات تقريبًا. وصُفّت من حول الكعكة أطباق فارغة مطرّزة بالزهور والكروم.

قرعت السيّدة بارنوم جرسها مرّة ثانية فدلف موكوندا من فجوة معتمة في نهاية الغرفة، وغنّى:

ـ عيد ميلاد سعيد أيّتها السيّدة بارنوم.

أمّا الحاجب الذي كان ينتظر خارج الغرفة، فدخل وهو يتنحنح ويقول:

ـ عيد ميلاد سعيدة أيّتها السيّدة.

وردّدت باكول من ورائهما:

ـ عيد ميلاد سعيد أيّتها السيّدة بارنوم، وأهنّئك بهذه المناسبة السعيدة.

قالت السيّدة بارنوم وهي تنهض وتعدّل من سترتها الزبديّة اللون:

ـ شكرًا أيّها الأعزّاء، شكرًا لكم. يسعدني أنّكم تذكّرتم، سعيدة لأنّكم أتيتم كلّكم!

تقدّم الحاجب نحو الكعكة التي لم تثبت عليها سوى شمعة واحدة طويلة وكأنّها شجرة صنوبر من فوق روث بقرة.

ـ هل أُشعل الشمعة أيّتها السيّدة؟

وهنا بدت السيّدة بارنوم كثيرة التشكّي والتذمّر، وقالت:

ـ لماذا لم يحضر الآخرون في الوقت المحدّد. لا يمكننا ترك الناس وهم ينتظرون. صحيح؟

ثم جلست وأشّرت بيدها في اتّجاه باكول قائلة:

ـ اجلسي! اجلسي. لا يمكننا ترك الناس ينتظرون!

كانت باكول وموكوندا على علم مسبق بالإجراءات، فما كان منهما إلّا أن جلسا. كانت السيّدة بارنوم تهوى الاحتفال بعيد ميلادها كلّ شهر وفي يوم غير متوقّع. وكانت الأطباق تقدّم، بصرف النظر عن الضيوف، مملوءة بالكعك وشطائر البيض المسلوق سلقًا خفيفًا، وعصير الليمون الحلو المذاق في أقداح تستعمل لشرب النبيذ. وكانت باكول وموكوندا

متردّدين في الأسابيع القليلة الأولى، يرنو أحدهما إلى الآخر بحثًا عن مشورة، لا يعرفان كيف يتصرّفان أمام هذه المناديل والسكاكين والشوكات. أمّا الآن، فهما ينتظران كلّ شهر اليوم الذي سوف يحصلان فيه على الكعك والشطائر. وهي مأكولات لا تُعطى لهما في المنزل. جالت السيّدة بارنوم ببصرها من حول الطاولة وابتسمت ابتسامة تنمّ عن حسن الذوق وسماحة النفس في اتّجاه الكراسي الشاغرة وفي اتّجاه باكول، وقالت:

ـ لطيف جدًّا تذكّركم هذا اليوم. أنا شخصيًّا لا أستطيع أن أفكّر في عيد ميلاد أفضل!

ثم عدّلت من زمرّدها وربتت على شعرها، وقضمت من زاوية إحدى الشطائر.

ولمّا فرغوا من تناول الطعام، اضطر الحاجب إلى أن يدور من حول الطاولة قائلاً قبل أن يرفع الأطباق:

ـ هلّا سمحتم لي؟

وعندما باتت الطاولة خالية من الأطعمة، حوّلت السيّدة بارنوم شمعة الكعكة إلى وسط الطاولة، في حين ذهب موكوندا إلى فجوة الغرفة ذات الظلال وجذب لوحًا فيه أرقام وحروف وقطعة نقد فضّيّة ثقيلة الوزن يعود تاريخها إلى زمن المغول. كانت قطعة النقد كثيرة النتوءات، ذات حافّات غير مستوية، فرتّبت السيّدة بارنوم اللوح ووقفت كأنّها توشك أن تُقدِم على عمل مهمّ. جالت ببصرها من حولها ورنت إلى وجهيْ باكول وموكوندا اللذين أضاءهما نور الشمعة.

ـ اصمتا وفكّرا الآن!

أغمضت باكول عينيها، وقطّبت جبينها وكأنّها لا تفكّر إلّا في

اللوح والأرقام. أمّا السيّدة بارنوم، فقد مالت من فوق أصابع طويلة، وكان في وسع موكوندا أن يسمع صوت أنفاسها. اختلس نظرة إلى باكول ثم أغمض عينيه وهو يشعر بالذنب. وبعد برهة وجيزة طرق سمعه صوت حكّ وحركة، ففتح عينيه ونظر، فشاهد قطعة النقد تتحرّك من فوق الطاولة، من عدد إلى حرف ومن حرف إلى عدد. وكانت السيّدة بارنوم تتابع كلّ حركة وتغمغم في صوت خفيض.

ـ لا، لا يمكنك أن تقول هذا! ليس هذا ما حدث تمامًا. حقًّا؟ أهكذا إذًا؟ سوف أذهب من يوم غد. سُمّ جرذان؟ سُمّ جرذان؟ ممكن. النجوم تهوي ـ على الحقل، تهوي. حان وقت القطار. الثلاثاء هو اليوم المطلوب. استقلّ القطار في يوم ثلاثاء.

وفي حين كانت السيّدة بارنوم تغمغم، وحركات قطعة النقد تزداد قوّة، اندفعت عيناها من مكان إلى آخر على اللوح، وانبثقت خصلات شعرها من الشبكة. أمّا الشمعة، فألقت بظلالها الطويلة، غير أنّ باكول لم ترغب في التعبير عن هلعها ممّا يجري أمامها، فظلّت تشيح بناظريها جانبًا أثناء هذه الحركات. ما الذي يحدث لو أنّ الروح قرّرت عدم الخروج من الغرفة؟ وكانت السيّدة بارنوم تلبث أحيانًا نصف ساعة أو أكثر في هذه الغيبوبات. وتنبّهت باكول إلى أنّ مانجولا كانت توبّخهما إذا ما تأخّرت هي وموكوندا في العودة إلى البيت، وهو ما حدث في الأشهر القليلة المنصرمة، وكانت تصرّح علانيّة في أوقات تناول العشاء أنّ الأوان قد حان لتقليص حرّيّة باكول وتعليمها كيف تكون سيّدة شابّة. لهذا قرّرت باكول أنّ الأفضل هو الانصراف من المنزل بعد أن تدبّرت كلّ أوجه النظر في الظروف والملابسات.

وجذبت رسغ موكوندا من تحت الطاولة، فنهضا وتسلّلا إلى خارج الغرفة. وما إن ابتعدا حتى قالت باكول:

ـ أعرف أنّ ذلك الحدث لم يعجبك ولهذا تركتك تنصرف، فقد بدا عليك الخوف.

قال موكوندا:

ـ أنا؟ أنا خائف؟ هه! أنت هي الجبانة!

بعد مرور وقت قصير على انصرافهما، نزعت لاريسا بارنوم سترتها الحريريّة وجلست قبالة منضدة زينتها وهي مرتدية القميص التحتي القديم والمصنوع من الساتان والمزيّنة حافّته بشريط مزركش. وبدأت تنزع دبابيس شعرها وتتأمّل صورتها مستفهمة: وجه طويل بعينين حادّتين ضيّقتين وبندقيّتي اللون، يفصل بينهما أنف عظمي بارز وحاجبان سميكان مقوّسان، يميلان إلى اللون الرمادي. أمّا الجلد المحيط برقبتها الرقيقة فقد بدا وكأنّ شخصًا ما يجذبه إلى أسفل نحو ياقتها. وضعت أصابعها على رقبتها وقرصت الجلد المرتخي، ثم جذبت شعرها من خارج الشبكة ونظرت إلى المرآة باتّجاه تلك الخصلات الرماديّة عند صدغيها. خلعت القرطين الزمرّديين من أذنيها وداعبتهما وكأنّها لن تملكهما إلى ما لا نهاية. لقد ظلّ منزلها منذ برهة وجيزة يُموَّل من المجوهرات التي كانت تعطيها للحاجب كي يراهن عليها!

في أوقات المساء المتأخّرة، كان المنزل يبدو أكبر، وخاويًا، عندما يعود الحاجب أدراجه إلى مأواه. وغطّت السيّدة بارنوم جسدها بمبذل من فوق القميص التحتاني واتّجهت نحو منضدة ذات أدراج، وأخرجت منها قدحًا بلّوريًا مثلومًا في قعره وملأت نصفه بشراب الويسكي من قنّينة تبدو جاثمة، وسارت نحو غرفة المعيشة لكي تجلس أمام البيانو. وفكّرت أنّها سوف تعزف معزوفة ذات نغمات كبيرة مدوّية تملأ المنزل ضجيجًا متخيّلة الناس ومتخيّلة حفلة. وبدأت تقلّب في دفاتر موسيقاها.

مال نرمال من فوق الحاجز المثبت على السطح وفتح ثالث علبة سكائر، وأصغى إلى بيانو السيّدة بارنوم الذي طرق سمعه من على الجانب الآخر من الطريق، بتنافر أنغامه الصادحة وبدا على سبيل المحاولة والتجربة، متردّدًا وغير واثق، يشعر كأنّه عاد إلى البيت.

* * *

قلّبت باكول قطعة سمك من جنب إلى جنب فوق طبقها وكأنّ ذلك سيؤدّي إلى اختفائها. أمّا موكوندا الذي كان يشعر بالجوع على الدوام في هذه الأيّام، فقد تساءل في نفسه إن كان في وسعه الحصول على كمّيّة أخرى من الرزّ.

هتفت مانجولا في دهش:

ـ لقد هبط علينا الفتى كالجراد وسوف يأتي على كلّ ما عندنا.

كان اليوم هو يوم أحد، بعد مرور بضعة أسابيع على عودة نرمال إلى سونغاره. وجلس نرمال قبالة شقيقه، لاهيًا بعد الغداء، مبتهجًا بمحاولات باكول الخرافيّة لإخفاء السمكة من تحت ورقة سبانخ على طبقها.

ضحك كمال ضحكة خافتة، وقال:

ـ حصلت إذًا يا نرمال على وظيفة مريحة تمامًا، إذْ لا يتعيّن عليك أن تفعل شيئًا سوى السير متمهّلاً إلى تلك الدائرة! أتمنّى لو حظيت بمثل هذا الوقت السهل لأنّ المعمل يعجّ بالمشكلات. فثمّة نماذج أرخص ثمنًا من منتجاتنا تغزو الأسواق وهي مصنوعة من موادّ صناعيّة، ولكن من يهتمّ؟ كما أنّ هذه الحرب أدّت إلى تخفيض الميزانيّة الحكوميّة، والأدهى والأمرُّ من ذلك نحن مطالبون الآن بمحاربة البريطانيّين... وإذا لم تكن هذه المتاعب كافية لنا، فإنّ سليم داهمه المرض فلم يعد يقوى على العمل.

ثم شرب كمّيّة كبيرة من الماء البارد ووضع القدح بقوّة على الطاولة.

قال نرمال:

ـ سوف نبدأ التنقيبات بعد بضعة أسابيع، ولكن ليس العمل كلّه واضحًا أو مفهومًا لأنّنا بحاجة إلى شراء موادّ كثيرة وإلى قدر كبير من التنظيم الذي ينبغي إنجازه.

كان العمل يسير سيرًا بطيئًا، أبطأ ممّا يريد، وهذا ما يعرفه. فالسلطات لم تنظر إلى طلباته نظرة عاجلة، إذْ كان كلّ فرد منشغلاً بالحرب في أوروبا ـ أمّا هو فيعيش في بلدة صغيرة، وربّما لم يعتزّ غيره اعتزازًا كبيرًا بحفريّاته. يضاف إلى ذلك، ما اتّضح له من أنّ كلّ مادّة طلبها ينبغي أن توافق عليها خمس جهات مختلفة.

قال كمال بلهجة مهدّئة:

ـ آه، كفى! لا تكن جادًّا معي يا نرمال. ما سبب قلقك؟ هل هو بسبب قرب انتهاء منطقتنا بوصفها موقعًا سياحيًّا؟ ألن تكون ثمّة قلعة أثريّة؟

قالت باكول موجّهة كلامها لأبيها في اتّهام:

ـ أنت تنقّب في الآثار؟ كيف يمكنك الإقدام على مثل هذا العمل؟

قال نرمال في صوت حادّ نافد الصبر:

ـ لا تتكلّمي عن أمور لا تفقهين فيها شيئًا يا باكول. ولا تتدخّلي في أحاديث من هم أكبر سنًّا منك. سبق أن لاحظت هذه النزعة فيك.

فغمغمت:

ـ لست أتدخّل، بل أسأل فحسب.

قال نرمال:

ـ سوف أشرح بعدئذٍ، والآن حسبك أن تأكلي طعامك.

لكن باكول دفعت طبقها جانبًا، ودفعت كرسيّها إلى الخلف، غير أنّها توقّفت عندما شاهدت ميرا تشير إليها عابسة. فانتظرت حتى ينهض عمّها أوّلاً وانشغلت في رسم دوائر في طبقها.

قالت مانجولا:

ـ لا تعبثي بطعامك يا باكول. فالتماسيح التي تداعب ضحيّتها سرعان ما تجد من يلتهمها بدورها. ألا تعرفين ذلك؟

وقال كمال مقلّدًا نبرة مانجولا التي رمقته بنظرة تشي بالغضب:

ـ ألا تعرفين؟ ألا تعرفين يا باكول أنّ والدك جاء إلى هنا لينقّب في تلك الآثار ليتأكّد من وجود آثار أخرى من تحتها؟ إنّ الحكومة سوف تنفق أموالاً طائلة في حين لا يجد عدد كبير جدًّا من السكّان شيئًا يأكلونه في هذا البلد!

قال نرمال في صوت ينمّ عن إرهاق، لأنّه اضطرّ إلى أن يوضح الموضوع لعدد كبير من الناس:

ـ إنّنا لا ننقّب في الآثار، فالأمر ليس هكذا.

قال كمال مكتئبًا:

ـ وكيف تنقّبون إذًا؟ إذا أردت أن تعرف بوجود شيء من تحت شيء آخر، أفلا ينبغي لك أن تحفر في الطبقة الأولى. قد لا أكون آثاريًّا في دائرة المسح الآثاري التابعة لصاحب السموّ الملكي، ولكنّني لست غبيًّا. صحيح؟ ثم ماذا تأمل أن تجد من وراء كلّ هذا الحفر في أيّ حال؟

ـ قد تكون ثمّة حضارات أقدم لا نعرف عنها شيئًا. وقد تكون الهضاب الدنيا أمام سلسلة التلال هضابًا تخفي من تحتها مدنًا موغلة في القدم. من يدري؟

ـ ومن بحاجة إلى أن يدري؟

قال نرمال في غرور:

ـ لو لم ينقّب الآثاريّون في أيّ منطقة لما كانت لدينا أيّ فكرة عن آثار الهند القديمة.

تجشّأت مانجولا تجشّؤًا عميقًا، ثم تنهّدت:

ـ أووووه. هلّا فرغتما من هذا الحديث كي أتمكّن أنا وميرا من تناول الطعام؟

دفع نرمال كرسيّه إلى الوراء وتهيّأ للنهوض، فنظر إلى ميرا الجالسة وبيدها مغرفة، منتظرة تقديم كمّيّة أخرى من الطعام لمن يرغب. ولاحظ أوّل مرّة كم هي نحيلة، ولاحظ عظمي الترقوة البارزين وعينيها الواسعتين جدًّا والمحاطتين بدوائر سود في وجه صغير. بدت هشّة وهي جالسة بقرب مانجولا الواثقة من نفسها ثقة قويّة. وفكّر في نظام الحمية الذي تتبعه الأرملة وقوامه الصيام ويندر أن يحتوي على البروتينات. متى تتغيّر الأحوال؟

* * *

أفرغ نرمال محتويات صندوقيه من بعد ظهر ذلك اليوم وتعجّب عندما رتّبها في صفوف من حسن ترتيبه. فقد كانت رفوفه تبدو مختلفة عندما كان أصغر سنًّا. ففي تلك الأيّام، لم يكن عليه سوى فتح خزانة ثيابه ليجد فيها مجموعة من الملابس والكتب وأدوات الحفر. غير أنّ

مهنته وأسفاره جعلت منه رجلاً منتظمًا. وكان والده قد ظنّ أنّ ابنه ليس سوى مهمل لا سبيل إلى تقويمه وإصلاحه، حتى بعد أن أصبح رجلاً متزوّجًا. ترى ماذا يعتقد لو رآه الآن؟

توقّف نرمال قليلاً وجلس وفي يده سيكارة، وفكّر في العمل الذي ينتظره: فهو لم يسبق له أن تولّى مهمّة حفر من قبل. وتذكّر الأوقات التي أنفقها بين الآثار، فتًى أوّلاً وشابًا ثانيًا، يختلس سيكارة ويسير من فوق الأسوار المتداعية متظاهرًا أنّه ملك من ملوك العصور الغابرة، ثم يفتّش وسط التراب متخيّلاً أنّ في إمكانه مشاهدة بريق قطعة معدنيّة قديمة. وفي إحدى المرّات عثر على قطعة معدنيّة مقوّسة تشبه سلاحًا من الأسلحة. ربّما كانت من البرونز، ولكنّه لم يدرك أنّها ليست سوى قطعة معدنيّة وجزء من علبة صفيح إلّا بعد أن أتى بها متحمّسًا إلى المنزل ونظّفها. ومع هذا، فقد احتفظ بها على مدى سنين طويلة.

نهض من مجلسه وأطفأ سيكارته. كان صندوقه يحتوي على صخور ومتحجّرات وقطع من حجر الصوان وكسر خزفيّة، وكلّها أشياء كان قد جمعها أثناء تنقيباته. ونزع عنها غطاءها من القطن الخام ووضعها من فوق حافّة النافذة حيث يمكنه أن يشاهدها. وهنا فوجئ بشيء ما قطع عليه حركاته المنتظمة، ودفع رأسه ونظر إلى بئر السلّم الذي يهبط من السطح إلى الطبقة الأولى ونادى:

ـ هل أنت هنا يا باكول؟

ساوره القلق، فنادى من جديد بعد دقيقة:

ـ باكول!

شاهد وجه ابنته وهي ترفع بصرها إليه عند أسفل السلم، وقالت:

ـ ماذا؟

فقال لها:

ـ اصعدي إلى هنا.

ـ لماذا؟

ـ لا تطرحي أسئلة كثيرة يا باكول!

فقالت:

ـ ولم لا؟

لكنّه شاهدها ترتقي السلالم.

فقال لها بعد أن وصلت السطح:

ـ أحتاج إلى بعض المساعدة في إفراغ المحتويات.

ـ عليّ أن أنتهي من فروضي المدرسيّة، إذْ سوف يأتي الأستاذ شوبي في الحال.

ـ لن يستغرق ذلك وقتًا طويلاً يا باكول. لديّ بعض الحاجيّات التي أريد وضعها في الخزانة عند فسحة الدرج، ويتطلّب ذلك منّي الصعود والهبوط مرّات ومرّات إن لم تساعديني.

ـ ألا يمكنك انتظار شوبي؟

ـ هل تخلّيت عن توانيك قليلاً؟ لماذا لا أحصل على إجابة مباشرة منك؟

غير أنّه سرعان ما حاول إرضاءها، فقال:

ـ انظري، أعرف...

لكن باكول أسرعت تهبط السلالم من جديد، فشعر نرمال بالحرارة تتدفّق إلى وجهه، وبدأ يشعر بألم في جبينه، ولحق بها إلى السلالم.

ينبغي له أن يكون حازمًا، فناداها ثانية، فسمع صوتًا مدوّيًا:

ـ تعالي إلى هنا يا باكول!

ارتقت باكول السلالم من جديد، سارحة ببصرها إلى يدها من فوق حاجز السلالم، عابسة.

ـ عندما أطلب منك أن تفعلي شيئًا ما، يجب ألّا تغربي بعيدًا. لقد حان الوقت لكي تكوني مهذّبة. واضح؟

لم تنبس باكول بكلمة.

فسأل نرمال:

ـ ماذا قلتُ لكِ؟ ألا يمكنكِ سماعي؟

ـ حسنًا، حسنًا. قل لي ماذا أفعل. يجب أن أذهب.

فقد نرمال الاهتمام بإفراغ محتويات صندوقه وإطلاع باكول عليها. وبدأ يفكّر: يا لها من غلطة. تخيّل أن يكون أبًا مختلفًا، مختلفًا عن أبيه نفسه، ألّا يكون صارمًا نائيًا بنفسه عن صحبة باكول، وأن يكونا صديقين وبخاصّة أنّها بلا أمّ كان من شأنها أن تغدو صديقتها. هل فات الأوان؟

رشقت باكول الصندوق المعدني الأحمر بنظرة اشمئزاز فوجدت الصبغ قد زال عنه أكثر من ذي قبل. كانت قد رأته مرّات ومرّات، إذْ كان لا يفارق نرمال في إيابه وذهابه في كلّ رحلة من رحلاته. كانت ما تزال في غضب شديد بسبب ملاحظات نرمال القاسية عنها أثناء وجبة الغداء: كيف يتجرّأ، كيف يتجرّأ على أن يفعل ذلك بي أمام الآخرين، وكلّهم كانوا يسخرون منّي؟ كيف يتجرّأ؟.. وانتابتها رغبة شديدة في أن تبصق على الصندوق. قرّرت ألّا تتكلّم، وألّا تكلّم أحدًا.

ألحّ عليها نرمال وهو يجثو بجانب الصندوق ليفتحه:

ـ أتدرين يا باكول؟ سوف نذهب إلى أماكن بعيدة في حفريّاتنا حيث الغبار والحرارة والخيام التي تتأرجح في وسط الريح. وفي بعض الأيّام سوف نأكل الخبز والبصل والعدس بالكاري لا غير. هكذا أصبت بضربة شمس في إحدى المرّات، لكنّ الأمر يستحقّ العناء عندما تعثرين على قطعة صغيرة من الفخار، حتى ولو مكسورة. سوف أصحبك معي يومًا ما في إحدى عمليّات الحفر، في هذه المنطقة.

كان نرمال ينتظر أن تقاطعه بأسئلة تنمّ عن حبّ استطلاع، لكن باكول استمرّت في تجميع الكتب التي كانت في الصندوق، لا تتوقّف إلّا لكي تحكّ ركبتها بين حين وآخر. صمّمت على عدم النظر إليه مباشرة، لكن نرمال كان يرغب في أن يمسك بابنته ويقرّبها منه، ولكنّه قال عندما شاهدها ترفع كتابًا ضخمًا مستهلكًا من الصندوق:

ـ ليس هذا كتاب تمارين فحسب. افتحيه!

لكن باكول أرسلت إليه نظرة تنمّ عن سأم متعمّد.

ومضى يقول:

ـ هيّا، دعيني أطلعك. لديّ سبعة منه.

فتح أحد الكتب وشرع يقلّب الصفحات، وكان كلّما قلّب صفحة تظهر ورقة شجر جافّة وهشّة. في بعض الصفحات، ما يزال في إمكان المرء النظر مليًّا إلى لون الورقة ويتذكّر كيف كانت يانعة وحيّة على إحدى أشجار الهملايا. وكان لبعضها حتى وهي جافّة، مسحة من لون أحمر، وبعضها الآخر أصفر شاحب يحتوي على نقاط سود، في حين كان قسم ثالث منها يبدو مثل هيكل عظمي. جسدٌ زالت عنه كلّ الألوان. وكان نرمال قد دوّن على كلّ صفحة أنواع تلك الوريقات والمنطقة التي عثر فيها عليها. في البدء، ثمّة كستناء وبلّوط، ثم تأتي

الكنوز التي يصعب الحصول عليها: بقايا زهرة خشخاش زرقاء اللون وكِسَرٌ من لحاء شجرة البتولا وورقة من البراهما كمال، وكلّها من جبال الهملايا العالية. وبدت ملاحظاته كثيرة، فعاد إلى الملاحظة الأخيرة حيث كان قد اقتلع كلّ ورقة وضغط عليها، وكانت بلون ضوء ذلك النهار. كم كانت الريح قارسة، وكم كانَ وحيدًا السفح الشديد الانحدار.

قلّب نرمال الصفحات، ناسيًا باكول. وكانت سبّابته تلامس أحيانًا واحدة من الأوراق اليابسة لمسًا رقيقًا لا حدود له. ومسَّد إحداها كانت ما تزال حمراء وخضراء وابتسم في سرّه. ولم ينتبه لباكول وهي تغادر الغرفة.

* * *

جلس نرمال في ذلك المساء في غرفته التي جرى ترميم سقفها مؤخّرًا وبدأ ينظر في أدوات الموسيقى. لم يكن قد لمس صندوق أسطواناته منذ وفاة شانتي. ولم يكن يعرف إن كان جهاز التسجيل ما يزال في حالة جيّدة! ففي تلك الأيّام، كان الجهاز يصدر صريرًا عندما كانا يستلقيان على السرير ويصغيان إلى آلة موسيقيّة وتريّة ويرقبان سماء الليل وقد انشطرت إلى شطرين بحاجز النافذة. ولمّا فتح الآن صندوق الأسطوانات مرّة أخرى، فكّر أنّ في وسعه إلقاء نظرة على جهاز التسجيل وربّما يحصل على إبرة جديدة له، فينظّفها ويزيّتها، ثم يديرها من جديد. كان ماهرًا في مثل هذه الأشغال.

صبّ نرمال كأسًا من الشراب لنفسه. وفي خضمّ تصاعد دخان سيكارته باتّجاه باب الشرفة المفتوح، فتّش في أسطواناته القديمة فاكتشف كنوزًا نسي أمرها. فجلس على أحد الكراسي وبيده أربع

أسطوانات لقراءة الملاحظات المدوّنة على أغلفتها.

انقضى الوقت بسرعة. وأُعدّت مائدة العشاء، ولكن نرمال لم يهبط إلى الطبقة الأرضيّة.

فأرسلوا موكوندا إليه ليدعوه إلى المائدة، فصعد إلى السطح وتلصّص على غرفة نرمال، ثم هرع يهبط السلالم إلى الطبقة الأرضيّة حيث كانت مانجولا جالسة من وراء آنيّة الطعام الكبيرة تبحث عن المغرفة. كانت الغرفة معبقة برائحة العدس الأخضر المحمّص والدهن وورق الغار والسمك المقلي. شعرت مانجولا بالجوع بسبب وجودها في ذلك المكان، وراودها الأمل في أن يُسرع الرجال في تناول طعامهم كي تتمكّن من البدء بالأكل بدورها. وهنا دفعت بقطعة من البطاطس في فمها خلسة.

وأعلن موكوندا:

ـ سوف يتناول بابو نرمال الطعام في وقت لاحق لأنّه يحتسي الشراب حاليًّا.

شهقت مانجولا:

ـ ماذا؟ الشراب؟ يا الله، يا الله، في البيت!

ثم أسقطت المغرفة في يدها محدثة صوتًا قويًّا ودفعت كرسيّها إلى الوراء ولملمت أطراف ساريها وارتقت السلالم. فما كان من ميرا إلّا أن لحقت بها متوسّلة:

ـ أختاه، يا أختاه! ليكن ما يكن، ففي إمكانه تناول الطعام في وقت لاحق، وسأسّخنه له...

همست مانجولا:

ـ اسكتي!

وصلت مانجولا في تلك اللحظة إلى الغرفة الكائنة على السطح، وفتحت الباب عنوة، وانتظرت كي تتحقّق من الأمر بنفسها.

لاحظت أنّ نرمال لم يكن يتعاطى الشراب فحسب، بل كان يدخّن أيضًا. فقد كانت زجاجة مشروب الرَّم التي تورّطه في الجرم على الطاولة من دون أيّ محاولة لإخفائها. وكانت الغرفة تبدو لها معبقة برائحة تشبه رائحة بيت الرذيلة. وتخيّلت كيف يمكن أن تكون مثل هذه البيوت!

صاحت مانجولا مغمضة العينين في ذعر:

ـ يا إلٰهي!

ثم أخذت نفسًا قويًا وثبّتت رداء الساري من حولها، وهتفت وهي تفتح الباب من جديد من دون أن تخطو داخل الغرفة:

ـ يا نرمال!

كان نرمال قد أطفأ سيكارته ووقف دهشًا لهذا الغزو، ومضت تقول:

ـ ألا تتذكّر أنّ ثمّة أطفالاً في هذا البيت؟ أطفال في طور النموّ! كيف يمكنك أن تحمل نفسك على مثل هذا الفعل.

وقفت ميرا من وراء مانجولا وقالت:

ـ اهدأي.. أرجوك! هيّا إلى الطبقة الأرضيّة.

كان موكوندا قد لحق بهما إلى الشرفة، وأرسل نظرة سريعة إلى داخل الغرفة بحجّة أن يقول:

ـ بابو كمال ينتظر وجبة العشاء.

فأمرته مانجولا:

ـ أسرع وابدأ بإعداد الرزّ، فنحن قادمتان.

استدارت لتعود أدراجها ولكنّها رشقت نرمال بنظرة حادّة، وقالت:

ـ ماذا كان في وسع أبيك أن يقول يا نرمال؟ إنّ هذا البيت طاهر، وإذا ما اضطررت إلى هذا العمل... فافعله في مكان آخر!

ثم لمّت أطراف ساريها من جديد واندفعت في عزم مفاجئ مبتعدة وهي ترمي نظرة أخيرة في اتّجاه زجاجة الشراب.

مال نرمال من فوق الحاجز مسدّدًا نظراته إلى الخارج، محدودب المنكبين، قلقًا ومنزعجًا. كانت السماء صافية على غير عادتها، نجومها تثقب ظلال الأشجار السود، والقمر معلّق فيها، كأنّه بطّيخة صفراء منتفخة.

قالت ميرا في وسط الظلمة:

ـ لا بأس عليها، فهي لا تقصد سوءًا.

التفت نرمال فشاهد وجهها يسبح في ضوء القمر، وجفل عندما أدرك أنّها لم تنصرف، فضحك في سرّه وتنهّد. واسترسلت في كلامها:

ـ لا بدّ أنّنا نبدو مثل هذه الأدغال في نظرك. كيف تطيق الحياة بيننا؟

أصاخ الاثنان السمع لصوت الثعالب المنبعث من الغابة. وقال نرمال في محاولة لكسر حاجز الصمت:

ـ هل يروقك هذا المكان؟ أعني سونغاره؟

قالت ميرا:

ـ نعم، نعم بالتأكيد. يروقني أيّ مكان أستطيع التنزّه فيه.

قال نرمال:

ـ لقد جئتِ إلى هذا المكان... متى؟ في العام نفسه الذي حلَّ فيه موكوندا. صحيح؟ نعم. في العام نفسه، كنتُ هنا في سونغاره منتظرًا ـ منتظرًا إيّاكِ كي تكتبي لي وتخبريني إن كنتِ قادرة على المجيء. وقد ذهبت وأتيت بموكوندا بعدئذٍ، ثم مكثت بضعة أسابيع في المنزل. كنت في حالة قلق، وفي يوم من الأيّام، لم يكن لديّ ما أفعله، فذهبت إلى دار الأيتام لأتأكّد من حال اليتيم الذي تنفق عليه أسرتنا منذ زمن طويل. وعندما شاهدته، راق أحدنا للآخر، فعدتُ به إلى هنا. أمّا أنت، فقد وصلت من بعده تمامًا.

قالت ميرا:

ـ إنّ إخراجه من ذلك الملجأ عمل جميل.

قال نرمال:

ـ نعم، بكلّ تأكيد. حدث ذلك عندما جئت إلى هنا. وقد التقيته قبل أن تلتقي بباكول، وقلتِ آنئذٍ: «ظننتها صبيّة تحتاج إليّ كي أعتني بها».

فضحكت ميرا وقالت:

ـ هل تتذكّر كلّ هذا؟ لقد فوجئت تمامًا.

فقال نرمال:

ـ وقد سافرت إلى راجستان وأنا غاية في الارتياح...

في هذه اللحظة انساب صوت موكوندا في الظلام مشوبًا بشيء من التردّد:

ـ بدأ العشاء يبرد. . . والأخت الكبيرة مانجولا غاضبة جدًا، وتقول إنّها سترفع الطعام من فوق المائدة. . .

* * *

في حين هدأ المنزل وخلد الجميع إلى النوم، استيقظت ميرا، لم تكن قادرة على التأكّد، ولكنّها شعرت أنّ باكول ليست في سريرها في الجانب الآخر من الغرفة. فقالت في نفسها: ربّما هي في الحمّام، وخلدت إلى النوم، ولكنّها استيقظت من جديد بعد هنيهة، فنهضت من فراشها وسارت متعثّرة نحو سرير باكول لكي تتأكّد بنفسها. هل تراها سقطت عن السرير كما سقطت من قبل ذات ليلة؟ كانت الملاءة مجعّدة والوسادة مرميّة إلى الجانب. كان السرير شاغرًا.

وتساءلت ميرا في ذعر: أهي مريضة؟ لماذا لم توقظني؟

كانت الغرفة تنذر بالشؤم وسط الظلمة. فهي لم يرقها هذا البيت البتّة، لأنّه كان يبدو بيتًا كئيبًا يحمل نذر الشرّ منذ البداية. تردّدتْ في فتح الباب الذي كان يعزل غرفتهما عن الممرّ، ولكنّها اتّجهت إليه ودفعته فانفتح قليلاً. كانت مانجولا وكمال يحتلّان الغرفة المجاورة، ولكنّها لم ترغب في إيقاظهما من نومهما، فما كان منها إلّا أن أخذت تتحسّس طريقها في الظلام.

كان الممرّ موحشًا، قابضًا للصدر، سقفه العالي يتلاشى في الظلمة، في حين كان ضوء القمر يغمر الأرضيّة، لم تستطع منع نفسها من اختلاس نظرة من ورائها، وهي تزداد توتّرًا عند صدور كلّ صوت أو صرير. كان في وسعها أن تسمع شيئًا ما من جهة السلالم فسارت إلى هناك. هل صحيح أنّ الأشباح تسكن المنزل؟ لا تفكّري بكلّ هذه الأشياء، لا تكوني حمقاء، بل حاولي أن تعثري على باكول. تحسّست

طريقها إلى أعلى السلالم إلى أن اعتادت عيناها ضوء القمر، وأدركت أنّها بدأت ترى بوضوح تامّ. ارتقت السلالم إلى الفسحة.

كانت الخزانة على الفسحة مفتوحة، وكانت باكول جاثية على ركبتيها، جالسة في وسط ركام من أوراق ممزّقة وقطع من أوراق الشجر. كانت باكول مبهورة الأنفاس وهي تمزّق كتب نرمال في وحشيّة. وعندما تنبّهت لميرا ورفعت بصرها إليها، كانت عيناها تتلألآن، غير منظورتين.

* * *

اختلست باكول النظر إلى غرفة كانابالا قبل الذهاب إلى المدرسة كما هو دأبها في صباح كلّ يوم. كانت جدّتها تهذر في نومها، لعابها السائل يسيل من طرف فمها، مؤشّرًا بقعة مسودّة على المخدّة، وتغمغم قائلة: «أبعد الأسد عنّي. ها هو من جديد، كبير جدًّا، أحمر الأنياب بسبب الدماء، انظر! إنّه يتشبّث بصدره، وسوف يقتله على هذا النحو... هل من أحد هنا؟ هل من أحد يصغي إليّ؟ لا أحد يصغي إليّ...» جاهدت كانابالا كي تفتح عينيها؛ كانت تعلم أنّها مستيقظة، ولكنّها لم تتمكّن من النهوض من فراشها. وكان في وسعها مشاهدة شعاع الشمس يتسلّل من النافذة، تشعر بالبرودة وتريد جذب البطّانيّة إلى صدرها. أحسّت بباكول داخل الغرفة، ولكن ينبغي لها طرد الأسد.

اتّجهت باكول إليها ومسّدت رأسها قائلة:

ـ آه يا جدّتي! استيقظي، فأنت تحلمين!

غمغمت كانابالا وتأوّهت، في حين هزّتها باكول هزّة أقوى من ذي قبل، ومضت تقول:

ـ استيقظي، ليس من أسد هنا، بل أنا باكول. انهضي، لأنّني

يجب أن أنصرف إلى المدرسة حالاً.

وبعد برهة وجيزة من الزمان، وقفت باكول وراء كانابالا تمشّط لها شعرها الأبيض الذي بات رقيقًا في بعض الأماكن، فكشف عن فروة رأسها. يا له من إحساس جميل... عندما ينساب المشط انسيابًا قويًا من فوق فروة رأسها. وانكمشت كانابالا، وهتفت:

ـ آ آ آه!

ـ هل آلمتك؟

قالت كانابالا في صوت منزعج:

ـ وماذا تعتقدين؟ على رسلك! كانت والدتك تملك شعرًا مجعّدًا جميلاً، وقد ورثته أنت عنها. مسكينة أيّتها الطفلة، لم تعش لتستمتع بأيّ شيء، ولم تحظ برؤيتك.

شعرت باكول بنفاد صبرها من جدّتها لأنّها تعيد ذكر الأشياء مرّات ومرّات. وكانت أحيانًا تُعنِّف كانابالا وتقول:

ـ نعم، نعم. لقد أخبرتني بهذا الكلام.

لكن كانابالا استأنفت كلامها، مغمضة العينين، تحسّ بأنامل باكول الرقيقة في شعرها وعلى كتفيها:

ـ كان والدك مختلفًا كثيرًا في السابق، كان صبيًّا مرحًا، لعوبًا. ولم يكن يمشي مشيًا وإنّما كان يركض دائمًا، ولم يتكلّم إلّا وعيناه مفعمتان بالضحك. لكن من يعرفه اليوم؟

تجهّم وجه باكول من ورائها وعبس، في حين استرسلت كانابالا في كلامها:

ـ لم أخبر أحدًا في السابق، ولكنّني سأخبرك يومًا ما. إنّني أعرف

من الذي قتل ذلك الرجل الذي كان يسكن في البيت المقابل لبيتنا.

فضحكت باكول:

ـ أنتِ! هكذا تردّدين دومًا. أنت لا تعرفين أيّ شيء.

غير أنّ كاناباLا مضت في حديثها بصوت مثير للشجن:

ـ ثم قمت بنزهة، ولن تجدي نزهة رائعة مثلها...

وهنا طرق سمع كاناباLا وهي في غيبوبة نومها شخص ما يدخل الغرفة ويفتّش في مكان ما من ورائها، ففتحت عينيها عندما شعرت بسريرها يهتزّ، ونادت في صوت متهدّج:

ـ آه يا باكول! إنّها هزّة أرضيّة! ساعديني!

جالت ببصرها من حولها في ذعر وتشبّثت بجانبيْ سريرها. ورأت قامة نرمال المحدودبة وقد اعتدلت من تحت السرير، فقد جذب صندوقها وفتحه وهي ترقبه في هلع، وشرع يرمي ثيابها خارجه. وبدا أنّه لم يتنبّه إلى أمّه تمامًا.

ـ ماذا؟ نرمال؟ ماذا أنت...

فتّش نرمال من تحت ثياب كاناباLا عن علبة باكول الثمينة. لكن كاناباLا مضت تقول في عصبيّة:

ـ ماذا أنت فاعل يا نرمال؟ ماذا تفعل بصندوقي من تحت السرير.

قال نرمال موجّهًا كلامه إلى باكول في نبرة مقتضبة وهو يمسك بعلبتها المصنوعة من الألمنيوم بعد أن عثر عليها في صندوق كاناباLا:

ـ سوف أعلّمك الآن معنى فقدان شيء عزيز وثمين، وسوف تتعلّمين المسؤوليّة عندما يخصّ الأمر أغراض الآخرين.

صرخت باكول في صوت جهوري:

ـ لا تأخذ العلبة! إنّها علبتي. لا تلمسها.

وغاصت إلى الجهة الأخرى من السرير حيث كان نرمال، وحاولت أن تجذب العلبة من يده. وهنا قالت كانابالا:

ـ ماذا تفعل يا نرمال؟ هل فقدت عقلك؟

فقال وهو يغادر الغرفة:

ـ فقدت عقلي يا أمّاه؟ وهل ما زال في هذا المنزل من يمتلك عقلاً؟

* * *

كان مكتب نرمال الجديد في أطراف بلدة سونغاره، وكان مكتبًا صغيرًا يضمّ موظّفين آخرين سواه، أحدهما مساعد حديث العهد بالوظيفة يتولّى الأعمال الإداريّة، وثانيهما رجل يقوم بمهامّ الساعي أو الحاجب فضلاً عن إعداد الشاي. وكانت طاولة مكتب نرمال خالية إلّا من كومة صغيرة من الأوراق مركونة على أحد جانبيها وبعض الكتب. أمّا الموظّفان الآخران، وهما شارما وناجي فكانا يثرثران بجانب النافذة. وكان في وسع نرمال أن يخمّن أنّهما يتحدّثان في شؤون المكتب من خلال النتف الصغيرة التي كانت تترامى إلى مسامعه.

فقد كان أحدهما يقول:

ـ إنّ السيّد بولوك منحاز كثيرًا لبانرجي. ألا تعلم يا أخي العزيز أنّ بانرجي كان تلميذه؟ لهذا السبب يحصل على مكافآت جيّدة على الدوام.

رشف نرمال مقدارًا آخر من الماء محاولاً أن يُهدّئ من عنفوان

الغضب الذي كان ما يزال مستبدًّا به ويشتعل في داخله. كم من السنوات أنفق في جمع تلك الأشياء؟ اثنتا عشرة سنة؟ خمس عشرة سنة؟ متى بدأ بها؟ تلك شجرة البلّوط التي جلس من تحتها عندما كان يتجوّل في منطقة الهملايا الغربيّة. شجرة القيقب والورديّة، بكلّ ألوانهما المختلفة. وكانت معظمها أوراق شجر من مناطق مرتفعة.. تلك أزمنة كان قد ترك فيها حفريّاته في مواقع مناسبة كي يسير وسط التلال حتى لو كانت التلال بعيدة جدًّا تتطلّب ركوب القطار أو الحافلة أو العربة.

لقد أتلفت باكول كلّ شيء.

دفع كرسيّه إلى الوراء، فهوى على الأرض، وقال مخاطبًا الغرفة:

ـ ينبغي لي الذهاب!

راقبه الموظّفان وهو ينصرف. وقال ناجي:

ـ الرجل غريب الأطوار، فهو لا يتكلّم ولا تروقه رفقة أحد.

لبث نرمال واقفًا في الخارج وأخرج علبة سكائره الفضّيّة المسطّحة، وكانت واحدة من هدايا عيد ميلاده النادرة التي أهداه إيّاها شقيقه، فأشعل سيكارة وأطلق نفسًا بتنهيدة عميقة. وشعر أنّ العصّابة التي تلفّ جبينه بدأت ترتخي، ولاحظ أنّ حافّات الطريق الرمليّة الحمراء قد تكوّمت هنا وهناك مع رقاقات شبه زجاجيّة كأنّها مرايا برّاقة تحت أشعّة شمس الصباح.

لماذا اختارت باكول أن تتلف المجموعة التي كانت عزيزة عليه؟ كانت تعرف قيمتها عنده، وقد أخبرها بذلك قبل يوم واحد لا غير! لم يستطع أن يتخيّل مثل هذا الخبث في طفلة في الحادية عشرة من عمرها... أو أنّها في الثانية عشرة؟ في ذلك الصباح، عندما أخبرته ميرا عمّا حدث ـ ماذا قالت؟ «أخي الكبير، أعتقد أنّ باكول أتلفت كتابًا

أو كتابين من كتبك» ـ وشعر آنئذٍ أنّه يوشك أن ينفجر. كتابًا أو كتابين من كتبي؟

* * *

جلس موكوندا قبالة منضدة السيّدة بارنوم على مسافة غير بعيدة محاولاً القراءة. لم تظهر السيّدة بارنوم للعيان منذ عصر ذلك اليوم، وشعر بالصفحة تطفو بعيدًا عنه شيئًا فشيئًا. الكلمات صعبة وغير مألوفة، كما أنّ المقطع الذي وصل إليه في الجزء الأوّل من مكتبة الأدب لم يثر اهتمامه. وكلّ ما استطاع أن يفكّر فيه هو ذلك الهرج والمرج الذي عمَّ أنحاء المنزل في ذلك الصباح. فقد رأى نرمال جاثيًا على ركبتيه أمام كتبه الممزّقة بينما كانت جزيئات من ورق شجر مجعّدة وقديمة وجافّة وقصاصات ورقيّة متناثرة من حوله تحت نسمات الصباح الخفيفة. وساور موكوندا رعب هائل من جرّاء الغضب الذي من شأنه أن يخنق المنزل. لماذا أقدمت باكول على هذا العمل؟

أغلق دفّتي الكتاب في قوّة وذهب إلى النافذة الخلفيّة المطلّة على حديقة السيّدة بارنوم، حديقة لا تشبه أيّ حديقة أخرى. فهي غابة بريّة ذات أشجار باسقة وبركة ماء في أحد أطرافها محتشدة بزنابق الماء الكبيرة، بركة ماء متوارية عن الأنظار في الجانب الخلفي من المنزل تصعب مشاهدتها إلّا من إحدى النوافذ العليا. واليوم، وفي حين كان موكوندا ينظر إلى أسفل، شاهد شيئًا ما يتحرّك في البركة، فما كان منه إلّا أن هرول وهبط السلالم واتّجه مباشرة إلى الحديقة بأسرع ما يستطيع. كان متأكّدًا من أنّ باكول هناك، وكان يعلم أنّها لا تعرف السباحة. وكان واثقًا ثقة لا عقلانيّة بأنّها كانت تحاول أن تنتحر غرقًا بسبب المتاعب التي حدثت في الصباح.

خلع قميصه وفيما كان يحاول أن يخوض في الماء، أدرك أنّ الماء عميق حقًّا، بل أعمق من أن يمشي فيه حافيًا. فترك نفسه يطفو محاطًا بصمت الماء المباغت، وتموّجت الأعشاب من حوله، خفيفة، كثيفة الظلال. وظنّ أنّ شيئًا مرق بجانبه، ربّما سمكة. واستطاع أن يشاهد باكول تكافح على بعد بضعة أقدام فأسرع في اتّجاهها. وتأرجحت سيقان الزنابق، كبيرة ومظلمة، فوصلها وأمسك بيدها محاولاً أن يجذبها خارج الماء، فخرجت تغمغم وتبصق وتدفع به جانبًا.

صاحت به:

ـ ماذا تفعل؟ اتركني وشأني! كنت أوشك أن أطفو!

ثم عادت وغطست في الماء، وتخبّطت، وعادت للظهور وهي تبصق الماء وتوشك أن تتقيّأ وتقول:

ـ أظنّني بلعت شيئًا ما.

كان شعر باكول ملتصقًا بجمجمتها في خصلات. ثمّة عشبة من أعشاب الماء من فوق أذنها، فقذفت بها إلى موكوندا. أمّا سترتها الصيفيّة الرقيقة فكانت ملتصقة بنهديها الحديثين بحجم الخوخ. فحدّق موكوندا إليهما، إلى سواد الحلمتين المتربّعتين على اكتنازهما. فمدّ يده ليلمسهما، وكأنّها تمتدّ من غير إرادته.

قالت باكول وهي تصفع يده وتبعدها عنها:

ـ لا تفعل هذا، إنّه يدغدغني.

وهنا ضغط موكوندا في رقّة نهديها وهمس:

ـ إنّهما ليسا ليّنين، كما ظننت!

* * *

وعندما وصلا المنزل، حاولا أن ينسلّا خفية من دون أن يشاهدهما أحد، بعد أن أدركا أنّ ثيابهما المبلّلة ستكون سببًا لتوبيخهما، ولكن مانجولا كانت تنتظر خارج المنزل رفقة ميرا.

وسألت مانجولا:

ـ أتعلمان كم الوقت متأخر الآن؟ ثم ما هذا المظهر المخزي؟ ما سبب البلل في ثيابكما؟ ماذا كنتما تفعلان؟

وقالت ميرا في محاولة لتخفيف حدّة استهجان مانجولا:

ـ سوف تصابان بالبرد، اذهبا وجفّفا شعركما حالاً.

قالت باكول وهي ترنو إلى ميرا متجهّمة:

ـ سقطتُ في البركة، واضطر إلى الخوض فيها لينقذني.

ثم توارت من خلف عمّتها التي كانت معروفة بصفعاتها القويّة إذا ما شاءت استعمالها. وطرق سمعَها صوتُ مانجولا في الحديقة وهي تقول:

ـ طفح الكيل هذه المرّة، وقد أخبرت نرمال أكثر من مرّة، وأخبرته مجدّدًا أنّ الاثنين في حاجة إلى التأديب، فهما ليسا بطفلين الآن، ولكن هل من أحد يستمع إليّ في هذا المنزل؟ أليست لي قيمة؟

ثم غمغمت في مرارة:

ـ عجيب أمر الله. إنّه يمنح الأطفال لمن لا يهتمّ بهم ويتركني بلا أطفال.

* * *

في اليوم التالي، استلقى نرمال على سرير في غرفته الكائنة فوق السطح محاولاً أن يقرأ ترجمة لقصّة من تأليف تشيخوف بعنوان السُّهب،

ولكنّ الأراضي الشاسعة المنبسطة والشخصيّات الجائلة من تحت سماوات روسيا الرحيبة جعلته يشعر باختناق أكبر ممّا هو معتاد في سونغاره. وساوره حنين طاغٍ لسماء الصحراء في راجستان حيث لا يمكن للعين أن تنظر إلى ما يكفي من البعد للوصول إلى الأفق. فطرح الكتاب جانبًا، ونهض مفكّرًا ماذا يفعل.

عطلة المكتب. كان الشخصان الآخران في المكتب يعشقان الإجازات وإن كانت أيّام عملهما فيها ما يكفي من الكسل والقعود. فذهبا إلى البيت حيث زوجتاهما ومتطلّبات الأطفال وفوضى الأسر الكبيرة. ويبدو أنّ ثمّة أحداثًا كثيرة في حياة ناجي وشارما تجعلهما ينغمسان فيها إلى أبعد الحدود: زيارة الأقارب وحفلات الزفاف في بيوت المحلّة والذهاب إلى السوق الكبيرة، بل حتى المرض نفسه بدا سببًا للأقاويل والساعات العصيبة. وفكّر نرمال أنّه يختلف عنهما من حيث إنّه يقف متفرّجًا على الأحداث طوال سنوات، فظنّ الناس أنّه متكبّر وربّما متعجرف، وهذا ما كان يعرفه، ولكنّه كان راضيًا مرضيًا به. غير أنّه كان أحيانًا يحنّ حنينًا شديدًا إلى ذلك التنافر الكبير في حياة الآخرين على الرّغم من معرفته أنّ هذا الشيء لن يحقّق له السعادة.

سار في أنحاء الغرفة باحثًا عن علبة ثقابه في حين كانت أصابعه تمسك بسيكارة لم يشعلها بعد، فسقطت عيناه على العلبة الألمنيوم، علبة باكول! كانت فوق حافّة النافذة، وكان قد نسيها تمامًا. فأمسك بها، وسمع رنينها، فأخذها وسار إلى السرير ورماها بنظرة: كانت منبعجة من إحدى زواياها، والخدوش تملأ سطحها، ورتاجها منحرف.

كانت علبة باكول تحتوي على أشياء كثيرة حتى إنّها نسيت مصدرها، وبدأ نرمال يخرجها، قطعة فقطعة: قلادة ورديّة من مادّة بلاستيكيّة، حبوب بنّيّة اللون، مسطّحة الشكل عرف أنّها حبوب تمر

الهند، ودمية محشوّة بالخرق، حزينة الوجه ترتدي ثوبًا أحمر اللون، وعربة أطفال صغيرة الحجم ـ ومن تحت نوافذها طفلة باسمة ذات عينين حالمتين وشعر أصفر تردّد كلمتي «نوغة بيركنز» في صوت تشوبه بقبقة.

وعثر نرمال في قعر العلبة على ثلاثة مظاريف، ووجد لدهشته خطّ يده على أحدها ومختومًا بختم مدينة بيكانر، ففضّه ورأى أنّه قد كتب بحروف كبيرة: «عزيزتي باكول، إنّني في منطقة ذات حيوانات تدعى بالجمال وأشجار تدعى بالنخيل». وثمّة رسمٌ يمثّل جملاً بجانب الكلمات يقف تحت نخلة.

ثم عثر على مظروف آخر، ففضّه، فانسلت منه ثلاث صور فوتوغرافيّة. وكانت الصورة الأولى مطويّة من إحدى حافّاتها تمثّل بيت شانتي في مدينة مانوهاربور. لم يسبق له أن رأى هذا المنزل أو صورته منذ اثني عشر عامًا، بل نسي تقريبًا أمره ولم يرغب في تذكّره. لكن كلّ شيء عاد الآن، كلّ تفاصيله الأخيرة، في اللحظة التي شاهد فيها الصورة. فهناك الشجرة الغريبة من نافذة شانتي، الشجرة التي سمّيت باكول باسمها. ثم هناك الشرفة التي كان يجلس فيها هو وحموه يتجاذبان أطراف الحديث وهما يحتسيان الشاي. وهنالك أيضًا جيران بابو بيكاش الذين كانوا يأتون ويبدأون أحاديثهم المطوّلة حتى السأم عن الأشياء نفسها في كلّ يوم: الفيضان القادم وشركة الهندسة الاسكتلنديّة وأشجار المانغو وجوز الهند وسير إجراءات قضيّة أحد الجيران في المحكمة، وهل وصلت إلى قاضي البلدة أم لا.

نظر نرمال مليًّا إلى الصورة، وعلى نحو لم يعهده من قبل، ثم وضعها جانبًا وعاد إلى الصورتين الأخريين وكانت إحداهما صورة شانتي التي كانت قد جاءت مع عرض الزواج، فتوقّف نرمال عندها وابتسم للنظرة المتمرّدة التي لاحت على وجه شانتي. ما شعورك عندما

ترسل صورتك إلى إنسان غريب طمعًا في موافقته؟ وفكّر إن كان رجال آخرون، كان يتوقّع أن يصبحوا أزواجًا لشانتي، قد شاهدوا تلك الصورة.

هل يحتفظ بعضهم بها يا تُرى في مكان ما من منازلهم؟ أم أنّ النساء اللواتي أصبحن أزواجهنّ رمين بها في سلّة النفايات أو مزّقنها إرْبًا إرْبًا؟

أمّا الصورة الثالثة فكانت صورته هو وهي يحملقان في المصوّر. اختلس نرمال نظرة خاطفة إليها ووضعها جانبًا. يا للوجه النحيل وكتلة الشعر الكثيفة! هل هذا أنا؟ وهنا سار نحو مرآة خزانة الثياب وأنعم النظر في الوجه الذي تحيط به الظلال.. كان الشعر ممشّطًا إلى الخلف مثل شعر أبيه، وثمّة خطوط غائرة في وجنتيه، تحيط بأنفه. وجهه ما زال نحيلاً ولكنّه ليس بنحول الوجه الظاهر في الصورة. إنّه وجه هزيل مضنّى، عجوز، وجه عجوز. لقد أضحى رجلاً عجوزًا وهو لم يزل في سنّ السابعة والثلاثين. ولكنّه على الرّغم من ذلك ليس أبًا متسلّطًا كما كان والده، ولا حتى مثل أخيه!

وعادت أفكاره إلى ما قبل يومين اثنين. فقد كان سمع طرقًا على بابه فهيّأ نفسه لغزوة أخرى من غزوات مانجولا، لكنّ القادمة كانت ميرا. كان يدرك تمامًا الفوضى التي يعيشها ولم يرغب في أن يدعوها إلى غرفته غير المرتّبة وسريره المنكوش على الرّغم من أنّه كان يعلم أنّها هي التي ستنظّف الغرفة في وقت لاحق من اليوم، إذْ سوف تستدعي الخادمة لترتيب السرير وتجذب المنفضات المملوءة بالسكائر من تحت الكراسي والسرير. خطا إلى خارج الغرفة في اتّجاه السطح مرتجفًا إلى حدٍّ ما بسبب برودة الصباح المبكر وقال:

ـ هل ثمّة خطب؟

ـ إنّني. . .

بدت بشرتها لامعة من تحت ضوء الصباح الرقيق. ورأى أنّها قد استحمّت قبل قليل، وأسدلت شعرها المبلّل الذي رسم دائرة من فوق كتفيها. وكانت ثمّة قطرات ماء صغيرة الحجم معلّقة به وكأنّها قطع ألماس. كان من عادتها أن تنظر نظرة مباشرة، ولكنّها لم تنظر إليه في هذا اليوم.

ـ الحقّ أنّني أتيت لأنشر الثياب على السطح كي تجفّ.

لاحظ نرمال أنّ ثمّة دلوًا معدنيًا صغيرًا بجانبها وفيه ثياب مبلّلة عُصرت من بعد غسلها، فانتظر وما يزال متعجّبًا من السبب الذي جعلها تناديه. . وأضافت:

ـ وفكّرت أنّني مضطرّة لأن أخبرك. . . ألّا تغضب منها، فهي صغيرة السنّ ولا تدري شيئًا. . . لقد أتلفت باكول بعض كتبك. . .

ـ كتب؟ أيّ كتب؟

ـ الخزانة قرب السلالم، الكتب التي هناك. . .

قبل أن تتمكّن من الانتهاء من جملتها، اندفع هابطًا سلّم البئر إلى فسحة الدرج. كان شخص ما قد بدأ بجمع قصاصات الكتب الممزّقة ووضعها جانبًا، فجثا نرمال على الأرض وقذف بالقصاصات هنا وهناك إلى أن غطّت الفسحة التي كان يجلس في وسطها وهو في أولى مراحل غضبه وهيجانه.

شعر نرمال أنّه ساذج، أحمق، ممّا يفعل، خاصّة أنّ ميرا كانت تراقبه وتحاول أن تهدّئ من روعه، تحاول أن تخلّص كلّ ما يمكن

إصلاحه. في ذلك المساء، ولدى رجوعه من العمل إلى البيت، كان قد لاحظ ثلاثة من كتبه وقد لصقت أوراقها في عناية بالغة، وتركت من فوق حافّة النافذة في غرفته. ما من أحد يفعل ذلك سوى ميرا.

وسأل نفسه: ماذا تظنّه؟ رجل في خريف العمر، مشبوب العاطفة بورق شجر مجفّف؟ رجل غبي حاول أن يعاقب ابنته بالنزول إلى مستوى الأطفال؟ لا بدّ أنّ لصق أوراق هذه الكتب استغرق من ميرا النهار كلّه. لماذا فعلت ذلك؟ وهل تكرهه باكول كرهًا شديدًا دفعها إلى صبّ جام غضبها بالطريقة الوحيدة التي ظنّت أنّها ستؤذيه؟

سرح ببصره إلى الصور التي في يده من جديد، وللمرّة الأولى فكّر في عقوبته. كانت العلبة المعدنيّة الصغيرة من الألمنيوم تحتوي على كلّ ذكريات باكول عن أمّها، وهي أغلى ما عندها من ممتلكات. فما الذي فعله كي يضيف إليها من ذكريات؟ هل في إمكانه أن يعوّض عن إهماله؟ جلس نرمال يدخّن تارة ويرنو إلى الصور تارة أخرى ثم يعود إلى التدخين من جديد. وبدا بغتة وكأنّه توصّل إلى قرار، فنهض من فوق سريره.

وفكّر أنّه لا بدَّ أن يطلع باكول على منزل شانتي، تلك هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني أن أمنحها بها رابطة ما بأمّها! كان ينبغي لي أن أصطحبها إلى هناك منذ زمن طويل، فهي ما تزال لديها جدّ لأمّها، ولا بدّ لها من أن تلتقيه.

شعر كأنّ شيئًا ارتخى في داخله ومنحه فسحة للتنفّس من جديد. وانتابته موجة من الانفعال دفعته إلى دفع العلبة جانبًا والخروج إلى الشرفة. سوف يحجز تذاكر القطار، وستكون أوّل رحلة له وإيّاها. وسيأخذ موكوندا أيضًا، ويفتح العالم أمام عيني الصبي. سوف يتوقّفون

في كلكتا وهم في رحلتهم، وسيذهب لإطلاعهم على نصب فكتوريا التذكاري، وسوف يطلع باكول على الترام الحقيقي وليس الموجود في علبة معدنيّة.

ولمّا لم يكن قادرًا بمفرده على السيطرة على الطفلين، فإنّه سوف يطلب من ميرا مرافقتهم. إنّه لا يستطيع الانتظار كي يخبرها، كي يرى عينيها وقد اتّسعتا ووجهها قد أشرق.

استحكمت فيه فكرة السفر، وساوره حنين من فوره لصوت القطار المألوف، فما كان منه إلّا أن وضع حذاءه في قدميه وهبط السلالم. وفكّر في نفسه: لماذا ينفق العطلة برمّتها في البيت؟ وبدأ يغذّ السير نحو متجر فينليز، باحثًا عن عربة يلوح لها على الطريق.

* * *

كانت ميرا تمرّر أصابعها من فوق رداء ساري مثبّت من فوق مانيكان في متجر فينليز، يستند إلى قاعدة بجانب الباب، يزيد طوله عن ميرا بمقدار قدمين، أبيض اللون، بشفتين حمروايـن كالتفّاح. وكان هذا الساري برتقالي اللون، تحيط به حافّة ذهبيّة من حول الجسد الضخم. فنظرت ميرا إلى ردائها، المائل إلى البياض بحافّته البنّيّة. وذهب بها خيالها إلى التفكير في أنّها سوف ترتدي يومًا ما ثوبًا برتقاليًا بلون غروب الشمس وأخضر بلون ثمرة المانجو في بداية نموّها، وحدّثت نفسها: ربّما سيكون هذا سرًّا، عندما لا يكون هناك من ينظر إليّ، لكنّني سأنظر أنا.

كان نرمال يراقبها من الخارج من دون أن تدري، وقد تسمَّر في مكانه لرؤيته إيّاها وهي تؤدّي عملاً اعتياديًا جدًّا في مشاهدتها ثوب الساري من النوع الذي لا تستطيع حتى الأرملة من ارتدائه. بدت ميرا بجانب المانيكان البرتقالي والذهبي الكبير الحجم، منكمشة ورتيبة،

متشبّثة بحقيبة كتفها القماشيّة، على طريقة الناس الذين يتجوّلون وينظرون إلى الأشياء ويشترونها. ومرَّ بها موظّفو المتجر وزبائنه من دون مبالاة. وكان واضحًا لهم، كما لنرمال، أنّها لم تأت إلى المتجر للتبضّع. وهنا تغلّب عليه إحساس غير متوقّع بالرقّة والعطف تجاه حضورها المرتبك، وتجاه عزلتها في ذلك المكان المزدحم.

دخل وقال:

ـ يا لها من مفاجأة!

جفلت ميرا من مكانها بجانب المانيكان وكأنّها تلوّثت بتلك التداعيات، ثم تمتمت:

ـ اضطررت إلى الخروج بالطفلين... إنّها إجازة. إنّهما هناك، في المكتبة.

تردّد نرمال قليلاً وتساءل في نفسه إن كان ينبغي له أن يكلّمها، لكنّه تخلّى عن تردّده، وطرحه جانبًا وقال:

ـ ثمّة ركن شاي خارج المتجر. أترغبين في تناوله؟

ثمّة مجموعتان من المناضد المعدنيّة التي تُطوى والكراسي من تحت مظلّة. وجلست ميرا على أحد الكراسي تجول ببصرها من حولها، مؤملة ألّا تمزّق ثوبها أو تترك عليه بقعة، بنّيّة كالصدأ أو بيضاء. كم سيبدو غريبًا للناس الذين يعرفونها إذا ما شاهدوها تحتسي الشاي في مكان عامّ مع والد باكول. ما الاستنتاجات التي سوف يقفزون إليها؟

وقالت:

ـ أتيت بالطفلين إلى هنا في نزهة لأنّهما لا يخرجان كثيرًا...

ـ ألم ترغبي في الذهاب إلى المكتبة أيضًا؟ أتذكّر أنّكِ كنتِ

تطالعين كتب أبي. المؤكّد أنّك فرغت من قراءتها كلّها في غضون السنوات الستّ الماضية!

ابتسمت ميرا وهي تنظر إلى شابها لمّا رأته يتذكّر كيف رآها مرّة ما وهي تقتحم خزانة كتب أموليا القديمة ذات الواجهة الزجاجيّة. فقالت وهي تشيح بنظرها جانبًا:

ـ حسنًا، إنّني أطالع بعضها للمرّة الثالثة أو الرابعة لأنّني لا أشتري كتبًا جديدة كثيرة.

ـ وهل في كتب بابا من الجودة ما تستحقّ القراءة من جديد؟ ما كتبه؟ أنا شخصيًّا نادرًا ما ألقيت نظرة عليها، كلّ ما أتذكّره أنّه كان يقرأ عددًا كبيرًا من الكتب الخاصّة بـ. . . علم النبات.

فهقهت ميرا قائلة:

ـ آه، سوف أفاجئك. ثمّة عدد كبير من الكتب الجادّة والرصينة، والروايات الرومانسيّة! صدّقني. روايات إنكليزيّة مثل جين اير ومرتفعات ويذرنغ. وثمّة رواية بعنوان زهور القاهرة الأطلسيّة وكلّ هذه الكتب تحمل اسمه.

توقّفت عن الكلام معتقدة أنّها مفتقرة إلى اللياقة، ثم قالت:

ـ عجبًا أين ذهب الطفلان؟ ينبغي لي أن أذهب إلى المكتبة لإحضارهما.

وهنا بدأت تلملم حاجياتها، ولكنّه سألها بوحي الساعة:

ـ أتريدين كعكة محلّاة بالقشدة؟ أتدرين أنّ محلّات فينليز تصنع مثل هذا الكعك الجيّد؟ حسنًا، إنّها على الأقلّ بجودة ما يمكن أن تحصلي عليه في سونغاره.

وضعت ميرا حقيبة يدها على الطاولة ولكنّها أبقت يدها من فوقها وكأنّها تريد النهوض في أيّ لحظة.

وسألت:

ـ كعكة محلّاة بالقشدة؟ ونحن في هذا العمر؟

غير أنّها تناولت واحدة وهي تمسح باستمرار القشدة المنسابة منها بمنديل مزركش بزهور ورديّة. وفكّرت في نفسها إن كان المنديل نظيفًا. ولاحظ نرمال أنّه اللون الوحيد في خزانة ثيابها، فسرح بصره إليه وهو يلامس شفتيها.

وعند الانتهاء من أكل الكعكة، كان ضوء الشمس الليموني في عصر ذلك اليوم من أيّام شهر مارس قد تحلّل من دون تحذير إلى لون الغسق. وفكّرت ميرا في الكلام الذي يتعيّن عليها قوله عندما تعود إلى المنزل متأخّرة كلّ هذا الوقت. من الذي سوف يعدّ الشاي قبل عودة كمال إلى البيت؟ ماذا ستقول مانجولا عن هذا الغياب الطويل؟ وماذا سيقولون عندما يشاهدونهم جميعًا وقد عادوا معًا؟

وتساءلت ميرا أيضًا عن طبيعة الظلمة التي تغيّر من الأشياء. ثمّة وصايا تنمّ عن نهي وزجر من الأبوين، من الزوج، من الأقارب: عودي قبل هبوط الظلام. وتساءلت عمّا يمكن أن يحدث حقًّا في الظلام ولا يحدث في النهار؟ بيد أنّ أفول الشمس والذعر الذي يستبدّ بها كانا يلازمانها منذ أن بدأت قادرة على التذكّر. ومرق شخصٌ ما بجانبها، فكتمت صرخة، ولاحظت أنّه شخص يضع على رأسه لفاعًا يفتقر إلى لون محدّد.

سألها هذا الشخص في صوت رفيع حادّ:

ـ عربة أيّتها الأمّ؟

أخيرًا وجدوا أنفسهم في عربة تحتوي على معقدين طويلين وقاسيين يستند ظهر أحدهما إلى الآخر، مواجهين بذلك اتّجاهين مختلفين ولكنّهما يشتركان بمسند واحد للظهر. أصاخت ميرا السمع لصريف العجلات الهادئ ووقع الحوافر ورنّات الأجراس المرحة. وانسابت إلى خياشيمها رائحة الجواد الحادّة، وبخاصّة ذلك المزيج من عرقه وروثه والهواء الطلق، فتنشّقتها وهي جالسة جلسة مريحة في العربة التي كانت تهزّها. كانت جالسة رفقة باكول في المقعد الخلفي، مصغية إلى موكوندا وهو يتجاذب أطراف الحديث رفقة نرمال في المقعد الأمامي عن الجياد والسياط. ووصلوا إلى تلك الهضبة المكوّرة من المنحدر الذي ينعطف إلى الطريق المؤدّي إلى المنزل. فضرب سائق العربة النحيل البنية المحجوب عن النظر، جواده بالسوط، فبانت عروق يده منحدرة إلى أسفل رسغيه كأنّها نهر. ولمع جسد الحصان بالعرق على الرّغم من برودة هواء المساء، واندفعت العربة في قوّة إلى أمام وازدادت سرعتها في وقت ازداد الطريق انحدارًا قبل أن يستوي من جديد. وتنشّقت ميرا في عمق الهواء المندفع وحاولت تثبيت شعرها بالدبابيس.

لم يكن ثمّة شيء يفصلها عن نرمال سوى لوح رقيق من الخشب الصلد. وفكّرت في أنّها لو مالت برأسها قليلاً لتمكّنت من أن تريحه على كتفه.

أغمضت عينيها برهة وجيزة وتشبّثت بذراع المقعد.

* * *

ثلاثة

وجد نرمال نفسه منذ تناوله الشاي رفقة ميرا عاجزًا عن التركيز في أوراقه المنتشرة أمامه عندما كان الصبي يأتي في الساعة الرابعة من عصر كلّ يوم حاملاً أكواب الشاي البنّيّة التي يتصاعد منها البخار. أيّ مزواة لقياس الزوايا؟ ما عددها؟ خيام أم من غير خيام؟ هل يتوافر العمّال في المنطقة بعدد كافٍ؟ لديه استمارات لطلبات ينبغي ملؤها، ورسائل يحرّرها، ولكن عقله ظلّ يعود إلى القلعة الأثريّة أو، إن كان صادقًا في أعماق نفسه، إلى علمه أنّ ميرا ربّما كانت موجودة فيها في تلك اللحظة، وحيدة، تطعم الكلاب وترسم رسومها.

وفي عصر اليوم الرابع تخلّى عن التردّد، وغادر المكتب مبكرًا بذريعة الذهاب لإجراء مسح موقعي. سار من حول القلعة ولكنّه لم يعثر على ما يشير إلى وجود ميرا، فاتّجه إلى داخل القبّة بيد أنّه لم يسمع

سوى صوت بكاء وزمجرة خفيضة. فظنّ أنّها ابتعدت نحو الحقول، فحثّ خطواته باتّجاه قاع جدول الماء الجافّ غير أنّه لم يجدها. كان مسحوق الفؤاد، مدركًا إدراكًا شديدًا من مشاعر الخيبة أنّ مجيئه إلى هذا الموقع لا يستند إلى أيّ أساس مهني، فقرّر أن يعود أدراجه إلى مدخل القلعة.

وهنا عثر عليها. كانت تغذّ السير مسرعة في اتّجاه القبّة وكأنّها متأخّرة، تقطّع الخبز فتاتًا أثناء سيرها. وكانت حقيبة يدها القماشيّة تهتزّ وتعلو وتهبط من فوق ردفها عند كلّ خطوة سريعة تخطوها.

توقّف نرمال وسار سيرًا وئيدًا نحو جدار متهدّم حتى بلغه والعرق يتصبّب من جبينه. بماذا يفكّر؟ لماذا أتى؟ يا له من أمر سخيف. إنّها واحدة من قريباته البعيدات، أرملة. ولو شمّت أثرًا لرائحة شوقه وحنينه إليها لشعرت بالإهانة وصدّته. ولو عرف أحد من أفراد أسرته أو محلّته لحدثت مشكلة كبيرة، ولتعرّضت ميرا من دون أدنى ريب إلى النفي التعسّفي ولأصبحت منبوذة. ومن المحتمل أن يصيبه ما يصيبها.

اختلس نظرة من خلف الجدار مدركًا تمامًا عبث موقفه: كيف يتسنّى له مغادرة هذا المكان من دون أن يراها؟ وإذا لم يظهر للعيان من مكانه الآن لأصبح لزامًا عليه أن يتوارى خوفًا من مدّة طويلة توازي المدّة التي سوف تلبث فيها هنا وهي ترسم.

وكان في وسعه أن يراها وقد اتّخذت موقعها مستندة إلى شجرة التين البنغالي. وأمّا الكلب فقد جلس بجانبها يحكّ أذنيه تارة ويشمّ مؤخّرته تارة أخرى.

تنفّس نرمال تنفّسًا عميقًا وحاول أن يخرج من مخبئه وكأنّه أُخذ على حين بغتة، وعندما رأته وضعت دفتر رسومها جانبًا.

وقالت:

ـ آسفة. كان ينبغي لي أن أدرك أنّ هذا المكان بات موقع عمل الآن ـ الحقّ، ما كان يتعيّن عليّ التسكّع هنا.

أطلقت كلماتها فكرة في ذهن نرمال، فقال حتى قبل أن يفكّر تفكيرًا مليًّا:

ـ الحقّ أنّك لا تتسكّعين، فالعمل الذي تقومين به هو عمل أيضًا.

ـ ماذا تعني بكلامك؟

في هذه الأثناء، كان نرمال قد اقترب منها وانحنى من فوق الكلب في محاولة منه لمدّ يد الصداقة إليه، فردَّ عليه الكلب بأن هزَّ ذيله هزًّا دقيقًا إلى أبعد الحدود.

ـ أعني أنّنا في حاجة إلى تخطيطات للموقع من قبل أن نبدأ العمل، تخطيطات مفصّلة. أتظنّين أنّ في وسعك تنفيذها من أجلي؟

قالت ميرا:

ـ ألن تحتاج إلى رسّام محترف؟ فأنا لا أنفّذ سوى تخطيطات بسيطة، كما أنّني لست واضعة تصميمات وخرائط.

جلس نرمال بجانبها وقال:

ـ يمكنني أن أقرّر إن أطلعتني على بعض رسومك.

فتحت دفتر الرسم بشيء من التردّد وبدأت تقلّب الصفحات. صور تخطيطيّة لأشجار وزهور، وبعض الكلاب، خطوطها حادّة ذات انسيابيّة. وكانت قد رسمت أيضًا أطلال القلعة من زوايا متباينة، ولاحظ نرمال أنّ رسومها تعتني عناية شديدة باللقطة العامّة من دون التفات إلى الدقّة. كيف تبدو القبّة مثلاً؟ ما حجمها بالقياس إلى الأعمدة؟ كانت

ميرا قد ضبطت بعض الخطوط وطمستها، مخفّفة الرسوم وفق أسلوب التخطيط بالفحم، مخفيّة بعض التفاصيل المعماريّة من وراء أشجار وسحب خفيفة. وفكّر في كيفيّة إخبارها بضرورة تغيير أسلوبها ليتّفق والأسلوب الذي يريدها أن ترسم به ما يحتاج إليه من رسوم. وممّا لا شكّ فيه أنّه بحاجة إلى رسّام محترف لكي يرسم له، وصور تُلتقط في كلّ يوم.

أرسلت ميرا نظرة إلى وجهه وهو ما يزال يقلّب الصفحات. وعندما قلب الصفحة العاشرة، كادت ميرا أن تخطف دفتر الرسوم من بين يديه.

شعر نرمال بالإهانة وقال:

ـ هل رأيتِ شيئًا لم يكن يتعيّن عليّ رؤيته؟

فضحكت ضحكة تنمّ عن توتّر، وقالت:

ـ أظنّ هذا كلّ شيء. لم يتبقّ سوى بعض الصفحات البيض.

ـ هذه تخطيطات مدهشة، تعطي حقًّا الإحساس بهذا المكان.

أشاحت ميرا بنظرها جانبًا عاجزة عن إخفاء ابتسامة. فقد واظبت على الرسم منذ أن وطأت قدماها أرض بلدة سونغاره، ولكنّها لم تظنّ يومًا أنّ أحدًا سيهتمّ بها.

قال نرمال:

ـ هل يمكنكِ أن تنفّذي هذه الرسوم تنفيذًا يتّصف بقدر أكبر من التنسيق. ابدأي أوّلاً بالواجهة، ثم بأحد الجوانب، فالجانب الآخر، وحافظي على الخطوط نظيفة من دون شائبة وكأنّها رسم بياني، وامنحي الرسم الإحساس بدقّة التناسب والأبعاد قدر الإمكان. ارسمي المبنى وكأنّك ترسمين خارطة.

وفكّر أنّه لن يطلب منها ما هو أكثر من ذلك وإلّا دخل الروع قلبها.

وقالت:

ـ سوف أحاول، ولكنّني لا أملك إلّا وقتًا قصيرًا في كلّ يوم، ولهذا لن أكون سريعة في الرسم كما ترغب.

نهض نرمال ونفض الغبار عن سرواله.

وقال:

ـ وقت قصير من كلّ يوم يكفي، في البداية.

* * *

عاد نرمال في الأيّام القليلة اللاحقة إلى أوراقه في المكتب مثلما كان في الأيّام الخوالي، عنيدًا، صعب المراس، مستغرقًا ومستمتعًا ساعات طويلة في العمل وهو يخطّط لأعمال التنقيب في سونغاره. وكان مفعمًا بنوع من الرضى لم يسبق له أن راوده منذ عودته إلى البلدة. شعور نادر هو ذلك الشعور الذي يساوره الآن متخيّلاً نفسه فوق قمّة سلسلة من الجبال، ثنايا التلال الضخمة وروابيها والوديان الممتدّة من أمامه والحافّات الساكنة من تحت نسيم المساء. وشاهد نفسه في مثل تلك الأوقات وكأنّ هناك من يرنو إليه من السماء فيبدو ذرّة لامتناهية فوق طيّة عملاقة من طيّات الأرض، ولكنّه في الوقت نفسه أيضًا جزء لا يتجزّأ من الجبال والأشجار واللون البنّي المحمرّ مثل السناجب المتطايرة الزاحفة فوق أرز الهملايا القريبة منه.

شعر نرمال الآن أنّ المنزل اعتاد أن يضمّه كالسابق، كما باتت باكول أقلّ ولعًا بالخصام والمشاكسة. وكانت في بعض الأماسي تلحق

بموكوندا إلى سطح نرمال وتقف هناك، في حين كان نرمال يعلّم موكوندا كيف يستدلّ على الأبراج السماوية.

وفي بعض الأحيان التي كان يجلس فيها مع الصبي ليطلعه على الكتب المصوَّرة التي تحتوي على صور الأكروبوليس وضريح توت عنخ آمون، فإنّه كان يلاحظ أيضًا باكول وهي تسرح ببصرها من فوق كتفه. لم يقل شيئًا لها، لأنّه كان يعلم أنّها ستمضي في سبيلها لو كلّمها. كما أنّه أعاد علبتها إلى مكانها تحت سرير كانابالا، ولكنّه لم ينس خطّته لاصطحابها إلى مانوهاربور.

وفي مساء أحد الأيّام قال:

ـ متى تبدأ عطلتك الصيفيّة؟

فأجاب موكوندا:

ـ آه، بعد زمن طويل، لا أعرف التاريخ تحديدًا.

فقالت باكول:

ـ أنا أعرف. لقد أعددنا تقويمًا زمنيًّا للأحداث منذ بدء العامّ. العطلة تبدأ من العاشر من أيّار وحتى أواخر حزيران!

نهض نرمال واتّجه نحو تقويم مثبت على جداره، ووضع دائرة كبيرة حمراء اللون حول اليوم الثاني عشر من أيّار وافترّ ثغره عن ابتسامة لكليهما، فنظر إليهما نظرة تنمّ عن التساؤل.

ـ ما رأيكما بالذهاب إلى كلكتا وإلى مانوهاربور؟ سوف نسافر بمقصورة من الدرجة الأولى تضمّنا وحدنا، وهي مزوّدة بأربعة أسرّة وحمّام ومرآة. وسوف نزور حديقة الحيوان والمتحف الهندي ونستقلّ الترام ونركب الجياد في الميدان. ما رأيكما؟ وسوف نزور جدّ باكول

ونسافر بمركب يأخذنا على طول النهر حتى مدينة مانوهاربور.

* * *

ظلّ موكوندا مستلقيًا لم يغمض له جفن في غرفته الصغيرة في فناء الدار. فأنشد البعوض من حول أذنيه نشيدًا ملؤه الطنين العالي، فأبعده عن بشرته من دون أن يتنبّه له. وخيّل له أنّه يسمع صوت صافرة القطار قادمًا من بعيد، عاجلاً متعجّلاً إلى بقاع أكثر أهمّيّة من كلّ البقاع التي سبق له أن سافر إليها. كان الصوت لازمة تتكرّر في ملجأ الأيتام الذي عاش فيه ولم يكن بعيدًا عن خطّ سكّة الحديد. وكان في وسع الأيتام سماع صوت القطارات ذهابًا وإيابًا، كانوا يصحون على صوت قطار البضائع المعروف بالاسم سالداه غودز فيغادرون أسرّتهم، متعثّرين في سيرهم، ينظّفون أسنانهم بالمسواك المأخوذ من أغصان شجر النيم. وفي منتصف النهار يأتي قطار دانابور، وإذا ما تأخّر هذا القطار، فمعناه أنّ وجبة الغداء سوف تتأخّر. أمّا في الليل، فكان الأيتام يتقلّبون في أسرّتهم ويتشبّثون ببطونهم الخاوية وعندئذٍ يصكّ أسماعهم صوت القطار الذي لا يعرفون له اسمًا، وكان يأتي في وقت متأخّر من الليل، بل لعلّه شبح من نسج خيالهم، ولذلك كانوا يسمّونه قطار الأشباح متخيّلين أنّه ينقل الأشباح في طول البلاد وعرضها.

كان موكوندا هو الذي دبّر خطّة الهرب بالقطار، فأقنع ثلاثة صبيان أكبر منه سنًّا بإمكانيّتهم على تنفيذ الهروب لأنّه كان يعلم أنّه لا يستطيع الهروب بمفرده. وهكذا انسلّ هو والصبيان الثلاثة ـ بيرسا وسوباز ومايكل ـ من الملجأ في ضحى أحد الأيّام، وأطلقوا سيقانهم للريح على امتداد الطريق الممتدّ من وراء مبنى الملجأ. وكانت الأحراش التي تفصلهم عن خطّ سكّة الحديد على مسافة يسيرة. صحيح أنّه لم يكن مسموحًا لهم الذهاب إلى هناك، ولكنّهم ركضوا في ذاك اليوم، يشقّون

طريقهم وسط الحشائش والنباتات، تتطاير الفراشات من أمامهم كأنّها تويجات، وتطنّ الحشرات غاضبة. ركضوا وسط بقاع رطبة ووخز النباتات الشائكة والظلال الكثيفة التي يقطعها شعاع الشمس الساطع، واندفعوا نحو عناقيد الزهور البرّاقة أثناء مرورهم بها، جاذبين إيّاها يهزّونها وهم يسرعون في العدْو صائحين ضاحكين. وفي نهاية الأمر وصلوا أطراف الغابة فشاهدوا طريقًا ضيّقًا تقطعه سكّة القطار. كان الهدوء مخيّمًا على المنطقة باستثناء ثرثرة زمرة من القرود التي كان صوت أنفاسها الثقيلة يطرق مسامع الصبيان. وفي خضمّ تساؤلهم إن كان القطار سيمرّ أم لا، فإنّهم سمعوا صوت السكّة الحديد تدمدم وتشدو، وصوت الصافرة القادم من مكان بعيد. وقبل أن ينتبهوا، كان القطار من أمامهم، كتلة غير واضحة المعالم من الحديد والدخان، فبدأوا يثبون إلى أعلى مؤشّرين في توتّر للقطار كي يتوقّف، أو يخفض من سرعته كي يتمكّنوا من الركوب، ويعملوا على إنجاح خطّتهم، ويهربوا ويصلوا مدينة أخرى. لكن الركّاب كانوا يعيشون حياتهم الخاصّة من خلف نوافذ القطار، يقشّرون قطعة موز أو ينظرون إلى الخارج من دون أن يروا شيئًا، أو يقرأون وهم يمرّون بالبلدات والصبيان الملوّحين لهم من دون أن يدركوا كم طال انتظارهم ومراقبتهم في شوق وحنين، أناس لامبالون يمكن للأولاد الأربعة من مشاهدتهم، ولكنّهم كانوا يتوارون عن الأنظار عند كلّ رنّة عجلة من عجلات القطار وانبعاث كتلة من دخانه الأسود. ولوّح طفل في العربة الأخيرة للأولاد الأربعة، ولكن سرعان ما حلّ الفراغ محلّ القطار وران الصمت والهدوء مرّة أخرى وإن ظلّ صوت القرود مسموعًا.

تذكّر موكوندا العقوبة بالضرب بالخيزران عند عودتهم، وتذكّر الألم الذي سرى في بطنه بسبب الجوع، فقد جعلهم ناظر الملجأ يقفون

في الركن ويراقبون الآخرين وهم يتناولون الطعام: وحرمهم من الطعام في ذلك اليوم واليوم الذي أعقبه. ذلكم درس يتعلّمونه.

رحلة على ظهر قطار! أدرك موكوندا في ذلك اليوم أنّه سوف يسافر، وأن يذهب إلى مكان بعيد، بعيد جدًّا.

* * *

على الرّغم من تأخّر الوقت، فقد أعلنت باكول لكانابالا:

ـ أتدرين؟ سوف نذهب لزيارة بيت أمّي، بالقطار!

ـ قطار! إيه؟ أنتِ يا فرخ الضفدع الصغير؟ من سيصحبك بالقطار؟ ألا تعلمين أنّ الخروج ممنوع من هذا البيت؟ أنظري إليَّ.

ـ آه.. أنتِ غيورة لا أكثر! وأنتِ لا تعرفين ما القطار! والسبب هو أنّك لم تبارحي هذا المنزل!

ـ قطار! سافرت بالقطار، سافرت بقطارات كثيرة، لكن منذ زمن بعيد.

* * *

وفي غرفة أخرى، كانت مانجولا تقول لكمال:

ـ متى استمتعنا آخر مرّة بإجازة؟ صدّقني! إنّه يوم سيّئ الحظّ ذلك اليوم الذي قرّر فيه أبي أن يزوّجني بفرد من هذه الأسرة، البعيدة كلّ البعد عن أيّ مدينة وعن أيّ متعة. لم لا نخرج ونذهب إلى أيّ مكان؟

ـ لماذا؟ لقد سافرنا إلى فاراناسي قبل ثلاثة أعوام. هل نسيت ذلك؟ وتلك السفرة إلى بوري وداكشاينشوار؟ من الذي أخذكِ إلى هناك؟

ـ تلك سفرات هدفها الصلاة من أجل أن نرزق بذرّيّة، ولم تكن

إجازات، بل أيّام صوم وعبادة. ولم تفلح الصلوات. لم يفلح أيّ شيء في حياتي!

قال كمال:

ـ كفى تذمّرًا، كأنّني أنا المسؤول عن كلّ شيء!

ـ ومن المسؤول إن لم تكن أنت؟

* * *

استلقت ميرا في سريرها بالقرب من باكول، قلقة لا يهدأ لها بال، شاردة بين النوم واليقظة. كانت هي ونرمال في العربة، عائدين من البلدة. رأسها يعلو ويهبط على مقربة من ياقة قميصه الأزرق المجعّد، فكان يضحك منها وهي تراه وقد نمت لحيته على طرفي ذقنه، فازداد بذلك اسوداد خطوط الضحكة التي امتدّت أسفل وجنتيه. كانت هذه العربة، شأنها شأن أيّ عربة أخرى، ضيّقة، وكانت أكتافهما وأردافهما تهتزّ معًا عند كلّ حفرة في الطريق. وتقطّعت أنفاس الجواد وهو يرتقي المساحات الممتدّة من فوق التلال. كلّ شيء هادئ باستثناء صوت أنفاس الحصان، بينما اهتزّ جناحا طائر مكتنزين من فوق الرؤوس على صفحة سماء ربيعيّة زرقاء تحفّ بها النسمات.

فتحت عينيها ونظرت مليًّا إلى السقف، وأضحت يقظة تمامًا الآن. مرّ عشرون يومًا تقريبًا، فرغت في أثنائها من إكمال ثلاثة رسوم لأطلال القلعة. لقد أصبحت أكثر نفعًا وأكثر دقّة. وكانت تغادر المنزل خلسة عصر كلّ يوم بعد تناول وجبة الغداء وتتوجّه إلى الآثار. واعتادت مانجولا بمرور السنين نزهاتها الغريبة الموقّتة توقيتًا سيّئًا ولم تطرح عليها أيّ أسئلة إضافيّة. وكان الطفلان إمّا في المدرسة أو يلهوان، وكان ذلك الوقت هو وقتها الذي تختلي فيه إلى نفسها.

لكن ميرا أدركت الآن وفي لحظات محدّدة من فترات تنقّلها، أنّ الوقت لم يعد وقتها وحدها. فلم تعد تجلس مقتنعة قناعة راضية بكلامها، بل كانت تنتظر! فهذا نرمال سيظهر للعيان عاجلاً أو آجلاً. وسوف يرنو إلى رسومها ويُبدي ملاحظاته بشأنها ويخبرها عن الجزء الآخر من الأطلال التي ينبغي لها أن ترسمها في المرّة المقبلة، وما هي التفاصيل التي يتعيّن عليها أن تركّز فيها. كان يجلس متّكئًا ويشعل سيكارة ويخبرها عن عمله في ذلك النهار، وعن رحلاته قبل سنوات.. ويسألها عن الحياة التي خلّفتها من ورائها، الحياة التي تبدو في هذه الأيّام بعيدة جدًّا وكأنّها حياة شخص آخر.

أدركت ميرا أنّ أحاديثهما لن تفضي إلى أيّ شيء ـ بل لا يمكن أن تفضي إلى أيّ شيء، وفي أحسن حال، فإنّها ستؤدّي إلى خيبة أمل، ولكنّها لم ترغب في التفكير في المستقبل أثناء جلوسهما معًا جلسة قصيرة وسط الأطلال رفقة الكلبة وصغارها من حولها. كان يكفيها أن تكون سعيدة في اللحظة الراهنة وأن تتنشّق رائحة دخانه، ورائحته المعبقة بالدخان.

* * *

ما تزال الرحلة التي خطّط لها نرمال بعيدة، ولكن باكول كانت تملك تقويمًا زمنيًّا في أحد أركان غرفة التدريس، أحاطت بأحد تواريخه المثبّتة قبل صفحتين بدائرة. وبدأت تشطب الأرقام المطبوعة على الصفحتين العلويين، واحدًا فواحدًا كلّ يوم. وفي أوقات وجبات الطعام تحدّثت عن الطعام الذي سيأخذونه معهم في القطار. وفي أوقات أخرى، أخبرت موكوندا عن مباهج مانوهاربور وكلكتا. لكن امتلاكها فكرة واهية متخيّلة عنْ كِلا المدينتين لم يضعف من أسلوبها.

وفي منزل السيّدة بارنوم، كانت الكرة الأرضيّة الزجاجيّة موضوعة فوق رفّ المدفأة، ولكنّ السيّدة بارنوم لم تسمح لهما قطّ بلمسها. أمّا اليوم، وبعد أن توسّلت إليها باكول قائلة:

ـ يجب أن أعرف موقع مانوهاربور. اسمحي لي من فضلك أيّتها السيّدة بارنوم أن ألقي نظرة إلى الكرة الأرضيّة. فابتسمت لها السيّدة بارنوم وتغضّن وجهها النحيف.

كانت الكرة الأرضيّة مجوّفة، مملوءة بسائل طافت من فوقه نباتات السرخس الخضر والصخور عديمة الوزن. وإذا ما عمد أحد إلى جعلها تدور بقوّة، فإنّ الألوان تختلط: الأزرق بالأخضر والأصفر بالبنّي، والبحار تصطدم بسلاسل الجبال وتتوحّد القارّتان الأميركيّتان بقارّة آسيا. جلست باكول محدوبة الظهر قبالة الكرة الأرضيّة التي وضعتها على الطاولة وبدأت تديرها في بطء، حتى استدلّت على موقع الهند، محشورة بين الزرافات والحمر الوحشيّة الصغيرة المرسومة فوق أجزاء من قارّة أفريقيا.

وقال موكوندا:

ـ شيء مضحك! مانوهاربور ليست على الخارطة المصمّمة للأماكن الكبيرة.

كانت باكول منفعلة، وقالت:

ـ سوف تكون على الخارطة. أخبرتني جدّتي أنّها على مقربة من مدينة كلكتا ولا تبعد عنها سوى مسافة قصيرة، فيها حقول أرزّ وبرك اللوتس ـ وما علينا إلّا العثور على كلكتا أوّلاً.

ثم بدأت تديرها من جديد.

اقتربت السيّدة بارنوم من الطاولة ونقرت بظفر طويل بلون الكهرمان

على نقطة في الكرة الأرضيّة قريبة من البحر الشذري اللون، وقالت:

ـ ها هي! ها هي كلكتا.

ثم عادت إلى كرسيّها وأغمضت عينيها. كانت ترى نفسها تدور وتدور، وثوبها يتمايل إلى الخارج وهمست:

ـ الرقص طوال الليل. كنت أرقص دائمًا طوال الليل في كلكتا وأرتاد السينما وأنا في ثوبي الشذري بلون البحر، والرجال يرتدون أربطة عنق، ومن ثم أحتسي الشمبانيا من دون أن تلمس قدماي الأرض.. وكنت دومًا أجمل البنات في الحفل وكلّ الرجال يتوقون لمراقصة لاريسا.

أمسك موكوندا بالبرج المائل في وعائه الزجاجي وراقب الثلج وهو ينهمر. كان في وسع تساقط الثلج أن يسمّره في مكانه وأن يجعله يحلم بأماكن لم يرها، أماكن منتظرة إيّاه لكي يصلها. وتخيّل نفسه داخل الكرة الأرضيّة، متحسّسًا الثلج فوق وجهه، سائرًا نحو البرج المائل مطلًّا من نوافذه الدقيقة، مراقبًا البياض يسبح من حوله.

كان شديد الخجل لا يقوى على مفاتحة باكول بأحلام يقظته، ولكنّ الرغبة ظلّت تساوره في أن يفاتحها يومًا ما. أراد أن يخبرها أنّ أحلامه حملته إلى ما وراء سونغاره، وإلى ما وراء كلكتا، وإلى ما وراء البحار وفي اتّجاه الجبال الجليديّة. ماذا ستقول؟ المؤكّد أنّها ستقول له:

ـ خذني معك. أريد الذهاب أيضًا!

فهل يأخذها؟ ربّما. ولكن ماذا يفعل بفتاة من فوق ظهر باخرة. ففي القصص التي كان يقرأها لم يجد أحدًا من الرجال فارعي الطول وشديدي البأس من يأخذ فتاة وإيّاه على ظهر سفنهم.

* * *

في مساء ذلك اليوم، شاهدت مانجولا نرمال وحيدًا عند أسفل السلالم، فقالت له:

ـ أعتقد أنّ فكرة اصطحاب الطفلين في رحلة فكرة سيّئة.

ـ فكرة سيّئة؟

كان نرمال مرتبكًا، حائرًا، لأنّه لم يكن راغبًا في البدء بحديث يبدّد هدوءه الذي خيّم عليه مؤخّرًا. لهذا ارتقى الدرج وابتعد عن مانجولا وهو يقول:

ـ لا تقلقي. قد لا نسافر أبدًا.

ـ لا ينبغي اصطحاب هذين الاثنين معًا في إجازة، فهما يتواريان عن الأنظار ساعات وساعات ولا نعرف وجهتيهما. كما أنّهما ينفقان نصف الوقت في صحبة تلك المرأة الإنكليزيّة المدمنة على الشراب والتدخين. إنّني أعتقد يا نرمال...

قال نرمال عند فسحة السلالم موجّهًا حديثه إليها وهي ترفع بصرها نحوه:

ـ لا بأس. إنّهما ليس سوى طفلين يلهوان يا أختي الكبيرة، فلا تقلقي. يتحتّم عليّ أن أسرع. ثمّة عمل ينبغي إنجازه، والتنقيبات توشك أن تبدأ وأمامنا عمل كثير.

استدار. كان نرمال قد شعر منذ أن أعلن أوّل مرّة عن الرحلة أنّ عداء باكول له قد خفّ كثيرًا، وأراد أن يقول لمانجولا: دعيني وشأني، ولا تتدخّلي.

قلّدته مانجولا بنبرة خافتة:

ـ عمل ينبغي إنجازه. الرجال سواسية كلّهم. يعتقدون أنّ لديهم

عملاً مهمًا وأنّنا كسولات وغبيّات!

* * *

في وقت متأخّر من عصر اليوم التالي، جلس نرمال رفقة ميرا بين الأطلال شارد الذهن لا ينظر إلى رسومها الجديدة، فقد علم أنّ زميليه في المكتب كانا يشمّان ريحة فضيحة، إذ شاهده شخص ما في صحبة ميرا عند القلعة في عصر أحد الأيّام، وبدأ الاثنان يتحدّثان عن غيابه اليومي. لكنّه أبعد الفكرة عنه برهة وجيزة، فهذا الوقت هو وحده الذي يوفّر له الكلمات المفقودة لتقريره اليومي ويكمله له.

قلّب الصفحات، متأمّلاً رسوم الجانب الأيسر من القبّة، ولكنّه لم يجد سوى الطيور والكلاب.

كانت ميرا منشغلة بالكلاب على بعد مسافة قصيرة، فمضى هو يقلّب الصفحات. وهنا وثبت من مكانها وجفلت لضحكته المفاجئة والمدوّية.

ثم قالت وهي تعدو إليه:

ـ آه، لا. لقد أخذت هذا الكتاب من طريق الخطأ!

لكنّه انتزعه من بين يديها المتخبّطتين واستمرّ في قهقهته، وقال:

ـ جيّد جدًّا. جيّد جدًّا جدًّا!

كان يرنو إلى صورة كاريكاتيريّة لمانجولا، منتفخة المنخرين من فوق رقبة ثور وثنيات في البشرة، ومتّقدة العينين غضبًا وهيجانًا. أمّا الأذنان، فكانتا معلّقتين بمسامير ذهبيّة هائلة الحجم، واليدان فوق ردفيها.

ـ وينبغي لك أن تكوني رسّامة صور كاريكاتيريّة أيضًا.

قال نرمال ذلك وهو يقلّب الصفحة ويرنو إلى كمال الذي اندلق كرشه الشبيه بالوسادة من تحت قميصه في حين انبسطت يداه الصغيرتان من خارج بدنه مثل سويقات نبات الباذنجان المكتنز.

لكن ميرا حثّته قائلة:

ـ أرجوك يا بابو نرمال، أعطني إيّاه...

غير أنّ نرمال قلب الصفحة ورأى صورته. لم تكن صورة كاريكاتيريّة، بل تخطيطًا. وكانت جبهته ووجنتاه مرسومة في عناية، وشعره في خصلات منفصلة وعيناه تنمّان عن تفكير عميق. وعلى الصفحة المقابلة، ثمّة صورة أخرى له، من زاوية مختلفة، حاملاً كتابًا في يده، نظّارته على عينيه، وباسطًا ساقيه فوق مسندي كرسي على النحو الذي يتّبعه كلّما جلس للقراءة. وفي الصفحة التالية ثمّة صورة أخرى له جالسًا من تحت شجرة من أشجار تين البنغال قرب القلعة الأثريّة، ولكنّها كانت صورة غير كاملة.

لم تكن تلك صور تخطيطيّة بل إعلان حبّ.

أشاحت ميرا بنظرها بعيدًا مشدوهة.

وبدت الأرض وكأنّها تميد من تحت قدميها، وشعرت أنّها توشك على السقوط. وأحسّت بالدوار، فأمسكت بشجرة تستند إليها.

وطرق سمعها نرمال وهو يناديها من بعيد:

ـ إنّها هزّة أرضيّة، أظنّها هزّة أرضيّة.

جال ببصره من حوله، مناديًا في صوت جهوري:

ـ باكول! أمّاه! علينا الذهاب إلى المنزل. ابتعدي! ابتعدي عن المبنى، فقد ينهار، وقد بدأ يتداعى. لا بدّ لي من الوصول إلى باكول وإنقاذها!

وبدأ يعدو إلى نهاية الطريق بعيدًا عن الأطلال، ولكنّه اضطر إلى التوقّف. فقد بدا له أنّه يسير من فوق الماء، وبدأت الأرض الممهّدة من حول النافورة تتحرّك مثل حيوان ينتفض من نومه. علت ثم هبطت، وكأنّ الحيوان أضحى موجة في البحر. وانساب إلى سمعه صوت هدير بعيد وعميق من مكان ما على مسافة عميقة من الأرض.

* * *

كان في وسع مانجولا وكمال اللذين خرجا إلى الحديقة عندما بدأ المنزل يرتجّ ويهتزّ أنْ يشاهدا السيّدة بارنوم في الجهة الأخرى من الطريق مرتدية ثوب نومها الأزرق الطويل، منكوشة الشعر، تنادي الحاجب. وفتحت البوّابة على مصراعيها وركضت في اتّجاههما، ولم تكن قد جاءت إلى بيتهما منذ حادثة النزهة رفقة كانابالا.

وكانت تبتسم لباكول وتقول:

ـ إنّها هزّة أرضيّة، صحيح؟ الأولى؟

وصلت إلى حيث وقف الآخرون، مرتخية الشعر، وثوبها ينزلق من على كتفها؛ ثم التفتت إلى كمال، وقالت وكأنّها خارجة وإيّاهم لحضور حفل في حديقة:

ـ أتظنّها هزّة خطرة كسابقتها؟ لقد كانت الهزّة السابقة هزّة أرضيّة بكلّ ما في الكلمة من معنًى، ولكنّني كنت في كلكتا.

في ذلك اليوم، كنت أرقص رقصًا يكفي لأن يهزّ الأرض من دون مساعدة من الهزّات الأرضيّة.

هتفت مانجولا شبه باكية:

ـ آه لو كانت لدينا محارة.

كانت مانجولا على درجة بالغة من الهلع فلم تتنبّه لكتف السيّدة بارنوم العاري ولا لشعرها الأشعث.

وقالت السيّدة بارنوم:

ـ أعرف أنّه يفترض بكِ النفخ في محارة لتتوقّف الأرض عن الاهتزاز، ولكن حتى لو نفخ تريتون[1] بوقه المزيّن بإكليل لما توقّفت هذه الهزّة!

هتفت باكول:

ـ أين موكوندا؟ وجدّتي؟

وهرولت نحو المنزل سعيًا وراء جدّتها في حين صاحت السيّدة بارنوم:

ـ لو كنت مكانك لما دخلت المنزل ـ فقد ينهار من فوق رأسك!

غير أنّ مانجولا تمتمت:

ـ رادا كريشنا، رادا كريشنا، رادا كريشنا، أنقذنا وأبعد عنّا كلّ ضرر يا رادا كريشنا.

قال كمال مخاطبًا مانجولا:

ـ انتهى كلّ شيء. ألا ترين ذلك؟ ما يزال المنزل شاخصًا ولم يعد أيّ شيء يتحرّك.

قالت السيّدة بارنوم:

---

(١) تريتون Triton: بحسب الأساطير الإغريقيّة القديمة هو أحد آلهة البحر، ابن بوسايدون (يقابله نبتون في الأساطير الرومانيّة) وأمفيترايت، آلهة البحر، يرمز له على شكل سمكة برأس بشرٍ. وهو، كما تقول الأساطير، الذي ينفخ في محارة فتتلاطم الأمواج في البحار والمحيطات! (المترجم).

ـ انتهى؟ واحسرتاه. . قصيرة جدًّا!

قال كمال:

ـ أين ميرا؟ وأين نرمال؟ لماذا لم يخرجا؟ اليوم عطلة وما يزال يعمل؟ يا للغرابة!

* * *

لبثت ميرا واقفة ومتشبّثة بشجرة تين البنغال كي تسندها، دقّات قلبها عنيفة ومذاق الغثيان المالح في فمها. كانت الأرض ساكنة من تحت قدميها ولكنّها كانت في هلع شديد خشية أن تميد من تحتها من جديد. جالت ببصرها من حولها بحثًا عن نرمال، فشاهدته يخرج من وراء الأطلال، ضاحكًا كأيّ طفل. ففي اللحظة التي أدرك فيها أنّ الهزّة الأرضيّة ليست كبيرة نسي كلّ شيء عن باكول وعن أمّه وأسرع لمعاينة الأطلال بدلاً من ذلك.

وصاح:

ـ إنّ كلّ شيء محطّم قبل الآن ولم يعد أيّ شيء آخر ليتحطّم. أتصدّقين؟ حتى القبّة لم تسقط ولا يبدو أنّ ضررًا ما قد لحق بالمكان.

وصل إليها وقال مبهور الأنفاس:

ـ رائع! ألا تعتقدين أنّه شيء رائع؟ طبقات الأرض تتحرّك والقارّات تغيّر من شكلها وسلاسل الجبال تنهض والمحيطات تهاجر. المدهش أنّ كلّ شيء في الأعماق سائل حائر. نار من تحت المحيطات!

سرحت ميرا ببصرها نحو نرمال وفكّرت إن كانت الهزّة الأرضيّة قد حرّكت قدرًا من دماغه واقتلعته.

لكن نرمال ظلّ يقول:

ـ ملايين السنين. لقد تطلّب انفصال هذه القارّات وابتعاد بعضها عن بعض ملايين السنين، ثم استقرّت في أماكنها التي نشاهدها فيها اليوم. نحن البشر! حتى القدامى الذين أدرسهم! نحن من زمن حديث كالفراشات، ولدنا اليوم، ونموت غدًا.

قالت ميرا:

ـ نعم، هذا ما أفترضه. أتظنّ حقًّا أنّ المكان آمن الآن؟

فردّ:

ـ وماذا يحدث لو كان المكان غير آمن؟ ماذا يحدث لو أنّ الهزّة بدأت من جديد ولقينا مصرعنا كلّنا؟ ماذا تودّين أن تفعلي قبل أن تموتي؟

ثم ضحك عندما رأى الذهول باديًا على محيّاها، وأضاف:

ـ هيًا، أخبريني.

فقالت ميرا:

ـ بصل وثوم وسمك.

واستبدّت بها الدهشة لمّا رأت الكلمات تتدفّق من فمها، والوضوح في نطقها، ومضت تقول:

ـ أودّ أن آكل كلّ المأكولات المحرّمة عليّ. أودّ أن آكل كلّ شيء مرّة واحدة قبل أن أموت.

* * *

جلس موكوندا على الأرض في غرفة نوم السيّدة بارنوم، وكان قد هرع إليها عندما بدأت الهزّة الأرضيّة معتقدًا أنّه سيعثر عليها ويأخذها بعيدًا عن الأرض المتحرّكة والجدران المهتزّة. كانت رائحة شراب

الويسكي تنبعث من الغرفة، إذْ كانت إحدى الزجاجات قد سقطت على الأرض وشكّلت بقعة دكناء من فوق السجّادة، وكانت تحيط به أشياء كثيرة تساقطت من فوق الرفوف والجدران والطاولات: صورة مكسورة وزهريّة متصدّعة وكتب، وكان يقرأ محاطًا بهذا الحطام، وفي يده ورقة شفّافة مثل قشرة بصلة مكتوب عليها:

«عزيزتي. إنّه لأمر متناقض حقًّا من دونك، فأنا محاط بأناس أغراب، جسمي هنا، وعقلي معك على الدوام. من تحت شجرة تين البنغال، أبذل قصارى جهدي لكي أصطحبك بعيدًا، وسوف يلتئم شملنا من جديد».

دقّ قلب موكوندا دقّات قويّة عندما بدأت الأرض تهتزّ. وكان في وسعه أن يشاهد ريشة بيضاء طويلة ورسالتين أخريين داخل الصندوق، لكن خطّه كان متعجّلاً ولم يتوقّف كثيرًا عند بعض الكلمات مثل متناقض التي لم يفهم معناها أصلاً، واستغرق وقتًا طويلاً ليقرأ خطّه المتعرّج. وكان يعلم أنّ كلّ شيء سوف ينتهي إن اكتُشف أمره. وظنّ أنّه سمع شخصًا ما، فدفع العلبة جانبًا وخرج مهرولاً، بينما كانت الرسالة ترنّ في أذنيه.

«عزيزتي. إنّه لأمر متناقض...» رسالة إلى السيّدة بارنوم. وفكّر موكوندا أنّ هذه الرسالة لا بدّ أن تكون من عشيقها. صحيح إذًا أنّ الاثنين قتلا السيّد بارنوم ووضعا خططهما للهرب معًا.

لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا ـ فهي أرقّ من أن تقتل أيّ شخص.

ماذا ينبغي له أن يفعل؟ أين باكول؟

* * *

أربعـــــــة

ثمّة غيضة من زهور الأكاسيا تمتدّ من وراء آثار سونغاره في اتّجاه قمّة تلّ يلمع من فوقه معبد صغير أبيض اللون في شمس ما بعد الظهيرة. لم يكن معبدًا قديمًا، ولكنّه اكتسب شهرة بسبب ما يتمتّع به من عطف ورحمة.

جالت ميرا ببصرها من حولها، فلاحظت النحل يتطاير في الهواء من فوق زهور بريّة بنفسجيّة اللون كانت قد نمت وأزهرت على مقربة من الأرض، وفكّرت في سؤال نرمال الغريب بعد حدوث الهزّة الأرضيّة في يوم أمس وإجابتها الساذجة عنه. ما الذي سيدور في خَلَدِه يا ترى؟ ولم يطرح عليها أيّ أسئلة من بعد ذلك، بل اكتفى بإرسال نظرة إليها وكأنّه يراها أوّل مرّة. بيد أنّها شعرت بالخجل التامّ كلّما تذكّرت كلماتها التي كانت تنمّ عن شراهة ونهم.

كانت حرارة ما بعد الظهيرة شديدة لا تبعث على الراحة؛ وكانت السماء تمتدّ من فوق الرؤوس عالية، خالية، من دون أثر لأيّ سحابة. لقد حلَّ فصل الصيف بغتة مثلما كان يحلّ عليهم في كلّ سنة، والحرارة قاسية يصعب تحمّلها من جديد. تعثّرت من فوق الحجارة وكتل الطين المنتشرة على امتداد الطريق المؤدّي إلى التلّ وهي تمسح وجهها المتصبّب عرقًا بطرف ثوبها. إنّه طريقها المعتاد، ولكن لماذا يبدو أشقّ عليها اليوم؟ وعندما وصلت إلى بعض الأشجار حيث انتشرت مساحات من الظلّ الأخضر تتخلّلها أشعّة الشمس الساطعة، توقّفت قليلاً بعد أن شعرت أنّها أبرد قليلاً. وشاهدت زجاجات فارغة وعلب ثقاب مرميّة جانبًا، هنا وهناك، وعلبتي سكائر مجعّدتين ولكنّهما ليستا من النوع الذي يدخّنه نرمال. كانت تعلم أنّ هذا المكان مفضّل لدى من يضربون المواعيد للقاء! لكنّها هزّت رأسها. فهي لم تأت إلى هذا المكان للقاء، وما من سبب يوجب الإحساس بالذنب. لقد جاءت إلى هذا المكان من أجل رسم القلعة.

وصلت حافّة الأطلال وتوقّفت. كان نرمال قد وصل قبلها، وكانت الكلبة جالسةً بجواره بينما راح صغارها يلهون من حوله وكأنّهم أصدقاء قدامى.

حاول نرمال ألّا يُنعم النظر إليها وإلى العرق البادي على شفتها العليا وإلى قميصها الشفّاف الملتصق بظهرها بسبب العرق وإلى بعض خصلات شعرها الملتصقة على وجنتها والساري الذي كانت تمسح به وجهها.

قالت بنبرة تنمّ عن وعي مفاجئ:

ـ بات الطقس حارًّا. صحيح؟

ثم أرسلت نظرها إلى الجانب الآخر ولاحظت مجموعة الأوعية المعدنيّة لحفظ الطعام بجانب نرمال، فعرفت أنّها الأوعية التي أعدّت له فيها الطعام في صباح ذلك اليوم، ففتحت المشبك ورأت في الوعاء الأوّل قطعتين من السمك المقلي وفي الوعاء الأوسط رزّ، وخمّنت أنّ الوعاء الثالث يحتوي على الخضراوات، فلم تكلّف نفسها عناء فتحه والنظر إليه.

رفعت بصرها نحوه وشعرت بالاشمئزاز مرّة أخرى بسبب ما قالته له في اليوم السابق.

قال نرمال:

ـ هيّا تذوّقي، لا أحد ينظر إليكِ.

ـ لا أستطيع.

قال نرمال في رقّة:

ـ إنّها سمكة لذيذة، مطبوخة طبخًا جيّدًا، وهي طريقة رائعة لإفطار من بعد صوم طويل لا فائدة منه.

أشاح بنظره جانبًا وشرع يداعب الكلاب الصغيرة في حين ظلّت هي تحملق في وعاء السمك الذي كانت تحمله بيدها، وفكّرت إن كانت تشعر برغبة في أكل أيّ شيء من بعد سنين طويلة من الامتناع عن أكل السمك. طعمها؟ لحمها؟ رائحتها.. وهذه العظام الصغيرة الشفّافة التي تبدو كالأشواك في الفم؟

وهنا قطعت جزءًا صغيرًا بأصابعها واستدارت بعيدًا عن نرمال، تكاد تخشى أن يراها متلبّسة بالأكل. وعلى الرّغم من أنّه كان منشغلاً عنها بصغار الكلاب، إلّا أنّها كانت تعلم أنّه ينظر إليها بطرف عينه. وفي غمرة ارتباكها بلعت القطعة بأكملها من دون أن تتذوّقها.

ثم ضحكت ضحكة مشوبة بالتوتّر، وقالت:

ـ هاك! لقد أكلتها كلّها! وتذوّقت الفاكهة المحرّمة!

كانت ثمّة نسمة خفيفة تنساب مجمّعة أوراق الشجر اليابسة، وكانت الببغاوات تثرثر من فوق الرؤوس بينما سرح نرمال ببصره إلى ميرا وابتسم لها مهنّئًا.

* * *

تغيّرت وجهة نظر موكوندا عن السيّدة بارنوم منذ أن عثر على الرسالة الموجّهة إليها أثناء الهزّة الأرضيّة. فقد بدأ صمتها مريبًا، وشراب الجنّ الذي تحتسيه والسكائر التي تدخّنها مؤشّرًا على أنّها امرأة ساقطة، تمامًا كالنساء اللواتي قرأ عنهنّ في القصص والروايات البوليسيّة. كان يجد نفسه وقد رنا إلى أظافرها الطويلة وفكّر إنْ كانت قد اضطرّت إلى غسل الدماء العالقة بها. أتراها تستطيع قتل رجل؟ أم تساعد شخصًا ما على القتل؟ وانتابته قشعريرة لمّا جاءت ووقفت من ورائه تمسّد كتفيه أثناء انغماسه في القراءة. فكّر أنّها سوف تغمد سكّينًا في جلده وعظمه وقلبه. لكنّه ارتبك وأخذته الحيرة بعد أن جلست بجانبه وشرحت له مقاطع من كتاب حكايات من شكسبير الذي أعدّه لام. وفكّر أنّه كان ينبغي له قراءة الرسالتين الأخريين ليكتشف الحقيقة. واستدرك، ربّما لم تكن تلك الرسائل موجّهة إليها، فاسمها لم يرد في الرسالة التي قرأها في كلّ الأحوال.

وحانت الفرصة أمام موكوندا بعد عشرة أيّام على وقوع الهزّة الأرضيّة. لم يعرف كم كان لديه من الوقت، وهو يحاول أن يقرأ مستهلّ رواية لورد جيم الصعب من حول مائدة عشاء السيّدة بارنوم عندما قالت له:

ـ استمرّ في القراءة، فأنا ذاهبة إلى متجر فينليز، وسأعود بعد قليل، ثم خرجت واستقلّت السيّارة التي قادها الحاجب.

وبدأت يداه ترتعشان، ركبتاه تصطكّان، ولكن ما إن رأى السيّارة وقد انطلقت من حول الناصية حتى هرول إلى غرفتها.

ورأى لهوله كثرة الأشياء التي تزدحم بها غرفة السيّدة بارنوم، أشياء لم تسبق له مشاهدتها أثناء حدوث الهزّة الأرضيّة. وحاول أن يخمّن المكان الذي سقطت منه العلبة. كان في وسعه أن يشاهد في ركن الغرفة الزهريّة التي هوت في ذلك اليوم. وعلى بعد مسافة قليلة، كانت الصورة المثبّتة على الجدار، والتي تصوّر امرأة ذات وجه أخضر وتبدو في حالة من السكر الشديد، قد تصدّعت. وشاهد أيضًا خزانتين منقوشتين ومصنوعتين من خشب الساج قرب الجدار البعيد عنه، وكانتا مقفلتين، فاستبعدهما من تفكيره. وكان السرير واسعًا مغطّى بغطاء مخملي ذي لون بنفسجي غامق. أرجل السرير مغطّاة بجلد النمر، تحدّق عيناه اللامعتان وفمه المفتوح وأسنانه الشبيهة بالرماح إلى الوسادة. وعلى الجدار القريب من السرير، ثمّة رفّ عال وعليه أشياء غريبة كثيرة.

وهنا قرّر موكوندا أن يبحث في محتويات هذا الرفّ، فوقف على كرسي، ودفع جانبًا الزخارف القديمة المغبرّة والكتب وإحدى العلب، ولكنّه اكتشف أنّ هذه العلبة ليست هي التي كان يبحث عنها، وحاول أن يبذل أقصى درجات العناية في إعادة هذه الأشياء إلى محلّها الصحيح. تذكّر أنّ لون العلبة التي كانت تحتوي على الرسائل يميل إلى الاخضرار ومصنوعة من الخشب. وفي نهاية المطاف، عثر على العلبة المطلوبة في إحدى الزوايا البعيدة. فما كان منه إلّا أن جذبها إليه وفتحها، فوجد فيها الريشة البيضاء.

لكنّ الرسائل! لم يكن في العلبة أيّة رسائل، بل لم يكن فيها أيّ شيء آخر! فهزّها غير مصدّق.

ـ هل اقتنعت يا موكوندا؟

تجمّد موكوندا في وقفته فوق الكرسي وشعر أنّ ركبتيه تحوّلتا إلى ماء، وسقطت العلبة من يده بينما ظلّ نصف الريشة خارجها. واستدار من حوله في بطء.

بدت السيّدة بارنوم أطول قامة منه على الرّغم من أنّه كان يقف فوق كرسي. أراد أن يهبط ولكنّه لم يستطع. أراد أن يقول شيئًا ما ولكن لسانه انعقد.

جلست فوق السرير وبدأت تمسّد رأس النمر. كانت ترتدي ثوبًا حريريًا بلون جلد النمر.

قالت في صوت أجشّ لم يألفه:

ـ أهذا هو جزائي على ثقتي بك؟

تمنّى موكوندا أن يقول لها إنّه أراد أن يثبت براءتها، وأن يثبت أنّ الآخرين على خطأ كلّهم وأن يعرف الحقيقة. وشعر أنّه سوف يبدأ بالبكاء إن فتح فاه.

أمرته قائلة:

ـ انزل من على الكرسي.

هبط من فوق الكرسي مرتجف الساقين، ولم يستطع أن يشيح بنظره بعيدًا عن اليد التي كانت تمسّد النمر. ثمّة خاتم مزيّن بحجارة كبيرة خضراء اللون في إصبع من أصابعها الطويلة الأظافر.

نهضت من مجلسها وأشعلت سيكارة، وتنشّقتها وسعلت. ربّما

ليس الأمر بهذه الدرجة من السوء. فإذا كانت تدخّن فهذا يعني أنّها ليست مهتاجة، ثائرة، ولكنّها كانت تكرّر على الدوام أنّ السكائر تهدّئ من أعصابها وتريحها. فتح فاه ليشرح لها موقفه وتنشّق كمّيّة من الدخان المحيط به.

دارت من حوله وقالت في صوت خافت:

ـ لا تتفوّه بأيّ كلمة. لا تحاول الكلام. أخرج. أخرج من هنا، ولا تعد إلى هذا المكان. هيّا أخرج!

ازدادت حدّة صوتها أثناء الكلام وسعلت سعالاً قويًّا ومسحت عينيها، فتلمّس موكوندا طريقه خارج الغرفة. وبينما هو يبتعد، طرق سمعه صوتها وهي تصيح به في الممرّ:

ـ وابحث عن معنى كلمة «خيانة» في المعجم أثناء خروجك. ابحث عن معنى كلمة «خائن» وابحث عن معنى كلمة «خداع»!

* * *

كان نرمال يعلن حول مائدة الشاي أنّ كلّ شيء بات في نهاية المطاف في محلّه ـ الموظّفون وأدوات مقياس الزوايا وآلات التصوير والعمّال والخيام والإجازات الخاصّة بتنفيذ العمل والمعاملات الورقيّة ـ وأنّهم سوف يبدأون بعد يومين اثنين بالتنقيب والحفر في الأطلال.

قالت مانجولا:

ـ ما الذي سوف يحدث الآن؟ ربّما سيجري العثور على قلعة من تحت الأطلال! أنا شخصيًّا لا أمانع في تدمير هذه الأطلال القديمة إذا ما تمّ العثور على مزار عظيم البنيان. أخيرًا، سوف يحدث شيء ما في هذه البلدة القديمة المثيرة للسأم، وسوف يأتي الناس لزيارتها.

كرّر نرمال:

ـ لن يلحق الدمار بأيّ مبنى حتى لو عثرنا على شيء ما.

شعر بالزهو عند التفكير بالعمل الذي ينتظر إنجازه، فلم يترك لأيّ شيء آخر أن يشغل باله.

وأضاف:

ـ سوف نبدأ العمل في الروابي الخلفيّة، وهو عمل يتطلّب دقّة وربّما سوف يستغرق منّا أشهرًا لإكماله. سوف ننصب بعض الخيام في تلك البقعة، فالعمّال على وجه الخصوص لا يستطيعون قطع كلّ تلك المسافة ذهابًا وإيابًا.

اختلس نظرة جانبيّة إلى ميرا بحثًا عن ردّ فعل منها، ولكنّها بدت شاردة الذهن بسبب انشغالها بأفكار خاصّة بها. فقد لاحظ نرمال أنّها تبدو منذ عصر اليوم الذي أكلت فيه قطعة السمك التي أحضرها وإيّاها وكأنّها تمرّ في حالة من حالات الحديث والاهتمام التي تنمّ عن أدب جمّ، ولكنّها كانت بعيدة النظر. فقد توقّفت عن المجيء إلى القلعة، أو إلى السطح لنشر الثياب في وقت الصباح. ولم يجدها بمفردها قطّ كي يطرح عليها الأسئلة مستفسرًا عمّا بها. وفكّر أنّها غير مطالبة أن توضح له أيّ شيء، ولكن حتى في مثل هذه الحالة، فثمّة رسوم لا بدّ لها من إكمالها.

قهقه كمال متسائلاً:

ـ هذه هي نهاية العاشقين الرومانسيين. صحيح؟ ولم يكن اليمام وحده الذي يغازل ويداعب في تلك المنطقة.

قال نرمال ليكسر حاجز الصمت المشوّش الذي ران قليلاً:

ـ نعم، سوف تكون الأطلال مزدحمة برهة وجيزة من الزمان، ولن يكون ثمّة مكان لأشباح الملوك ولا حتى المكان أيضًا.

قال كمال سارحًا ببصره نحو بقعة بنّيّة على سطح الطاولة البنّي المكسوّ بالندب.

ـ وبخاصّة الملوك والملكات العشّاق.

قالت مانجولا:

ـ صه! ألا ترى أنّ ثمّة طفلة هنا؟

كانت باكول تقرأ في كتاب تحت ضوء بواكير المساء المائل بجانب النافذة، ولكنّها دفعت به جانبًا ووثبت من مكانها بغتة.

وهتفت وهي تغادر الغرفة:

ـ موكوندا! موكوندا!

نهضت ميرا من مجلسها وبدأت ترفع الأكواب والأباريق وتضعها كلّها على صينيّة برونزيّة.

قال كمال:

ـ آه، لِمَ هذه العجالة؟ ما زلت أريد كوبًا آخر. هل يمكنني أن أشرب كوبًا آخر من الشاي؟ من فضلك ناوليني كوبًا.

توقّفت ميرا، وعثرت على كوب نظيف غير مستعمل فوق الطاولة، وأخذت تصبّ فيه الشاي، فانسكب قليل منه في الصحن، ثم أضافت مقدارًا صغيرًا من الحليب.

وقال كمال في حزن:

ـ آه، مضت كلّ هذه السنين ولا تتذكّرين أنّني لا أحبّ الحليب في الشاي!

ـ سوف أحضر كوبًا نظيفًا.

ثم استدارت على عقبيها وخرجت من الغرفة.

قالت مانجولا:

ـ لماذا أنت صعب الإرضاء إلى هذا الحدّ؟ حسبك أن تشربه.

نهض نرمال ليلحق بميرا إلى المطبخ، إذْ سيحظى بدقيقة ينفرد فيها وإيّاها في كلّ الأحوال، ولكن باكول قالت:

ـ آه يا نرمال. لا تنصرف عندما أشرب الشاي. أخبرني عن التنقيبات. ما الذي سيحدث من بعد ذلك؟

* * *

كان موكوندا يهرب من غرفة نوم السيّدة بارنوم، هابطًا السلالم ومتّجهًا نحو الحديقة من دون أن يتنبّه لذلك الجانب المظلم الذي كانوا يتجنّبون الذهاب إليه في الأماسي، ومن دون أن يتنبّه لذلك اللون البرتقالي الزاهي لقرص الشمس الآذن بالمغيب والذي يبدو مقطّعًا بفعل أغصان الشجرة.

ونادى الحاجب:

ـ هه، موكوندا! ساعدني في أمر هذا الدجاج!

مسح موكوندا أنفه وعينيه اللتين خنقتهما العبرات، وحاول أن يقول شيئًا، أيَّ شيء، ولكنّه ركض نحو البوّابة.

فهقه الحاجب وقال:

ـ تعال في هذه الليلة، فإنّني سوف أذبح دجاجة! وسوف يكون المشهد رائعًا عندما أقطع رأسها ويسيل دمها. سوف يروقك ذلك!

هرول موكوندا مجتازًا البوّابة التي كانت مثبّتة من دون إحكام، وكان أحد ألواحها الخشبيّة قد أصابه العفن بينما دُقّ اللوح الآخر بمسامير على نحو أخرق فسقطت قطعة منه محدثة صوتًا عاليًا عندما أغلق البوّابة بقوّة من خلفه. ركض إلى نهاية الطريق في ضوء الغسق ركضًا سريعًا جدًّا، متقطّع الأنفاس، من دون أن يتّضح له هدف يسعى إليه، وكان تعيسًا. كان يجهش بالبكاء عندما خرج عن الطريق العامّ وانحرف نحو طريق قذر يمتدّ باتّجاه حقول يانعة تحت أشعّة الشمس الغاربة. وتخاصمت آخر الطيور وثرثرت بخصوص اختيارها الأماكن التي تلجأ إليها مساءً، عندما قفز موكوندا من فوق السواقي والترع، في حين ترك نعاله الخفاق بين قدميه سحابة غبار فوق شعره ووجهه.

أخيرًا، تمكّن من رؤية الآثار وسلسلة التلال من ورائها. فدخل الفناء الداخلي الذي يحتوي على مسبح كبير مشيّد بحجارة حمراء اللون، كانت النقوش العربيّة المعتمة تجهد من أجل الظهور من بين الأرض المغبرّة من حولها. وكانت شجرة تين البنغال القريبة قد ازداد حجمها بسبب ظلال المساء العميقة.

وهنا رمى بنفسه إلى أسفل شجرة تين.

كانت باكول جالسة هناك، فقالت:

ـ هل سمعت؟ سوف يبدأون من يوم غدٍ التنقيبات في منطقة الآثار، لن تكون لدينا أيّ آثار بعد اليوم لنأتي إليها.

جالت ببصرها من حولها فرأت الطحالب ونباتات السرخس زاحفة، متسلّلة من بين الجدران، الجدران المحطّمة التي ارتقياها معًا في العديد من المرّات، متخيّلين الحجرات من ورائها، ولكن لم تعد اليوم أيّ حجرات فيها.

رنا إليها موكوندا، لا يفقه شيئًا، إذْ لم يتنبّه إلى حضورها أصلاً.

قالت باكول:

ـ إنّ أبي مضطرّ إلى هذا العمل. وهو مضطرّ إلى العودة وتخريب كلّ شيء.

تمنّى موكوندا لو كان في وسعه أن يضع رأسه بين ركبتيه ويبكي. وتمنّى لو كان في استطاعته أن يشرح الأمور للسيّدة بارنوم أو في الأقلّ لباكول. ولكنّه لا يقدر أبدًا على البوح بما فعله لأيّ شخص، كان يعلم أنّه لن يغفر لنفسه فقدانه ثقة السيّدة بارنوم أو عدم الإحساس بالخزي والعار الذي يصيبه بالغثيان. دفع رأسه بين ركبتيه وشعر بمذاق دمعه المالح في فمه.

وقالت باكول مقلّدة:

ـ لن يكون ثمّة مكان من بعد اليوم للملوك والملكات. إنّه يظنّ أنّ الأمر مضحك.

رفعا بصرهما عندما شاهدا مجموعة من الطيور من جنس الببغاوات. وشاهدا أيضًا نجمة كبيرة واحدة في السماء في ذلك الوقت المبكر من المساء. أمّا شجرة التين التي كانت الطيور تتّجه نحوها الآن فقد أضحت ظلًّا من الظلال.

قالت باكول موجّهة كلامها لموكوندا، الذي دفن رأسه بين ركبتيه، لمّا وجدته صامتًا لا يردّ عليها:

ـ هه! هيّا، صحيح أنّ الأمر سيّئ، ولكن لا بأس. فهو يقول إنّهم لن يفسدوا الآثار كلّها.

غير أنّها توقّفت عن الكلام وأصابها الهلع الشديد عندما سمعت

نوبات بكائه الخانق، فنهضت وقالت:

ـ لنذهب! لقد تأخّر الوقت.

كانت تخشى الكلام والأشكال المظلمة في الأشجار، ولكنّها لم تستطع الاعتراف بذلك أمام موكوندا. ففي أوقات الليل، تخرج الثعالبِ والفهود من أوكارها. وكانت قد شاهدت زوجًا من الثعالب يشبهان الكلاب، وأحيانًا تخرج حتى في رائعة النهار بين الحقول.

بدأ الاثنان يركضان على امتداد الطريق الذي تحفّ به الأشجار متّجهيْن نحو الحقول. كان ما يزال سهلاً عليهما رؤية الأخاديد في الطريق والقفز من فوقها تحت النور البنفسجي الخافت. يبدو أنّ الظلام أخذ يرخي سدوله ويتحسّس الأشكال من حولهما، جاعلاً من كلّ شيء يلوح ضخمًا للعيان. وكان في مستطاعهما أن يشمّا رائحة أوراق اليوكالبتوس رائحة حادّة وعطرة منبعثة فوق قارعة الطريق الذي تظلّله أشجار نحيلة. وسرعان ما صعب عليهما رؤية الأرض التي تطأها أقدامهما، فأمسك كلّ منهما بيد الآخر وهما يهرولان بأسرع ما يستطيعان. وعندما تعثّر موكوندا، تشبّثت باكول بكمّ قميصه في شدّة أكبر، وقالت:

ـ على رسلك! ثمّة صخرة كبيرة أمامنا!

لكنَّ موكوندا التفت ونظر إلى الخلف. هل ثمّة من يلحق بهما، وهما مضطران إلى الهرب منه؟ لكنّه لم يستطع رؤية أيّ شيء سوى النمر المكشّر عن أنيابه من فوق سرير السيّدة بارنوم. كان في وسعه أن يسمعه من بين أصوات لهاثهما وطرْق نعاليهما، أن يسمع شيئًا ما من ورائهما. فشدَّ على يد باكول في قوّة أكبر، وهمس:

ـ لا تخافي!

فهمست له:

ـ لست بخائفة.

وصلا الحقول، فلاحظا أنّ الضوء أقوى في العراء، بعيدًا عن الأشجار. وهنا جذبت باكول كمّ موكوندا وهما يهرولان على امتداد تلك الحدبات الصغيرة التي تفصل حقلاً عن الآخر.

وهتفت:

ـ انظر! انظر! انظر إلى أعلى!

توقّف موكوندا عن الركض ورفع بصره عاليًا فشاهد السماء الزرقاء ـ السوداء مرصّعة بالنجوم، بنجوم كثيرة لا تُعدّ ولا تحصى حتى باتت لا تملك فسحة لها، ولكنّها على الرّغم من ذلك لاحت مثل قبّة هائلة متألّقة تغطّي الحقل الذي يسبح في نور النجوم، نجوم كثيرة حتى إنّك لو وقفت وشخصت ببصرك نحوها لشعرت بالدوار بعد برهة وجيزة. ولاح من بين النجوم شعاع نور أبيض رفيع لم يسبق لهما أن شاهدا مثله، مرَّ بعيدًا في شكل قوس حتى توارى عن الأنظار في الأفق.

وَقَفا يدًا بيد في وسط الحقول الخاوية ومن تحت سماء محتشدة بالنجوم. أمّا متاعبهما وخوفهما والطريق الطويل الذي يتعيّن عليهما السير فيه قبل الوصول إلى البيت، فقد أصبحت كلّها نسيًا منسيًا.

* * *

جلست ميرا في المطبخ من دون أن تتنبّه إلى أنّها لم تشعل النور، وأنّ بطنها وذراعيها وقدميها كانت كلّها مضطرمة ومتّقدة بعضّات البعوض، وأن لا فائدة من محاولة إشعال الضوء لأنّ ثمّة انقطاعًا في التيّار الكهربائي.

لم تكن تفكّر في أيّ شيء سوى الشرفة وقت الغسق قبل عشرة أيّام عندما صعد إليها كمال وقال بنبرة غير واضحة لم تظنّه قادرًا على التفوّه بها:

ـ أنت تؤدّين عملاً بالغ المشقّة.

فافترّ ثغرها عن ابتسامة مؤدّبة وقالت:

ـ لا، أبدًا. إنّني أعالج زجاجات المخلّل خشية أن يكسر الخدم أيًّا منها.

ـ راودني التفكير في مدى الصعوبة التي تواجهين وأنت وحيدة.

فضحكت مشدوهة أكثر ما هي مرتبكة، وقالت:

ـ لقد اعتدت ذلك.

ـ آه، لكنّ المؤسف جدًّا هو تلك القواعد والقوانين الرهيبة التي يضعها مجتمعنا والتي نفرضها على أنفسنا من دون تبصّر. أظنّنا في حاجة إلى شيء من التمرّد.

وانهمك كمال في فرك بقعة سوداء تلطّخت بها سترته البيضاء بسبب جدار الشرفة.

ابتعدت عنه واتّجهت نحو ركن الشرفة حيث قناني المانغو المخلّل متراصّة وما تزال تحتفظ بحرارة شمس النهار..

وبينما هي تنحني لتلتقط القناني، شعرت بيد من فوق ظهرها في المنطقة التي يغور فيها قميصها ويغرف من جسدها العاري، فوثبت جانبًا في ذهول.

قال كمال:

ـ لا تخافي! أردت أن... أقول، إنّكِ إذا احتجت إلى أيّ شيء، فأخبريني. لا تتردّدي.

شاهدت نظراته ترشقان جسدها كأنّه يعرّيها في ذهنه من ثوبها الساري ويفكّ أزرار قميصها.

توقّف، ثم رفع بصره ونظر إلى السماء، وقال:

ـ نحن في حاجة إلى قليل من المطر في أقرب وقت. صحيح؟

مرّت عشرة أيّام منذ ذلك المساء. لم يقل أكثر ممّا قاله، ولم يحاول أن يلمسها، ولكنّه إذا ما رنا إليها، فإنّها كانت تعلم أنّ نظراته كانت تخترق ثيابها لتحدّق إلى ما يكمن تحتها. وعندما رشقت عيناه جسدها ارتجفت وكأنّ سحلية انزلقت من على جسدها. وظلّت تطرح السؤال على نفسها مرّات ومرّات: لماذا أقدم على هذا الفعل؟ لقد عاشت في هذا البيت سنوات طويلة، ولم تشاهده يبذل أيّ محاولة من هذا النوع سابقًا. ما الذي دفعه إلى مثل هذا التصرّف الداعر؟ عادت بأفكارها إلى الوراء، إلى أسبوعين مضيا ولكنّها لم تستطع أن تتذكّر أيّ شيء غير اعتيادي في سلوكه. فقد كانت أحاديثهما، إن كان في وسعنا أن نسمّيها أحاديث، تدور على الدوام وهما جالسان من حول مائدة العشاء حيث كان يطلب كمّيّة إضافيّة من الطعام، فتقدّمه له.

فوجئت بتصرّفه وكأنّها تلقّت ضربة. أكيد! لا بدّ قد نما إلى علمه خبر صداقتها بأخيه! فقرّر أن يجرّب حظّه بدوره أيضًا.

نهضت واقفة على قدميها في قلق وانزعاج. أكيد! هكذا هي القضيّة. وهكذا هو تفكير الرجال: فالصداقة مع الرجل لا تعني إلّا الغزل، وإذا ما غازلت المرأة أحدهم فهذا يعني أنّها عاهرة سهلة المنال ولعبة لكلّ رجل.

ما الذي يتعيّن عليها عمله؟ المرأة الوحيدة التي ينبغي أن تتحدّث إليها هي زوجة الرجل، لأنّ رفع شكوى لنرمال عن شقيقه أمرٌ مستحيل!

ماذا تفعل لو أنّه قال إنّها تضخّم من شأن الصداقة والعاطفة؟ ماذا تفعل له إن لم يقل مثل ذلك الكلام وواجه كمال بالموضوع؟

أشعلت ميرا مصباحًا عندما أدركت انقطاع التيّار الكهربائي، ثم جذبت علبة الرزّ وصبّت ثلاثة أكواب فوق طبق وبدأت تقلّبه وتنقّيه في محاولة لتهدئة قلقها ولتقرّر ما يجب أن تفعله!

* * *

وبعد وقت قصير، وعندما رجع موكوندا وباكول إلى المنزل قادمَيْن من القلعة في ذلك المساء، شاهدا ميرا محدودبة الظهر من فوق طبق ومن تحت ضوء المصباح الأصفر، كما شاهدا ظلّها وقد انعكس طويلاً على الجدار المقابل، لكن ظهرها المتصلّب ورأسها المحني حالا من دون توجيه أيّ أسئلة. فسارا سيرًا وئيدًا من أمامها مدركين تمامًا أنّهما سوف يتعرّضان للتوبيخ. ولكنّهما لم يجدا أحدًا حتى في تلك الشرفة الرحيبة من الطبقة الأولى والتي تنتهي بنافذة أموليا ذات الزجاج الملوّن ـ وهي النافذة التي كُسرت منها إحدى قطعها الزجاجيّة فاستُبدلت بقطعة أخرى زرقاء اللون ظنًّا منهم أنّها ستناسب بقيّة الألوان. هذا هو المكان الذي يجلس فيه كمال كلّ مساء يحتسي الشاي. ثمّة مصباح متروك، وظلمة نسيج العناكب تزداد في السقف. اقترب موكوندا وباكول أحدهما من الآخر، وخرجا إلى الشرفة الصغيرة المؤدّية إلى مخدع مانجولا، فسمعا تمتمة أصوات غير مفهومة..

سمعا صوت كمال وهو يقول:

ـ أعتقد أنّها على حقّ. كانت غلطة منذ البداية.

فجاء صوت نرمال:

ـ ليست غلطة إذا ما تأخّرا ذات مساء.

ـ هيّا، هيّا يا نرمال، كلّنا نقترف الأخطاء في الحساب. ألا تتذكّر بابو كوندو؟ في البداية زوّجوا ابنتهم بذلك الرجل الذي تبيّن أنّه عاجز جنسيًّا، وما زاد في الطين بلّة أنّه بعين واحدة ـ كما كانوا يقولون، ثم عادت إلى والديها، فلم يتمكّنا من النظر في وجوه الناس من شدّة العار.

قال نرمال منزعجًا:

ـ ما صلة بابو كوندو بهذا الموضوع؟

لكن صوت كمال بدا مُسترضيًا:

ـ معنى كلامي هو أنّ الكبار يقترفون أخطاء. ألا تفهم؟ لو سألتني لقلت لك إنّ الغلطة الأولى هي غلطة والدنا. على أيّ حال، لم نكن أغنياء فما فائدة التصرّف مثل عرّاب؟

واشتعل ضوء منبعث من عود ثقاب، وقال كمال بضع كلمات أخرى ولكنّها جاءت في صوت خافت لا يُسمع. انبعثت في الجوّ رائحة سيكارة واهية باتّجاه باكول وموكوندا اللذين طرق سمعهما عواء ثعلب وحيد قادم من جهة بعيدة. تواريا قليلاً في الشرفة، وما زالا يشعران بالدفء من جرّاء ذكرياتهما عن شمس النهار ومالا جنبًا إلى جنب نحو الجدار. والتصقت ثيابهما بظهريهما بسبب تعرّقهما.

ـ ينبغي لنا أن نكون واقعيين يا نرمال!

ـ ليست الواقعيّة نهاية المطاف.

ران صمت قصير، ومن فوق باكول وموكوندا كان هلال كثير البثور يبذل جهوده من أجل أن يخرج إلى سماء مجزّأة بغطاء من أوراق الشجر تنتشر فوق الشرفة. وكانت النجوم البيض والباردة والبعيدة تطعن

الأشجار. وعوى الثعلب من جديد، بصوت أقرب من ذي قبل، فتردّد صدى نداء بعيد. وكان في وسع باكول وموكوندا أن يسمعا صوت طنبورة أفضال ميان يتردّد عزفها الخافت قادمًا من مكان بعيد.

وانساب إلى سمعهما صوت كمال يقول:

ـ فكّر في الثمن. إنّه يتقدّم في العمر، ولكن أموال بابا المدوّنة في الوصيّة ظلّت على حالها. صحيح؟ لقد هبط علينا كالجراد وأتى على كلّ ما عندنا طوال هذه السنين. دعني أخبرك يا نرمال عن مؤسّسات جيّدة لأمثاله من الصبيان. وسيحلّون محلّنا. كما أنّ صداعنا سوف... أعني أنّ بابا كان هو المسؤول عنه على نحو ما، أمّا الآن فكيف...

ـ سأهتمّ به مهما كانت النفقات إضافيّة. ولسنا بحاجة إلى إبعاده عنّا بسبب المال.

بدأ صوت نرمال مقتضبًا وأشدّ حدّة من ذي قبل، وأضاف:

ـ لا داعي للقلق، مثلما أنّك لم تقلق حتى الآن.

قال كمال:

ـ أيّها الفتى العزيز، أنت تدري أنّ المال ليس هو الثمن الوحيد.

ـ دعني أخبرك أنّ العيش في هذا المكان والاهتمام بالغلام وبباكول ليس بالأمر الهيّن يا نرمال. فالفتاة بدأت تكبر، وبدأ هو يكبر أيضًا! قبل أيّام أصابني الهلع الشديد...

كان هذا صوت مانجولا التي تكلّمت بهدوء، فلم يستطع موكوندا ولا باكول أن يعرفا كيف أصاباها بالهلع الشديد.

ثم ارتفع صوتها من جديد:

ـ حسن جدًّا يا نرمال. قد تظنّ أنّهما طفلان ولكنّهما ليسا كذلك،

انظر إلى ما حدث هذا اليوم. . فهما لم يرجعا إلى المنزل حتى هذه اللحظة، والوقت متأخّر جدًّا، وليست لدينا أيّ فكرة عن مكانهما وعمّا يفعلان! وهما يتصرّفان على هذا النحو دائمًا. ربّما لا يساورك القلق، أمّا أنا فيساورني!

ترامى إلى أذانهما صوت نرمال عنيدًا:

ـ لا داعي للقلق، إنّهما صديقان منذ كانا في الرابعة والسادسة، وأنا أثق بهما، وهما مثل أخ وأخته.

قال كمال في صوت ينمّ عن صبر شديد:

ـ ولكنّهما ليسا بأخوين! وقد بلغ الاثنان من العمر الآن. . .

نخرت مانجولا:

ـ ولا يعرفان ماذا يفعلان حتى تقع الواقعة، وتحدث كارثة. وعندئذٍ كيف يتسنّى لنا النظر إلى الناس؟

شخصٌ ما وضع قدحًا، محدثًا صوتًا على الطاولة. اقترب موكوندا وباكول أكثر، وكان في وسع باكول أن تشعر بأنفاس موكوندا على وجهها، دافئة، تفوح برائحة الحلوى. كان الحديث يدور عن إرسال موكوندا بعيدًا عن البيت. وكانت الأصوات مفعمة بشرّ مستطير.

كان نرمال يقول:

ـ وعلى الرّغم من ذلك، فما زلت أؤمن أنّهما لا يدبّران أيّ شيء. صحيح أنّهما متأخّران في هذه الليلة. كلّ ما يحتاجان إليه هو قدر كبير من التوبيخ.

قال كمال:

ـ توبيخ! الغلام بحاجة إلى ضرب بالسياط، وهو يتظاهر بالانتماء

إلى طبقة أعلى من طبقته الاجتماعيّة. ثم إنّنا نحن الذين أفسدناه، فماذا تتوقّعون؟

قالت مانجولا:

ـ لقد مكثت في هذه الجبال زمنًا أطول ممّا ينبغي يا نرمال وليست لديك أيّ فكرة. فهل في الظلمة وحدها يتهيّأ الناس للمتاعب؟

لكن صوت نرمال كان عنيدًا:

ـ إنّ موكوندا جزء من هذا المنزل، وهو صديق باكول الوحيد، ولا يمكننا أن نتخلّص منه بهذه السهولة.

قال كمال:

ـ إذا لم تفعل شيئًا الآن، فسوف تندم عندما يكون لديك متّسع من الوقت. هذا ما أقول. لكنّها ابنتك!

صكّ سمع باكول وموكوندا صوت كرسي يُسحل من فوق الأرض ويؤخذ إلى الزاوية المعتمة من الشرفة. فتشبّث أحدهما بالآخر، أيديهما متعرّقة، يداهمهما خوف يمزّق أمعاءهما. وانساب إلى سمعهما صوت مانجولا وهي تقول:

ـ الأفضل أن أرى ماذا تفعل ميرا بالرزّ.

وهنا انسابت النغمات الأولى من صوت أفضال ميان الشجيّ مع أوتار طنبورته.

* * *

خرج نرمال إلى الحديقة ليتمشّى. كان المساء مرهقًا وشاقًّا. ففي البدء كان ذلك الجدال الطويل مع شقيقه وزوجة شقيقه، ثم أعقب ذلك تحمّله مسؤوليّة تأديب باكول وموكوندا بسبب اختفائهما. وكان رأي

كمال يقضي في ضرورة ضرب الصبي بعصا الخيزران ستّ مرّات. وكانت اللباقة والصبر في ثنيه عن عزمه أمرًا متعبًا.

أخرج سيكارة وهو يتنشّق عبق زهور الغاردينيا وسيّدة النور التي زرعها والده. ليس من ضرر في المنافسة على عطرها. وتمنّى لو تأتي ميرا إلى الحديقة، فقد مرّت أيّام طويلة جدًّا منذ أن تحدّثا آخر مرّة حديثًا حقيقيًّا على الرّغم من أنّ أحدهما كان يرى الثاني عند كلّ وجبة طعام.

تمشّى نرمال من حول المنزل ووصل إلى الجهة الخلفيّة منه، فشاهد ضياءً أصفر اللون يثير السأم وقد ألقى ظلاله على بقعة مربّعة من الظلام. اقترب منها ليلقي نظرة وقد ازداد فضوله. كان الضوء ينبعث من الحجرة الكائنة في ركن الفناء، وهي حجرة موكوندا. وشاهد من خلل النافذة موكوندا محدودبًا من فوق كتاب على مقربة من الشمعة يتتبّع خطًّا، وتتحرّك شفتاه من دون أن تصدرا أيّ صوت. كان قد خلع ثيابه سوى بنطاله القصير، فلمع جسده بسبب العرق من تحت ضوء الشمعة التي أظهرت تضاريس بدنه النحيف الغضّ بظلاله السود. لاحظ نرمال عضلات مرفق موكوندا وهو يُهوّي نفسه بدفتر تمارين. أمّا صدره الذي بانت من خلاله عضلاته ـ بسبب ما كان يبذله من جهد في أعمال ملء الدلاء بماء البئر، بحسب رأي نرمال ـ فكان يتضاءل تدريجيًّا ويستدقّ حتى يصل خصره الذي كان يُظهر خيطًا رفيعًا من الشعر. أمّا وجهه ففقد معظم ملامحه الطفوليّة وباتت عظام وجنتيه أشدّ بروزًا من ذي قبل، وازداد الأخدود عمقًا في ذقنه، والخطوط أكثر استقامة. عيناه وحدهما هما اللتان ما زالتا أشبه بعيون الفتيات برموشهما الطويلة.

قطّب جبينه فتغضّن بأفكار راودته، وعاد يجرّ قدميه إلى المنزل في تثاقل. وفكّر في نفسه أنّه لم يسبق له أن شاهد موكوندا بهذه الدرجة الشديدة من القرب. أمّا اليوم... فإنّه لم يستطع حمل نفسه على

الاعتراف بأنّ تعبه في تلك الليلة إنّما كان يأتي بسبب نقاش طوال المساء مع نفسه وليس مع مانجولا وكمال فحسب.

ارتقى السلالم المهجورة المؤدّية إلى السطح باتّجاه غرفته. وفكّر أنّه يستحقّ سيكارة أخرى، وشيئًا من شراب الرَّم بعد العشاء. وربّما تكون ميرا على الشرفة!

لكن عندما وصل الطبقة الأولى، استبدّت به الدهشة فاستدار إلى الغرفة التي تنام فيها باكول واختلس نظرة من الباب المفتوح فشاهدها مستلقية على السرير، شاحبة الساقين من تحت ضوء القمر المنبعث من الشرفة. كانت قد طرحت ملاءة السرير جانبًا نظرًا لحرارة الطقس، بينما انحشر ثوب النوم الذي كانت ترتديه قرب انتفاخ منحنى ردفها الذي أخذ يكتنز منذ عهد قريب، في حين كان شعرها الوحشي المنكوش يغطّي الوسادة.

وهنا تسلّل نرمال مبتعدًا.

* * *

في اليوم التالي، كانت ميرا تجلس في غرفة كانابالا محنيّة الرأس فوق مخطّط عندما جاءت الخادمة كالبانا من دون أن يعوقها أيّ إحساس بانشغال ميرا في عملها، وقالت:

- ناوليني قطعة الصابون، وأحضري الثياب للغسيل. لم يبق شيء في الفناء.

كانت كالبانا المتكاسلة والمترهّلة ذات صوت جهير ذي نبرات نفّاذة وتسريحة شعر معقودة كالكعكة وحاجبين مستقيمين سميكين. ومالت بكتفها من خلف الباب منتظرة ميرا، وقالت لكانابالا:

ـ كيف حالكِ أيّتها الجدّة؟ هل فكّرتِ بأيّ كلمات نابية مؤخّرًا؟ ما رأيك بعبارة «الحمار ذو الوجه الشبيه بالروث»؟ أو حتى عبارة «الزاني بأخته ذو الأنف الدهني»؟

تنفّست ميرا تنفّسًا عميقًا ولم تقل شيئًا، وواصلت رسمها القبّة المنتفخة ومسحت خطًّا كانت قد رسمته رسمًا غير صحيح.

رمقت كالبانا ميرا بنظرة غاضبة تنمّ عن دهشة شديدة، وقالت:

ـ آه يا أبي! الكلّ مشغول تمامًا في هذا اليوم، مشغول في رسم أشياء موجودة منذ مئات السنين، ماذا عن الناس الذين ينفقون جلّ وقتهم يتسكّعون هنا وهنا بين الآثار والمعابد؟ أعتقد أنّني لست مضطرة إلى غسل الثياب والاهتمام بالمنزل!

ثم مسحت وجهها بثوبها وجلست على الأرض تحدّق إلى ميرا التي تأرجح قلمها الرصاص من تحت نظرتها الساخرة.

ظهر موكوندا للعيان وتململ عند الباب، وقال:

ـ مانجولا تريدك في المطبخ.

فعبست ميرا بوجهه، وقالت:

ـ قل لها إنّني لا أستطيع الذهاب إليها الآن، فأنا مشغولة، ألا يمكنني أن أنجز أيّ عمل من أعمالي الخاصّة في هذا المنزل؟

قالت كالبانا في صوت ساخر:

ـ آ. . آه، عمل من أعمالك الخاصّة! لديك أعمال خاصّة بك كثيرة في هذه الأيّام!!

بدأ جبين ميرا يرتعش، ورأت الخادمة تنظر إليها نظرة استهجان، تقول شيئًا ما ولكنّها لا تقول ما يظنّه الآخرون، وهو أنّ ميرا خادمة

رائعة أيضًا، خادمة تحظى بقسط من التعليم، خادمة تتطلّع إلى أن تكون صاحبة الأمر والنهي، أرملة بدأت تحلم بمستقبل مستحيل.

دفعت كرسيّها إلى الوراء في قوّة وهي تنهض من مكانها حتى إنّه سقط، وسقط دفتر تخطيطاتها وقلمها الرصاص على الأرض من دون أيّ اهتمام. نظر موكوندا إلى وجهها ثم ابتعد.. وتطلّعت ميرا إلى كالبانا التي توقّفت في سرعة، وقالت:

ـ لا تكلّميني أبدًا إن كنت غير قادرة على الكلام بأدب. هل تفهمين؟

لكن قبل أن تتمكّن الخادمة من الردّ، قالت كاناباﻻ في صوت متهدّج:

ـ ومن تضاجعين يا ميرا في هذه الأيّام؟ من تضاجعين؟ من؟

استدارت ميرا نحو كاناباﻻ في هلع شديد، ولكن عينيْ هذه الأخيرة كانتا متواريتين من خلف نظّارة انعكست عليها أشعّة شمس الصباح. كانت ابتسامتها عذبة، من دون طقم أسنان صناعيّة، فكرّرت كلماتها بنبرة رتيبة تنمّ عن شرود ذهن، وهي تقرع إحدى علب السيّدة بارنوم المعدنيّة لمسايرة الإيقاع الموسيقي. فغرقت كالبانا في الضحك بينما اندفعت ميرا خارجة من الغرفة والدموع تترقرق في مآقيها. لم يعد في وسعها أن تعيش في سونغارة، يجب أن ترحل! وفكّرت أنّ أيّ مكان هو أفضل من هذا المكان. سوف تذهب إلى شقيقها وتتوسّل إليه أن يوفّر لها مأوى، وسوف تبحث لها عن عمل في إحدى المدن، أيّ عمل باستثناء هذا الكابوس.

هرولت إلى منتصف الغرفة وجلست على حافّة الفراش والألم المألوف يعاودها في منطقة الكتفين. لقد بلغ السيل الزبى، حياتها تغلي

وهي غير متنبّهة. وفكّرت في نفسها وهي تتذكّر قولاً من أقوال مانجولا: ماذا كنت أتوقّع عندما كنت أسكب الماء البارد من فوق الزيت الساخن؟ أفلا أحترق بفرقعاته؟

وبعد برهة وجيزة أدركت أنّ أنفاسها باتت تصدر صوتًا مزعجًا. وانتابها الذعر والهلع: أين صندوقي؟ أين صندوقي الذي كنت أضع فيه ثيابي عندما جئت إلى هنا؟ وبدأت الفكرة تتّضح مسبّبة غشاوة على تفكيرها، فنهضت وبحثت من تحت السرير، وجرَّبت البحث في الغرفة الطويلة. لم تستطع أن تتبيّن لونه الخردلي المألوف في خضمّ الأشياء المكدّسة هناك. فاندفعت ترتقي السلالم في اهتياج حتى وصلت شرفة العلّيّة، ولكنّها لم تعثر على الصندوق. وبينما هي تهبط السلالم، التقت كمال، وكان في طريقه إلى غرفته، فابتسم لها ابتسامته الجديدة التي ابتكرها لها خصّيصًا.

أسرعت ميرا في هبوط السلالم، يدها تنزلق فوق الحاجز. فرأت نرمال يصعد الدرج ويتوقّف عند فسحته ليسمح لها بالمرور. قال لها في صوت بدا مشوبًا بلهفة:

- إلى أين أنتِ مسرعة؟

ولكنّها لم تتوقّف إلّا عندما وصلت الباب فوضعت الخفّ في قدميها وخرجت. الهواء ثقيل الوطأة. هدوء يسبق سقوط المطر مدرارًا، فحثّت خطاها، وبعد أن ابتعدت مسافة عن المنزل، توقّفت ورنت ببصرها إلى السماء المكفهرّة.

وعلى حين بغتة شعرت بصفعة توجّهها الريح إلى وجهها. ازدادت الريح قوّة وداعبت ثوبها الساري، ومالت الأشجار الباسقة المنتشرة على حوافّ الحقول وقد بوغتت بعصف الريح وتجمّع الغبار في سحب

صفراء اللون واندفعت في اتّجاهها. فما كان منها إلّا أن غطّت وجهها بطرف ردائها وأغمضت عينيها نصف إغماضة. أمّا السماء الرصاصيّة من فوقها فدمدمت وتلوّنت بالبرق، في حين تألّقت أشجار الغالموهار بلون برتقالي صارخ مستقطبة العتمة.

شعرت ميرا بأولى قطرات المطر على ذراعيها، واشتمّت الرائحة العذبة للماء وهو يمتزج بالأرض اليابسة. انهمرت الأمطار في قوّة أكبر، فرفعت طرف ثوبها فوق وجهها ونظرت إلى السماء، مستقبلةً ماء المطر مغمضة العينين بعد أن تحوّل إلى مطر غزير. وكانت ثمّة أشجار أوى إليها بعض الناس وهم ينظرون إليها في دهشة.

شعرت ميرا إذّاك بشيء يتحرّر داخلها وتتتابع هطول المطر على وجهها وتغلغل في التربة القريبة منها، فاتّسخ ثوبها وعلت الأوحال خفّها. وفي أماكن أخرى، حيث لا يعرفها أحد، سوف تبدأ حياتها من جديد. سوف ترحل بأسرع ما تستطيع. سوف تسافر إلى مدينة كبيرة لا أحد يعرفها فيها، وستجد لها موضع قدم.

في هذه اللحظات بدأ هطول المطر يخفّ، تاركًا من ورائه رائحة الأرض المبلّلة التي محت ذكرى تلك الأيّام الغاضبة التي عرفتها من قبل.

* * *

لم تمرّ سوى ستّة أشهر منذ أن رجع نرمال إلى سونغاره وانقلب الهدوء الذي كان يعتقد أنّه ينبغي له أن يحافظ عليه في الأسبوعين المنصرمين، وحلّ محلّه قلق وانزعاج غاية في العمق. اتّكأ بمرفقه على حاجز سطحه مدخّنًا سيكارته الرابعة عشرة في ذلك اليوم، وأصغى إلى عزف بيانو السيّدة بارنوم الذي صكّ سمعه وهو في مكانه البعيد عنه،

فجاء عنيفًا وحزينًا ومتوحّدًا. كانت النغمات المدوّية مطمئنة، كانت صوتًا قادمًا من الماضي البعيد، منذ طفولته. وتمنّى لو كان قطعة من الأحفوريّات تستجيب لزمان جيولوجي، تحدث صريفًا وتتكلّس وتتصلّب وتتحوّل إلى حجارة أو قاع نهر، تتحوّل على مدى آلاف السنين من دم ولحم ونخاع إلى صخرة. الأفضل أن يكون قطعة أحفوريّة متحجّرة بدلاً من أن يكون إنسانًا عند قمة تطوّر جديد مؤلم يحدث كلّ يوم!

في السنوات التي مرّت منذ وفاة شانتي، أصبح معتادًا الوحدة والعزلة اعتيادًا أفقده القدرة، بل الحاجة تقريبًا، إلى الصداقة. واليوم، وعلى حين بغتة، أبلغته ميرا أنّها سترحل إلى شقيقها.

وكرّر نرمال:

ـ أترحلين؟

ـ نعم.

ـ ومتى ستعودين؟

ـ يريد أخي منّي أن أمكث معه، ويقول إنّ ثمّة مدرسة على مقربة من منزله، وإنّ بإمكاني أن أعلّم الرسم فيها، أو أيّ مادّة أخرى مشابهة. إنّ زوجته تشعر بوحدة شديدة، كما أنّ أمّي تريد أن أرجع إليها.

كانت ميرا قد لفّت جسدها بثوب الساري لفًّا ضيّقًا إلى حدٍّ ما، وسرحت ببصرها آخر مرّة إلى القلعة الأثريّة، وابتعدت عن الكلاب التي كانت متعلّقة بثوبها طامعة في طعام أكثر، مبتهجة أكثر لدى رؤيتها من جديد.

ـ لقد جئت للمرّة الأخيرة لرؤية الكلاب الصغيرة، لأنّني راحلة يوم غد.

قال نرمال:

ـ الكلاب تنتظرك مساء كلّ يوم، ولم تفهم سبب غيابك عنها، وظلّت تتطلّع إلى الدرب الذي تسلكين معتقدة أنّك ستأتين.

قالت ميرا:

ـ أعرف ذلك. كيف يمكنني جعلها تفهم؟ كنت أفكّر فيها أيضًا.. ولكن لم يكن حضوري ممكنًا.

وانفجر نرمال قائلاً:

ـ أنا لا أستطيع أن أفهم. لِمَ هذا القرار المفاجئ بالرحيل؟ ألا يمكنك البقاء مدّة أطول كي...

قاطعته ميرا في منتصف عبارته قائلة:

ـ ينبغي لي الذهاب. لقد عزمت على الرحيل.

وبدأت تبتعد عنه.. ولكنّها توقّفت لتقول:

ـ لو تمكّنت من إطعام الكلاب الصغار حتى تكبر...

راودت الأفكار نفسها نرمال نائمًا كان أم يقظًا. ما الذي تغيّر؟ هل اقترف غلطة تدفع بميرا إلى الرحيل؟ هل قال لها شيئًا ينمّ عن عدم اللياقة؟ هل كان تقديمه السمك لها لتأكله إهانة؟ لا على وجه التأكيد! هل هي خائفة من التقارب الذي نشأ بينهما؟

لم يكن ذاهلاً، محتارًا بشأن ميرا، بل كان عقله يتأرجح بينها وبين موكوندا، وشعر أنّه غير قادر على تحرير نفسه من كليهما. وتذكّر مرّات ومرّات.. المرّة الأولى التي ذهب فيها إلى ملجأ الأيتام الذي كان يسكن فيه موكوندا لأنّه لم يكن لديه أيّ شيء يفعله. وكانت تلك نزوة من نزوات صباح يوم شتائي بهيج، إذْ فكّر أنّه سوف يذهب لرؤية الصبيّ الذي ترك له والده المال في وصيّته، وعاد رفقة موكوندا البالغ ستّة أعوام.

فتحت مانجولا الباب لنرمال في عصر ذلك اليوم البعيد، وكان الصبي من ورائه، نحيف الوجه، تزيّن ذقنه رصعة. وكان دهني الشعر واسع العينين تشعّان بحبّ الفضول، وله رموش طويلة ملتوية مثل رموش الفتيات. كان يرتدي قميصًا أزرق اللون بدا وكأنّه قميص شخص أكبر سنًّا منه بكثير. أمّا بنطاله فكان يصل إلى تحت ركبتيه.

وكان نرمال قد أوضح القول:

ـ هذا هو موكوندا. لقد أتيت به إلى المنزل.

واستمرّ الجدال يومين أو ثلاثة أيّام بشأن الاحتفاظ بموكوندا أم لا. ورفض نرمال أن يرضخ آنئذٍ. فالصبي طيّب القلب لا يليق به ملجأ الأيتام، فقد كان التعليم فيه بائسًا والإطعام فقيرًا، فضلاً عن الضرب الذي يتلقّاه اليتامى إذا ما سوّلت لهم أنفسهم بالتمرّد. على أيّ حال، كان والدنا يرغب في أن نرعاه ونهتمّ به، ولا بدّ من منحه مكانًا ومنحه حياةً.

وارتعش صوت مانجولا في هيجان:

ـ ماذا؟ في غرف نومنا؟ هل تعلم الطبقة المنبوذة التي يتحدّر منها؟ قد يكون من أيّ طبقة، وقد يكون مسلمًا. أنا شخصيًا لا أتحمّل ذلك. يا إلٰهي! يا إلٰهي!

لكن نرمال أصرَّ قائلاً:

ـ لن أعيده إلى الملجأ. يمكنه البقاء في غرفتي.

ـ غرفتك؟ تلك الغرفة في منتصف الدار. لن أسمح بمثل هذا الشيء.. لن أسمح.

ثم توصّلا إلى تسوية. فالصبي سيمكث وإيّاهم، ولكن في المبنى

الخارجي المنفصل عن المنزل. وعندما سأله نرمال إن كان سيشعر بالخوف، ردَّ موكوندا مبتسمًا ابتسامة مشرقة: أنا خائف؟ أنا لست خائفًا من أيّ شيء!

وها هو موكوندا الآن مضطرّ إلى الرحيل، وربح كمال ومانجولا المعركة الطويلة.

وفكّر نرمال أنّ إحضار موكوندا إلى المنزل كان نزوة، والآن يتعيّن عليه إخراجه من البيت بالدرجة نفسها من العشوائيّة. المؤكّد أنّ في وسعه أن يخفي السبب الحقيقي عن موكوندا، فيتذرّع بذريعة إرساله إلى مدرسة جيّدة في كلكتا، وأنّه سوف يهتمّ بتلبية احتياجاته وتأمين راحته ورفاهيّته. وسوف يخبر موكوندا أنّ سفره لمصلحة مستقبله ولتوسيع أفق عالمه ومنحه فرصًا جديدة.

لكن نرمال لم يستطع أن يخفي السبب الحقيقي عن نفسه. فقد أتى بالطفل عندما كان ذلك مناسبًا له. أمّا الآن فلم يعد وجوده مناسبًا بين ظهرانيهم بعد أن كبرت باكول.

استمرّ نرمال في التدخين المتواصل من دون انقطاع وظلّ يذرع الشرفة جيئة وذهابًا، وراوده حنين إلى ذلك الزمن الذي سبق عودته إلى سونغاره، عندما كان ينام في أرجوحته المعلّقة في المخيّم، لا يفصله شيء عن السماء الشاسعة سوى قماش خيمته، بعد أن يكون التعب قد هدَّه من جرّاء العمل المتواصل أثناء النهار وتحت الشمس حتى أصبح لا يقوى على التفكير أو القلق أو حتى الإحساس بأيّ شيء.

وفكّر أنّ كلّ ما كان يريده في تلك الأيّام هو دراسة الزلازل الأرضيّة، لا أن يكون سببًا لها.

* * *

كانت ميرا مستعدّة للرحيل، فقد جمعت كلّ حاجياتها ووضعتها في صندوق أمتعتها الذي كانت جلبته معها عند وصولها. وكان المقرّر أن يغادر قطارها بعد ساعة واحدة في حين ذهب موكوندا لإحضار عربة لتنقلها إلى المحطّة. وتنقّلت ميرا في غضون ذلك بين غرفة وأخرى لتتأكّد من أنّها لن تغفل عن أيّ شيء ضروري ولم تأخذه.

وفجأة شعرت بأحدهم يلمس ذراعها، فالتفتت وهي تكتم صرخة. قالت مانجولا:

ـ ماذا حدث؟ حسبي أنّني أردت أن...

جلست مانجولا على أقرب سرير في قوّة محدثة صوتًا وقالت:

ـ آه يا أختي! لقد أفزعتني.

وهنا تذكّرت لمسة يد كمال على ظهرها التي لم يمرّ عليها وقت طويل.

نظرت مانجولا من فوق منكبها لتتأكّد من أنّ أحدًا لا يسترق السمع، وأخرجت صرَّة صغيرة من خصرها وفتحتها ومدّت يدها بها إلى ميرا.

ـ ما هذا؟

قالت مانجولا:

ـ حسبك أن تحتفظي بها، فأنت لا تعرفين متى تجدين نفسك في حاجة إلى مساعدة. المرأة تحتاج دومًا إلى شيء ما تستند إليه.

فتحت ميرا الصرّة فرأت فيها سلسلة ذهبيّة سميكة وست أساور، وشعرت بثقل وزنها في يدها وهي تأتلق في الغرفة المعتمة.

وقالت:

ـ لا يمكنني، لا يمكنني أن آخذ هذه الأشياء.

قالت مانجولا في همسة عاجلة:

ـ لا تثيري أيّ ضجّة ولا تتفوّهي بكلمة، فأنا لم أخبر أحدًا عنها. كلّ ما عليك هو أن تحتفظي بها في سرعة. الذهب هو والد المرأة وزوجها عندما لا تملك أيّ أبوين أو زوج. انظري! ها هو موكوندا يرتقي الدرج.

ثم ضغطت على يد ميرا في قوّة.

راقبتها ميرا وهي تنصرف وتألّمت لأنّها كانت واثقة بأنّ مانجولا تعرف كلّ شيء. لا بدّ أن تكون قد عرفت. لا بد أنّها عرفت ما فعله زوجها.

لكن لم يكن ثمّة متسع للتفكير، فقد جاء موكوندا رفقة العربة. وبينما هي تستقلّها، سرحت ببصرها إلى الخلف حيث المنزل، فبدأ لها أصغر حجمًا، أو لعلّ الأشجار نمت وكبرت عمّا كانت عليه لمّا جاءت أوّل مرّة إلى هذا المكان وعاشت فيه طوال هذه السنين. وشاهدت الطلاء وقد بدأ بالاسوداد هنا وهناك، كما رأت شجرة تين مقدّسة وقد أخذت ترسل أوراقها من بين صدع في الطبقة العليا وعلى مقربة من الحاجز الذي طالما مالت من فوقه مرّات ومرّات لتنظر بعيدًا نحو الأطلال. وتساءلت إن كانت ستراها مرّة أخرى مثلما تساءلت إن كانت تشعر بالحزن أو الخوف أو الارتياح!

وفي الجهة المقابلة للمنزل، فُتحت نافذة محدثة صريرًا في منزل السيّدة بارنوم، وانساب إلى المسامع صوت ينادي:

ـ وداعًا يا ميرا! ونأمل في عودتك إلينا بين وقت وآخر.

ثم أغلقت النافذة في قوّة، ولم يفسد هدوء عصر ذلك اليوم سوى صوت دجاجة.

* * *

اتّخذت ميرا مقعدها في القطار ورنت إلى موكوندا وهو يمشي متثاقلاً على رصيف المحطّة، ليس لديه ما يقول ولكنّه على الرّغم من ذلك لا يطيق الانصراف حتى رحيل القطار. وفكّرت في أيّ مهمّة تكلّفه بها ليذهب وينجزها أثناء الانتظار، ولكنّها لم تجد شيئًا معيّنًا، فالمحطّة ليست كبيرة ولا تحتوي على كشك لبيع المجلّات، فضلاً عن أنّها أحضرت طعامًا معها. وفي كلّ مرّة كانت تقول له فيها:

ـ لا تنتظر يا موكوندا، وارجع إلى البيت!

كان يبتسم ويردّ:

ـ ماذا أفعل هناك يا ميرا؟ سوف أراقب قطارك وهو يرحل.

كان الناس يتدافعون من حوله، وتنبّهت إلى أنّه يبدو أكثر نحافة خارج المنزل، أو ربّما، وهذا ما فكّرت فيه، لم تكن تنظر إليه نظرة متأمّلة على مدى كلّ هذه السنين الطويلة. كان يرتدي قميصًا أزرق اللون، كبير الحجم، وعلى مقربة من كتف القميص ثمّة موضع مرتوق في عجالة، وشعرت ميرا بأمعائها تتلوّى لدى رؤيتها هذا الرتق. لا بدَّ أنّه هو الذي عمد إلى رتق قميصه بنفسه، هذا القميص القديم والبالي. وتمنّت في تلك اللحظة لو اشترت له بعض الثياب قبل رحيلها. كان في الآونة الأخيرة مكسور الخاطر، وخفّت حدّة تحمّسه في الأيّام القليلة الماضية. لقد ذهب به الأمر إلى حدّ أنّه توقّف عن اللعب مع باكول منذ أن تناهى إلى سمعه خبر رحيله القريب من البيت إلى المدرسة الجديدة في كلكتا.

والآن، تشاهده يشيح بنظراته عنها وهو واقف مرتديًا قميصه المهلهل يقتفي أثر القاذورات في رصيف المحطّة بخفّةٍ. أرادت أن تصل إليه وأن تطوّقه بذراعيها.

وقالت:

ـ جئت أنا وأنت إلى هنا، إلى المنزل في السنة نفسها، وها نحن الآن نغادر طمعًا في أشياء جديدة في السنة نفسها أيضًا. سوف تلتحق بمدرسة، مدرسة كبيرة، وسوف تشاهد مدينة كبيرة وتصبح متعلّمًا عن جدًا! وسوف نلتقي من جديد. صحيح؟

ثم مدّت يدها من نافذة القطار لتلمس وجنته، ولكنّ القطار بدأ يتحرّك، فصاحت في صوتٍ عالٍ:

ـ اهتمّ بنفسك يا موكوندا!

وشعرت بالعبرات تخنق أنفاسها لا تعرف أنّها بدأت تبكي حقًّا من بعد أن فاضت عيناها بالدموع. وأضافت:

ـ تعال لزيارتي في أيّ وقت. تعال في أقرب وقت..

هرع نرمال إلى محطّة القطار بعد فوات الأوان بدقيقة واحدة، ولم يشاهد سوى وجه ميرا من وراء قضبان نافذة القطار وهو يبتعد عن الأنظار.

* * *

بعد مرور نحو أسبوعين، وصلت المنزل عربة أخرى، وكُدّست فيها مجموعة مختلفة من الأمتعة، وانطلق نرمال وموكوندا إلى محطّة القطار والعربة تثير من ورائها سحابة غبار. وبعد رحيلهما، عادت باكول أدراجها إلى المنزل وتوقّفت أمام البئر وقرب شجرة المانغو.. ركلت حصاة في اتّجاه حجرة موكوندا القديمة، ولم تستطع دخولها نظرًا للعذاب الذي سيحلّ بها لدى رؤيتها خاوية. ثم عادت أدراجها ثانية ودخلت المنزل، وتنقّلت من غرفة إلى غرفة متقطّعة الأنفاس لهول

إدراكها أنّها لن تجد موكوندا. عندما يموت الناس، فإنّك لا تشاهدهم مرّة أخرى. فهي لم يسبق لها أن رأت أمّها قطّ - لهذا لم تشعر بأيّ ألم. لكن معرفتها أنّ موكوندا ليس ميتًا وأنّه على قيد الحياة وأنّه يبتعد عنها عند كلّ دورة من دورات عجلات العربة، إنّما هو العذاب بعينه. ولم تستطع أن تتخيّل أنّه حيّ ولكنّه بعيد في عالم آخر مختلف لا يمكنها تصوّره، وأنّه يصادق آخرين لا تتمكّن من معرفتهم، متناسيًا أمرها في المستقبل القريب، من دون أن يفكّر فيها أيّما تفكير، كما لا يمكنها أن تتصوّر أنّه سوف يبدأ في نسيانها ونسيان شكلها، وأنّها لن تسمع صوته كلّ يوم قريبًا من أذنيها، وأنّ اليوم قد يكون يومًا اعتياديًّا فحسب، مثل أيّ يوم آخر، على حين أنّهما كانا يتمشّيان في الحديقة ويمارسان اللعب ويتجاذبان أطراف الحديث. لم تتصوّر أنّ مناداتها بصوت عالٍ «يا موكوندا»، في اتّجاه البئر أو غرفته، لن تلقى ردًّا منه.

تنقّلت باكول من غرفة إلى أخرى محاولة أن تكتم صرخة تزداد حدّة في أعماقها. لن تبكي ولن تمنح الكبار هذا الارتياح ولن تكلّم والدها من جديد. ألم يكن في وسعه في الأقلّ أن ينتظر حتى حلول عطلة مانوهاربور الموعودة قبل أن يُبعد موكوندا؟ تذكّرت أنّ والدها قال بأسلوبه غير المتأثّر بشعوره الشخصي: «لا، فالحفريات قد بدأت ولا أستطيع التمتّع بأيّ عطلة في الوقت الراهن. وينبغي لي التوجّه إلى كلكتا في الأسبوع المقبل من أجل أمور تخصّ العمل، وفي هذه المرّة سوف أصطحب موكوندا وحده، وفي إمكاننا الذهاب إلى مانوهاربور في وقت لاحق. سوف نذهب معًا، فهذه ليست هي المرّة الأخيرة التي سترينه فيها يا باكول. كوني عاقلة».

صحيح؟ كانت تعلم أنّها المرّة الأخيرة، وكانت تعلم أنّها لن تراه مجدّدًا. وإذا ما رأته، فلا بدّ أن يكون الأمر مختلفًا. وكان موكوندا

يدرك هذا الشيء أيضًا وإن لم يقل أحدهما أيّ كلمة في ذلك الصباح عندما استلقيا فوق العشب في الحديقة. وكان القصب والشوك قد انغرز في ثوب باكول وكذلك قشور الثمار الشوكيّة، وبذل موكوندا قصارى جهده لينزعها عنها، ولكن من دون جدوى! وقرّرت ألّا تغسل الثوب الذي أنفقت ذلك الصباح مع موكوندا وهي مرتدية إيّاه، سوف تحتفظ به كما هو، في ركن من أركان خزانة ثيابها، وسوف تذكّرها الأشواك به.

لاحظت شيئًا ما من فوق حافّة النافذة في غرفة الدرس، فالتقطته. كان نايًا رفيعًا وطويلاً من الخيزران. إنّه ناي موكوندا الذي كان اشتراه من معرض سونغاره قبل بضعة أعوام. وتعلّم كيف يعزف بعض الألحان الغريبة والقصيرة.. ولكن كيف نسي أن يضعه في صندوق أمتعته الجديد مع ثيابه الجديدة؟

جلست باكول على حافّة النافذة وربتت على الناي ومرّرت أصابعها على حافّاته الناتئة وفوق ثقوبه. ثم قرّبته من شفتيها كأنّها تريد العزف عليه، ولكنّها بدلاً من ذلك رفعته إلى أعلى وضربت به كفّ يدها المفتوحة ونظرت إليها وضربتها ضربة ثانية وثالثة ورابعة وكأنّها في غيبوبة إلى أن احمرَّ لونها وتقرّحت وجُرحت.

* * *

القسم الثالث

حافّة الماء

واحـــــد

هتف أحد رجالي متعجّبًا:

ـ انظر! هيكل عظمي!

على الرّغم من كثرة مشاغلي، وكثرة المباني التي كنت أشيّدها، فإنّني كنت أزور موقع كلّ مبنى في أوّل يوم من أيّام الحفر. في ذلك اليوم، كنت جالسًا على كرسي حديدي يُطوى في موقع البناء، تظلّلني من فوقي مظلّتي المألوفة، الكبيرة والسوداء التي شحبت وتهلهلت إلى الحدّ الذي كانت فيه الشمس تنساب من بين ثقوبها المتعدّدة وكأنّها مملّحة، كنّا في الأسبوع الماضي قد رفعنا آخر ما تبقّى من الأنقاض من القصر المتداعي الذي هدمناه، وبدأنا العمل في وضع أسس مبنى جديد. وكنت أجادل مدير العمل بشأن بعض التفاصيل في الحسابات عندما سمعت صوت العامل يصكّ مسامعي قائلاً:

ـ انظر! هيكل عظمي!

وبعد هنيهة، سمعت صوت عامل آخر ينخر خائب الأمل:

ـ هه! إنّه كلب أو هرّ. استمرّ في العمل يا ناندو.

سرحت ببصري إلى الأرض المضطربة، فرأيت بين مجموعة جذور نباتات بريّة هيكلاً عظميًا مائلاً إلى اللون البنّي ومحفوظًا حفظًا جيّدًا تقريبًا لما يمكن أن يكون كلبًا من الكلاب ومعه بقايا دثار صوفي وطبق من الألمنيوم، لا بدَّ أنّه كان يأكل منه طوال حياته. جلست فوق صخرة قريبة من القبر وقد تملّكني حزن لا حدود له على مصير الكلب الذي لم يسبق لي أن عرفته وعلى الأسرة التي دفنت الطبق والدثار معه، لأنّها لم تطق تحمّل إبعاد الكلب عن حاجيّاته. ومن غير ما سبب، فكّرتُ في الأطفال الصغار الذين ربّما كانوا يثبون من حول الكلب في حديقة ذلك المنزل الزائل.

ثمّة بيت أعرف حديقته وكلّ شجرة فيها ومعه السلالم المثلومة وإحدى نوافذه التي يتعذّر غلقها. وسألني ذات مرّة طبيب العيون:

ـ هل تتداخل الأجسام الغريبة في رؤيتك؟ ذرّات سود طافية؟

وفكّرت: ليست الأجسام الغريبة ولا البيوت هي التي تتغلغل في دمي!

وبعد برهة وجيزة، سألني أحد العمّال:

ـ هل نستأنف العمل يا بابو؟

يبدو لي أنّ مشهدي أثار دهشته وأنا جالس فعلاً وسط القاذورات وعلى مقربة من قبر الكلب!

لم أستطع تخيّل جرف الكلب وحاجياته مثلما نجرف بقيّة الأنقاض

ونرفعها يوميًّا ونكدّسها في الشاحنات، والتخلّص منها في مكان بعيد.

تعيش الآن عشر أسر في طبقات الواحدة من فوق الأخرى، ومن فوق هذه العظام والطبقات التي دفنتها كلّها في أعماق الأسس. طبيعي أنّهم لا يعرفون شيئًا عنها، فالهياكل العظميّة لا مكان لها في الشقق الحديثة.

الناس يخشون الأشباح في البيوت القديمة. أعرف أنّ البيوت الحديثة هي المسكونة بأشباح البيوت المنهارة التي شيّدت من فوقها. فالبيوت القديمة لا تتلاشى، بل تظلّ متوارية عن الأنظار، متداعية وعفنة، غرفها المحتشدة بنسيج العناكب، ما تزال تتأمّل في زوايا المطابخ الحديثة اللامعة والحمّامات الرخاميّة، وما تزال أيضًا حدائقها وآبار سلالمها شاخصة في مكان ما في مصاعد البيوت.

على الرّغم من مهنتي، فإنّني لو ترك الأمر بيدي لأبقيت المنازل القديمة على حالها وعلى النحو الذي أتذكّرها من دون أيّ تغيير. ومن شأن الأرضة أن تدوّن قصصها على امتداد السقوف والجدران فتسجّل خطوطها المتعرّجة سقوطَها الحتمي. وفي الوقت الذي تأتي الأرضة على البيوت، وتعيدها إلى الأرض، فإنّ دورة طبيعيّة تكون قد اكتملت.

أعرف كلّ شيء عن البيوت والمنازل، أنا الذي لم أملك يومًا منزلاً.

أنا موكوندا، وهذه هي حكايتي.

* * *

للآخرين من الناس حكاياتهم الخرافيّة أو الملفّقة عن أسمائهم. فقد يقولون إنّ جدّي كان يطلق عليَّ ناشيكيتا ولكن أبي غيَّره إلى الاسم آرجون. لا اسم لي. مَن الذي أطلق عليَّ اسمًا؟ لماذا أسموني باسم

هندوسي؟ ليست لديّ أجوبة عن هذه الأسئلة. ربّما كان بابو أموليا الذي قيل لي إنّه هو الذي وضعني في ملجأ الأيتام الذي يشكّل بواكير ذكرياتي عن العالم، هو الذي منحني هذا الاسم ارتجالاً عندما طلب منه ملء الاستمارة الرسميّة. وربّما كانت أمّي، بصرف النظر عمّن تكون، فكّرت دومًا أنّها إذا ما رُزقت بطفل ذكر فسوف تسمّيه موكوندا.

وللناس حكاياتهم وقصصهم عن ملامحهم الجسديّة. فهم بعد أن يكونوا قد بلغوا من الكبر عتيًا، ما زالوا يتجادلون في كونهم يتمتّعون بأنف يشبه أنف أبيهم أو ذقن يشبه ذقن أمّهاتهم. وهل هم طوال القامة لأنّ جدّهم كان طويل القامة؟ وهل يرث أطفالهم من بعدهم نزوعهم إلى الجنون أو الصلع؟ أنا شخصيًا لا أمتلك كلّ هذه الأشياء. أعترف أنّني أنفقت بعض السنين من طفولتي أحدّق إلى الغرباء المحيطين بي، متسائلاً في عجب إن كانت خارطة وجوههم ستبين لي الطريق إلى والديَّ المفقودين. ولكن تساؤلي لم يدم طويلاً. فمن بين الأولاد الذين لديهم آباء وأمّهات، أحسست أنّني أحظى بإحساس من الحرّيّة وأنا أتقدّم في العمر. فالأولاد الذين كانوا في مثل سنّي، لديهم مئات الأشياء المحرّمة عليهم. أمّا أنا فليس لديّ شيء واحد محرَّم عليَّ. ففي وسعي أن أصنع بنفسي ما أشاء، لأنّني بلا طبقة اجتماعيّة وبلا دين، وهما أمران يثيران قلق بقيّة سكّان العالم. وشعرت أنّني متحرّر من عبء الجذور، ومن عبء الانتماء لأيّ شخص.

* * *

في المدرسة كنت أنا وصديقي عارف نمارس الشدّ والجذب من على أغصان شجرة المانغو، فأصبح لديّ منكبان عريضان وبات هو أطول قامة. وإذا كان شعره قد أضحى خفيفًا، فإنّه على الرّغم من ذلك كان مفتول العضل فيبدو قويًا جدًّا مثل ملاكم قصير القامة أصلع الرأس،

لكن إذا أردنا الحقّ، فهو غاية في الرقّة واللطف، هادئ الأعصاب، مفرط في الحساسيّة لا يطيق سحق صرصور تحت خفّه. كنّا صديقين لأنّنا لامنتميان: فأنا ريفي، بلا طبقة اجتماعيّة وبلا مال. أمّا هو فكان مسلمًا. كنت أطول قامة من عارف، ولهذا راقني السير إلى جانبه وكنت أمشّط شعري إلى الخلف في لفّة غير مضغوطة؛ حزامي الجديد بإبزيمه الذي يمثّل الحيوان الأحادي القرن يلمع من حول خاصرتي. كنت أملك قميصين فضفاضين من القطن الأبيض أرتديهما مشمّرًا عن ساعديّ، وكنّا نتسكّع على امتداد شورنغي نختلس النظرات إلى الفتيات الهنديّات من أصل إنكليزي وهنّ مرتديات تنّورانهنّ، نتساءل متعجّبين كيف نبدأ حديثًا وإيّاهنّ. وعلى الرّغم من مظهرينا اللذين يشيران إلى أنّنا من أبناء المدن، إلّا أنّنا كنّا غاية في الخجل والتوتّر لا نقدر على البدء بالكلام. وأشعلنا سكائرنا ونحن نشعر أنّنا تحت الأنظار عندما ننفث الدخان. حاولنا أن نبدو منهكين، ولكنّنا حدّقنا في انشداه إلى كلكتا وكأنّها مدينة أجنبيّة.

وبلغنا عيدي ميلادينا الثامن عشر على هذا النحو، وكان هو يعرف اليوم والشهر، أمّا أنا فاليوم والشهر الذي أرغب فيه. كان العام هو ١٩٤٥، وكنّا قد أنهينا معًا الدراسة المتوسّطة ولكنّني لم أكن أملك فكرة واضحة عن المستقبل، لكن عالم العمل وتوفير المال بدأ يومئ إليّ مثل سحر. فقد أنفقت حياتي وأنا أعيش على الصدقات، ولم أكن أدرك ذلك في السنوات الأولى من حياتي في ملجأ الأيتام، ولكنّني شعرت بها في الأعوام القليلة التالية في أسرة بابو نرمال شعورًا حادًّا وكأنّها بثرة تحكّها على الدوام حافّة خفّي الخشنة. ولكنّني وطّنت نفسي في سنّ الثامنة عشرة على عدم الاعتماد على أيّ شخص أبدًا. كنت أعلم أنّ بابو نرمال يريدني أن أكمل دراستي، غير أنّني كنت أدرك أيضًا أنّني لا

أرغب في ذلك. فما إن حصلت على عمل، وإن كان عملاً كتابيًا قليل الأجر في مدبغة حتى توقّفت عن جمع الفائدة المتراكمة على حساب التوفير الثابت لبابو نرمال. فكتبت رسالة مقتضبة إلى بابو نرمال أخبرته فيها أنّني نجحت، وأنّه غير مضطرّ إلى إرسال مالٍ إضافي بعد الآن. وتخلّيت عن حجرتي في القسم الداخلي للطلبة من دون أن أترك عنوانًا للمراسلة.

قطعت كلّ الأواصر التي كانت تربطني ببلدة سونغاره، وأمسيت الآن وحيدًا في العالم. ما من ملّاح وحيد وسط السحاب ولا متسلّق جبال على قمّة جبل يمكنه أن يشعر بذلك الخليط من مشاعر الدوار والبهجة التي غمرتني.

* * *

بعد أن أنهيت دراستي في المرحلة المتوسّطة بدأت أبحث عن سكن ووجبات طعام. وقهقه الفتيان في القسم الداخلي قائلين: يجب أن تبحث عن زوجة، زوجة ثريّة، ألست أنت بالعريس المقبول يا ابن الزنى الذي لا ينتمي إلى طبقة؟ كان عارف يوشك أن يرحل عن كلكتا على أثر حصوله على وظيفة محاسب لواحد من أقربائه الأثرياء، وكان يملك مصنعًا للنسيج في مدينة لاهور. قبل يومين من سفره، خرجنا نتمشّى طويلاً أنا وهو على امتداد شوارع كلكتا، واتّجهنا من دون هدف إلى البيت الذي كان نزيلاً فيه. كان ذلك النهار هادئًا ولكنّ السحب الثقيلة أخذت تتراكم، وبين حين وآخر يلمع البرق في طول السماء وعرضها، ويصكُّ سمعنا هدير الرعد قادمًا من مكان بعيد بعد برهة وجيزة. كنّا قبل الآن قد تسكّعنا في مروج الميدان وتناولنا طبقًا من الكباب والخبز الفطير في الشارع في منطقة دارامتولا، وذهبنا بعدئذٍ إلى شارع الكلّيّة. وقف عارف ينظر إلى واجهة إحدى المكتبات الزجاجيّة في حين وقفت

في مواجهة الشارع. وأنا أخاطبه قائلاً:

ـ أسرع، أعتقد أنّ السماء سوف تمطر.

في تلك اللحظة شاهدتهما واقفين على الرصيف المقابل. كان بابو نرمال يحمل حقيبة من قماش في إحدى يديه، وجهه أشدّ نحولاً ممّا يمكنني أن أتذكّر، وشعره يمتدّ مسافة أكبر من فوق جبينه. وكانت بجانبه فتاة لا بدّ أنّها باكول. كانت مظهرها يشبه مظهر باكول باستثناء ثوب الساري الذي كانت ترتدي، والذي لم يسبق لي أن رأيتها ترتدي أيّ ثوب ساري ـ لو التفتت قليلاً إلى اليسار لتمكّنت من رؤية وجهها. سرحت ببصري إليهما من وراء زحام المرور والناس. وتمنّيت لو أنّها استدارت إليّ. كلّ ما ينبغي لي أن أفعله هو عبور ذلك الشارع، المزدحم بالسيّارات المارّة والناس المتعثّرين في غدوّهم ورواحهم فأصبح قريبًا منهما وأقول: «بعد كلّ هذه السنين!» ولكن كيف يمكن أن أكون قد رأيتهما ولم يرياني؟ كانا ينظران بعيدًا في اتّجاه نهاية الشارع الأخرى. أحيانًا، كان أحدهما يكلّم الآخر. ونظر بابو نرمال إلى ساعته.

التفتُّ إلى عارف.

ـ اذهب أنت إلى منزل العمّ سليمان، أمّا أنا...

كنت ما أزال أرى رأس بابو نرمال الطويل بارزًا في وسط الزحام إلى الجهة الأخرى من الشارع، وكانت ثمّة لوحة مائلة يعلوها الصدأ معلّقة من فوق رأسه عن كريمة خاصّة بالبشرة، وكان الوجه الوردي للفتاة الظاهرة على اللوحة قد أخذ يتلاشى. وكان من ورائه صفّ من مكتبات، وكتب تخرج منها وتوضع على الرصيف. بدأت في عبور الشارع ولكنّني توقّفت كي أسمح لعربة ترام بالمرور، فوجدتها تقف

أمامي مثل جدار، فصببت عليها اللعنات لوقوفها في ذلك المكان في تلك اللحظة بالذات. وفكّرت في سذاجة أنّها توقّفت من أجل الركاب.
ها هما ـ بابو نرمال وباكو ـ ينظران إلى الجهة الأخرى، منتظرين عربتهما، وها هي قد وصلت الآن. هرولت عندما بدأت بالسير، واستطعت أن أتبيّن من الخارج بابو نرمال يمشي متثاقلاً في الجزء المخصّص للذكور باحثًا له عن مقعد شاغر، في حين كان وجه باكول في الجزء المخصّص للإناث على بعد أقدام قليلة من وجهي. فتحت فمي لأناديها، ربّما ناديتها، إذْ بدا أنّها اختلست نظرة سريعة إلى الخارج وكأنّها تبحث عن شخص ما، بيد أنّ العربة بدأت تسير، فسرحت باكول بنظرها بعيدًا وتراجعتُ بدوري!

قال عارف وهو يرمق عربة الترام المبتعدة بنظراته:

ـ ٢٣ أ. لماذا لم تنادني. كانت العربة في الاتّجاه المؤدّي نفسه إلى منزل العمّ سليمان... إيه يا موكوندا! هل تسمعني؟ تبدو وكأنّك شاهدت شبحًا.

غمغمت:

ـ لا شيء. إنّنا في الجانب الآخر من الطريق، ولم يكن في وسعنا اللحاق بالعربة حتى لو ركضنا.

كانت غريزتي هي التي دفعتني إلى الاندفاع نحوهما، ولكن تلك اللحظة التي كانا فيها خارج عربة الترام، أشاهدهما من دون أن يقدرا على مشاهدتي، متسائلاً في عجب إن كانا غير راغبين في رؤيتي، الأمر الذي أثار في أعماقي تلك المرارة والألم بسبب الأسلوب الذي أُبعدت فيه عن حياتهما.

* * *

كان العمّ سليمان هو ربّ المنزل الذي ينزل فيه عارف. وكنّا نناديه بالعمّ سليمان احترامًا وتقديرًا لكبر سنّه. وعندما وصلنا منزله بعد أن أمضينا نهارنا في التجوال، وجدناه يقرأ في صحيفة وببغاؤه يقضم في كتفه. كان وجه العمّ متواريًا عن الأنظار من خلف صحيفة ستيتسمان، ولكنّني أحسست بعينيه المسلّطتين عليَّ بين حين وآخر. وعندما أوشكت أن أنصرف تكلّم، وقال إنّهما سوف يشعران بالوحدة من دون عارف وأنّ البيت كان يضمّ على الدوام نزيلاً. فقبل عارف كان ثمّة نزلاء، هل يروقني السكن في غرفة عارف؟

كان متردّدًا. خرجت الكلمات متعثّرة وتوقّفت بيننا وازداد الصمت. إنّه مدَّعٍ، إذْ ربّما كنت الصبي الوحيد من صبيان المدرسة الذي يزور عارف في البيت ويتناول الطعام وإيّاه فيه. الزيارة عادة سيّئة، وأمّا السكن، فهو الأسوأ، إذْ لم يسمع أحد من قبل عن هندي يعيش في بيت أسرة مسلمة خاصّة في تلك الأيّام عندما كان الناس لا يتكلّمون إلّا عن احتمال تقسيم البلاد إلى قسمين للهنود والمسلمين، الهند والباكستان. وإذا ما حدث ذلك، فأيّهما سأختار؟ فأنا شخصيًّا لا أميل كثيرًا إلى الهنود أو ما أشبه ذلك على وجه الخصوص، لا سيّما أنّ جذوري موضع تكهّنات وهرطقة. وعوضًا عن ذلك لديّ عرض بمأوى يحميني. ممّا لا شكّ فيه أنّني بدأت أبتسم لأنّني رأيت العمّ يبتسم لي أوّلاً ولعارف ثانيًا الذي ضربني على كتفي وقال:

ـ إنّه ليس بيت الطلبة. عليك أن تتمدّن يا موكوندا!

وهكذا عرض عليّ العمّ سليمان بيتًا في وقت كنت سأصبح فيه مشرّدًا بلا مأوى. هل تراه فكّر في حاجتي لأنّه شعر أنّه سيصبح بدوره مشرّدًا في القريب العاجل؟ هل كان يعلم أنّ الدهماء سوف يجوبون الشوارع في العام المقبل لممارسة القتل، وأنّه يتعيّن عليه الرجوع إلى

البيت قبل هبوط الظلام؟ لا بدّ من إشارة عن علم الغيب في معاملته العفويّة لي، وإلّا لماذا عرض عليّ هذا السكن وأنا الشخص الغريب تقريبًا؟

أحضرت صندوق أمتعتي وانتقلت للسكن في غرفة عارف. لن يأخذ منّي أجرة الغرفة بل سأحظى بوجبتي طعام في اليوم الواحد. وقال لي إنّهما لم يرزقا بأطفال وأنّ لديهما بيت فسيح، وأنّهما لم يقبضا أيّ إيجار من عارف أيضًا. فدهشت لكرمهما وأدركت أنّني لن أتمكّن من مكافأتهما على صنيعهما.

* * *

كان العمّ سليمان يشتغل معلّمًا في مادّة التاريخ، وأنفق عددًا من السنين يعلّم التلاميذ في مدرسة متداعية في باغبازار، وعلى الرّغم من أنّ المدرسة كانت معروفة بأنّها مدرسة مشاكسين محبّين للخصام. ونادرًا ما كان التلاميذ يلتحقون بصفوفهم، إلّا أنّ هؤلاء التلاميذ أنفسهم كانوا يتدافعون على درس العمّ سليمان. فهذا العمّ لم يكن ضليعًا بمعرفة الأباطرة فحسب، بل بمعرفة محظيّاتهم وعبيدهم وزوجاتهم وجنرالاتهم أيضًا. وغالبًا ما كانت حصصه الدراسيّة تتواصل إلى ما بعد الأربعين دقيقة المقرّرة لكلّ حصّة من حصصها، لأنّه كان يواصل حديثه عن البيوت والأسواق والطرق والأطبّاء والمدارس والفلّاحين في غابر العصور. وكان معظم المعلّمين الآخرين يشعرون بسعادة غامرة إذا ما كانت حصّة أحدهم تأتي بعد حصّة العمّ سليمان لأنّها ستكون في الأغلب أقلّ من وقتها المحدّد بعشرين دقيقة، وكان في وسعهم، أيضًا، صبُّ اللوم عليه على الرّغم من أنّ بعض هؤلاء المعلّمين شعروا بالغيرة من شعبيّته في أوساط الطلّاب، واشتكوا إلى مدير المدرسة قائلين إنّه لا يعلّم التلاميذ بحسب مفردات المنهج

الدراسي، وأنّه كان يتركهم من دون استعداد لأداء الامتحانات. غير أنّ مدير المدرسة ربّما كان بدوره مفتونًا بسحر العمّ سليمان، فلم يفعل شيئًا لكبح جماحه.

كنّا نجلس في شرفة منزله في أمسيات طويلة معتمة، خانقة الحرارة، ساكنة الهواء، فنبعد عن أنفسنا البعوض بمراوحنا اليدويّة. وأصغيت بدوري إلى العمّ سليمان مسحورًا وهو يحدّثني عن مكتبة جهانكير[1] أو عن رحلة بهادر شاه[2] الحزينة الأخيرة إلى بورما. وكان العمّ سليمان يرى الماضي متمثّلاً على الدوام في الحاضر، وبهذا أراه يذكّرني ببابو نرمال الذي اعتاد أن يقيس الزمان بالقرون الزمانية لا بالدقائق أو الثواني، وكانت الموسيقى تذكّر العمّ سليمان بما كانت تغنّيه تانسين لأكبر. وكان الكباب يعيد إلى الأذهان حكاية عن حاجب لورد كلايف الذي كانت تدفعه بثرة في ركبته إلى الضحك من العبارات العامّيّة في العصور الوسطى. وفي حديثه الذي كان يتنحنح أثناءه غالبًا، لم أكن أشاهد الماضي أمام بصري فحسب، بل كنت قادرًا أيضًا على شمّه وسماعه. ولكن على الرّغم من ذلك، فإنّني عندما حاولت أن أُعيد سرد حكاياته أمام أيّ شخص لم أجد فيها ذلك الطعم الذي كانت تتميّز به عند إلقاء العمّ سليمان لها.

من حيث المظهر لم يكن العمّ سليمان ذا شخصيّة مؤثّرة، فهو رجل

---

(١) جهانكير Jahangir (١٥٦٩ ـ ١٦٢٧) ابن أكبر، إمبراطور مغولي ١٦٠٥. اتّبع سياسة والده في التسامح الديني، ترك الحكم بيد زوجته الرائعة الجمال نورجيهان. اشتهر بعدله، ناصر الآداب والفنون. له مذكّرات (تُرك جهانكيري) وتُعدّ من روائع الأدب في عصره. ساءت صحّته لإدمانه الخمور، فخلفه ابنه شاه جيهان، (المترجم).

(٢) بهادر شاه Bahadur Shah (١٧٧٥ ـ ١٨٦٢) الإمبراطور المغولي التاسع عشر والأخير في الهند (١٨٣٥ ـ ١٨٥٨) نفاه الإنكليز، (المترجم).

قصير القامة لا يكاد يصل طوله إلى كتفي. وكان شعر رأسه قد سقط منذ وقت مبكر تاركًا إيّاه بفروة رأس صلعاء تلمع بالعرق الذي يعدُّ هبة كلكتا لمواطنيها معظم أيّام السنة. وكانت لحيته أنيقة وإن كانت قليلة الشعيرات، بينما كان وجهه المتطاول البارز العظام تحميه من كلّ جهة واحدة من أذنيه الكبيرتين اللتين كانت تصل شحمة كلّ واحدة منهما إلى فكّه. أمّا علامته الفارقة فهي عيناه الرماديّتان المتألّقتان المظلّلتان بحاجبين عوض كلّ واحد منهما عن قلّة شعر رأسه وذقنه.

كان العمّ والعمّة قد تزوّجا وهما في ريعان الصبا، وفي الوقت الذي تعرّفتُ إليهما كان سلوك العمّة تجاه العمّ ينمّ عن نوع من أنواع التذمّر، فكانت توبّخه في قسوة، في صوتٍ عالٍ أحيانًا، وفي صوت خفيت أحيانًا أخرى، لكلّ شيء: لتركه ماء استحمامه يبرد في صباحات الشتاء، ولنسيانه إعطاء بائع الحليب توجيهاته، ولملئه البيت إلى أبعد الحدود بكتبه، ولزوّاره الذين يأتون في وقت مبكر جدًّا ويغادرون المنزل في وقت متأخر جدًّا. وكان العمّ يصغي إليها، وعينه تومض فرحًا. وعندما تتوقّف، يقول لها:

ـ هيًّا يا سيّدة فرحانة، لقد مرَّ وقت طويل منذ أن وبّختني آخر مرّة: هل دخلت بيتًا غير بيتي؟

على الرّغم من أنّ بيتهما كان يقع في زقاق مزدحم بالدكاكين، إلّا أنّه كان حسن التهوية، من طبقتين، وفيه فسحة صغيرة من الأرض المغبرّة فيها شجرة مانغو وشجرة ليمون. وكان العمّ قد ورثه عن عمّ توفي ولم يرزق بأيّ طفل، وكان يحتوي على أثاث قليل، وكان نظيفًا جدًّا. . ولكن يمكن للمرء أن يلاحظ أنّ الأغطية بالية ومهلهلة والستائر كثيرة الرتق التي تبدو واضحة بإزاء الضوء عندما تشرق الشمس وتتخلّل النوافذ. ولم يكن في مستطاعهم سوى الاقتناع بمروحة واحدة، ولكنّهما

لم يستخدماها إلّا في أوقات ما بعد الظهيرة وفي الليل في الغرفة الوسطى الكبيرة.

ثمّة أسباب لمعيشتهما المتقشّفة الزاهدة. فقد كان مرتّب العمّ ضئيلاً ـ ومتى كان معلّمو المدارس أثرياء؟ ـ ولكن كان لديه مال إضافي لا يتوانى في إنفاقه على الكتب والموسيقى. ففي كلّ مرّة يأتي فيها إلى البيت تجده حاملاً كتابًا جديدًا أو قديمًا أو أسطوانة موسيقيّة، وكان يتسلّل إلى الطبقة العليا محاولاً أن يخفي ما اشتراه بين طيّات ملابسه، بينما كانت العمّة تصيح فيه بعد أن تكون قد لاحظت سلوكه:

ـ مرّة أخرى! فعلتها ثانية! أليس هذا الشهر هو شهر شراء قميص جديد؟ ألا تعلم أنّ التلاميذ يسخرون منك في المدرسة بسبب ملابسك؟

ـ هه! أيّتها السيّدة فرحانة، ولكنّني كنت أبحث عن هذا الكتاب منذ أشهر، وبينما كنت أحاول أن أستقلّ الحافلة، شاهدته على المنصّة وساومت صاحبه على سعره... كنت أملك بعض النقود المتبقّية، فاشتريت أساور جميلة لكِ، ولكن في خضمّ هذا كلّه، أتدرين أنّ الحافلة فاتتني و...

ـ لا تكلّمني بكلّ هذا الكلام الفارغ، فأنا لا أريد أن أعرف شيئًا عن هذا!

كان العمّ يلتفت إليّ ينشد نصرتي له:

ـ هذا كتاب رائع، اقرأه وأخبرني عنه، وأخبر عمّتك عنه أيضًا.

ثم يناولني الكتاب لألقي عليه نظرة، ثم يخطفه من بين يديّ بعد لحظات ليفتحه ويشمّ رائحة صفحاته. وإذا كانت صفحة العنوان تحتوي على نقوش جميلة فإنّه يطلعني عليها. وكان يرفع عن الكتاب غلافه الورقي ويؤشّر بيده على الكتابة المذهّبة التي تزيّن الكعب. وفي ذلك

الوقت، يكون قد نسي كلّ شيء عن توبيخ العمّة، فيذهب إليها ويقول:

ـ انظري يا فرحانة، انظري إلى الحروف الجميلة!

لكنّ العمّة تترك الغرفة، وإن كان في وسعنا أن نسمعها تغمغم في المطبخ وفي كلّ مرّة تمرّ من أمامنا. ومع هذا، كنت أشاهد الخبز الفطير الحارّ يُقدّم لها أوّلاً عند تناول وجبة العشاء. وفي الليل يحلّ السلام حيث ينشغل هو في قراءة كتابه الجديد وتنشغل هي في رتق الثياب تدندن بألحان قديمة في صوت خافت. أمّا أنا فكنت أذرع المكان جيئة وذهابًا متسائلاً في عجب عمّا يمكنني أن أفعله، إلى أن يرفع العمّ بصره ويعقد حاجبيه ويقول:

ـ ألا يمكنك أن تجلس في هدوء؟ اقرأ الكتاب الذي أعطيتك إيّاه في الأسبوع الماضي.

* * *

كنت في سنّ التاسعة عشرة، وسكنت في بيت العمّ سليمان زهاء سنة، وإن كنت لا أتذكّر اليوم أو الشهر أو الفصل، وإنّما بعض التفاصيل عديمة الصلة بخصوص ذلك اليوم. فعلى سبيل المثال، أجدني أتذكّر أنّني تناولت الخبز مع الشاي في مساء ذلك اليوم. وأنا قلّما أكلت الخبز لأنّه أغلى ثمنًا من الخبز الفطير، ولكن صادف في ذلك النهار أنّني مشيت من أمام مدرستي القديمة، وهي المدرسة التي تركني فيها بابو نرمال بعد حقبة سونغاره. كان المخبز المجاور للمدرسة ما يزال قائمًا في مكانه، وما زالت رائحة الخبز الطازج التي عذّبتني طوال سنوات دراستي تملأ الزقاق. لم أتمكّن من منع نفسي من التوقّف، فأنفقت كلّ ما لديّ من نقود قليلة من الفئة الصغيرة وجدتها في جيبي واشتريت قطعة خبز طازج أسطوانيّة الشكل. ولمّا عدت أدراجي إلى

المنزل حاملاً الخبز في يدي، قال العمّ سليمان:

ـ إذا كنت تريد كمّيّة كبيرة من الخبز، فلماذا لم تطلبه؟ ظننتك تحبّ خبزنا الفطير!

وأخرجت زبدة صفراء اللون من نوع بولسون كنت قد اشتريتها أيضًا في طريق عودتي ـ وكلّفتني كثيرًا أيضًا ـ وعمدت إلى تحميص الخبز من فوق المشعل الكهربائي. وما تزال حتى يومنا هذا رائحة الخبز الطازج المحمّص تصيبني بقليل من الدوار. وقدّمت شرائح الخبز السميكة المحمّصة ذات الحافّة البنّيّة والمغمّسة في الزبدة الصفراء المالحة، فما كان من العمّ إلّا أن غمّسها بدوره في شايه الساخن.

كان العمّ يضع في قدميه خفًّا عتيقًا ناعمًا منبعجًا من جهة إبهام قدمه. أمّا قميص بيجامته فكان مهلهلاً، وفيه عدد من الدرزات المرتخية. كنّا نجلس، كما هو دأبنا، في الشرفة الفسيحة تحت آخر نور من ضوء النهار. ثمّة جلبة بعيدة تنساب إلى مسامعنا، وبضع انفجارات لمفرقعات ناريّة. وقال العمّ:

ـ شخص ما يحتفل.

ثم أشعل سيكارة ونفث دخانها متنهّدًا. كان في وسعي أن أشمّ رائحة الدخان، قويّة تبعث على البهجة. وعلى الرّغم من الجلبة، ران الهدوء من فوق الشرفة وكأنّنا نجلس في كرة شفّافة تبعد العالم عنّا. الأكواب والأطباق والزهور البنفسجيّة الباهتة المرسومة عليها ورائحة الشاي الثقيلة الوطأة وحافّات الأطباق الرقيقة المذهّبة والمثلومة بدت كلّها في منتهى الكمال، ممّا جعلني لا أرغب في لمس أيّ شيء وتشويهه؛ وأمّا في الجانب الغربي، فكانت البقيّة الباقية من اللون البرتقالي في السماء قد ازدادت عمقًا وتحوّلت إلى لون وردي لامع.

وبعد أن فرغنا من أكل الخبز وشرب الشاي، أعاد العمّ تغليف الزبدة بغلافها الورقي في حين ارتقيت السلالم لأدخّن في السطح.

لكنّني لم أشعل عود ثقابي. ففي الأفق البعيد، لمحت قلادة متلألئة ذات جمال أخّاذ. لقد احترقت المدينة، وتصاعدت ألسنة اللهب البرتقاليّة وخمدت ولكنّها ظهرت من جديد في بقعة أخرى. وتحوّل لون السماء إلى أحمر مخيف، وصكّ سمعي هدير بعيد ورتيب تقطعه صرخة غريبة مدوّية. انفجار آخر، فأدركت أنّه ليس انفجار مفرقعات ناريّة.. ويُحتمل أن تكون انفجارات قنابل! وتجمّعت سحابة دخان في السماء معبقة برائحة شعر ولحم ومطّاط محترق. وعلى الرّغم من أنّني كنت أعرف أنّني بعيد عن مكمن الخطر، إلّا أنّني توجّست خوفًا يتصاعد في أعماقي فيمحو كلّ شيء. أدركت أنّ شيئًا ما يفوق طاقتي على الفهم يحدث في تلك المنطقة المظلمة وسط النيران، شيئًا أخبرتني غريزتي أنّه سوف يغيّر كلّ شيء تغييرًا نهائيًا.

كانت ألسنة اللهيب وصرخات الأهالي قد اجتذبت أنظاري وملكت عليّ تفكيري، فلم أتنبّه إلى أنّ العمّ سليمان قد انضمّ إليّ، ومدَّ يده إلى جيبه وأخرج علبة تحتوي على ورق سكائر شفّاف. فوثبت من مكاني لمّا سمعت صوت الورقة، إذْ بدأ في وضع التبغ على الورقة وهو عمل يتطلّب دقّة. لم يرفع بصره إلى اللهيب إلى أن ومضت لفافة تبغه في الظلام.

قال وكأنّه يناقش موضوع إجازة صيفيّة:

ـ أظنّنا سنضطر إلى الابتعاد قليلاً عن المنزل.

ـ الابتعاد؟ ماذا تعني؟ إلى أين؟

ردَّ عليّ:

ـ أقربائي يسكنون في راجشاهي، وهم يطلبون منّي منذ سنوات أن أزورهم، وهذا هو الوقت الملائم.

هتفت متعجّبًا:

ـ لستَ مضطرًّا إلى الذهاب إلى أيّ مكان، فأنت لن تتأثّر بما يحدث، فهم يحرقون الأحياء الفقيرة.

ـ آه، بالله عليك! ليس للأمر صلة بالحرائق. كلّ ما هنالك هو أنّني أظنّ أنّ عمّتك في حاجة إلى بعض التغيير، فهي آخذة في الاكتئاب قليلاً.

ـ إذا كانت في حاجة إلى بعض التغيير، اذهب بها إلى مدينة دارجيلنغ. لماذا لا تذهب إليها؟

قال العمّ سليمان وهو يضحك قليلاً:

ـ هؤلاء الأقرباء في حاجة إلى من يزورهم. ما الذي سيحدث لو نسوا أمرنا. وأنت تعرف أنّ لديّ غرفة أو غرفتين في بيت الأجداد هناك. أفلا أطالب بملكيّتي؟

كنت أعلم، وكان هو يعلم أيضًا، أنّه لا يقدر على مناقشة السبب الحقيقي للرحيل. فمنذ أن بدأت العيش مع العمّ، توجّست أنّ الاضطرابات السياسيّة والعنف في كلّ الأنحاء وأخبار المظاهرات في البنجاب وفي الجيوب الشماليّة التي يقطنها المسلمون تثير قلقه إلى أبعد الحدود مثلما تثير قلق كلّ نفس. كنّا معتادين مناقشتها بين آونة وأخرى على أنّها اضطرابات تحدث على مسافة بعيدة عنّا، وهي قد تسفعنا قليلاً ولكنّها لن تحرقنا، ولم يسبق لنا أن فكّرنا أنّ ألسنة اللهيب سوف تقترب منّا اقترابًا يهدّد وجودنا.

لكنّها اقتربت الآن.

عندما دلفت حجرة يجلس فيها العمّ رفقة أصدقائه أو حتى رفقة العمّة، كان الصمت المفاجئ يخيّم على حديثهما ثم ينحو الحديث منحًى آخر. وفي حين كان العمّ يخرج مبكرًا كما هي عادته، ويلتقي أصدقاءه من الهندوس، فإنّه بدا الآن لا يلتقي إلّا أصدقاءه المسلمين، في البيت وليس في أيّ مكان آخر. وعندما كانوا يظنّون أنّني لست على مقربة، فإنّ أحدهم كان يجادل الآخر في قضيّة الرحيل عن البلاد. وفي عصر أحد الأيّام، خرجت من المنزل عندما انساب إلى سمعي صوت نشيج هادئ عند عتبة الباب. وشيئًا فشيئًا أخذت أشعر كأنّني غريب في المكان الذي ظننته أصبح بيتي.

قلت مكرّرًا كلامي وإن كنت قد استنزفت كلّ قناعتي:

ـ لستَ مضطرًّا إلى الرحيل.

في هذه الأيّام، تحدّث هؤلاء الناس الذين اعتقدتهم أناسًا اعتياديين، متّزني العقل، عن تخزين زجاجات حارقة لتكون سلاحًا. فإذا أراد الدهماء العمّ سليمان والعمّة، فأين أخفيهما؟ وكيف أنقذهما؟

أخذ العمّ سليمان نَفَسًا عميقًا آخر، ولكن لفافة تبغه كانت انطفأت شأنها شأن غيرها من هذا النوع من لفافات التبغ. ففتّش في جيبه عن علبة ثقاب وأشعل اللفافة المسودّة والرطبة من جديد.

قال من جديد:

ـ يمكنك الاستمرار في العيش في المنزل. وفي الحقيقة الأفضل عدم وضع القفل فيه ـ من يدري ما الذي سوف يحدث. اهتمّ به إلى أن نعود.

سألت:

ـ وكم ستمكثان خارج البيت؟

قال:

ـ أرجو ألّا يطول غيابنا، فما إن تهدأ هذه الاضطرابات حتى أعود أدراجي قبل أن تدرك ذلك.

سألت:

ـ والمدرسة؟

أجاب:

ـ لن أقول لهم شيئًا. حسبي أن أبلغهم أنّني سأتمتّع بإجازة مدّة شهرين.

ـ المؤكّد أنّهم سيعرفون.

ـ مدير المدرسة رجل صالح ولم يطلب منّي الرحيل.

ثم ضحك ضحكة صغيرة وأضاف:

ـ على أيّ حال، أظنّه سوف يشعر بالارتياح إذا ما رحلت.

* * *

كنت أعرف قضيّة بيت الأجداد في راجشاهي: كان العمّ متحفّظًا بخصوص ماضيه، على العكس من العمّة. فقد كان البيت مصدر ألم لكليهما، يزداد الألم حدّة عندما تتضاءل النقود. كان العمّ هو الابن الثاني بين أربعة أبناء لموظّف حكومي في راجشاهي، ترك الأب من ورائه قطعة أرض ومنزل الأسرة الكبير. وكان الهدف هو تقسيم البيت قسمة متساوية بين الأخوة، ولكنّ العمّ سليمان الذي لم يكن يقطن في

راجشاهي ـ ولا حتى في العالم المادّي ـ غُرّض لخديعة في حصّته. صحيح أنّ هذه الحصّة قائمة، نظريًّا، ولكنّه لا يستطيع الادّعاء بحقّه فيها بعد اليوم. فمع اقتراب نهاية كلّ شهر، وتضاؤل مال العمّة المخصّص لتدبير شؤون المنزل، كان ثمّة إحساس بالحرمان يساورها على نحو أشدّ ممّا كان ينتابها في بداية الشهر. وكانت في مثل هذه الأوقات تخاطبني قائلة:

ـ لو استطعنا الحصول على ما يوازي الثمن من الحصّة من غير زيادة أو نقصان، وتمكّنّا من بيع تلك الأرض المزروعة بالأرزّ، لأصبح لدينا من المال ما يجعلنا نعيش من دون قلق. وعندئذٍ سأطهو لك البرياني وأعدُّ لك الحلوى بالأرزّ كلّ يوم، ويمكننا أن نضع مروحة سقفيّة في كلّ غرفة، فلا نتصبّب عرقًا في فصل الصيف! ولكن هل عمّك على استعداد لفعل أيّ شيء بهذا الخصوص؟ إنّ أمثاله من الرجال لا ينبغي لهم أن يتزوّجوا، بل أن يجلسوا تحت شجرة ويكونوا مثل بوذا.

عنَّفها العمّ في قسوة وهو يقول:

ـ أضغاث أحلام. هذه أضغاث أحلام أخرى. متى تتوقّفين عن هذا الكلام؟

لكن هذا الأمل الضعيف في كسب مفاجئ يحصلان عليه من أرضهما هو الذي أبقاهما في قيد الحياة وهما يبحثان في مؤخّر الخزانات عن نقود قليلة في الأسبوع الأخير من كلّ شهر.

وها هو العمّ والعمّة يجدان نفسيهما بغتة مضطرّين إلى السفر إلى راجشاهي للمطالبة بنصيبهما من المنزل والأرض اللذين ضاعا منهما منذ زمن بعيد.

* * *

اتّضح أنّ الموضوع الأكثر إثارة للحيرة بخصوص رحيل العمّ والعمّة لم يكن متمثّلاً في الوظيفة أو المنزل أو الأقرباء والأصدقاء وإنّما في ببغائهما الذي آثرا إبقاءه في عهدتي ورعايتي. أنا شخصيًّا لا تروقني الطيور إن كانت قريبة منّي، فهي تنتمي إلى عنصر يختلف عنّا، وعلى هذا الأساس ينبغي أن تبقى هكذا. لكنّني شعرت بمودّة كبيرة تجاه السحلية التي تزحف من وراء مصباح طاولتي مثلما شعرت بالمودّة أيضًا نحو الطائر في قفصه. وراودني الأمل في أن يبقى كلاهما بعيدًا عنّي.

كان اسم ببغاء العمّ سيلمان هو نوري. وكان يبدو مثل كلّ الببغاوات، أخضر لامعًا، يلفّ عنقه شريط قرمزي ـ بنفسجي وكان قادرًا على أن يدور دورة كاملة مراقبًا الناس من قفصه. وكان العمّ سليمان يغطّي القفص كلّ ليلة بقطعة قماش وهو يتمتم للطائر بنبرة مهدّئة لا يوجّهها لأحد سوى للببغاء.

وكان العمّ والعمّة يتناوبان أثناء النهار في إغراء الطائر لتناول الحبوب والفلفل الأخضر الحارّ. كان القفص كبيرًا وفيه أرجوحة، وموقعه في شرفة الطبقة العليا الفسيحة المطلّة على الأشجار كي يتمكّن نوري، بحسب اعتقادي، من النظر بعين الحسد إلى رفاقه من دون أن يشغله شاغل.

أنا ظالم، لأنّ الطائر كان يحلّق في حرّيّة داخل المنزل طوال النهار. فما إن كان العمّ سليمان يفرغ من أداء صلاة الفجر حتى يتوجّه إلى القفص ويرفع عنه قطعة القماش في حركة مسرحيّة، مقوقئًا للطائر الذي كان يردّ عليه بسلسلة من الأصوات الصادرة من منقاره، وبكلمة رقيقة، أو كلمتين. وكان العمّ قد علّم الطائر أن يلفظ اسمه وعددًا قليلاً آخر من الكلمات تمثّل مخزونًا يغري به الآباء أولادهم الصغار!

كانت همهمات أحدهما للآخر توحّدهما في كلّ صباح، ثم ينتصب نوري على أحد الأبواب أو على كتف العمّ عندما يؤدّي واجباته. وكان أحيانًا يحطّ عليّ أيضًا فأشعر بمخالبه توخزني من فوق قميصي الخفيف، وريشه يدغدغ أذني. إنّني متأكّد أنّه كان يعلم أنّني لا أريده في ذلك المكان من جسمي.

سألت العمّة بعد أن ساورني القلق خشية أن يتركا الطائر تحت رعايتي:

ـ ألن تأخذا نوري معكما؟

ثم سرتُ في أثرها إلى المطبخ حيث جلستْ على الأرض واتّكأت إلى الباب تنتقي الحجارة الصغيرة من بين الأرزّ. كانت تنظر مليًّا إلى الأرزّ، وتدفع قسمًا منه جانبًا بِسبّابتها حتى باتت لديها كومتان فوق الطبق الكبير يفصل بينهما نهر مذهّب من معدن الأجراس. لم ترفع بصرها، لكن صوتها كان مشوبًا برعشة كعهدها في تلك الأيّام:

ـ ليست لدينا أيّ فكرة عن المكان الذي سنمكث فيه، فكيف يمكننا أن نحمل طائرًا معنا؟

ـ ولكن لديكما بيتًا وسوف تقيمان فيه، فضلاً عن أنّ المدّة لن تزيد عن شهر أو شهرين.

ـ أنا لم أشاهد هذا المنزل في حياتي، وهو يضمّ بين جدرانه عددًا كبيرًا من أقربائه الذين يقيمون فيه منذ مدّة. وسأكون غاية في السعادة لو وفّروا لنا ركنًا ننام فيه.

كنت متأكّدًا أنّها كانت تبالغ في كلامها، لأنّها كانت مستاءة من الرحيل عن كلكتا على هذا النحو غير المتوقّع. رفعت بصري في هلع إلى نوري الذي كان متسنّمًا باب المطبخ يقرقر ويغمغم في نفسه من دون

أن يعرف ما يخبّئه له القدر.

* * *

رحلا بعد مرور يومين اثنين، وكانت العمّة قد صنعت بعض الفطائر المقليّة لتناولها في الطريق، كما أنّها أخذت بعض الموادّ الغذائيّة الجافّة كالبسكويت والأرزّ، ولكنّهما لم يأخذا معهما أكثر من صندوق واحد للثياب وفراش قابل للّفّ والحمل.

وفي الليلة التي سبقت سفرهما، اصطحبني العمّ في جولة من حول المنزل وأطلعني على موضع العدّاد الكهربائي وأخبرني عن قوائم مصاريف الكهرباء التي ينبغي دفعها في كلّ شهر، كما أطلعني على المكان الذي يحتفظ فيه بالأوراق الخاصّة بضريبة العقار، وأعطاني شيكًا بتاريخ مؤجّل لدفع مستحقّات يحين أوانها بعد أربعة أشهر.

قلت له في إصرار:

ـ ولكنّك ستعود أدراجك في ذلك الوقت؟

قال العمّ في صوت رقيق وكأنّني طفل في حاجة إلى من يبثّ السلوى في نفسي:

ـ سوف أعود على وجه التأكيد، ولكن هذا الشيك سوف يُستخدم إذا ما تأخّرنا...

وكانت العمّة قد اشترت مخزون أسبوع من الفلفل الأخضر الحارّ اليابس ونصف كيلوغرام من الحبوب التي يحبّ الطائر أكلها. وقالت:

ـ أنت تعرف الصوت الذي يصدره نوري عندما يريد حبّة من الفلفل. صحيح؟ وتذكّر أن يكون وعاؤه مملوءًا بالماء طوال الوقت. وقال العمّ:

ـ أعرف أنّ الأمر متعب قليلاً، ولكنّك سوف تضطرّ إلى تنظيف القفص بين حين وآخر.

فتمتمت وأنا أشعر بثقل يوازي حجارة في فؤادي:

ـ ليست ثمّة مشكلة من جرّاء ذلك.

وقال:

ـ كلّم الببغاء صباح كلّ يوم، قبل أن تذهب إلى العمل، لأنّه سوف يشعر بالوحدة عندما لا يكون ثمّة أحد في المنزل، وهو غير معتاد على ذلك.

قلت من جديد:

ـ سوف تعودان سريعًا.

قال العمّ:

ـ أمرٌ مؤكّد. ما السبب الذي يدعوني إلى البقاء بعيدًا عن بلدتي؟

بدا نوري لي وكأنّه يفهم أنّ شيئًا ما جارٍ مجراه، فطفق يخفق جناحيه داخل القفص، مُصدرًا أصواتًا خشنة. وقبل مغادرتهما، عمدت إلى وضع قطعة القماش من فوق القفص.

لم يرغبا في أن أرافقهما إلى محطّة القطار، إذْ قال العمّ:

ـ لا أحبّ أن يبقى نوري وحيدًا بعد أن نسافر، ويمكننا أن ندبّر نفسينا بما نملكه من متاع قليل.

شاهدتهما يمشيان في تثاقل إلى نهاية الزقاق، ويميلان إلى الجانبين بسبب صندوق أمتعتهما وحرّيّتهما. ترقرق الدمع في عينيَّ فمسحته، وراودني إحساس بنفاد الصبر والحيرة بسبب قنوطي وجزعي. فقد تواريا عن الأنظار من دون أن يلتفتا إلى الوراء، فأغلقت البوّابة وعدت لأرفع

قطعة القماش من على قفص نوري.

وهمست ناشدًا العزاء في نفسي:

ـ ها أنا وأنت وحدنا هنا.

ظلّ الطائر واقفًا في ركن قفصه لا يرغب في الخروج.

* * *

كان مزاجي جيّاشُ العاطفة وضعفي ونزوعي إلى البكاء قد فارقاني في صبيحة اليوم التالي. ممّا يبعث على الراحة الغريبة أنّ في وسع النوم خلق مسافة كبيرة بين الأحداث. شرعت أجول ببصري من حول إمبراطوريّتي. لقد حلَّ الصمت المطبق محلّ الأصوات المألوفة في كلّ صباح: غرغرة العمّ وتنحنحه في صوت عالٍ أثناء تنظيفه أسنانه. والسلسلة التي لا نهاية لها من عطسات العمّة في وقت مبكر من صباح كلّ يوم. وللمرّة الأولى في حياتي، ليس ثمّة أحد أشعر إزاءه أنّني مضطرّ لإخلاء مكاني له. يمكنني أن أريح قدميَّ من فوق الطاولة، ويمكنني أن أكون من أشاء، أنا في منزل ملك نفسي وفي مدينة لا يكاد يعرفني فيها أحد. غمرني بغتة إحساس بالنشوة وبالمكان. قذفت بغطاء قفص الببغاء بعيدًا وفتحت باب القفص.

وقلت لنوري:

ـ أنا حرّ، وأنت حرّ أيضًا.

لكن نوري لم يشأ الخروج من القفص.

لم ألتفت له، ورميت ببعض الحبوب وحبّات الفلفل الحارّ له، ولمّا مددت يدي داخل القفص لأمسك وعاء الماء، وجدته يخفق جناحيه وينقرني مسيلاً بذلك دمي.

قلت له مكشّرًا عن أسناني:

ـ يُستحسن بك ألّا تفعل هذا الشيء، ففي البيت لا يوجد إلّا أنا وأنت الآن!

يخجلني القول إنّني لم أفكّر في العمّ والعمّة وهما يدمدمان في طريقهما إلى راجشاهي، ظهراهما يؤلمانهما بسبب المقاعد الصلبة في قطار مزدحم، منهكان وقلقان لا يعرفان ما تخبّئه الأقدار لهما عند وصولهما!

* * *

عشت في منزل العمّ سليمان مدّة طويلة من الزمان من دون حدوث أيّ تغيير يذكر في أسلوب حياتي. ولم أتجاوز حدود التأدّب واللياقة، ولم أنتقل، مثلاً، من غرفتي الصغيرة إلى واحدة من الغرف الأكبر حجمًا. وكنت أطعم الببغاء كلّ يوم على النحو الذي كنت أشاهد فيه العمّ سليمان يطعمه، ولكنّ الطائر غالبًا ما كان يترك حبوبه من دون أن يلمسها، ويرفض الخروج من القفص. ولم يدر في خلدي أنّ الطيور تحزن، ولكن هذا الطائر يبدو حزينًا حقًّا. وينقر رسغي مرّة أو مرّتين عندما كنت أضع له الطعام والماء. فكنت أبصق في وجهه صائحًا:

ـ يا ابن الزنى، اخرج من قفصك وسألوي رقبتك الخضراء الغبيّة!

وكنت أحبسه في القفص وأخرج للعمل في المدبغة وأرجع في وقت متأخّر من المساء، فأخلع قميصي المبلّل بالعرق وأنا أثب من فوق درجات السلّم، كلّ درجتين مرّة واحدة. كنت أجد الطائر في ركن من القفص كما تركته وكأنّه لم يتحرّك من مكانه قطّ أثناء الساعات التسع التي أنفقتها خارج البيت. ولو مددت يدي لأتفحّص وعاء الماء لنقرني من جديد وعندئذٍ أصرخ في وجهه:

ـ يا ابن الزنى، لولا أنّهما عائدان لصنعت منك يخنة الببغاء!

ولكنّ العمّ والعمّة لم يرجعا حتى بعد مرور سنة. لم يعودا ليشاهدا البلد وقد انقسم في العام ١٩٤٧ إلى بلدين، أو لمشاهدة البريطانيين يرحلون، لم يعودا لسماع الخطب ورؤية الرايات الجديدة، بل بقيا بعيدين طول تلك المدّة التي شهدت أسوأ أعمال القتل. ولمّا كانا مسلمَيْن، فإنّني لم أتوقّع أن يكونا من بين اللاجئين الذين تهادوا في طريقهم إلى كلكتا. لا بدّ أنّهما عثرا على شيء ما لنفسيهما في الباكستان الشرقيّة ـ هذا هو التفسير الذي أقنعت نفسي به ـ ولا بدّ أنّهما استقرّا في بقعة ما وربّما سيكتبان يومًا ما إليّ ويطلبان منّي أن أرسل إليهما نوري. ولم أرغب في التفكير بأنّهما ربّما لم يصلا بلدة راجشاهي أو أنّهما ذُبحا في الطريق!

بعد رحيل العمّ والعمّة، لبثت على مدى أشهر طويلة أقفل الأبواب والنوافذ في كلّ مساء خشية تعرّض المنزل إلى هجوم ما لأنّه بيت مسلم. وفي الوقت الذي راودني الإحساس أنّني في مأمن، جاءت مجموعة من الرعاع في ليلة ما حاملين المشاعل وصاحوا بأعلى أصواتهم طالبين من سليمان خان أن يخرج إليهم وإلّا..! صكّت أسماعي صرخاتهم وتسلّلتُ من الخلف واختبأت وراء خزّان ماء واطئ. ولمّا كنت متأكّدًا من أنّني سأموت لا محالة في غضون دقائق قليلة، وجدت نفسي عاجزًا عن التفكير. تناهى إلى سمعي صوت وقع أقدام تقترب من الخزّان، وصوت يصيح:

ـ أظنّ الملّا مختبئًا هنا.

ورأيت الأعشاب تُسحق من تحت الأقدام على مقربة منّي، وعندما وجّه الرجل المشعل في وجهي هتف:

ـ أنت؟ أنت هنا؟

لحسن الحظّ كان الرجل أحد الجيران، وغالبًا ما كنت أتجاذب أطراف الحديث وإيّاه قرب دكّان مجاور أشتري منه البيض والسكائر.

خرجت من خلف خزان الماء، مبحوح الصوت عاجزًا عن الكلام، ولكنّني أفلحت هامسًا إلى حدٍّ ما من أن أخبره أنّ سليمان خان هرب وترك لي المنزل.

فهتف متعجّبًا:

ـ ترك المنزل أيّها القزم المحظوظ؟

فتمكّنت من أن أنتزع ابتسامة. . وحصل المنزل على هدنة.

أمّا أنا فلم أحصل عليها. فالمدبغة التي كنت أشتغل فيها كاتبًا كانت مملوكة لأحد المسلمين، فقرّر غلقها والرحيل.

لديّ عدد قليل من الأصدقاء، فمعظم الفتيان الذين كانوا رفاقي في المدرسة المتوسّطة تفرّقوا وانقطعت الصلة بهم. أمّا الرجل الوحيد الذي بدا متعاطفًا معي، فهو رئيس المراقبين في المدبغة، الذي اصطحبني إلى منصّة على قارعة الطريق لتناول وجبة غداء في اليوم الذي تقرّر فيه أن نفترق. جلس أحدنا قبالة الآخر وأطباق الألمنيوم يتصاعد منها بخار الأرزّ والسمك بالكاري بيننا. غسل بارابابو يديه بماء من قدحه وأغمض عينيه متمتمًا بدعاء، ثم غمس أصابعه في طبق أرزّه.

قال بارابابو:

ـ انظر. فكّر فيّ. لديّ زوجة وثلاث بنات. ليس الأمر سيّئًا جدًّا لك. كلّ ما عليك هو أن تهتمّ بنفسك. إنّني أحسدك يا صديقي.

قلت:

ـ تحسدني؟ أنا ابن زنى سيّئ الطالع. فما أن تبدو الأمور وقد استقرّت حتى أجد نفسي على قارعة الطريق من جديد!

قال باراباابو في دهشة:

ـ قارعة الطريق؟ لديك سقف من فوق رأسك، هديّة لك من السماء. أيّ طالع تريد أحسن من هذا؟

ردّدت:

ـ ليس هذا البيت بيتي، وسوف يرجع أصحابه يومًا ما، كما أنّ النقود التي تركاها لي نفدت كلّها. إنّني مضطر إلى إيجاد المال لتسديد القوائم والضرائب.

قال باراباابو مركّزًا على عظم التقطه من السمكة:

ـ يا ولدي العزيز، لن يرجع أحد ممّن رحلوا. هل رأيت أحدًا من المهاجرين قد عاد؟ لا بدّ أنّ أصحاب بيتك قد استولوا على أحد بيوت الهندوس في الباكستان الآن، وها أنت قد تركوك في بيتهم. إنّها أملاك عدوّ يا ابني، أملاك عدوّ! وأنت الفتى المحظوظ الذي بات في المكان المناسب عند الحاجة.

ثم حشر كرة من الرزّ والسمك في فمه ورشق المكان من ورائي بنظرة، وراح يمضغ بنهم شديد. وأخيرًا فرغ فمه وضحك ضحكة قصيرة، وقال كأنّه يخاطب نفسه:

ـ يا له من حظّ، ويا لها من سذاجة.

لوى فمه وعاد من جديد إلى سمكته، وعلقت بشاربه ذرّة صغيرة من مرق اللحم.

كان في وسعي أنْ أرى باراباابو غير مصدّق، ولكن على الرّغم ممّا

قلته للرعاع، فإنّني لم أنظر إلى منزل العمّ سليمان على أنّه بيتي الخاصّ بي، وأن أتصرّف به كما أشاء. ففتحتْ كلماته بابًا نصف مفتوح على مصراعيه في عقلي.

ـ أظنّني أقدر على فعل شيء ما بالمنزل وإلّا كيف يتسنّى لي دفع القوائم المطلوبة؟

قال باراباابو:

ـ انظر يا ولدي!

في هذه اللحظة تنبّهت إلى أنّه اعتاد مناداتي بكلمة «ولدي» وأضاف:

ـ ثمّة أعداد لا حصر لها من الناس عبروا الحدود، ليس أعدادًا لا حصر لها، بل مئات، آلاف، ملايين.

ثم أشار إلى الشوارع المزدحمة من حولنا. ومضى يقول:

ـ كلّهم في حاجة إلى بيوت ليسكنوا فيها! قم بتأجير هذه الغرف.. وسوف أعرّفك إلى أحد أقربائي، وهو بنّاء، ويقول إنّه محتاج إلى شابّ مثلك.

أصرَّ باراباابو على المجيء إلى المنزل في رفقتي في عصر ذلك اليوم ليسدي لي نصيحة أفضل كما يقول، ورشق الحديقة بنظرة تنمّ عن تقدير وتخمين عندما فتحت البوّابة، وما إن دخلنا حتى اندفع إلى الركن وشمّر عن قميصه وارتقى شجرة المانغو.

قال جذلاً وهو ينظر إليّ من الأعلى ومن خلل حافّات أوراق أحد الغصون العالية:

ـ أنت لا تعلم مدى شوقي وحنيني لكلّ هذه الأشياء: القرية

وأشجارنا والثمار التي كنت أقطفها في صباي. من أين للمرء أن يعثر على مثل هذه الأشجار في بيوت الصفيح في كلكتا؟ لقد قرّرت يا ولدي أن أعود أدراجي إلى قريتي وأن أهتمّ بأيّ أرض تعود لي.

قلت:

ـ ألن تنزل من فوق الشجرة؟ فأنا لست متأكّدًا من متانة الأغصان، لأنّ الشجرة يانعة وصغيرة.

قال:

ـ آه، أعرف كلّ شيء عن الأشجار.

ثم هبط من فوق الشجرة في حيويّة ونشاط أكبر ممّا ظننته عند رجل في مثل سنّه. ولحق بي إلى الباب الرئيس مغمغمًا:

ـ منزل بطبقتين، هه! ولا بدّ أنّه مشيّد على قطعة أرض تبلغ مساحتها مائتي ياردة مربّعة.

وعندما وضعت المفتاح في القفل، دفع يده في الحقيبة القماشيّة القذرة المتدلّية من كتفه وأخرج زجاجة صغيرة تحتوي ماءً ملوّثًا.

وقال:

ـ كما تعلم، على المرء أن يكون شديد العناية والحذر في بيت مسلم.. ثم نزع سدادة الزجاجة وسكب بضع قطرات على العتبة وبضع قطرات أيضًا عليَّ، وكأنّه غير متعمّد في ذلك، وهو يتمتم بأدعية غير مفهومة. وبعد أن فرغ من طقوس الطهارة، دلف إلى المنزل وبدأ يعاين غرفه واحدة إثر الأخرى، يهمهم بكلمات الاستحسان من دون أن يقول أيّ شيء سوى: «لا بدّ أن تتخلّص من هذا الببغاء. انظر إليه، فقد ملأ المكان كلّه بقاذوراته».

أنفقت الأيّام القليلة التالية مقلّبًا فكرة باراباو في رأسي. ولبثت ساعات منحنيًا على جسر كاليغات أراقب المياه العكرة من تحتي. عندما يكون الماء في حالة جزر، تكشف الضفّتان عن سنوات من القاذورات. أمّا في حالة المدّ، فإنّ الماء يكون بنّيًا هادئًا. ثمّة كوخ من الطين هناك على الضفّة اليمنى في منتصف الطريق، وكانت أشجار جوز الهند تحدّق بالنهر... وفي البعيد، على بعد عالم من عربات الترام في المدينة وحشود من الناس تتدافع، والروائح النتنة والشوارع المكتظّة بشحّاذين نحيلي الأجساد يردّدون كلّهم وعلى الدوام أنّهم لم يأكلوا شيئًا منذ أيّام. وبينما كنت منحنيًا من فوق الجسر، فكّرت بما لا يخطر على بال، فكّرت في أن أخون ثقة العمّ سليمان. في إمكاني أن أبيع المنزل أو أؤجّره وأحوّله إلى نزل. يمكنني أن أحيا حياة مالك من ملّاك الأراضي، ويمكنني أن أستمتع بالحياة! يمكنني أن أؤلّف الكتب والموسيقى وأن أسافر. يمكنني أن أكون رجلاً من رجالات القوم عن وجه حقّ.

وفي صباح اليوم التالي، وبينما كنت أرفع قطعة القماش من فوق قفص نوري، لاحظته يتكلّم. لا بدّ أنّ شيئًا ما لا يمكنني أن أقول إنّه بعض التغيير الطارئ عليّ، هو الذي استفزّ الببغاء على الكلام من جديد. وكان يكرّر تلك الكلمات التي رميته بها طوال تلك الأسابيع وهي: «يا ابن الزنى! يا من يضاجع أخته، يا ابن الزنى، يا من يضاجع أخته!» وكانت تلك الكلمات الصادرة عن أنفه تبدو غريبة، وإن كانت جزءًا من حديثي اليومي الاعتيادي.. كلمات دقّت أجراسًا في زاوية عقلي لم أكن أبغي سماعها. وتذكّرت امرأة مسنّة نصف مخبولة في حجرة صغيرة في بلدة سونغاره، تدعى كانابالا، وكنت أردّد شتائمها من أجل اللهو والضحك. وهنا أحسست أنّني لست راغبًا بمن يذكّرني بتلك الكلمات.

ومنذ ذلك الوقت لزمت جانب الحيطة والحذر عندما أكلّم نوري، لكنّ الببغاء كان في ذلك الوقت قد أتقن التفوّه بكلماتي.. وممّا يثير إزعاجي أكثر، كان يتفوّه بها من دون غيرها تمامًا.

* * *

اثنـــان

عندما أفكّر في الإنسان الذي اشتغلت عنده من بعد ذلك، فإنّ أوّل ما أتصوّره هو يداه الشاحبتان بأصابعهما الطويلة والمرتجفتان إلى حدٍّ ما. في كلّ إصبع خاتم واحد في الأقلّ، وفي كلّ خاتم حجارة مختلفة مشعّة، يمكنني أن أميّز منها حجر التوباز وعين الهرّ والياقوت وحتى الألماس. كان يضع في يديه اثني عشر خاتمًا. وبعد مرور سنة على اشتغالي عنده، وعندما أصبحت قادرًا على دخول غرفته من دون إذن مسبق، وجدته جالسًا إلى مكتبه يدير أحد خواتمه حول إصبعه مرّات ومرّات. ورفع بصره لمّا رآني، وقال:

ـ أتعلم ما هذه الخواتم؟ إنّها قدري!

ضمَّ قبضته ورفعها إلى صدره وأضاف:

ـ إنّني بهذه الخواتم أحبس قدري في يديَّ.

لم أحصل على هذا العمل إلّا بوساطة بارابابو، بعد شهور طويلة من البحث المضني عندما بدت المدينة محتشدة بصبيان عابرين مثلي، وكلّهم عاطلون عن العمل. وكنت قد استسهلت في ذلك الوقت العيش مثل ربّ منزل في بيت العمّ سليمان. وكان العمل مع بابو آنغتي قد جاء في الوقت المناسب ليحول بيني وبين أحلامي الخياليّة بوصفي صاحب عقار. وأصبحت خائفًا الآن، وقلت والرغبة تملأني في أن أسعده:

ـ الخواتم قدرك وأنت قدرنا يا سيّدي!

كنّا ندعوه في مجالسنا بابو أنغتي، ونتبادل النكات على أصابعه العشر التي لا تكفيه! وكانت الكلمة تدور من حول المكتب الصغير في سرعة خاطفة إذا ما خرج بابو أنغتي لقضاء بعض أشغاله الغامضة عصرًا. ولم يساور أحد الشكّ في وجود امرأة.. اللّهم إلّا إذا كانت قارئة بخت! ولم يكن ليفصح عن تلك القارئة التي عثر عليها، ولكنّنا اكتشفنا أمرها في كلّ الأحوال. ثمّة رجل في بهو وانيبور يقطن في منطقة قريبة من المكان الذي أسكن فيه، فذهبت إليه بعد أن عرفت أنّه آخر مكتشفات بابو أنغتي. لم أؤمن يومًا ما قطّ بقراءة الطالع، ولكن حبّ الفضول انتابني بخصوص عواطف بابو أنغتي.

جلس العرّاف من وراء مكتب يخلو سطحه من كلّ شيء وفي حجرة صغيرة. كان رجلاً عجوزًا يضع على عينيه نظّارة سميكة لامعة، لم أستطع رؤية عينيه من ورائها. وكانت العدستان تحجبان معظم أجزاء وجهه الصغير الذي تبرز الجيوب تحت عينيه. لم يبتسم مرحّبًا، بل لم يرفع رأسه عندما قال:

ـ بيان ولادة؟

غمغمت:

ـ ليس لديّ بيان ولادة.

فمدّ يده إلى درج متنهّدًا وأخرج منه قلمًا وورقة، وسألني وكأنّه موظّف حكومي:

ـ زمن الولادة؟

قلت له لا أعرف.

فأضاف بنبرة يشوبها التعب والإنهاك:

ـ تاريخ الولادة؟

ـ لستُ متأكّدًا.

وهنا أطلق الرجل تنهيدة قويّة انتهت بضحكة وقال:

ـ لستَ متأكّدًا؟

ثم رفع كأس ماء من على حافّة نافذة قريبة منه واستأنف كلامه:

ـ إنّني عرّاف أيّها السيّد ولست ساحرًا، وأنا في حاجة إلى بعض التفاصيل.

ثم رشف من مائه وكأنّه فرغ منّي. توقّعت إلى حدٍّ ما أن ينظر من فوق منكبيّ ويقول:

ـ الشخص التالي.

لكن لم يكن غيري في الحجرة ينتظر رؤيته.

قلت وأنا لا أرغب في الخروج من دون الحصول على بعض المعلومات:

ـ ظننتك قادرًا على قراءة كفّي، أو ربّما وجهي. ثمّة من يعرف قراءة الوجه.

لماذا جئت إلى هنا؟ لم أعد متأكّدًا. لقد نسيت حبّ الفضول الذي انتابني بشأن بابو أنغتي. لعلّني لم أرغب إلّا في إثارة الاهتمام شأن غيري من الناس الذين يذهبون إلى مثل هؤلاء الناس. وشعرت بخيبة الأمل وكأنّني حُرمت من هديّة.

رفع من عينيه إليّ وسرح ببصره برهة وجيزة من دون أن يبدي ملاحظة، ولكنّني أشحت بنظري بعيدًا عن سخريّته الصامته. مدَّ يده، فمددت يدي وقلت:

ـ لا أدري إن كان ينبغي أن أمدّ يدي اليمنى أو اليسري..

نظر نظرة طويلة ومتأمّلة إلى كفّي ونظرت بدوري وكأنّني لم أشاهد كفّي من قبل، فرأيتها متغضّنة، وسخة، مزدحمة بالتقاطعات والخطوط القويّة والعميقة التي تقطعها إلى نصفين. سبق لي أن شاهدت أكفًّا قلّما تحتوي على خطوط، ولكن كفّي ليست واحدة منها، بل مختلفة عنها. وانتظرت وكأنّني أنتظر قرار النطق بالحكم.

قال في حين كانت أصابعه تقتفي أثر أطول خطوط كفّي:

ـ يا لها من خارطة حقيقيّة! يا لها من أنهار تنمّ عن رغبة، وجبال توحي بالطموح!

ـ أردت أن... أعني، كان الأمل يراودني في أن...

كرّر العرّاف:

ـ تريد، تريد، تأمّل، تأمّل. هذا ما يقوله كفّك يا سيّدي. ليس كفّك سوى مجموعة خرائط حنين مستحيل.

ثم ضغط على خطّ الحياة الخاصّ بي، وقال:

ـ لا شيء فيه سوى الحنين.

ثم سكت من بعد ذلك ولم يتفوّه بكلمة، وشعرت بتشنّج في ذراعي بسبب وضعها فوق المكتب، وكانت الساعة الخشبيّة المزخرفة المثبتة على الجدار تدقّ. لم يكن الكرسي حيث أجلس مزوّدًا بمسند للذراع، ولم أفهم شيئًا من رأسه المحني أو نظّارته المائلة. وبدأت أتساءل في عجب إن كان قد استسلم للنوم أو أنّه مات. فما كان منّي إلّا أن سعلت وكأنّني في حاجة إلى ماء، فحرّكت الكرسيّ ليصدر صوتًا، وهنا وثب قارئ الكفّ وقال في دهشة:

ـ قطار الثلاثاء! قطار الثلاثاء!

ثم هزَّ نفسه هزّة خفيفة وقال وكأنّه يكمل حديثًا:

ـ الحياة مصنوعة من الآجر والحجارة، آجرة فوق آجرة.

قلت له:

ـ إنّني مساعد بنّاء، وقد مضى على شغلي زهاء سنة، وقد بدأ ربّ عملي في إرسالي إلى التفاوض مع الناس.

كنت فخورًا بهذا، فقبل بضعة أيّام أرسلني بابو أنغتي للتفاوض مع بعض المشترين المحتَملين.

وهنا غمغم بكلمة ما، وأضاف:

ـ هل جئت إلى هنا لتتكلّم عن نفسك أم لتصغي؟

فلزمت الصمت خجلاً.

قال:

ـ ماذا تريد أن تعرف، إيه؟ دعني أخبرك. ماضيك ملتبس ولكن مستقبلك واضح. ماضيك يشير إلى التشرّد ومستقبلك يشير إلى الاستقرار في بيوت. هذا أوضح شيء. نعم، سوف تتزوّج. نعم وسوف

تبلي بلاءً حسنًا في عملك. وستصبح لديك ثروة، وتتجاوز كثيرًا بداياتك. ولكنّك لن ترزق بطفل. لا، ولن تكثر في الترحال والسفر. هل من شيء آخر؟

راودني إحساس هو مزيج من الانزعاج وخيبة الأمل، ولكنّني أردت أن أكبت دافعًا في نفسي كي لا أكون فظًّا معه، فسألته في نبرة متواضعة:

ـ هل من شيء آخر يمكنك أن تخبرني به عن مستقبلي؟

ـ لا، ولكن انتظر!

ثم رمى كفّي بنظرة من جديد وأحضر عدسة مكبّرة وتفحّص جزءًا منه. كانت قمّة رأسه قريبة من أنفي. وانتصبت خصلات من شعره الرمادي المشوبة بالحمرة النحاسيّة من فوق فروة رأسه الصلعاء وكأنّها شتلات في منبت زهور بنّيّ اللون.

ـ أراك واقفًا على بعض الدرجات، ثمّة ماء أمامك، ولكن هل ستنزل إليه وتسبح؟ أم تراك ستظلّ واقفًا على الضفّة متفرّجًا؟

ثم ترك كفّي ودفع شعيرات رأسه إلى الوراء واسترسل في حديثه:

ـ فات الأوان. هذا كلّ ما هنالك.

وقبل أن أتمكّن من طرح سؤال عمّا كان يعنيه بكلامه، كان قد توارى من وراء الستائر الباهتة المهدّلة على الباب الداخلي. وعلى حين بغتة، تطايرت الجريدة فوق المكتب بسبب المروحة وتبعثرت في أرجاء الحجرة، فاندفعت في محاولة لكي أجمعها تحت ذراعي.

* * *

كان بابو أنغتي يراقبني حقًّا مراقبة أكثر من ذي قبل. ففي السنة

الأولى أو ما يقرب من ذلك من عملي في المكتب، لم أكن أكثر من صبيّ يعدّ الشاي ويسجّل الرسائل الواردة والرسائل الصادرة.. الإفادات الخطّيّة وسلطات النائب العامّ مدوّنة كلّها في سجلّ أحمر كبير الحجم. كنت أراقب بابو أنغتي يدخل المكتب مستغرقًا في التفكير، غير مدرك على ما يبدو تلك الإشارات المتملّقة التي يبديها له رئيس المراقبين والمشرف والزوّار من المقاولين. وتنبّهت في وقت لاحق إلى أنّه كان يتعمّد في إلقاء شيء ما عند قدميه كي ينحني كلّ من يكون على مقربة منه ليلتقط ذلك الشيء ويرفعه عن الأرض. لهذا كانت رغبتنا شديدة في أن ننحني كلّنا، ويطرح أحدنا الآخر، في محاولة للوصول إلى القلم أو ماسكة الورق. ولاحظت في إحدى المرّات أنّ إظفر إصبعه الخنصر كان مطليًّا بلون أحمر، وأنّ باطن قدميه مشقّق وقذر على الرّغم من بياض أصابعه وطول أظافرها. ومع هذا، فقد ذهبت إلى منزل ذلك الرجل لألمس قدميه وأحصل على بركاته.

رماني بنظرة عندما نهضت واقفًا على قدميّ، وقال لرجل جالس على مقربة منّي:

ـ هذا هو الفتى الذي أخبرتك عنه.

لمست قدميّ الرجل أيضًا، ونبضات قلبي تتسارع في دقّاتها. لقد أخبر بابو أنغتي شخصًا ما عنّي!

قال بابو أنغتي:

ـ إذًا هل تحبّ أن يحدث لك أيّ تغيير؟ هل في إمكانك ترك السجلّات والمجيء وإيّاي إلى الموقع يوم غد؟

رفعت بصري من فوق أقدامهما معبّرًا عن عظيم امتناني وعدم تصديقي.

تقرّر أن نلتقي في اليوم التالي عند موقع في منطقة باليغونج الواسعة الثراء والمزدهرة لتكون جزءًا من حياتي اليوميّة. ذهبت مبكرًا وانتظرت قدوم بابو أنغتي. وشاهدت في ذلك المكان مبنًى قديمًا متهدّمًا شاخصًا نصفه في وسط حديقة مترامية الأطراف، كثيرة النباتات. ولم يكن العمّال قد وصلوا؛ ولاحظت أنّ العمل لم يتجاوز خلع النوافذ الأماميّة، فبدا المبنى وكأنّ هناك من فقأ عينيه. وكان في الإمكان مشاهدة الأرضيّة الحمراء المغبرّة والظلمة والزوايا من خلل فجوات الثقوب. وفي الجهة الخلفيّة من المبنى، ثمّة منزل منفصل مهلهل يحتوي على غرفتين في أحسن الأحوال وحنفيّة مكسورة بجانبه تقطر ماءً.

مررت من أمام المنزل معتقدًا أنّني وحيد، ولكنّني جفلت عندما شاهدت رجلاً يظهر للعيان مرتجفًا. كان رأسه يرتجف وبدنه يرتجف أيضًا، وكانت يداه الممسكتان بالباب ترتجفان. كان شعره الأبيض قذرًا وعيناه صفراوين، كتفاه ينحدران من فوق قميص رثّ من دون أزرار. وكانت رقبته البارزة تكشف عن عظام من تحت جلد بلون الخشب مغطّى بشعر رمادي اللون، منتشر في غير انتظام. وظهرت من خلفه امرأة شابّة نحيفة البنية حاولت أن تقيّده إلى الخلف ولكنّه أبى. كانت في عمر الشباب، ولكن وجهها اكتسى بملامح تنمّ عن إرهاق وتقدّم في العمر. واحتجّ عليها قائلاً في صوت رفيع حادّ وهو يحدّق إليّ:

ـ دعيني وشأني، لن أذهب. لن أذهب.

استدرت على عقبيّ وخرجت في طريقي إلى البوّابة، وفي اللحظة التالية نسيت أمره عندما ظهر بابو أنغتي مرتديًا مئزره الأبيض المنشّى وقميصه المجعّد، متألّقًا من تحت ضوء النهار الساطع في ذلك الوقت المبكر. كان الطقس حارًّا، فهرعت إليه ورفعت مظلّة فوق رأسه لأخفّف عنه وطأة حرارة الشمس. تململت في توتّر وعصبيّة، فقد كانت تلك هي

المرّة الأولى التي ألتقيه فيها بمفردي في موقع بناء حقيقي، وكان بابو أنغتي يتميّز بطبعه الفظّ، ولهذا لم أرغب في أن أرتكب أيّ زلّة. ثم التحق بنا رئيس العمّال المسؤول عن سير العمل، وكان رجلاً طويل القامة، ذا وجه يشبه الصقر، وقليل الكلام، ولكنّه لم يتعمّد السير مضطربًا من حول بابو أنغتي كما كنّا نسير مضطربين مرتبكين. وأصغى إلى التعليمات التي وُجّهت إليه من دون أن تظهر عليه أمارات القلق من احتمال نسيان شيء ما.

كان بابو أنغتي يقول عندما وصلنا أيكة صغيرة من خلف المكان:

ـ لا بدّ من اقتلاع أشجار المانغو الموجودة في هذه البقعة فنحظى بمكان نضع فيه خزّان الماء. قل لي ما الذي سوف نحصل عليه لقاء الخشب، ولا تخبر الرجل الذي يأخذ الشبابيك لأنّه يدفع ثمنًا بخسًا مقابل الخشب.

خطا بابو أنغتي خطوات واسعة مؤكّدًا على ضرورة مثابرة العمّال. وقال مشيرًا إلى اتّجاه ما:

ـ اعملوا على تسوية الأرض، وضعوا الآجر في تلك البقعة.

ثم أشار إلى اتّجاه آخر وأضاف:

ـ وصفّوا الشبابيك ولكن عليكم أن تحصوا عددها أوّلاً! ولكن ماذا بشأن حاجز السلالم؟ علينا الحصول على عرض أفضل من عرض المرّة السابقة. ثمّة حاجز محفور في سلالم الدرج العلويّة، وأريد نصبه في منزلي. اهتمّ بذلك. هلّا فعلت ذلك؟

دوّنت كلّ شيء على قصاصة ورق، لا أعرف ما التعليمات الخاصّة بي أو التعليمات الخاصّة برئيس العمّال.

سرنا من حول الناصية ووصلنا إلى المنزل فوجدنا بابه مغلقًا، بينما ظلّت الحنفيّة تقطر ماءً. وقال بابو أنغتي وقد بدا عليه الانزعاج:

ـ اهتمّ بأمر الحنفيّة.

ثم مسح مؤخّر عنقه بمنديل رطب متّسخ في حين لبثت أحاول أن أبقي المظلّة من فوق رأسه البارز. وبينما كنّا نغادر الموقع، قال أولى كلماته لي:

ـ أرأيت ما نفعل؟ هل يمكنك ذلك؟

في المرّة التالية التي توجّهت فيها إلى الموقع، كانت الأرض المحيطة بالموقع تبدو نظيفة ومترامية الأطراف. وعلى حين بغتة أصبحت الأرض التي كانت مزروعة بالعشب وفيها شجرة داكنة تسبح في الضياء. كانت الأشجار قد اقتلعت واقتلع معها المنزل. أمّا الحنفيّة، فما تزال تقطر ماءً مبلّلة الأرض من حولها.

* * *

كان أسلوب بابو أنغتي يتلخّص في شراء البيوت القديمة، وكان بعضها قد هجره أصحابها ورحلوا بسبب التقسيم، والبعض الآخر يملكه عدد كبير جدًّا من الأقرباء المتخاصمين، بينما احتلّ قسم آخر من تلك المنازل مستأجرون فلم يعد أصحابها يريدونها؛ ونتيجة لذلك اشتراها بابو أنغتي بثمن بخس. كان يعرف جيّدًا كيف يتخلّص من الأقارب التعيسين والمستأجرين المتأخّرين عن الدفع. أمّا إذا كانت المنطقة جيّدة، فقد يشيّد بيتًا ضخمًا ويبيعه لرجل ثري فيستفيد من الربح. وكان أحيانًا يترك البيت سنوات قائلاً:

ـ هذا منجم ذهب. وسوف ترى، سيكون منجم ذهب يومًا ما.

كان يضع إصبعه الصغير في أذنه وينظر من حوله بعين واحدة إلى أن يخرج إصبعه وقد أحاط الشمع بنهايته.

وكان يكرّر وهو ينظر إلى الشمع:

ـ سوف ترى يا بني.

كان محلّ عملي في المبنى الواقع في منطقة باوبازار يتألّف من حجرتين، يحتلّ إحداهما بابو أنغتي بينما يحتلّ الآخرون الحجرة الثانية فضلاً عن إبريق شاي ومدفأة تصدر هسيسًا طوال النهار. أمّا خارج المبنى، فثمّة شارع فيه محلّات ودكاكين، وحيث تتعفّن قشور الخضراوات من تحت الأقدام ويصيح الباعة الجوّالون حتى وقت متأخّر من المساء على بضاعتهم. كان المبنى متداعيًا، آيلاً للسقوط، وكانت الحجرات صغيرة مطليّة بطلاء أرجواني تحوّل إلى لون رمادي، ولا يحتوي على إعلان لطلب بنّاء. وكان ثمّة ممرّ ضيّق ومظلم خارج حجرة بابو أنغتي. وفي هذه الحجرة جلستُ الآن في فخر واعتزاز من وراء منضدة كتابة، ومن أمامي محبرة وسجلّ ومسطرة وخرائط بيوت مرتّبة بجانبي. وكان ثمّة مصباح مثبّت في شمسيّة من صفيح رخيصة تشبه الصحن، ويتدلّى من فوق الرأس مضفيًا عليّ هالة صفراء اللون.

إضافة إليّ، كان هنالك الصبي الذي يعدّ الشاي وعدد من المقاولين والسمكريّين والكهربائيّين والعمّال المتنقّلين من مكان إلى آخر، إضافة إلى رجلين آخرين اضطرّ بابو أنغتي إلى استئجارهما، وكانا على ما أظنّ، شقيين تافهين ضاقت بهما الأيّام، وكان يلجأ إليهما عند التعامل مع أجلاف الحيّ وما أشبه. وكان أحدهما مترهّلاً، عابس الوجه يدعى بهيم، سريعًا في إطلاق الشتائم وافتعال الشجار، وأمّا الثاني فكان ممتقع الوجه طويل القامة من أصول إنكليزيّة وهنديّة واسمه

هارولد، غائر عظام الوجنتين، وله أنف كبير الحجم فيه آثار من بثور الجدري، ويشبه أنف السكارى. وكان في غابر الأيّام لاعب كرة الركبي وملاكمًا، يوحي مظهره البدني بولع في الشجار وبأثر لكمات على الذقن. وعلى الرّغم من سوء مزاجه وحدّة طبعه فإنّه كان ميّالاً إلى الكآبة، وكان في أوقات الهدوء والراحة يتلو صلوات وقصيدة حفظها منذ أيّام المدرسة تقول: انظر إلى أعلى حيث النجوم، انظر إلى أعلى حيث النجوم... وكان يردّدها كلّ يوم عند هبوط المساء، وأحيانًا تكون السماء مجلّلة بالغيوم، والنهار تشيع فيه العتمة قبل الأوان.

لم أستطع أن أتخيّل مدى فائدته لبابو أنغتي إلى أن وقع يومًا ما فأر صغير الحجم في مصيدة المكتب، وشاهدت هارولد يخرجه من المصيدة ويؤرجحه بيده ويسدّد نظراته إلى وجهه الصغير الذي طار الدم منه خوفًا ورعبًا، ويقول في صوت حزين ورقيق:

ـ أيّها المخادع الصغير المرتعد خوفًا، أيّها الوحش الجبان، يا له من رعب استبدّ بك!

وبينما كان يكلّم الفأر، أخذ يعصر رقبته ويضغط عليها حتى جحظت عيناه.

فكّرت أنّني مغرق في عواطفي: فأنا أتذكّر أنّني لبثت أفكّر في بعض الأمور على مدى أيّام مررت بها في لحظات معيّنة من حياتي، بل وصل بي الأمر حدّ البكاء سرًّا، وإن كان غيري من الصبيان لا يبكون. وعندما كان المستأجرون يُطردون قسرًا أو خلسة وعندما تنشأ الحاجة لدفع الرشوة، وعندما كنت أنظر إلى وجوه الناس الذين ألمّت بهم عاديّات الدهر وعفّت عليهم يد الزمان وهم يشاهدون منازلهم تُهدم، فإنّني كنت أحدّث نفسي قائلاً إنّ هذا هو العالم الحقيقي، العالم الذي

يحيا فيه كلّ الرجال البالغين. فعندما كان يتولّى بهيم وهارولد مهامهما، فإنّني كنت أشيح بنظري جانبًا وأهرب في تفكيري نحو وجه بوذا المتعفّن في الشجرة عند أطلال سونغارة، والذي بقي ملاذًا وإن كنت قد حجبت عنّي كلّ ما يخصّ تلك البلدة. كنت أعرف أنّنا لم نكن نمارس أيّ عمل غير قانوني، فالمستأجرون الذين يُطردون لا يملكون حقًّا قانونيًّا في المكان، والأخت التي جاءت دامعة العينين لتلقي آخر نظرة إلى بيت أبويها لم ترث أيّ حصّة فيه. الرحمة لا مكان لها في عالم المال. هذا ما كان يردّده بابو أنغتي في وله. لا بدّ من وجود خاسر وإلّا كيف يكون هناك رابح؟ هكذا كانت الأموال تدور وتدور، وإذا ما تردّدت يومًا ما، أراه يقول لي:

ـ من يملك حقًّا قانونيًّا؟ كلّ ما أطلبه منك هو أن تفعل ما هو صحيح قانونيًّا.

وفي بعض الأحيان، كنت أتساءل في عجب عن عدالة عملي الشعريّة والمريرة: فأنا أطرد الناس من بيوتهم بينما كنت أنا مطرودًا يومًا ما.

تعلّمت إجراءات العمل على جناح السرعة. ثمّة أشياء معيّنة استمتعت بها: مشاهدة عمارة تنهض من بين الرسوم على الورقة وإيجاد الحلول السريعة والحاسمة للمشكلات في موقع العمل، إرغام العمّال على رفع رؤوسهم والنظر إليّ، المرور من أمام مبنى شيّدته عند إشعال الأضواء من وراء النوافذ ذات الستائر الصفر والحمر. ووجدت في نفسي طاقة غير متوقّعة لأن أكون واقعيًّا بشأن كلّ شيء على الرّغم من عدم إحساسي بالراحة والاطمئنان أحيانًا. ولهذا السبب بدأ بابو أنغتي يعتمد عليّ اعتمادًا متزايدًا. ونظرت إليه بوصفه محسنًا إليّ، يعلّمني تجارة. وكان يعاملني معاملة تختلف عن معاملته الآخرين. فقد بات

الصبي، يأتيني بالشاي إلى مكتبي، ولم أعد أجلس خارج المطبخ على مصطبة رفقة العمّال وهارولد وبهيم منتظرًا أن يأتي دوري. وبدأ الناس يخافون تقرّبي من ربّ العمل ويحترمونني. وبعد أن أنفقت عمري أنزل عند رغبة الآخرين، بدأ الآخرون الآن ينزلون عند رغبتي ويذعنون لإرادتي. ورأيت في وجوههم وجهي القديم.

لم أرجع إلى البيت إلّا من أجل نوري. وفي طريق عودتي من العمل إلى المنزل كنت أشتري له الفلفل الطازج كلّ يوم وأطعمه إيّاه حبَّة، فحبَّة، وأشرح له ما حدث في العمل في ذلك النهار.

وكنت أقول له:

ـ أرسلني بابو أنغتي لأزور موقعًا فوجدت الأشقياء في المنطقة، وقد أحاطوا بموقع العمل.

فكان نوري يردّد:

ـ أيّها الزاني بأخته، يا ابن الزنى!

وكانت مخالبه تغور في قميصي وتصل كتفي، ولكنّني كنت أشعر بها مألوفة لديّ وأنيسة.

وأضيف قائلاً:

ـ يمكنني أن أنادي هارولد وبهيم، ويمكنك أن تعرف مدى سوئهما إذا ما اجتمعا معًا، ولا يحرّكان ساكنًا ليحصلا على بغيتهما.

ثم أمسك بحبّة فلفل وأقدّمها له قائلاً:

ـ ما تظنّ العمّ سليمان يقول عن عملي، إيه؟

فكّرت في دهشة عن رأيه فيّ، وهو الذي لم يتمكّن من الحصول على نصيبه من عقاره. كان في وسعي أن أجد حلًّا لمشكلته.

وماذا عن بابو نرمال؟ لم يرق لي التفكير فيه ـ بابو نرمال الذي لم يقدر على جعل الآثار تتحلّل من دون استخدام فرشاة وعود أسنان. ما الذي في وسع بابو نرمال أن يقول عن تجارتي عندما أراد أن يدفن نفسه بين الكتب ويظهر، بعد مرور عشرين سنة، إنسانًا متعلّمًا يملك مكتبة مكسوّة بالغبار وشعر يتناقص رويدًا رويدًا؟

ويقطع عليَّ نوري سلسلة أفكاري ليقول في صوت حادّ:

ـ يا ابن الزنى!

ثم يلقم حبّة الفلفل بمنقاره.

أمّا أنا فكنت أقول له في الأيّام الشاقّة أكثر من غيرها:

ـ ليس لوقت طويل يا نوري. سوف أدّخر بعض المال وعندئذٍ سأبحث لي عن عمل آخر، فهذا العمل لا يلائمني.

فيبدي الطائر بعض الأصوات مقلّدًا نبرتي، ويمسّ شعري بمنقاره.

بدت الشتائم التي يطلقها نوري وكأنّها تحبُّب، ففي عالمي الذي يخلو من الأصدقاء، كان هو الوحيد الذي أكلّمه، وكانت الشتائم في رأينا وسيلة اتّصال. وفي إحدى المرّات، وكان الوقت مساءً ينقضي بالتراخي والكسل، شعرت بالسرور والمتعة وأنا أستمع إلى كلماته البذيئة، فتساءلت في عجب إن كانت كانابالا قد وافتها المنيّة وبُعثت من جديد في صورة ببغاء. كان وجه نوري الذاوي يشبه من بعض الأوجه وجه المرأة العجوز. ما الذي يمكن أن تقوله باكول عن أفكاري الغريبة؟

بيد أنّني لم أستطع السماح لنفسي بالتفكير في باكول. ذلكم شيء لم أسمح به لنفسي قطّ. التقطت حبّة فلفل وعدت إلى نوري. كان هو رفيقي الدائم وليس باكول. ولم أستطع البوح إلّا له بأسلوب النجاح

الذي جعلني أخشى من أنّني بدأت أتحوّل إلى شخص ما تشمئزّ منه نفسي الأولى.

* * *

ذات يوم، وبعد أن استقرّ بي المقام عند بابو أنغتي وبدأت أدير شؤونه الكثيرة، جاء إلى المكتب لزيارتي باراباسو رئيس المراقبين في المدبغة القديمة. وبعد أن تبادلنا الرأي بخصوص عدم تصديقنا أنّ درجة الحرارة ارتفعت إلى هذا الحدّ، بدأ يفتّش في حقيبته القديمة المصنوعة من القماش وأخرج في نهاية الأمر مظروفًا ظهرت في إحدى زواياه بقعة من أثر كركم.

وقال ضاحكًا وهو يسلّمني المظروف:

ـ إنّ زواج البنت يا موكوندا ليس بالأمر الهيّن. وإذا ما فرغت منه فسوف يكون أشبه بعبء ثقيل يُزاح من تفكيري. سوف تحضر، صحيح؟ إنّه زواج في قرية، ونحن قرويّون، ولكنّني سوف أكون غاية في السرور إذا ما تجشّمت عناء الحضور.

وصلت القرية قبل يوم واحد من الزفاف. وكنت قد رميت أمتعتي على الأرض وبدأت أسأل عن أحوال باراباسو عندما دخلت فتاة شابّة حاملة طبقًا من الطعام المرتّب ترتيبًا دقيقًا ووضعته على طاولة تمتدّ أمامنا. وكانت تمسك باليد الثانية دورقًا معدنيًا من الماء، ولم أختلس إلّا نظرة سريعة إلى وجهها لأنّ طرف ثوبها الساري كان يغطّي رأسها في حشمة. وكانت ترافقها أمّها التي قالت لباراباسو في صوتٍ عالٍ:

ـ ابنتك يا عزيزي! يا لها من طفلة صلفة! كان اليوم كثير المشاغل، ولكنّها على الرّغم من ذلك أعدّت كلّ هذا الطعام. ولم تستمع لكلامي عندما أردت أن أرسل في طلب الحلويات والفطائر

المثلّثة الشكل المقليّة والمحشوّة بالخضراوات واللحم المفروم المتبّل بالبهارات! وقالت لي آنئذٍ: لا يا أمّاه! ربّما كان صديق أبي يُكثر من تناول وجبات المطاعم ولمّا كان يعيش بمفرده، فلا بدّ لنا من أن نعدّ له طعامًا منزليًّا لذيذًا!

رشقت وجه الفتاة الشابّة المغطّى بالساري بابتسامة مؤدّبة، وقالت والدتها:

ـ هيّا يا ماليني.

ثم استدارت لتنصرف من الغرفة.

لحقت بها الفتاة في طاعة وامتثال، ولمّا وصلت الباب ورأت والدها وقد ولّى ظهره إيّاها، رمتني بنظرة متعمّدة طويلة تنمّ عن صفاقة، وسقط ثوبها عن رأسها وحطّ على كتفيها. لو لم أظنّ أنّ الأمر لا يصدّق لقلت إنّها أخرجت لسانها لي.

في مساء اليوم التالي وبعد انتهاء الزفاف والمأدبة الكبيرة، جلست رفقة بارابابو وأقربائه، مشاركًا إيّاهم فورة تحمّسهم الذي أعقبت الزفاف وتدخين النارجيلة التي كانت تدور على الجالسين.

وقال بارابابو:

ـ لكلّ وجه من أوجه الحياة زمن معاكس له يا بني. كلّ شيء له وقت معاكس. فأنت الآن في زمن غريها براستا[1] ـ أتعلم ذلك؟

كرّرت ناعسًا من فرط التخمة:

ـ غريها براستا؟

(١) غريها براستا Grihaprastha: وهي إحدى المراحل الأربع التقليديّة في الحياة الهندوسيّة، والمقصود بها مرحلة ربّ الأسرة، (المترجم).

ـ نعم، غريبها براسنا. كم عمرك؟ واحد وعشرون سنة؟

قلت:

ـ واحد وعشرون! تلك حياة أخرى. أنا في الثالثة والعشرين، فقد ولدت في العام ١٩٢٧.

قال بارابابو في صوت حادّ:

ـ هذا يثبت كلامي. ينبغي لك أن تصبح ربّ أسرة الآن. وقد آن الأوان لتتخذ لك زوجة وترزق بأطفال. هل تنتظر حتى تصبح أسنانك صناعية؟

قلت:

ـ أطفال؟ أنا لا أفكّر حتى في عروسة، وليس لديّ أبوان ليبحثا لي عن عروسة.

قال بارابابو:

ـ أقرّ واعترف أنّك تواجه صعوبة في الحصول على عروسة لك ـ فأنت نشأت نشأة طيّبة، ولكن على الرّغم من ذلك لا أحد يعرف طبقتك الاجتماعيّة. ولكنّني لا أؤمن بمثل هذه الأشياء.

ثم نظر من حوله إلى جمهوره الذي استبدّ به النعاس، وأضاف:

ـ رأيي هو أنّ الحكم على المرء يأتي بأفعاله، وبحسب أفعالك، فإنّني أقول...

ثم نظر من حوله من جديد واسترسل:

ـ إنّك مناسب لأن تكون زوجًا لابنتي. نعم، ابنتي نفسها، وإن كنت أنتمي إلى الطبقة البرهميّة منذ أن عاش براهما وتنفّس.

* * *

لم أشعر يومًا ما أنّني في حاجة إلى زوجة، ولكنّني على الرّغم من ذلك لم أشعر بالرضى مثلما شعرت به على إثر زواجي بابنة بارابابو الوسطى، وهي الفتاة التي قالت لي بعد أن أصبحت زوجتي إنّها أخرجت حقًّا لسانها في صباح ذلك اليوم في القرية. وبعد ولادة ابننا، شعرت أنّه لم يعد لي أيّ مطلب أو حاجة بعد الآن. وضحكت زوجتي لمّا رأتني متعجّبًا من أصابع قدمي الطفل الصغير وعجيزته الطريّة الصغيرة.

قلت لها:

ـ سوف أذهب إلى ذلك العرّاف الحقير الذي قال لي إنّني لن أرزق بأيّ أطفال وسوف أريه ولدي. أطفال، وسوف أريه ولدي.

ابتسمت زوجتي وقالت:

ـ ربّما ليس هو بطفل، فأنت تهيم به وكأنّه إلٰه صغير على أيّ حال.

كانت على صواب، فقد كنت مسحورًا بولدي، وبحقيقة أنّني رزقت بطفل. وأسميناه غوتام على اسم بوذا الذي تذكّرته عند شجرة التين البنغالي في سونغارة. ولكنّني لم أناده بذلك الاسم، بل لجأت عوضًا عن ذلك إلى استخدام مجموعة من الأسماء المحبّبة والمضحكة. بات عمره اليوم سنة واحدة، وكنت في كلّ شهر من الأشهر الأحد عشر أحتفل بعيد ميلاده، تمامًا مثلما تذكّرت ما كانت السيّدة بارنوم تفعله بالاحتفال بعيد ميلادها شهريًّا. ففي اليوم الثاني عشر من كلّ شهر، كنت أطلب من زوجتي أن تعدّ حلوى بالرزّ على الطريقة البنغاليّة وتشعل مصباحًا زيتيًّا أمام ابني، وكنت أحضر شيئًا ما خاصًّا بالمناسبة مثل صغار السمك المقلي أو قطع من لحم الضلوع ليكون بذلك وجبة عشاء

لنا إضافة إلى قطعة صغيرة من المعجّنات الحلوة له. وكنت أقول لزوجتي عندما كانت تحتجّ على هذا الإفراط:

ـ الاحتفالات الكثيرة أفضل من القليلة، وسوف ننفق نحن الثلاثة حياتنا كلّها في الاحتفالات.

رفعت بصري من مكاني من فوق الأرض حيث كنت جالسًا ورنوت إلى زوجتي وهي تهيّئ الفراش ووجهها نحو حافّته، وشعرها الطويل المسدل يلامس ركبتي، وجهها الدائري تلوح عليه رصعة وهي ضاحكة. وكان ولدي مستلقيًا بجانبي على الأرض الباردة محاولاً أن يمصّ إصبع قدمه. لففتُ خصلة من شعرها من حول سبّابتي. كانت قد انقضت سنتان على زواجنا، شخصان غريبان لا قاسم مشترك بينهما سوى والدها. كانت قد نشأت في قرية صغيرة ولم تقرأ شيئًا أكثر من حكايات شعبيّة وقصص أطفال، في حين كنت أنا رجلاً من أبناء المدينة قرأ على مدى سنين كلّ ما تضمّه مجموعة العمّ سليمان من كتب. كانت ما تزال طفلة من نواحي عديدة، عفويّة ولاهية وتوّاقة لإسعادي وبثّ السرور في نفسي وإن كان صعبًا بعث السرور في نفسها.. لم تكن أيّامنا الأولى سهلة وهيّنة، بل كان يشوبها صمت مفعم بالتوتّر والوجوم وعدم التفاهم، تعقبه ليال طويلة من اعتذار ملؤه الشوق والحنين. ورويدًا رويدًا اعتاد أحدنا الآخر وأصبحنا رفيقين في مدينة كبيرة موحشة! ولكن على الرّغم من ذلك، ثمّة أشياء كثيرة لم نستطع التشارك فيها وإن كانت ثمّة أشياء أخرى أعلم أنّني لا أقدر على أن يشاركني أحد غيرها فيها.

تركت شعرها ينسدل ومسّدت وجنتها، فأمسكت إصبعي بيدها ووضعته في فمها تداعبه بلسانها.

وانساب إلى سمعنا صوت نوري وهو جالس على الأرض ينظر إلينا

مثل ناسك عجوز، حكيم وقلق. كانت الغصّة الوحيدة في حياتنا الهادئة متمثّلة في أنّ زوجتي لم يرقها نوري وكانت تخشى أن ينقر الطفل بمنقاره، ولكنّني كنت على ثقة من أنّ كلّ شيء سوف يتغيّر.

كانت خيالاتي الطفوليّة الجامحة عن المغامرة والحبّ غاية في العبث حتى إنّني لم أتذكّرها قطّ. وبدت لي هذه الحجرة، رفقة زوجتي وطفلي وطائري كلّ ما يمكنني أن أتمنّى. جلت ببصري من حولي وفكّرت أنّه لو قُدّر لي أن أقبض على الحياة وأن أسجن جزءًا قليلاً منها كي أستغرق فيها مرّات ومرّات، فإنّني سوف أضع هذا الجزء الصغير في زجاجة وأهزّها مثل بيوت أجنبيّة عند تساقط الثلوج وأدخلها متى أشاء.

* * *

في هذه الأثناء، بدأ بابو أنغتي يبحث عن فرص في أماكن أخرى، وتكلّم على بلدات قريبة من كلكتا آخذة بالتغيير، وأصبحت بعضها مقرّات لتلك المناطق، وراجت شائعات مفادها أنّها سوف تصبح عواصم في وقت باتت الهند المستقلّة حديثًا تنتظم في ولايات مختلفة، وبدا بابو أنغتي يجمع معلومات عن عدد من هذه المناطق. وفي عصر أحد الأيّام، استدعاني إلى غرفته.

ـ أحضر أمتعتك معك يوم غد، فسوف نسافر ليلة أو ربّما ليلتين.

كنت قد سافرت وإيّاه قبل اليوم، ولكنّني أتذكّر هذه الرحلة على أوضح ما يكون. فقد استقللنا قطارًا يسير على الخطّ المتري، واتّخذت مكاني في مقصورة من الدرجة الثالثة رفقة أمتعة بابو أنغتي بينما جلس هو في الدرجة الأولى. لم أعترض على هذا الشيء، فقد كنت أستمتع بعزلة حشود الدرجة الثالثة حيث كانت القرويّات يجلسن على الأرضيّة، وبجانبهنّ سلال المنتجات الزراعيّة مملوءة أو فارغة بحسب الوقت،

تراقب وجوههنّ التي لوّحتها الريح العالمَ الغائمَ من جرّاء السرعة خارج القطار بنظرة منهكة غائبة. راقني الإحساس بأنّني ليس لديّ ما أفعل سوى مراقبة ذلك الريف الأخضر الذي تحتشد فيه برك الماء وأوراق شجر الموز وهو يمرّ من جانبنا، وشرب الشاي المعبّق برائحة الأرض الرطبة من كوب فخّاري أسمر ضارب إلى الحمرة.

شعرتُ بالارتياح والانتعاش عندما ترجّلنا من القطار عند رصيف غير معبَّد بل مشيّد بتربة مطروقة، ومنعزل عن العالم الخارجي بحاجز حديدي ثُبّتت عليه علامة كتب عليها اسم المحطّة باللغتين البنغاليّة والإنكليزيّة: مانوهاربور. قلّبت الاسم على لساني، إذْ سبق لي أن تذوّقت طعمه. مانوهاربور هل ذكره العمّ سليمان؟ أو ربّما... هل سمعته من شخص ما في المدرسة؟ كلّ ما أعرفه هو أنّني كنت أعرف الاسم.

لم نكن قادرين على العثور على عربة أجرة أو عربة ركشة، فقد كانت المحطّة خالية منها. وبدأنا نسير، بابو أنغتي يصبّ اللعنات بسبب نقص وسائل النقل، في حين رحت أتلفّظ بكلمة مانوهاربور في كلّ خطوة أخطوها محاولاً أن أتذكّرها. واضطررنا إلى السير في وسط البلدة الصغيرة والسوق الصغيرة ثم خرجنا إلى الريف.. وعلى امتداد الدرب الترابي المطروق ومن أمام الأكواخ الطينيّة وحقول الأرزّ التي كانت تحطُّ فيها طيور البلشون الأبيض متأمّلة، قبل أن نصل بوّابة حديد عظيمة بدت غريبة وغير ملائمة في تلك البقعة. ثم سرنا على امتداد طريق طويل تحفّ به أشجار الفاكهة من جوز الهند والمانغو وغيرها. وشعرت بالصناديق والفرش الملفوفة وقد باتت أثقل وزنًا وأنا أنوء بحملها حتى أثقلت كاهلي. ولمّا وصلنا شرفة ممتدّة على مسافة طويلة أمام المنزل، وضعت الأمتعة على الأرض وتنهّدت، ومسحت وجهي الذي كان يتصبّب عرقًا.

وجلس بابو أنغتي على أحد الكراسي المصنوعة من خشب الخيزران وقال:

ـ اذهب واهتمّ بالأغراض، اطلب أحدًا ما.

سرتُ حول الحديقة حتى وصلت مؤخّر المنزل، فوجدت نفسي من دون سابق إنذار قرب نهر يمرّ بمحاذاة المنزل وفي بقعة من الأرض ذات لون بنّيٍّ شاحب. فسرتُ حتى وصلت ضفّة النهر واستبدّت بي الدهشة لما وجدته قريبًا إلى هذه الدرجة، فقد كانت حافّة الضفّة لا تبعد سوى بضعة أقدام عن الدرجات المؤدّية إلى الشرفة الخلفيّة وكانت أكبر حجمًا وطولاً من الشرفة الأماميّة. كانت خاوية، بلا كراس ولا صينيّة شاي متروكة منذ الصباح. قد تتوقّع أن أكون مثل هذه الشرفة بقعة مختارة سواء لتجاذب أطراف الحديث أو العزلة، ولكنّها بدت مهجورة واستطعت أن أشاهد على الضفّة المقابلة قمم الأكواخ الصغيرة والمبنى المشيّد بالآجر، ولكنّها كانت بعيدة كلّها. ونسيت المهمّة الملقاة على عاتقي في حين مرَّ من أمامي قارب مسطّح وواطئ، يدفعه رجل بعمود فينساب على امتداد النهر في يسر وسهولة. وهبَّ نسيم من جهة النهر فبرد وجهي الذي لفحته الشمس. ولسبب خفيّ، جعلني المشهد كلّه أشعر بحزن لا سبيل إلى التعبير عنه وملأني بإحساس أنّني كنت في هذا المكان من قبل في حياة سابقة. وكان الإحساس قد بلغ أشدّه، ورحت أسائل نفسي: هل كنت يومًا ما ضفدعًا نهريًّا أو فأرًا في ذلك المنزل؟ لماذا جاء بابو أنغتي إلى هذا المكان؟ هكذا تساءلت في دهشة وتملّكتني موجة من الرعب. أتراه يخطّط للاستيلاء عليه وهدمه أيضًا؟

ولكن قبل أن أستحقّ غضب بابو أنغتي من جرّاء شرود ذهني، وتأخّري ـ وهو تأخّر ينبغي لي أن أعترف بأنّه ليس من صفاتي ـ جاء إليّ شخص ما وقال:

ـ آه، الناس في كلكتا!

ظننتُ أنّنا سوف نسير داخل المنزل حتى نصل واجهته الأماميّة حيث كان بابو أنغتي في الانتظار، ولكنّ الرجل قادني إلى الخارج من الطريق نفسه الذي جئت منه، ففكّرت أنّ المنزل ليس شاغرًا بعد، فتفحّصت ظهر الرجل في عناية وأنا أسير من ورائه. كان شعره الرمادي حليقًا في شكل حلقة وكأنّ الحلّاق قد وضع وعاءً من فوق رأسه قبل أن يعمل فيه المقصّ. كانت فروة رأسه من تحت الحلقة الدائريّة قد نما فيها الشعر من جديد. لم يكن طويل القامة ـ فقد كانت قمّة رأسه تصل إلى ما دون كتفي ـ ولكن كانت تشوبه مسحة من الأهمّيّة التي يحاول الكثير من قِصار القامة أن يعوّضوا بها عن قصر قامتهم. وكان ينظر وراءه بين الفينة والفينة ليتأكّد من أنّني لم أضيّع طريقي مثل جرو نزق. وفي تلك اللحظة انتهزت الفرصة لتفحّص وجهه الذي كانت عليه آثار بثور الجدري وتكسوه مسحة تنمّ عن ضجر، وكانت إحدى عينيه دامعة بسبب التهاب صديدي.

قال بابو أنغتي له:

ـ حسنًا، هلّا دعوتنا إلى الدخول بعد هذه الرحلة الطويلة؟

قال الرجل وقد تحوّل إلى متزلّف الآن:

ـ نعم، نعم.

وأضاف:

ـ لكنّ المنزل في حال سيّئ جدًّا، وأنا خجل من ذلك! خجل أيّها السيّد.

قال بابو أنغتي وهو يرفع جسده الثقيل من فوق الكرسي الخيزران:

- كلام فارغ. إنّني أصرّ على رأيي.

- إنّ الكلام هنا سيكون محاطًا بسرّيّة أكبر أيّها السيّد.

- الرجل العجوز في غرفة النوم. صحيح؟ وهو مريض. صحيح؟ إنّني أصرّ على رؤيته!

إذا أصرَّ بابو أنغتي، فإنّ القليلين يمكنهم المقاومة. . إنّني أعرف ذلك من تجربتي، وبدأت أتّجه نحو الباب الرئيس المغلق.

كانت الحجرة الداخليّة في حالة يرثى لها حقًّا. سبق لي أن رأيت عديد المنازل القديمة التي لم تمتدّ لها يد الصيانة، لكن هذا المنزل كان الأسوأ من بينها. فستائره عفنة تفوح منها رائحة غبار وعطن، والأرضيّة فيها بقع تالفة كشفت عن الآجر الكامن من تحتها. وكان الأثاث أشبه بجنود سقطوا في الميدان، مقطع الأوصال، بلا قوائم أو أذرع، وبعضه مرميّ جانبًا كأنّ المكان يحتشد بالخشب. وكانت ثمّة مرآة ضخمة بإطار معلّقة على نحو مائل، يعلوها غبار حتى يبدو مستحيلاً علينا أن نتبيّن ملامح وجوهنا فيها. وكانت البطّانيّات التي أكلها العثّ تغطّي بعض قطع الأثاث، واللوحات الفنّيّة، التي أظنّها لوحات تمثّل وجهاء الأسرة من كبار السنّ معلّقة في إطارات مزخرفة. كانت اللوحات والإطارات قد باتت رماديّة اللون نتيجة الفطريّات، أمّا السلالم التي كانت تمتدّ إلى أحد جانبي الحجرة، وهي سلالم شديدة التقوّس والانحدار، فلاحت وكأنّ وطأة فأر من فوقها سوف تتسبّب في انهيارها في كومة من التراب. أمّا الشيء الوحيد الذي لم يمسسه ضرر إلى حدٍّ ما فكان يتدلّى من السقف ويتمثّل في ثريّا هائلة في حجمها تزيّنها أنسجة عناكب عملاقة.

عطس بابو أنغتي وهمهم:

- أهذا هو البيت الذي تريدني أن أشتريه؟

ـ على رسلك! تكلّم بصوت خفيض أيّها السيّد!

قال ذلك الرجل وهو ينظر من فوق منكبه في اتّجاه باب نصف مفتوح وتوسّل:

ـ كما قلتُ لك، المكان كثير الغبار هنا، وسوف ننعم براحة أكبر خارج المنزل...

تبيّن أنّ المنزل يملكه سيّد عجوز ليس له وريث على ما يبدو وأنّه يعاني مرضًا وبيلاً في الوقت الراهن. وكنّا نتحدّث إلى رجل من أهل المنطقة جعل من نفسه شخصًا لا غنًى عنه أمام الرجل المريض، يقوم بمهامّ العناية به وإدارة شؤونه في آن واحد منذ سنة تقريبًا. ولمّا اشتدّ المرض الآن على الرجل العجوز، أراد ممرّضه هذا أن يبيع البيت قبل أن يظهر للعيان أيّ وريث مزعج، بعد أن راجت شائعات مفادها أنّ ثمّة وريثًا محتملاً.

قال بابو أنغتي:

ـ علينا أن نتحقّق من كلّ شيء بطبيعة الحال، وسوف يدقّق المحامون الذين وكّلتهم في الأوراق!

قال الرجل:

ـ ما من خطأ أيّها السيّد.

ثم استأنف كلامه في نوبة تظاهر فيها بالشجاعة:

ـ وقد اطّلع آخرون على وثائق هذا المنزل.

قال بابو أنغتي:

ـ آه، أتريد أن تقول إنّ ثمّة مشترين آخرين؟ هه!

ثم أخرج مادّة مخدّرة تتكوّن أساسًا من نبتة الأريقة والتبغ من علبة

فضّيّة صغيرة وحشرها في فمه في اشمئزاز، وأضاف ملء فمه:

ـ لماذا لا تبيعهم المنزل في هذه الحالة إذًا؟

وبعد أن مضغ قليلاً، بصق ما كان في فمه من مادّة حمراء لطّخت جدار الشرفة الأبيض ولوّثت ذراع الكرسي الخيزراني القريب.

وخلصت إلى نتيجة مفادها أنّ بابو أنغتي كان يعلم أنّ على الرجل أن يرغم سيّده على التوقيع على بيع العقار وهو في حالة المرض، يغشاه إمّا بالقوّة أو بالحيلة والخداع، ولكنّني لم أحبّ أن أفكّر في أيّ من هذين الأسلوبين.

قال بابو أنغتي كأنّ الفكرة واتته قبل قليل:

ـ وماذا عن الأثاث؟ قلت لي إنّه من ضمن الصفقة، وفي هذه الحالة ينبغي لي أن أعثر على من يخلّصني منه.

اكفهرّ وجه الرجل بعد أن وجد نفسه مغلوبًا على أمره في المفاوضات حتى الآن، فقال متذمّرًا:

ـ لم أقل شيئًا عن الأثاث.

قال بابو أنغتي:

ـ آه، حسنًا. هذه قضيّة تخصّك ولا تخصّني.

وتململ كأنّه يريد الانصراف وأضاف:

ـ نحن نريد المنزل ولكنّنا نريده خاويًا. أرجوك تخلّص من الأثاث ومن الرجل العجوز أيضًا، وأبلغني متى يرحل، فأنا لا أطيق الانتظار طويلاً، ولا أحبّ أن أضع القيود على أموالي.

رأيت الرجل منهمكًا في عمليّات حسابيّة سريعة. ما الذي سيفعله بثريّات بلّوريّة أو أيّما شيء آخر من النقوش التي ترقى إلى العصور

الفكتوريّة في تلك البلدة الصغيرة؟ كانت زوجة الرجل قد وصلت ووقفت عند طرف الحجرة ورمته بنظرة تنمّ عن نفاد صبر.

قال الرجل:

ـ آه، حسنًا! إذا كنت محتاجًا إلى الأثاث فخذه ولكن لقاء ثمن.

انصرفنا من المنزل بعد مساومة أخرى على الثمن. وبينما كنّا نشق طريقنا في اتّجاه المحطّة، بعد أن قرّرنا العودة إلى كلكتا في ذلك اليوم نفسه، ضحك بابو أنغتي ضحكة قصيرة وأخرج قطعة أخرى من المادّة المخدّرة من علبته وقال لي في جذل:

ـ يظنّ ذلك الأحمق نفسه ذكيًا. لقد باعني كلّ ذلك الأثاث بسعر زهيد. وسوف أحصل على ثلاثمائة روبيّة من بيوت المزاد لقاء واحدة من تلك الثريّات. هل فهمت؟

قلت:

ـ ماذا؟

كانت الثريّا تبدو لي عديمة القيمة لا تزيد عن كونها مجموعة من الزجاجيّات التي علاها الغبار، فضيلتها الوحيدة هي أنّها سليمة في غرفة تحتشد بأثاث لا طائل من رؤيته مرّة أخرى!

ـ أمامك طريق طويل ينبغي لك قطعه وأشياء كثيرة كي تتعلّمها يا بني. كلّ ما عليك هو أن تظلّ بجانبي.

ثم ضحك قليلاً وأبدى حركة من أصابعه المزيّنة بالخواتم كأنّه يريد أن يغمّسها في شيء ما، واستأنف حديثه:

ـ ضع واحدة من هذه الثريّات في ماء النهر واسحبها بعد ذلك فتجد البلّور، بلّور بلجيكي أصيل.. لا شيء أقلّ، لا شيء أقلّ.

ثم ضحك من جديد، فتسبّبت بهجته وسروره في نوبة من سعال، وانطلق من فمه ذلك المستخلص الأحمر اللون باتّجاه الأرض وكأنّه مادّة اللافا المنبعثة من فوهة بركان، وأضاف:

ـ أمامك أشياء كثيرة كي تتعلّمها.

وصلنا محطّة القطار، ولكن على الرّغم من رواق مزاجه، إلّا أنّه لم يطلب منّي السفر في مقصورته. ومع هذا، وبينما كنت أتّجه إلى مؤخّر القطار حاملاً أمتعتنا قال في نبرة مشوبة بحبّ الفكاهة والمداعبة:

ـ كلّ ما نحتاج إليه الآن هو موت الرجل المريض.

عندما عدت أدراجي إلى المنزل في تلك الليلة غمرني إحساس غير مألوف بالاكتئاب ولم أتنبّه إلى يديّ زوجتي من فوقي.

وأخيرًا قالت شاكية:

ـ ما خطبك؟

أخبرتها عن المنزل وعن النهر، وقلت:

ـ الرجل العجوز يحتضر، وحيدًا من دون أحد إلى جانبه، مخدوعًا في بيته. لماذا ينبغي على أيّ بشريّ أن ينفق أيّامه الأخيرة في مثل هذه الوحدة والعزلة؟ المكان هو مانوهاربور. هل رأيته؟ يا له من مكان يملأ النفس راحة ورضًى.. ومع هذا يموت المرء في مثل هذه التعاسة التي يحيط بها مثل هذا الجمال!

زهقت زوجتي وقالت:

ـ أنت ونوبات الكآبة التي تستبدّ بك! أقول لك شيئًا، أمامك سنوات طويلة كي تصبح رجلاً عجوزًا؛ ولكنّك على الرّغم من ذلك تبدو منذ الآن شائخًا.

ثم انقلبت على جنبها مشمئزّة من مزاجي المكتئب وفتور همّتي وتحمّسي.

حدّقت إلى السقف المظلم. كان الشعور الذي راودني بأنّني سبق لي أن شاهدت ذلك المنزل سرًّا لم أرغب في أن تشاركني فيه زوجتي. وأدركت من عدم اهتمامها أنّ البيت لا صلة له بها ولا بحياتي التي أعيشها وإيّاها. لهذا لم أقل شيئًا وإن لبثت يقظًا مدّة طويلة.

لكي أنهي هذه القصّة لا بدّ من القول إنّ هذه هي المرّة الوحيدة، على قدر ما أعلم، التي تكبّد فيها بابو أنغتي خسارة. فقد تبيّن أنّ الرجل الذي كلّمناه كان يلعب لعبة مزدوجة، أو أنّه على ما يبدو تسلّم عربونًا من خمسة أطراف قبل بابو أنغتي مُطلعًا إيّاهم على وثائق مزوّرة. وفي الوقت الذي افتُضح فيه أمره، كان قد توارى عن الأنظار، ولم يستطع أحد إبلاغ أمره إلى الشرطة لأنّهم أصلاً خرقوا القانون بمحاولتهم شراء العقار منه. وهنا هاج بابو أنغتي وماج واستنزل اللعنات، ولكن لم يكن في وسعه عمل أيّ شيء، لأنّه لم يعرف، لا هو ولا أحد غيره، مكان حجّة البيت الحقيقيّة التي لا يمكن من دونها إجراء أيّ عمليّة بيع أو شراء.

سررت سرورًا كبيرًا لأنّ الصفقة كانت بائرة، ولم أُهزم بسبب عدم ولائي. وشعرت بالسعادة عندما فكّرت أنّ المنزل سوف يبقى على حاله، هادئًا مطلًّا على النهر، من دون أن يمسّه أيّ شيء.

وبعد مرور بضعة أيّام، بات المنزل واحدًا من بين منازل أخرى كثيرة العدد، ونسيت كلّ شيء عنه بعد أن أغرقت نفسي في الاستعداد لعمليّة تدمير أخرى.

* * *

بعد مرور بضعة أشهر استدعاني بابو أنغتي في وقت مبكر إلى مكتبه. وكان قد أخبرني في اليوم السابق أنّ أوّل شيء يريد أن يفعله هو أن أقابله في الصباح، ولهذا كنت على استعداد للمقابلة، وقلبي يدقّ دقّات عنيفة لا تبعث على الاطمئنان، جبيني يتفصّد عرقًا من شدّة الخوف. حاولت أن أعيد ترتيب مشاهد أحداث الأسبوع الفائت والأيّام التي سبقته مباشرة ولكنّني لم أكتشف أيّ زلّة ارتكبتها أثناء عملي.

كان يريد مناقشة شؤون العمل، فطلب منّي الجلوس لأنّني كنت على الدوام أقف على قدميّ في مكتبه، ولكنّني لبثت واقفًا محنيّ الرأس إلى حدٍّ ما، مغاليًا في التقدير والاحترام، ومتنبّهًا. رفع بصره إليّ منزعجًا وقال:

ـ ألا يمكنك الجلوس عندما أطلب منك ذلك؟ سوف تصاب رقبتي بالتشنّج وأنا أرفع بصري إليك لأحدّثك.

اتّخذت مكاني من فوق كرسي في حين دفع بابو أنغتي بقطعة مخدّر بين شفتيه المتقشّرتين الحمراوين.

وقال:

ـ تنبّه إلى ما أقول. عليك الاهتمام بهذه القضيّة بنفسك. واكتب بعض الملاحظات وتذكّر ما أقول.

اختلست نظرة خاطفة من حولي باحثًا عن ورقة وقلم كي لا يؤنّبني بابو أنغتي بسبب عدم استعدادي. ولكنّه لم يحرك ساكنًا وأغمض عينيه وضمّ أصابعه إلى بعضها في شكل هرم وبدأ يتكلّم.

ـ هذا بيت كبير آخر، يشبه إلى حدٍّ ما البيت المطلّ على النهر الذي ذهبنا إليه قبل أشهر. ويقع في مساحة مترامية الأطراف وفي منطقة نعتقد أنّها سوف تزدهر. البلدة صغيرة اليوم، ولكن نما إلى علمي أنّ ثمّة

فرصة جيّدة لأن تصبح مركز قضاء في غضون سنة أو سنتين.

ثم فتح عينيه وفاجأني بسؤال:

ـ هل تتكلّم اللغة الهنديّة؟

ـ نعم، نعم، فقد نشأت في...

ردَّ وأغمض عينيه من جديد.

ـ حسنًا.

لم يكن مهتمًّا في سماع أيّ شيء يخصّني، وكنت معتادًا ذلك، ولم أتوقّع ما يخالف ذلك.

ـ ثمّة أخوان اثنان يملكان المنزل، وثمّة خصام.

وهنا ابتسم بابو أنغتي في نفسه وما زال مغمض العينين، وأضاف:

ـ هناك خصام على الدوام، وإلّا كيف نحصل على رزقنا؟ وقد باع أحد الأخوين هذا البيت لي. إنّه في حاجة إلى المال، تجارة بائرة وأسرة كبيرة. أشياء مألوفة. لكنّ المشكلة هي:

في هذه اللحظة فتح عينيه، وقال:

ـ هل أنت مصغٍ إليَّ؟

قلت:

ـ نعم، بطبيعة الحال.

قال بابو أنغتي، وضاقت عيناه قبل أن يغمضهما من جديد:

ـ إذًا.. قل شيئًا ما بين حين وآخر.

فبدأت أتمتم ببعضِ الكلمات عندما ينتهي من التفوّه بكلّ جملة. كانت المروحة السقفيّة تصدر صريرًا من فوقنا، وتحرّك الهواء الساكن.

وانقلب الصباح إلى صباح يقبض الصدر، وبسبب التعرّق التصق الظهر بالقميص بالمكتب من دون أن أتجرّأ على الكلام. وكانت يدي المعروقة تمسك بالقلم. وأضاف:

ـ يملك المنزل كِلَا الأخوين، الأخ الذي باعه يزعم أنّه حاول إقناع شقيقه على البيع وذهب إلى ما هو أبعد من ذلك بأن منحه حصّته من المال. هه! الحكاية القديمة نفسها!

وافقته قائلاً:

ـ هه!

ـ على أيّة حال، ليس هذا شأننا. الأخ الأكبر سنًّا له تفويض شرعي على الأخ الأصغر لأنّه... آه، لقد نسيت التفاصيل. لقد باع الأخ الأكبر المنزل مستخدمًا التفويض القانوني، ولهذا فنحن في مأمن من الناحية القانونيّة.

قلت متمتمًا:

ـ ثم...

ـ الأخ الأصغر يرفض الرحيل عن المنزل. آه، حسنًا. لقد سبق أن عالجنا مثل هذه المواقف من قبل. وحصلت على ثمن جيّد من الأخ الأكبر بسبب هذه المشكلة. وهذه المشكلة، أعني الأخ الأصغر، سهلة. فهو ليس مستأجرًا، إذ وقّع على وثيقة تنازل فيها عن حقوقه. وكلّ ما ينبغي لك عمله هو أن تخبره بضرورة إخلاء البيت والخروج منه... أن تقنعه.

سألت مرتبكًا:

ـ أقنعه؟ ألم يحاول الأخ الأكبر إقناعه قبل الآن؟

فتح بابو أنغتي عينيه في لحظة غضب مباغت، ولاحظت الهالات من تحتها رماديّة، والأوعية الدمويّة الحمر تتلوّى في طريقها بين الأوعية البيض. وردَّ بشراسة وصوت خشن:

ـ لو كنت في مثل سنّك لنفّذت ما يُقال لي من دون أن أطرح أيّ أسئلة غبيّة. كلّ ما هنالك هو أنّني كثير المشاغل لا أستطيع الذهاب بنفسي والاهتمام بهذه القضيّة. هل تفهمني؟

تلعثمت قائلاً:

ـ لا، لا. أعني نعم، على وجه التأكيد.

ـ إقنعه بالخروج. هل تفهم؟ أرسلت بهيم وهارولد لينفّذا الأشغال الاعتياديّة: الطرق على الأبواب ليلاً وقرع الأجراس والتواري عن الأنظار، وكسر نافذة أو نافذتين، لكن من دون طائل. أريدك أنت أن تذهب إلى هناك. أريد بيتًا فارغًا. إفعل ما تشاء: إقطع عنه الماء والتيّار الكهربائي. . . وإذا تطلّب الأمر، بثّ الخوف في أوصاله، من دون اللجوء إلى الشرطة. ولا تحاول أن تورّط نفسك مع الشرطة. حسبك أن تخرجه من البيت.

وجد بابو أنغتي دفتر ملاحظات، فدوّن بضعة أسطر وهو يتلفّظ في صوت خافت الكلماتِ التي كان يكتبها وسمعت ما كان يكتبه قبل أن أرى الكتابة نفسها. ولمّا فرغ امتدّت يدي التي ظننت أنّها ليست يدي لتمسك بالورقة. كان خطّ بابو أنغتي جميلاً ودائريًّا يشبه خطّ طفل. وأكّدت لي قصاصة الورقة ما سمعت، ولكن عقلي العنيد ما زال يرفض استيعاب المعلومات المحدقة إليّ.

* * *

خرجت من غرفة بابو أنغتي يساورني الشعور أنّني مقطّع الأطراف.

كنت في المكتب وليس في المكتب تمامًا. وبدأ الطنين يملأ أذنيَّ وكأنّني واهن القوى بغتة بسبب الإعياء؛ وعندما وضع الصبي كوب الشاي على طاولتي وقال:

ـ ماذا؟ هل أصبت بالصمم؟ ها هو شَايَكَ!

نظرت إليه دقائق طويلة وكأنّني لا أعرف معنى كوب فيه سائل بنّي ساخن. وعلى امتداد النهار، فعلتُ ما ينبغي لي فعله، ولكن من دون أن أعرف ما أفعل إلى حدٍّ ما.

وفي البيت، فاجأتني زوجتي عندما لمست مرفقي وأنا واقف في ظلمة الشرفة المعبقة برائحة زهور الياسمين، وعقلي يسابق جسدي. وعند العشاء، قالت في عجب بعد أن رأتني لم ألمس الطعام:

ـ إذا كانت المسؤوليّة تفعل بك هذا الفعل، فعليك أن تبقى مساعدًا طوال حياتك، فهذا أفضل لنا جميعًا.

وأخيرًا حلَّ النهار الذي سوف أسافر فيه. لم أعرف ما الذي حملته من أغراض ولا كيف وصلت إلى محطّة القطار، ولكنّني وجدت نفسي عصر ذلك اليوم، وقبل موعد رحيل القطار، في خضمّ فوضى جسر هوراه محدّقًا إلى المراكب التي كانت تنساب على امتداد ماء النهر العكر والمستوي. واصطدم الناس بي وشتموني وهم يمرّون بي وكأنّهم نمل من تحت قناطر الجسر الحديد العالية. وتغيّرت عربات الترام وتضاءلت بسبب الحشود والجسر إلى لعب ميكانيكيّة. سرت إلى أمام وأنا أنظر إلى النهر وإلى مركب يخفق من فوقه علم مهلهل باللونين البرتقالي والأخضر. وكان إلى جانبي المؤمنون بالخرافات ينحنون ويتمتمون بالأدعية لنهر الغانج.

شعرت أنّني غير قادر على الكلام وأنّني مشلول وانّ عقلي في اضطراب شديد.

فبعد مرور اثني عشر عامًا على إبعاد بابو نرمال لي عن بلدة سونغارة ونقلي إلى كلكتا، ها أنذا أعود أدراجي إلى سونغارة. لقد اشترى بابو أنغتي بيتي القديم من كمال، وأنّ عليَّ أن أطرد بابو نرمال من البيت الذي نشأت فيه وترعرعت.

وباكول! عليَّ أن أطرد باكول!

* * *

ثلاثـــة

جلست قرب النافذة، وشعر رأسي تتقاذفه الريح. كانت الظلال في الخارج تندفع إلى الخلف في اتّجاه الليل الذي ينيره ضوء القمر اللؤلؤي. كان النسيم المنساب من النافذة المفتوحة دافئًا، ولكنّه على الرّغم من ذلك كان مفعمًا بالهواء الفاسد الذي يخيّم على المقصورة الحديد من الدرجة الثالثة بسبب الحرارة العالية فيها. وإلى جانبي شكل محدودب وقد استلقى نائمًا في السرير المجاور مُصدرًا شخيرًا مدمدمًا أوّلاً ومشوبًا بصفير ثانيًا. ومن فوق، كانت ذراع رجل آخر تتدلّى فتكاد تلامس أنفي. وبدأ القطار منطلقًا في رحلته شأنه شأن أفكاري. وكانت كلّ دورة من دورات عجلاته تردّد «باكول، باكول» عند انطلاقها مندفعة وسط حقول البنغال وفي اتّجاه سهل سونغاره الكثير الروابي والهضاب.

لم أسمح لنفسي طوال تلك الأعوام على التفكير في باكول، لأنّ

من شأن ذلك أن يفتح بوّابات شقاء أعرف جيّدًا أنّني لا أملك القدرة على غلقها. ولم أسمح لعقلي أن يرسم صورتها: أنفها المترفّع في ازدراء وعيناها الشبيهتان ببركتي ماء نهر، اللتان لا تنظران بل تحدّقان وتحملقان. منذ أن كنت في سنّ السادسة وكانت هي في سنّ الرابعة تقريبًا، لازمنا بعضنا بعضًا. في صباحات الشتاء الباردة، كنّا نراقب أنفاسنا تتحوّل إلى ضباب وتمتزج؛ وفي الصيف، في أوقات العصر الحارّة كان أحدنا يرمي على الآخر دلاء ماء البئر البارد فتأخذنا البهجة والسرور. وعندما جاءها الحيض أوّل مرّة، كنت أنا الذي هرعت إليها مسرعًا ومذعورًا ومنفعلاً ومثرثرًا - كنت مشمئزًا وفزعًا من بقع الدم معتقدًا أنّها ألحقت الأذى بنفسها. كان أحدنا يشارك الآخر في أسراره. كنّا يتيمين عثرا على ملاذ.

لم نفهم يومئذٍ معنى الافتقار إلى أصدقاء آخرين. لعلّ ذلك أمر غير طبيعي. صبيّ وصبيّة على درجة بالغة من الألفة ولكنّهما لا يرتبطان بأيّ رابطة قرابة. لا بدّ أنّ ذلك الوضع أثار حفيظة الناس على الرّغم من أنّنا كنّا غافلين عن مشاغلهم وما يدور في أذهانهم.

هذا هو السبب في إبعادي عنها على وجه التوكيد. وها أنا أفهم هذا الشيء الآن بعد أن أصبحت أبًا. لكن عندما أخبرني يومئذٍ بابو نرمال أنّه يريد إرسالي إلى مدرسة في كلكتا وأنّني يجب أن أغادر سونغارة، لم يكن عقلي يستوعب الأسباب. فالشعراء يتحدّثون بلغة الاستعارة عن قلوب محطّمة ولكنّني أعلم أنّ قلبي كان محطّمًا في ذلك الوقت. كنت أشعر به وهو يتصدّع، شعرت بألم يدي، بسكّين حادّ يغور بين ضلوعي عندما قال لي بابو نرمال إنّني يجب أن أرحل وكرّر القول عندما وجدني لا أصدّق ما يقول. ولمّا سألته عن السبب ونحن نقطع الطريق باتّجاه محطّة القطار - مرّة واحدة من دون أن أكرّر السؤال -

ابتسم ابتسامة عرفت أنّها كاذبة، وقال لي إنّني سأحصل على تعليم أفضل وأنّه يريد أن يبعدني عمّن يريد أن يصدر لي الأوامر في المنزل. كنت في تلك الليلة في الثالثة عشرة من عمري، وكان العالم يتلاشى أمام ناظريَّ والقطار يهزّني ويخضّني بعيدًا عن باكول وسونغارة فنشبت أسناني في البطّانيّة كي لا يسمع بابو نرمال بكائي. وفي تلك اللحظة وطّنت العزم على ألّا أعود إلى سونغارة وألّا أكلّمه من جديد بعد أن قذف بي في جميع الجهات: من الملجأ إلى سونغارة وإلى كلكتا - في شوط من أشواط لعبة تنس الريشة كنت فيها أنا الريشة.

وما إن وضعني بابو نرمال في المدرسة حتى دفع الأجور الدراسية في الوقت الملائم وحرّر الرسائل لي بضع مرّات في السنة، وجاء لزيارتي مرّتين. أتذكّر بخاصّة أولى تينك الزيارتين عندما رأيته في الممرّ وكان العامل الهندي في المدرسة موتيلال يقول له: ها هو صبيّك! وكنت أنظر، ولكنّني لا أرى قميصه غير الواضح المعالم وإبهام قدمه يبرز من جانب صندله الأخرق وبنطاله الفضفاض ووجهه الهزيل الذي ينشد استرضاء الآخر على نحو غريب. خرجنا لنتمشّى نحو الجانب الآخر من ساحة اللعب شديدة الحرارة واجتزنا بوّابات المدرسة في صمت مرتبك لا تقطعه سوى أسئلة مؤدّبة يطرحها عليَّ. وأدرك، مثلما أدركت أنا أيضًا، أنّنا في متاهة، بعد أن جرى اقتلاعي من فضاءات سونغارة بسبب رفقة وصداقة عابرة، وحيث لم تعد ثمّة ضرورة لتجاذب أطراف الحديث. دلفنا إلى المتحف الهندي وسرنا من أمام دائرة المسح الجيولوجي، وكانت الحرارة تنبعث من ممرّات السابلة الإسمنت، فيسيل العرق مدغدغًا أسفل ظهرينا. وسألني بابو نرمال إن كنت أحبّ تناول المثلّجات في وقت كنت محتفظًا فيه بسؤال أردت أن أطرحه عليه وهو: لماذا منحتني مأوى ثم طردتني منه؟

استرخيت في جلستي على السرير الخشبي الصلب، محدّقًا في الظلمة. ها أنا أُرسَل من جديد إلى سونغارة بعد أن كنت طُردت منها منذ سنين طويلة، ولكنّني لم أعد ريشة بعد اليوم بل إنّني سهم يمزّق الليل لإلحاق الأذى.

* * *

بدأ الرجل النائم على السرير المجاور يصدر شخيرًا وبلغمًا. كنت غاية في الانزعاج فلم أستطع نومًا. ولم أستطع التفكير في أيّ شيء محدّد، لأنّ رأسي كان مزدحمًا بأفكار شتّى، لا مجال فيه للانتباه أو التركيز!

السيّدة بارنوم. لم أفكّر فيها منذ سنوات. هل ما تزال على قيد الحياة. لقد قرّرت أن ترسم صورتي في اللحظة التي رأتني فيها. وكانت قد أمرتني قائلة:

ـ اجلس ساكنًا.

وأشارت إلى كرسي كبير مغلّف بلون أزرق وأضافت:

ـ يا لها من عظام! ما اسمك؟

ولمّا أطلعتني على الرسم، وجدته يمثّل صبيًّا حادّ القسمات، واسع العينين، برصعة في الذقن وأنف طويل قياسًا إلى وجهه. وفكّرت في نفسي: هذا لا يشبهني أبدًا، ولكنّني لم أتجرّأ على الإفصاح عن رأيي. وبدأت باكول تضحك عندما شاهدت الصورة التخطيطيّة وقالت: نعم، هذا هو شكله تمامًا. وجه مضحك!

فكّرت: هل أزور السيّدة بارنوم؟ كيف.. حتى بعد كلّ تلك السنين التي انقضت على ضبطها إيّاي متلبّسًا في حجرة نومها؟ كيف تسنّى لي

أن أدسّ أنفي في ما لا يعنيني، خاصّة بعد الأسلوب الذي اتّبعته معي في تعليمي بكلّ ما تملك من كتب في المنزل ومن دوائر معارف ومجلّات على غرار ويمين ويكلي وقصص عاطفيّة. تذكّرت أوّل عيد من أعياد ميلادها الشهريّة، أعياد انطوت على فواصل شبحيّة استحضرت فيها الأرواح وأخبرتنا عن مستقبلنا. كانت مستغرقة في الطابع الاحتفالي، وهي مرتدية ثوبًا طويلاً وعلى رأسها إكليل مرصّع بالجواهر، تندفع من مكان إلى مكان، وتمسّد خدّي أثناء مرورها بي. وكانت تصفّق قائلة:

ـ موسيقى. يجب أن تستمتعوا أيّها الأولاد بالموسيقى والبهجة.

وكانت قد وضعت الجرس بجانبها وهزّته حتى جلجل صوته. وبعد خمس دقائق، سمعنا صوت الحاجب مهرولاً من فوق السلالم، مصابًا بضيق النفس.

قال وقد اتّضح عليه تزلّفه ومداهنته:

ـ نعم يا سيدتي.

ـ يجب أن نستمتع بالموسيقى أيّها الحاجب. ضع لنا بعض الموسيقى في جهاز الغرامافون.

ثم جلست متكئة في سريرها مغمضة العينين.

هرع الحاجب إلى الفجوة المعتمة عند أقصى الحجرة حيث يوجد جهاز غرامافون فيه بوق برونزي. وثمّة أسطوانة سوداء في الجهاز، أسطوانة سوداء موضوعة من قبل ويمكننا رؤيتها ونحن على مقاعدنا. مسحها بزاوية قميصه ونصب الجهاز واضعًا من فوقه إبرة ثقيلة بعد أن بدأ بالدوران.

جلسنا جامدين على كراسينا في وقت انساب فيه الصوت من الجهاز. لم يكن في وسعي أن أميّز أيّ نوع من أنواع الموسيقى التي ابتدأت بجلبة مدوّية تشبه جلبة سقوط شجرة أو صوت سفينة تصطدم بجبل جليدي. ثم ران صمت إلى حدٍّ ما، ولو لم أكن متمتعًا بأذنين مرهفتي السمع لقلت إنّ الموسيقى انتهت. ولكنّها صدحت من جديد فتضايقت بسبب المزيج الهائل من الأصوات المتنافرة الصاعدة والهابطة. توقّعت أن يبدأ نوع من الغناء، ولكنّني لم أسمع أيّ صوت لبشر، وتخيّلت في الموسيقى قمم الثلوج الموحشة والبالغة التأثير التي تحدّث عنها بابو نرمال، والفضاءات الشاسعة المفتوحة والجداول الصغيرة. كانت الموسيقى تتضخّم ثم تهدأ ثانية. وأتذكّر أنّني كنت أوشك على النهوض من فوق الكرسي مرّة أو مرّتين معتقدًا أنّها انتهت، ولكنّها ما تلبث أن تبدأ من جديد. رنوت إلى باكول طلبًا للمساعدة، ورأيت السيّدة بارنوم مغمضة العينين، يفترّ ثغرها عن ابتسامة باهتة. وعلى حين بغتة هدأت الموسيقى، وتخيّلت لبضع ثوانٍ وأنا مطمئنّ البال أنّها انتهت حقًّا.

لكنّ الصمت في هذه المرّة قطعه صوت الناي. كنت أستطيع معرفة صوت الناي، فقد كنّا نعزف عليه عندما كنّا في الملجأ ولديّ ناي خاصّ بي اشتريته من أحد المعارض. لكنَّ صوت هذا الناي لم يكن ليشبه صوت أيّ ناي آخر. ولم أعرف إلّا بعد أن التقيت العمّ سليمان وعزفت له على الناي أنّ اللحن يدعى «فنلنديّة» للموسيقار سيبليوس الذي ترجع موسيقاه إلى زمن موغل في القدم، على حدّ قوله.

كلّما فكّرت بعد ذلك بباكول في المدرسة الداخليّة بكلكتا وأنا أتململ من فوق السرير، وأصطاد البعوض، فإنّني فكّرت فيها صحبة تلك الموسيقى في ذلك المنزل، على مقربة من بركة الزنابق حيث

سبحت وإيّاها وأحسست بشفتيها تنسحقان من تحت شفتيّ، وشعرت بنهديها الصغيرين بحجم الخوخ من خلل قماش ثوبها الصيفي الرقيق المبلّل، وفمها الذي يضغط على فمي قبل أن يبتعد عنه، لتبدأ بعد ذلك بوضع يديها داخل قميصي ثم تداعب سروالي القصير الذي لاح وقد بعث للحياة في لحظات الخيال الجامح، كنت أحلم بالسفر إليها منطلقًا وسط بحار سود وجبال جليديّة متألّقة حتى أصل نهاية العالم. وشعرت أنّ في إمكاني سماع صوت الناي الذي هدّأ من الموج الجليدي وتساءلت في عجب إن كانت باكول قد سمعته بدورها.

زاد القطار المتّجه إلى سونغارة من سرعته. لم أفكّر في زوجتي ولا في ابني منذ أن غادرت المنزل. ولم يخطر ذلك ببالي آنئذٍ، ولكن عندما بدأ السبب الحقيقي من وراء رحلتي يؤرق فكري، أبعدته عن ذهني.

* * *

تغيّرت أشياء كثيرة في بلدة سونغارة في غضون الأعوام التي كنت بعيدًا عنها حتى إنّني لم أعثر فيها على مواضع مألوفة لي، فازداد ارتباكي أكثر فأكثر في طريقي من الفندق إلى دولغانج رود، وبدا كلّ شيء فيها أشدّ تواضعًا وصغرًا. كنت معتادًا هوراه التي كنت أظنّها أضخم محطّات القطار وأعظمها وأكثرها ازدحامًا وحركة. وذكّرتني محطّة سونغارة برصيفيها الاثنين بالبلدات التي زرتها رفقة بابو أنغتي. ورأيت متجر فينليز وقد تساقط عنه طِلاؤه، والرقعة التي تحمل اسمه مائلة، ودمى المانيكان صلبة ذات نهود نافرة. ورأيت الدكاكين الصغيرة التي تحفّ الطريق الرئيس تبيع بضاعة رخيصة الثمن. ثمّة شوارع ومبانٍ جديدة قليلة العدد حتى إنّني أخطأت في إعطاء سائق العربة التعليمات عن المكان المقصود أكثر من مرّة، ووصل بي الأمر إلى الخصام مع السائق بخصوص الأجرة. ولم أصل إلى باب المنزل رقم ٣ في دولغانج رود

إلّا بعد أن تجاوزت الساعة الخامسة: المنزل الذي كان منزلي.

في القطار، فكّرت أنّني سوف ألتقي باكول وأن أباغتها وحدها، ولكنّها لم تكن في الحديقة، ولم تكن قرب البئر. مشيت في الحديقة الخالية حتى وصلت الباب الرئيس فتنفّست نفسًا عميقًا ومررت أصابعي في شعري ومددتها إلى مطرقة الباب البرونزيّة المألوفة، ولكنّني لم أجدها، بل وجدت عوضًا عنها على الجدار المجاور للباب زرَّ جرس كهربائي. وعندما ضغطت عليه انساب إلى سمعي من الداخل رنينه ونباح كلب.

بدأ قلبي يدقّ دقّات لا تبعث على الارتياح، وحاولت أن أهدّئ من روعي وأن أكون رابط الجأش متماسكًا، فرمقت الحديقة من ورائي بنظرة لكي أشتّت انتباهي، فوقعت عيناي على نبات مزهر على أحد الجدران، ولم يكن موجودًا من قبل ـ كان لونه ورديًا في حديقة بيضاء. وكانت أشجار المانغو قد نمت وكبرت وبات في الإمكان مشاهدة الفاكهة الخضراء الصغيرة حتى من مسافة بعيدة. وكانت الشمس ما تزال حارّة تتوسّط كبد السماء الزرقاء.

لم يفتح أحد الباب. ومرّ وقت كافٍ لي كي أقرع الجرس من جديد، فضغطت الزرّ أشدّ من ذي قبل.

وما إن رنَّ الجرس حتى سمعت صوتًا منزعجًا وسط نباح الكلب، صادرًا من وراء الباب مباشرة.

ـ من هناك؟

وأدركت أنّه صوت صبيّ، فقلت مجيبًا على النحو الذي كنت أجيب به منذ سنوات:

ـ هذا أنا.

ولكنّني تذكّرت وقلت:

ـ واسمي هو موكوندا.

ـ لا يمكنني فتح الباب، فأنا لا أعرفك.

ـ استمع إليّ. إنّني مضطر إلى مقابلة...

ـ قلت لك لا أستطيع.

أحسستُ بالعرق يتحدّر على رأسي ويتفصّد من على جبيني، وبدأ قميصي النظيف يلتصق بظهري، ولكنّ الانزعاج من توجيه الكلام للباب ونباح الكلب في وجهي، جعلاني أصيح:

ـ أنظر، كن من تكن، فأنا مضطرّ إلى مقابلة بابو نرمال ولن أتزحزح من مكاني حتى أقابله. أين هو؟ وإذا لم تدعني أدخل، فسوف أقفز من فوق جدار الفناء.

ساد صمت وهدأ الكلب، ثم سمعت الصوت نفسه وهو يقول بشيء من الارتعاش:

ـ لا يمكنك أن تخيفني ولا يمكنك أن تقفز من فوق أيّ شيء. ولن أفتح لك الباب، كما أنّ الكلب يعضّ.

رنوت إلى الباب متذمّرًا ـ قطعة من الخشب سبق لي أن شاهدتها مرّات لا تحصى. تراجعت إلى الوراء ونظرت إليها نظرة طويلة لا أدري ما أفعل. فإلى جهة اليمين وعلى مقربة من البئر، يوجد الباب الخارجي المؤدّي إلى الفناء وإلى غرفتي، فلاحظت أنّ ثمّة قفلاً مثبّتًا عليه. وعلى الرّغم من أنّني هدّدت بتسلّق جدار الفناء، وهو أمر يسهل عليّ تنفيذه، شعرت أنّني غبي إذْ فكّرت في ذلك. وهنا عدت أدارجي إلى الباب وهتفت:

ـ أما زلتَ هنا؟

لكنّني لم أسمع أيّ جواب.

قلت:

ـ إنّ كلّ ما أبتغيه هو رؤية بابو نرمال. إنّني.. إنّني صديق قديم. أبلغه أنّني موكوندا، أو قل لباكول إنّني موكوندا.

انتظرت. وبعد لحظة قال الصوت بنبرة أقلّ اعتدائيّة:

ـ عليك أن تنتظر خارج الباب، فأنا لا يمكنني فتحه، وسوف يعودان في الحال.

سرت نحو الحديقة والتقطت ورقة شجر وبدأت أمزّقها نتفًا صغيرة فاحت منها رائحة المانغو، واتّجهت إلى البئر وانحنيت من فوق جداره الذي بدا أشدّ انخفاضًا ممّا أتذكّر. وكانت زهور الياسمين البيضاء ما تزال موجودة، تزيّن الماء. وكان في إمكاني أن أشاهد انعكاس رأسي القاتم في دائرة الضوء البعيدة التي تشكّل قعر البئر. رميت بحجارة، فتناهى إلى سمعي صوت رذاذ الماء بعيدًا، وتأرجحت دائرة الضوء وتكسّرت ثم هدأت من جديد. كلّ الماء الذي كنت أسحبه من هنا، كلّ الدلاء التي كنت أملؤها..

بدأت أتمشّى من حول الحديقة، ضجرًا بسبب الأفكار التي تساورني، منهكًا من الانتظار. لم أكن أعرف الشيء الكثير عن النباتات والأشجار، ولكن كان في وسعي أن أرى الحديقة جميلة تحتشد بأشجار الثمار القديمة التي يمكنني أن أستدلّ عليها، والأدغال العطرة والنباتات المعترشة وغيرها من الشتلات المثبّتة بأوتاد. وعلى الرّغم من الخضرة والبئر، لم تكن ثمّة قطرة ماء لأشربها، فضلاً عن أنّ حرارة الجوّ زادت من عطشي، حتى لم يعد في وسعي أن أفكّر في أيّ شيء آخر، ولا حتى

في سلوك الصبيّ الغريب. وأخيرًا، جلست فوق كرسي الأرجوحة القديم في الحديقة، شديد الاكتئاب والإعياء لا أقوى على الاهتمام بثيابي التي تجعّدت بسبب التعرّق. أغمضت عينيّ واستسلمت للأرجوحة!

* * *

لا بدّ أنّني رحت في إغفاءة قصيرة، لأنّني وجدتهما واقفين بمواجهتي ينظران إلى أسفل، عابسين ومستغربين. وكما هو شأن الدببة التي تعثر على نبتة الخصلات الذهبيّة، فإنّ باكول نطقت في نهاية الأمر. كان الوقت يقترب من الغسق وكان جسداهما قد تلاقيا بظلالهما من خلال النور الباهت. طرفت عينيَّ في محاولة لإبعاد النوم وحاولت النهوض على قدميَّ، ولكنّ الأرجوحة اهتزّت إلى أمام وضربت ساقيَّ فسقطت من فوقها.

ضحكت باكول، ثم غطّت فمها بكفّ يدها، ولكنّني تمكّنت من النهوض من فوق الأرجوحة.

قال بابو نرمال في صوت حذر:

ـ هل انتظرت طويلاً؟ لا أظنّ أنّنا التقينا من قبل.

قالت باكول:

ـ آه يا بابا. ألا تستطيع التعرّف إليه؟ إنّه موكوندا!

لم تستبدّ بي الدهشة فقد استدلّت عليّ، لأنّني لم أتوقّع غير ذلك، فأنا شخصيًا استطعت معرفتها في كلّ الأحوال. لقد تغيّرت ملامحها، ولكن تغيّرًا طفيفًا. . باتت الوجنتان أكثر بروزًا الآن في حين كانتا نحيفتين ومسطّحتين، وكان شعرها يصل خصرها، مشدودًا إلى الخلف،

ولكنّه كان من الأمام مثبّتًا بدبابيس ومدهونًا بالزيت أو أيّ مادّة أخرى تستخدمها لتجعله جميلاً. وكانت الخصلات المتطايرة ملتفّة من حول رقبتها وسائبة على جبينها. وكانت عيناها محتفظتين بلونهما الغريب نفسه. الشيء المختلف كثيرًا هو تحديقتها التي كانت تنمّ عن بهجة واستفهام في حين كانت سابقًا مكفهرّة وحذرة. وتألّق في ضوء الغسق لون ثوبها الأصفر الخردلي فوق قميصها الأبيض الذي لم يكن مناسبًا لها، متهدّلاً إلى أحد الجانبين ليكشف عن سلسلة ذهبيّة رفيعة. كان الساري مهدّلاً في طيّات وثنيات توقّعتها، ولكنّني ما زلت مندهشًا.

أشحت بنظري جانبًا.

قال بابو نرمال مستفسرًا:

ـ أهذا حقًّا أنت يا موكوندا؟

ثم عدَّل من نظّارته ـ ولم أكن قد رأيته يضع نظّارة على عينيه من قبل ـ كي ينظر إليَّ عن قرب.

وقال:

ـ على وجه التأكيد! ظننتك مألوف المظهر. كم أنا غبي! كيف يمكنني أن... يا له من عار... لقد تركك الصبيّ تنتظر، ولكن من أين له أن يدري؟

* * *

ارتقيت السلالم تاركًا يديَّ تنزلقان من فوق الحاجز كدأبي على الدوام عندما كنت أقطن في ذلك المنزل، مهرولاً إلى أعلى وإلى أسفل مرّات ومرّات كلّ يوم لأقضي حاجات ومشاغل لا تنتهي. وكان في وسعي أن أسمع صوت مانجولا وميرا وهما تناديان:

ـ موكوندا! أين ذلك الولد؟ اختفى من جديد!

كان الممرّ عند نهاية السلالم يبدو على حاله، غير أنّ طلاء السقف بدأ يتناثر. وتنبّهت وأنا المهنيّ إلى فجواته الرمليّة والآجر الظاهر للعيان والمساحات الفطريّة القريبة من الحمّامات والأعمدة الحديد الصدئة التي تسند السقف والجدران التي تحتاج إلى طلاء وزجاج النوافذ المتصدّع في بعض الأماكن. أمّا داخل البيت الذي كان يلوح مهجورًا إلى حدٍّ ما، فكان يتناقض تناقضًا صارخًا والحديقة التي كانت تبدو فيها كلّ شجرة ونبتة في حالة جيّدة.

جلست صحبة بابو نرمال من حول طاولة أصغر حجمًا من الطاولة المعهودة التي كانت بالقرب من تلك النوافذ، وجثم بجواره كلب أسود وبنّي ينظّف مخالبه بأسنانه ويفرك عينيه قبل أن يحكّ أذنيه ويعضّ في اهتياج طرف ذيله؛ ثم وضع رأسه بين قائمتيه الأماميّتين وأغمض عينيه وتنهّد تنهيدة عميقة، فابتسم له بابو نرمال وقال:

ـ طبيعي أنّك تتذكّر ميرا.

ـ نعم، تمامًا.

ـ كانت معتادة على إطعام الكلاب السائبة في القلعة القديمة، وبعد أن رحلتْ، بدأت أطعمها بنفسي وأحضرت أحد صغارها إلى المنزل ـ وها هو، وقد بلغ الثانية عشرة من العمر الآن.

قلت من دون أن تشوب نبرتي مسحة من التأنيب:

ـ هي المدّة نفسها التي أمضيتها أنا والأخت ميرا بعيدين عن المنزل.

ثم سألت في محاولة لكسر حاجز الاضطراب القائم بيننا:

ـ كيف حال الأخت ميرا؟ ألديك أيّ أخبار عنها؟

قال وقد بدا غير متأكّد:

ـ آه، نعم. أراها بين الفينة والفينة، وهي تُدرِّس مادّة الفنّ في المدرسة في دارجيلنغ ـ ثمّة أماكن لطيفة للنزهة من فوق التلال ـ وأنت تعرف إلى أيّ حدٍّ كانت تهوى التنّزه وهي ترسم الصور والتخطيطات. الحقّ. . .

نهض من مكانه وسار إلى ركن، وجذب صورة منظر طبيعي بإطار يمثّل بيوتًا ريفيّة وأشجارًا ماثلة في أحد الوديان.

وقال مضيفًا:

ـ هذه هي إحدى صورها.

أمسكت بها مبديًا إعجابي. كانت صورة غير مألوفة بسبب الإحساس بوضعها العمودي وبالحيويّة التي هي عليها أشجارها وتلالها. أعادها بابو نرمال إلى موضعها على الجدار بعد أن رشقها بابتسامة. وقال:

ـ نعم، السير من على ذلك السفح شديد الانحدار، وأنّك تضطر إلى الاعتماد على عصا وعلى أحذية متينة الصنع. غير أنّ المكان يحتوي بساتين ونباتات سرخس جميلة وزهورًا غير مألوفة.

ثم تذكّرني وقال:

ـ إنّها تسأل عنك، وتصبو إليك دائمًا.

هل ثمّة حقيقة تنطوي عليها الأقاويل التي كنّا نسمعها في تلك السنة الأخيرة في سونغارة؟ وبدأ صمت آخر يخيّم على الجوّ المحيط بنا.

نظر بابو نرمال في اتّجاه السلالم، وقال:

ـ ما الذي تفعله باكول؟ تعدُّ لك مأدبة؟

تخيّلت باكول في المطبخ تطلب من الخادمة إعداد الشاي وتحاول أن تعثر على طعام تقدّمه لي. لم تكن يومًا ما طاهية جيّدة. لكنّها على الرّغم من ذلك جاءت ومن ورائها صبيٌ في نحو الثانية عشرة من عمره حاملاً صينيّة وعليها طعام وماء وشاي، كان يرتدي بنطالاً قصيرًا يصل أسفل ركبتيه وقميصًا متهدّلاً عند كتفيه.. أذناه مثل مقبضين يمسكان برأسه؛ أمّا شعره فقصير جدًّا يكاد يكشف عن فروة رأسه، ويُظهر كبر حجم أذنيه. نظر إليّ شزرًا، ثم وضع الصينيّة على الطاولة، وهي الصينيّة البرونزيّة نفسها وأدوات الشاي هي نفسها التي غسلتها يومًا ما.

قالت باكول:

ـ أعرّفك إلى آجاي، ويتعيّن عليك أن تسامحه لأنّه لم يدعك تدخل لأنّنا نطلب منه أن يبقي الأبواب موصدة. فأنا وبابا نادرًا ما نخرج معًا، ولكن إذا ما خرجنا...

قلت:

ـ ليس الأمر بذي بال.

يبدو أنّ بابو نرمال استعاد ثقته بنفسه بعد أن رفع كوب شايه الساخن وأشعل سيكارة، وقال:

ـ تسرّني كثيرًا رؤيتك يا موكوندا، طالما فكّرت طوال تلك السنين إن كنت قد أكملت دراستك، أو إن كنتُ سأحظى برؤيتك مرّة أخرى. قل لي: ماذا تفعل؟ هل تزوّجت؟ وهل لديك ذرّيّة؟

أصغى باهتمام وصبر لأجوبتي، وعندما تفوّهت بأشياء مضحكة كما

ظننت، خاصّة عن طفلي، ابتسم ولكنّه لم يضحك ضحكته القويّة المجلجلة التي كانت دائمًا تنتهي بسعال حادّ يميّز المدخّنين. لاح لي وقد تغيّر كثيرًا. فالنظّارات على عينيه غيَّرت من وجهه، والشعر الرمادي، وإن لم يكن غير متوقّع، فإنّه يجعله يبدو في سنّ الخمسين. ثمّة شيء أكثر من العمر. لقد ازدادت سحنته سمرة وأحاطت الهالات السود عينيه. إنّه رجل قليل النوم على ما يظهر أو لا ينام نومًا هنيئًا. قصير القامة إلى حدٍّ ما وعلى نحو لا أتذكّره. ازداد نحولاً فبدا محنيَّ الظهر.

شعرت بالندم وتساءلت: لماذا قطعت الصلة به؟ لماذا لم آتِ لزيارته؟ لماذا وجّهت له اللوم طوال كلّ هذه السنين، وليس لأحد غيره بسبب قلّة ما كانت تقدّمه لي مانجولا، أو بسبب الأسلوب الذي دفعني به كمال إلى قضاء أشغاله راكضًا مهرولاً، أو للغرفة التي كنت أنام فيها وتحتشد فيها الفئران، وللجهة البعيدة من الطاولة التي كانت محجوزة لي؟ ما الذي أشعرني بالمرارة أكثر من أيّ شيء آخر؟ وما السبب الذي جعله موضع غضبي ومرارتي؟ ها نحن الآن وجهًا لوجه، ولكنّني لم أشعر بالغضب القديم ـ أو لعلّني كنت أرنو إليه بشهامة القوي المنتصر على الضعيف.

وعندما غادر بابو نرمال الحجرة لبرهة وجيزة، قالت باكول:

ـ اضطرّ بابا إلى التقاعد مبكرًا لإصابته بنوبة قلبيّة. وهو مصاب بداء السكّر أيضًا، غير أنّه عنيد جدًّا. أعرف أنّه يتناول كلّ أنواع المأكولات الممنوعة عليه عندما لا أكون في صحبته!

قلت:

ـ أنت وصيُّ ملاك. تصعب رؤيتكِ وأنتِ تهتمّين بصحّة أبيك

ومعك وصفات وملاحظات عن الحِمْية.

افترّ ثغرها عن ابتسامة خفيّة عندما رفعت بصرها من فوق الكلب الذي تداعب مؤخّر أذنيه، وقالت:

ـ يصعب عليَّ أن أتخيّل أنّك تزوّجتَ وأصبحت أبًا.

لكنّها توقّفت عن الكلام عندما شاهدت بابو نرمال يعود أدراجه ويقول:

ـ ماذا تشتغل يا موكوندا؟ ألم تكن راغبًا في الالتحاق بإحدى الكلّيّات؟ أتذكّر أنّك كنت تريد تسلّق الجبال وتمخر عباب البحار، وكنت تريد أن تصبح مستكشفًا. صحيح؟

قلت:

ـ نعم، صحيح. كم كانت أفكارنا رومانسيّة أيّام الطفولة، وانظري الآن ماذا حلَّ بها؟ فأنا لست سوى كاتب في مكتب معمار، أنفق معظم أيّامي من خلف مكتب!

لم أزد في ذكر التفاصيل، فبابو أنغتي ليس معماريًا وأنا شخصيًا لم أعد كاتبًا بريئًا. وتجاوزت طبيعة مهمّتي الحقيقيّة، وكان ينبغي لي أن أخبره عن سبب رحلتي من فوري.. ولكنّني لم أستطع على أيّ حال.

قلت في محاولة لتغيير دفّة الحديث:

ـ هل في إمكاني التنزّه حول المنزل؟ لا أريد سوى...

قال بابو نرمال:

ـ لستُ مضطرًّا إلى توجيه سؤال، فالبيت بيتك، وأرجو أن تمكث هنا طوال المدّة التي ستقضيها في سونغارة.

لحقت بي باكول عندما سرتُ متّجهًا إلى الحجرة الوسطى المشيّدة

على جانب الممرّ الواسع. ولم يكن فيها سوى سرير واحد بدلاً من السريرين اللذين كانا مخصّصين لباكول وميرا. وعندما نظرت نظرة تساؤل واستفسار إلى باكول، قالت:

ـ لقد انتقلت إلى الحجرة الأماميّة كي أتمكّن من النظر إلى ما وراء النافذة.

كانت الحجرة الصغيرة المؤدّية من حجرتها القديمة خاوية باستثناء عدد من الصناديق والأغراض الزائدة. أمّا السرير الضيّق وهيكل كانابالا المجلّل بالبياض المكوّر فيه فقد اختفيا.

قالت باكول قبل أن أطرح السؤال:

ـ لقد وافتها المنيّة بعد مرور سنتين من سفرك، فقد عثرنا عليها في صباح أحد الأيّام بجانب سريرها، على الأرض. لا بدَّ أنّها نادت أحدًا ما أثناء الليل ولكن... كنت أرقد في الغرفة المجاورة ولم أسمع شيئًا. لو أنّني سمعت، فلربّما...

وهنا أغلقت الباب بعنف، وقالت:

ـ لنخرج من هنا.

هممتُ أن أخبر باكول عن نوري وأسلوبه في صبّ اللعنات الذي يذكّرني بأسلوب كانابالا، ولكنّني لزمت الصمت لأنّني لم أعرف كيف أبدأ كلامي.

كان بابو نرمال ينتظرنا في الحديقة وقال مزهوًّا إنّ أشجار التفّاح الأصفر والغريب فروت توشك أن تينع ثمارها. وعندما وصلنا البوّابة أطلعني على خمس عشرة نبتة من نباتات الغوافة والليمون، قال إنّها سوف تزهر بعد سنين قليلة.

وقالت باكول:

ـ يجلس بابا هناك مساء كلّ يوم ويكلّم أشجاره ويقول إنّه لا يملك وقتًا للنباتات الحوليّة بل يريد أشجارها ونباتاتها المتسلّقة، وأظنّه يريدني أن أبدأ الحفر أيضًا ولكنّني لست راغبة في ذلك أبدًا.

ابتسمت لها مقدّرًا رأيها. فالحدائق لا تبدو إلّا لأصحابها أماكن مدهشة ومثيرة. ولا يمكنني حتى في يومنا هذا أن أحدّد سوى أنواع قليلة من الأشجار الشائعة. فإذا ما أردت محيطًا يبعث على السرور، فإنّني سوف أجد لي بستانيًا.

أشعل بابو نرمال سيكارة، وقال:

ـ عندما كنت شابًّا، لم أكن مهتمًّا بالحدائق أيضًا. وقد شعر أبي بخيبة الأمل لأنّ أيًا من أفراد الأسرة لم يكن مهتمًّا بالحديقة. حسبنا أنّنا تظاهرنا بالاهتمام كي نجعله سعيدًا.

ابتسمت باكول، وقالت:

ـ ولكنّنا لم نكن نتظاهر يا موكوندا. صحيح؟

سرحت ببصري نحوها من دون أن يرفّ لي جفن، وتساءلت في دهش إن كانت شعرت بشيء ما، وهو ما كان ينتابها دومًا في رفقتي. وهكذا تذكّرت السبب الحقيقي لزيارتي بلدة سونغارة فارتجّ قلبي ارتجاجًا عنيفًا وكاد يتوقّف عن النبض.

* * *

اكتسبت الأشجار المتوقّفة عن النموّ خارج أسوار بيت السيّدة بارنوم حياة قويّة هي حياة البرّيّة. وكان يستحيل على المرء القول إنّ المنزل كان في يوم ما أصفر اللون، فقد علت جدرانه الخارجيّة طبقة

سميكة من السخام الأسود والفطريّات. كان الباب الرئيس مفتوحًا، تفوح منه رائحته المألوفة نفسها: الكتب القديمة والنجارة والكاراميل ودخان الحطب الذي كان المنزل يشتهر به. ارتقينا الدرجات الخشبيّة وانعطفنا إلى غرفة الاستقبال المعروفة. لم أكن راغبًا في الزيارة لأنّ عبارات السيّدة بارنوم وهي تقول: اخرج! لا تعد إلى هنا! فتّش عن معنى كلمة خائن، وفتّش عن كلمة خيانة! ما تزال ترنّ في أذنيَّ، ولكنّني لم أستطع أن أوضح هذا الأمر لباكول. وكان ذلك هو السرّ الوحيد الذي لم أشاركها فيه.

وهمست باكول:

ـ لقد احتفظت بالمنزل على حاله ولا أظنّك تجد أيّ تغيير طرأ عليه سوى أنّ الحاجب عاد إلى قريته ـ فقد بات شيخًا عاجزًا لا يقدر على العمل.

عندما رأيتها تثب من فوق درجات السلّم بدأت أشعر أنّني سقطت في فخّ من رمال متحرّكة قوامها الحزن. فكلّما حاولت أن أبذل قصارى جهدي لأن أبدو سعيدًا، خفيف الظلّ، ازداد إحساسي سوءًا. ما من شيء حتى هذه اللحظة يقتضي أن يفسّره أحدنا للآخر. فإذا ما اختلستْ نظرة جانبيّة إليّ، شعرت أنّني أعرف ما يدور في ذهنها. وكان في وسعي أن أعرف من دون أن أنظر أيّ سنّ من أسنانها كان معوجًا عندما سقطت وصُدم بصخرة. وكنت أعرف في نهاية المطاف أنّ ساقيها يؤلمانها مثلما كانا يؤلمانها سابقًا عندما تقول: أرجوك يا موكوندا، اضغط على ساقيَّ قليلاً وسوف أنجز لك فروضك الدراسيّة الإنكليزيّة قبل موعد الدراسة غدًا.

كيف أمكنني نسيان كلّ هذه الأمور ولم أرجع لرؤيتها؟ ولم أسمع

لنفسي في التفكير في أنّ من شأن حياتينا أن تكونا مختلفتين لو أنّني رجعت إليها.

رفعت السيّدة بارنوم رأسها من فوق كتاب عندما دلفنا، وقالت:

ـ آه، باكول في موعدها المحدّد كعهدها.

ثم تنبّهت إليّ، فرفعت نظّارتها ورمقتني بنظرة شزر، فأردت أن أخرج وأهرب بعيدًا. حدث ذلك منذ زمن بعيد، ولكنّني ما زلت أرى يدها تمسّد جلد النمر، ثم تشعل سيكارة وتسدّد نظراتها إليّ وأنا من فوق الكرسي أعبث برسائلها.

وبعد دقيقة قالت:

ـ إنّه الصبيّ، صحيح! الصبيّ الذي رسمته؟ موكوندا! لماذا لم تأت منذ زمن بعيد؟ هل سافرت بعيدًا؟

قالت باكول:

ـ آه يا سيّدة بارنوم، لقد أخبرتك أنّه سافر من أجل الدراسة في كلكتا، ثم نسيَنا كلّنا ولم يأتِ أو يرسل رسالة.

اجتزت الحجرة وجثوت على ركبتيّ بجانب السيّدة بارنوم، فرمقتني بنظرة وكأنّني لم أقترف أيّ غلطة، ربتت على وجهي ولمست عظام وجنتي بأصابعها وقالت مشاكسة:

ـ آه، يا لهذه العظام! كم أتمنّى لو كنت أصغر سنًّا.

ثم أشارت إلى ما وراء رأسها، فوجدتها هناك: صورة تخطيطيّة لي وأنا في الثالثة عشرة، معلّقة على الجدار ومؤطّرة بإطار خشبي.

ابتسمت ابتسامة مشرقة، وقالت:

ـ يا له من يوم يشبه الأيّام الخوالي! ينبغي لنا أن نحتفل! ماذا

كنتما تحبّان أن تأكلا أيّها الطفلان؟ شطائر مع عصير الليمون؟ لا بدّ أنّ لدينا قليلاً منها!

ثم مدّت يدها إلى جرس من فوق منضدة جانبيّة صغيرة وقرعته قرعًا قويًّا وطويلاً، وبعد ذلك التفتت إليّ واستأنفت كلامها:

ـ اجلس أيّها الشابّ! ولا تدعني أشرئبّ بعنقي على هذا النحو!

جلست وأنا أشعر أنّ ذلك الجزء الذي تعفّن في عصر ذلك اليوم البعيد في غرفة نومها عندما وجدتني أبحث بين رسائلها قد بُتر منّي قبل قليل تاركًا إيّاي وعلى نحو مدهش معافًى من جديد.

شاهدت باكول تنسلّ من الحجرة، فربتت السيّدة بارنوم على ذراعي ومالت إلى أمام وأردفت:

ـ قل لي الآن: كيف أبدو؟

ثم أطبقت شفتيها اللتين كانتا مطليّتين بطلاء وردي غامق. وكانت على وجنتيها الرقيقتين دائرتان بلون أحمر الشفاه، في حين التفّ شعرها الرقيق المكسوّ بالزيت قرب أذنيها. بدت لي ضئيلة الجسم في حين كانت تبدو لي من قبل فارعة القدّ.

قلت متحمّسًا:

ـ جميلة، أنت لم تتغيّري قطّ.

فمالت في اتّجاهي وهمست وعلى وجهها ابتسامة خبيثة:

ـ ألا تريد اقتحام حجرة نومي بحثًا عن أدلّة وتقلبها رأسًا على عقب؟

لم تنسَ، ولم تغفر. ما كان ينبغي لي زيارتها، فكدت أن أنهض لأنصرف.

فضحكت ضحكة عالية انتهت بنوبة سعال وضربت على فخذها المغطّى بثوب من قماش الشيفون الرقيق، وتفوّهت ببضع كلمات لم أفهم منها شيئًا بسبب سعالها. واعتقدت أنّها قالت:

ـ وجهك! وجهك أيّها الطفل!

ثم مالت أكثر وازدادت دنوًّا منّي وتنبّهت لشفتيها المشقّقتين وأنفاسها الشبيهة بغرين النهر القديم، وظننتها تقول وإن لم يكن كلامها واضحًا بسبب الضحك والسعال:

ـ ها أنذا أفشي لك سرًّا. نعم، لقد قتلته. سدّدت له طعنة سكّين في معدته وقلّبتها مرّات ومرّات وتخلّصت منه إلى حيث ألقت.

وهنا بصقت شيئًا من البلغم في منديل ومالت بشفتيها إليَّ من جديد، ولكن باكول عادت إلى الحجرة في هذه اللحظة حاملة صينيّة ومن فوقها أقداح وطبق شطائر، فتحرّكت السيّدة بارنوم وأشعلت سيكارة لنفسها وكأنّها لم تعترف بأيّ شيء.

وقالت مخاطبة باكول:

ـ لقد تأخّرتِ كثيرًا! من معك؟ أهو...

ثمّة شخص ما وراء باكول.

رجل. رجل شابّ. رجل متهدّل وعلى جبينه العالي خصلة شعر. وأزاح الستارة جانبًا لتتمكّن باكول من وضع الصينيّة، فبدت طفلة أمام قامته الفارعة، وتقدّم إلى داخل الحجرة وكأنّها ملكه. كان يرتدي حلّة سوداء اللون وربطة عنق رماديّة وزرقاء مرتخية، وكأنّه لم يعد يطيق هذا اللجام مدّة أطول. كانت لحيته الفرنسيّة الطراز النامية والممشّطة في عناية ناتئةً في زاوية حادّة غريبة جعلت وجهه الوسيم يبدو مضحكًا إلى

حدٍّ ما. وبعد أن لمس كتف السيّدة بارنوم أثناء مروره بها، تهاوى من فوق كرسي على ذراعي، وقال:

ـ يا له من يوم! إنّني بحاجة إلى كلّ ما أستطيع الحصول عليه من شطائر! وقدرًا من الفراولة والكريما ـ لا بأس به.

كان يتكلّم بلغة إنكليزيّة مثل أيّ رجل إنكليزي، ولكن كلامه كان مشوبًا بلثغة.

قالت باكول:

ـ ليس ثمّة فراولة في سونغارة.

لكن سرعان ما بادرتها السيّدة بارنوم بالقول:

ـ بل فيها فراولة لو كان لديك شيء من الخيال. تلك هي المشكلة. الناس لا يملكون خيالاً.

ثم أضافت:

ـ موكوندا! هذا ابن أخي تومي. وأنت يا تومي، أتدري أنّ موكوندا كان رفيق صبا باكول؟ كانت الأيّام رائعة يومئذٍ عندما كنّا نقضي أوقاتنا معًا نحن الثلاثة.

ـ ثلاثة، هل كنت أنتِ الثالثة؟ طالما كنت طفلة. هل مارست لعبة البيت أو الاستغماية؟

تكلّم تومي مع السيّدة بارنوم بابتسامة متسامحة وكأنّها طفلة في حاجة إلى من يعاملها برقّة زائدة، ثم مدَّ يده والتقط شطيرة ورفع حاجبه في دهشة وقال لي:

ـ خذ قطعة أيّها الصديق القديم.

كنت أعرف الإنكليزيّة، ولكن إذا ما التقيت شخصًا يجيد الكلام

بتلك اللغة، فإنّني أجد نفسي متلعثمًا ولا أستطيع التفوّه بكلمة واحدة! وبدأت أقضم شطيرة لأتجنّب الحديث.

واستفسر تومي:

ـ وهل أنت من أقرباء باكول؟

ثم ابتسم لباكول ومضى يقول:

ـ إنّها قليلة الكلام، ولم تخبرني أنّ لها أخوة فُقدوا منذ زمن بعيد.

هتفت السيّدة بارنوم:

ـ آه، لا يا عزيزي. كان موكوندا صبيًّا من صبيان ملجأ الأيتام عندما جاؤوا به إلى منزلهم، ثم سافر بعد ذلك إلى كلكتا بهدف الدراسة. لا بدّ أنّك رجل مهمّ اليوم يا موكوندا. صحيح؟

رفعت باكول الصينيّة وقدّمتها في اتّجاهي، وكلّمتني كلامًا لم يسمعه أحد غيري:

ـ ألا ترغب في شرب عصير الليمون؟ لقد بدأ يفقد برودته.

رفع تومي حاجبه دهشًا. ويبدو أنّه فقد كلّ اهتمام بي، فالتفت إلى كومة من المجلّات فوق طاولة في ركن من أركان الحجرة. استقرّ جسده الطويل في كرسيّه ورفع قدميه ووضعهما على الكرسي المقابل له، وقال:

ـ لا تدعيني أبعدكِ عن الحديث، فأنا يسرّني أن أسمع حكاياتكِ.

ثم بدأ يقلّب صفحات المجلّة.

وقالت السيّدة بارنوم:

ـ آه، إنّها قصص طويلة عن النوادي في بومباي وعن السباقات

والرقصات. أنا شخصيًّا لا أصدّق كلمة واحدة منها يا تومي، أقول لك لا أصدّق.

ابتسم تومي ابتسامة عابثة لها، ومدَّ يده إلى يدها المتغضّنة وقال:

ـ أنتِ بحاجة إلى خيال فحسب. هذا ما قلتِهِ أنتِ قبل قليل. صحيح؟ ألا يمكنك أن تتصوّري نفسك وأنت ترقصين في نادي اليخوت؟ إنّني متأكّد من أنّك ستكونين معبودة الجماهير حتى في يومنا هذا.

قالت باكول في تحمّس:

ـ آه، نعم، لا يزال في وسع السيّدة بارنوم أن ترقص رقصة الفوكستروت ـ فقد علّمتني إيّاها بنفسها.

قال تومي بنبرة مشاكسة:

ـ علينا أن نرقص إذًا يا باكول. الآن، في هذه اللحظة!

أحسست بالحديث يدور عن أحداث وشخصيّات لا علم لي بها. فكنت أضحك عندما يضحكون، ولكنّني لم أستطع فهم سبب ضحكهم. وعندما توقّف أحدهم، وهو تومي، وقال في أدب ظاهر:

ـ إنّنا نتكلّم كلامًا كثيرًا حقًّا، ولم تتح الفرصة لبابو موكوندا أن يخبرنا بأيّ شيء عن نفسه.

لم أستطع ملء فراغ الصمت الذي دام دقيقة واحدة من بعد ذلك. الشطائر طعمها لا يشبه طعم أيّام زمان عندما كان الحاجب يعدّها. أمّا الخبز فيابس ولا يحتوي إلّا على نسبة قليلة من الزبدة ما جعل حافّات الشريحتين تلتوي. لم أعد أشعر بالجوع، ولكنّني على الرّغم من ذلك، أكلت شريحة واحدة. استبدّ بي قلق غريب عندما رأيت السيّدة بارنوم

تقرع جرسًا لتنادي على خادم لا أثر له في المنزل. ولم أرغب في النظر إلى باكول وهي تبتسم لتومي وتضحك لنكاته وتختلس إليَّ نظرات وكأنّها تريد أن تقول: أليس هو برجل مدهش؟ وتهيّأ لي أنّ قربنا من بعضنا الذي نبشناه مؤخّرًا قد دفن مرّة واحدة إلى ما لا نهاية.

ثم نهض تومي وعزف بعض الألحان الموسيقيّة على البيانو وهو واقف، فلاحت قامته المديدة والنحيلة مثل علامة استفهام من فوق الخطوط البيض والسود لآلة البيانو. تنهّد ورشق الحجرة بنظرة مسرحيّة وقال:

ـ شتراوس! آه.. كم أشتاق إلى أن أدور في أنحاء الحجرة وأنا أرقص رقصة الفالس! هل يمكنك العزف يا بابو موكوندا، أم أنّك تحبّ أن ترقص؟ يسرّني شخصيًّا أن أعزف لك الموسيقى!

نهضت عن الكرسي وقلت:

ـ لم أكن راقصًا في حياتي، وينبغي لي الانصراف الآن.

تأوّه تومي وقال:

ـ آه يا بابو موكوندا، أنا لم أرغب في إبعادك. اجلس من فضلك.

قلت:

ـ ينبغي لي أن أذهب.

ثم التفتُّ إلى السيّدة بارنوم لأودعها.

تربّع تومي من فوق كرسي البيانو وبدأ يعزف مغمض العينين كأنّ الحجرة لا تضمّ سوى موسيقاه. وجلست السيّدة بارنوم قبالته، مشرقة الوجه بنور المساء الذي كان يتسلّل من النافذة الوحيدة في الحجرة، سابحة في عالم آخر من فرط الطرب والانتشاء وكأنّها تنظر إلى الله.

وأصبح الثلاثة الآن وحدهم.

* * *

فرغنا من تناول العشاء، وكان بابو نرمال رفض أن أعود أدراجي إلى الفندق لأتناول الطعام. وانقطع التيّار الكهربائي فاضطررنا إلى الجلوس في الحديقة لننأى بأنفسنا عن حرارة المنزل الخانقة. كان السكون يخيّم على المكان باستثناء نسمة الهواء العابرة التي كانت تعبث بالنباتات المتسلّقة محرّرة بذلك عبق الزهور البيضاء المتألّقة في العتمة. إنّني واثق من أنّني لم أتنبّه لعطر الأزهار قبل اثني عشر عامًا، أمّا الآن، فإنّ ذلك العطر بات مفتاحًا فتح كلّ ذكرياتي. وإذا لم يكن ذلك كافيًا، فإنّ باكول كانت بجانبي تعطّر أجواء الليل نفسه بمزيج مسكر من الصابون وبودرة الطلق فضلاً عن شيء آخر لم أستطع معرفته.

وكانت ظلال سود لأشجار تطيل النظر إلينا هي كلّ ما كان ينتشر من حولنا. وكانت نقطة الضوء الوحيدة هي تلك المنبعثة من سيكارة بابو نرمال، وإلى مسافة بعيدة ضوء أصفر يومض من نافذة عليا في منزل السيّدة بارنوم. أمّا بقيّة المنازل الممتدّة إلى نهاية الطريق، القديمة والحديثة، فكانت ظلالاً ثقيلة. ثمّة كرسي قد جيء به لبابو نرمال في حين جلست أنا وباكول على درجات السلّم أمام الباب الرئيس. كانت باكول تؤرجح في يدها مروحة صغيرة نصف دائريّة وتمسح بثوبها حبّات العرق المتصبّب من رقبتها. ولمّا كانت تريد أن تهوّي علينا مرّة واحدة، فقد جلست ملتصقة بي حتى إنّني كنت أشعر بها تمسّني مسًّا خفيفًا، ولم أستطع معرفة ما يدور في ذهن بابو نرمال عندما كان يتطلّع إلى باكول جالسة بجانبي وسط الظلال. لم يقل شيئًا.

تساءلت في نفسي إن كان اقتراب باكول منّي سببه المروحة اليدويّة، لأنّني أحسست طوال مدّة العشاء وهي تمسّني مسًّا، افترضته

مصادفة لا غير، عندما كانت تقدّم لي المأكل والمشرب. فكانت ذراعها تمتدّ على مقربة من أذني، فتمسّها، أو كان ردفها يكزّني في رفق وهي تستدير حاملة مغرفة في اتّجاه أبيها.

والآن، وفي الظلمة، شعرت أنّ كلّ ذرّة من ذرّات بدني مفعمة بالحيويّة والنشاط وهي جالسة تهوّي علينا ـ أنا وهي. كنت واعيًا بكلّ حركة تصدر عنها، وكلّ لمسة عفويّة من كتفها أو رسغها أو ردفها. وخُيِّل إليّ أنّ عقلي قد أُفرغ من كلّ الأفكار الاعتياديّة، فاسحًا المجال للإحساس بلمسها إيّاي من دون أيّ شيء آخر. أصغيت لصوت بابو نرمال يتكلّم عن جزء من نصب بوذا على مقربة من آثار سونغارة، وعلى الحشود البشريّة التي بدأت تذهب الآن لزيارته وتحفر اسمها على الصخرة القديمة. . وأضاف أنّه نادم إلى حدٍّ كبير لإقلاقه راحة النصب. وتحدّث عن محاولات لتسلّق قمّة أفرست وعن رحلاته القديمة. وفي هذه اللحظة بدأ كلبه يتململ في نومه، فداعب أذنيه واستأنف خطابه عن المتحجّرات التي اكتُشفت مؤخّرًا في الهملايا.

كان جسدي ينتظر الوقت كلّه لمسة من باكول، واصطكّت ركبتاي بسبب محاولة عدم الاقتراب منها أكثر.

وعلى حين بغتة انطلقت حجارة وسط الظلام وسقطت على مسافة قليلة منّا، فوثب الكلب من محلّه وهو ينبح، في حين تنهّدت باكول وقالت:

ـ حان وقت الدخول!

وهنا سقطت حجارة أخرى وسط كومة من الأعشاب بالقرب من البوّابة. وبعد صمت لم يدم إلّا قليلاً صكّت أسماعنا صرخة غريبة تشبه صراخ طفل أو هرّ.

نهضت من مكاني مذعورًا واتّجهت نحو مصدر الصوت، وقلت:

ـ ماذا يجري؟

ثم صحت في صوتٍ عالٍ وسط الظلمة:

ـ من هناك؟ اخرجوا أيّها الجبناء!

قال بابو نرمال في صوت هادئ لا ينمّ عن تعجّب:

ـ اجلس يا موكوندا، فهم لا يستطيعون الوصول إلينا ونحن هنا، ولن يدخلوا إذا علموا أنّنا نجلس خارج البيت. ولعلّهم يظنّون أنّنا نملك كلبًا ضخمًا يشبه الذئب.

ـ ماذا تعني؟ سوف أخرج وأواجههم. ماذا يجري؟

لكنّني عرفت بعدئذٍ ماذا يجري حتى قبل أن يشرح بابو نرمال. ففي الخارج رجلا بابو أنغتي، زميلاي في العمل بهيم وهارولد. ولمّا كنت أعرف ما الذي يمكنهما عمله، فقد ادركت أنّهما كانا يمزحان في خشونة فحسب وأنّهما لم يشمّرا عن ساعديهما بعد. وتخيّلت أنّ وجهيهما يطلّان من فوق السور ويشمتان بالورطة التي أنا فيها.

قال بابو نرمال وسط الظلمة الحالكة بالنبرة الهادئة نفسها:

ـ ظننت أنّنا نستطيع أن نجنّبك هذه التفاصيل المتعبة، لكن أعتقد. . . اجلس يا موكوندا، فلا ضرورة لأن تذرع المكان جيئة وذهابًا.

عدت إلى مكاني بجانب باكول ولكنّني لبثت أختلس النظر إلى السور الفاصل بيننا، وتساءلت في نفسي عن الوقت الذي ستحين فيه هجمة أخرى بالحجارة. وكان في وسعي أن أتخيّل هارولد النحيل يردّد: انظر إلى النجوم، انظر، أنظر إلى النجوم، وهو يبحث عن حجارة خارج

المنزل فيرميها في عتمة السماء إلى الحديقة.

كان بابو نرمال يقول:

ـ هذا هو السبب الذي دفع أجاي إلى عدم إدخالك. فقبل بضعة أيّام، عندما رافقتني باكول إلى الطبيب لقياس ضغط الدم، جاء رجلان يدّعيان أنّهما من مصلحة الكهرباء، فما كان من أجاي إلّا أن سمح لهما بالدخول، فذهبا إلى مصدر الكهرباء وقطعا التيّار. وعندما رجعنا وجدنا المنزل غارقًا في الظلام. واستغرق الكهربائي نصف نهار كامل كي يُعيد التيّار إلى البيت من جديد. ولهذا، فلدى أجاي الآن تعليمات بألّا يسمح لأيّ شخص بدخول المنزل ما دام أنّه صغير السنّ ولا يمكنه الحكم على الأمور بنفسه.

بحث بابو نرمال عن علبة ثقاب، فتوهّج طرف السيكارة الأحمر مرّة أخرى.

ـ إنّ سبب عدم مشاهدتك كمال ومانجولا في المنزل هو أنّهما رحلا عن سونغارة. فقد انهارت الأعمال التجارية وغرق كمال في الديون على الرّغم من بيعه كلّ ما يملكه من أصول ـ بل حتى المعمل وبعض الأراضي التي كانت مزروعة بالأعشاب الطبّيّة. وتغيّرت حاجاتهما أيضًا، وظنّ كمال أنّه سيحظى بعمل ما في حين لم تشعر مانجولا بأيّ سعادة هنا في كلّ الأحوال.

توقّف بابو نرمال عن الكلام وكأنّه يلاقي صعوبة في المتابعة.

وهتفت باكول:

ـ آه يا بابا! لا تختلق الأعذار لهما. ثم قالت في نبرة تشوبها مرارة:

ـ كانا فظيعين.

والتفتت إليَّ واسترسلت في كلامها:

ـ واكتشفنا في يوم ما أنّهما باعا المنزل من وراء ظهرينا مستخدمين بعض الوثائق القانونيّة القديمة التي كان بابا قد أعطاهما إيّاها في السنوات التي كان يسافر فيها طوال الوقت. ولم يقولا أيّ شيء لنا، بل إنّ علينا أن نترك المنزل، وعرضا مبلغًا من المال رشوة.

قال بابو نرمال:

ـ ليست رشوة يا بابو باكول، بل حصّة، تعويض.

وفي هذه اللحظة سقطت حجارة أخرى في الحديقة محدثة دويًّا، كما تناهى إلى أسماعنا صوت حفنة من رمال تسقط فوق سطح الصفيح للبيت الخارجي القريب من البوّابة، فما كان من أجاي إلّا أن جاء وأخذ الكلب الهائج.

ـ أعتقد أنّه كان في وسعنا تسوية كلّ هذه القضيّة في المحكمة، ولكن بابا...

تدخّل بابو نرمال في حدّة كأنّه قال هذا الكلام مرّات ومرّات من قبل:

ـ لا أريد أن أضيّع حياتي في أروقة المحكمة، لأنّ ثمّة أشياء أخرى تستدعي التفكير والعمل.

لا بدّ أنّ باكول قرّرت عدم خوض شجار، ولهذا لم تقل شيئًا بل اكتفت بالتنفّس تنفّسًا حادًّا.

وقال بابو نرمال:

ـ لا أستطيع رؤيةَ أيّ مَخرج يا موكوندا، ولا أريد أن أهدر حياتي

في المحاكم وخاصّة في محاربة شقيقي. كلّ ما أريد هو أن تحظى باكول بالزواج وعندئذٍ سأنتقل إلى بيت أصغر.

نخرت باكول، ولكن في صوت خفيض لم يسمعه والدها. فعاد بابو نرمال إلى الاسترسال في كلامه مبتسمًا ابتسامة مفتعلة:

ـ أنت تعلم يا موكوندا أنّني لا أفضّل الأقرباء، ولكنّني مضطر الآن إلى تثقيفهم كي أعثر على صبيّ مناسب لباكول. قل لي، هل ثمّة من تعتقد أنّه مناسب للزواج بها؟ أحد أصدقائك مثلاً؟

لم أستطع رؤية وجهه في الظلام، ولكن على الرّغم من أنّ نبرته كانت مازحة على ما يبدو، إلّا أنّه ربّما كان جادًّا إلى حدّ ما. فها هي باكول في نحو الثالثة والعشرين، وكانت معظم الفتيات اللواتي في مثل سنّها متزوّجات الآن. لكنّها كانت تختلف عن أبيها في الرأي، على ما أظنّ، ولهذا قالت في حدّة:

ـ بابا!

تنهّد بابو نرمال، وقال:

ـ حسنًا. كلّ ما أحتاج إليه هو بعض الوقت، ولكنّ السمسار الذي اشترى هذا البيت في عجالة من أمره، استأجر سفّاحين لترويعنا. في ليلة ما رشقنا بالحجارة، وفي ليلة أخرى دُقّ جرس الباب باستمرار. وفي ليلة ثالثة وجدنا النفايات وقد رميت في البئر. لم نشاهد أيّ بشر، ولكن هذه الأمور ظلّت تتكرّر على مدى الأسبوعين الماضيين أو ما يقرب من ذلك.

فرك عينيه ومضى يقول:

ـ ربّما انتهت غارتهم لهذه الليلة، ولا بدّ أنّ حجارتهم نفدت الآن.

ثم نهض عن كرسيّه وتمطّى وقال:

ـ ابقَ هنا في هذه الليلة يا موكوندا. لماذا تعود إلى الفندق وهذا بيتك؟

نهضت بدوري وقلت متلعثمًا:

ـ إنّني مضطرّ إلى الذهاب، فلديّ عمل ينبغي لي إنجازه، ولديّ بعض الأوراق أيضًا.

لم أستطع النظر إليه نظرة مباشرة حتى في تلك الظلمة، مدركًا الأسرار التي تخفيها عيناي.

قالت باكول في هزء:

ـ إنّه لا يريد البقاء يا بابا، فهو يحبّ وسائل الراحة في الفندق.

قلت محتجًّا:

ـ لا، لا. ليس الأمر كذلك يا باكول، فالفندق ليس جيّدًا ولكن...

ـ ولكن هذا المنزل أسوأ منه بكثير.

استطعت أن أرى أسنانها تلمع في الظلام.

ـ لا تزعجيه، ولكن هل سنلتقي ثانية؟

فوعدته بالقول:

ـ سوف أعود. غدًا.

* * *

سكبت كمّيّة كبيرة من شراب الرَّم من الزجاجة التي اشتريتها من محلّ قرب المحطّة. كان الماء الذي مزجته بالشراب فاترًا، وكان الوقت

متأخّرًا، ولكنّني جرعت جرعة كبيرة حارقة. ماذا ينبغي لي أن أفعل؟ ظللت أردّد السؤال في نفسي: ماذا أفعل؟ فأنا لا أستطيع أن أتخلّى عن مهنتي عند بابو أنغتي وأقول له: لن أنفّذ واجبك القذر، ابحث عن شخص آخر. وإذا بحث. إنّ أيّ شخص على أهبّة الاستعداد لن يكون فظًّا أكثر منّي.

في إمكاني أن أخرجهم من المنزل في رقّة، وأن أجد لهم مكانًا جميلاً. لكنّ التفكير في ذلك المنزل، في منزلي وقد آلت ملكيّته إلى بابو أنغتي وجلاوزته، وأن يُقتحم ويهدم ويتحوّل إلى أجزاء صغيرة متناثرة ويُعاد البناء من فوقه ويُنسى أمره.. مستحيل!

لم أتخيّل يومًا ما أنّ العمل الذي قمت به سوف يرتدّ إلى نحري على هذا النحو. فقد كانت ظلمته مطبقة على الدوام من وراء أبواب حياة ناس آخرين. وتبيّن لي استحالة استمراري في تنفيذ العمل. ولكن إذا ما تخلّيت عن العمل، فما الذي سأفعله؟ ما المهنة الأخرى التي أعرفها؟ كيف سأطعم طفلي؟ وزوجتي؟

مكثت مستلقيًا ومحدّقًا إلى السقف متنبّهًا أوّل مرّة إلى المروحة ذات المحور البصلي المكسوّ بالزيت أصفر اللون. كان الزيت سميكًا وثقيلاً حتى بدت المروحة عاجزة عن التشبّث به مدّة أطول. وكانت تصدر صريرًا عند كلّ دورة، وكنت أشاهد ريشها بحافّات تعلوها ثآليل السخام. وعند كلّ دورة، كانت قطعة من القاذورات تتشكّل، فأنتظر كي تسقط في عينيّ المفتوحتين.

زوجتي! ماذا ستظنّني وأنا أغازل باكول على النحو الذي تغازلنا فيه طوال المساء؟ وتومي؟ لماذا تشعر باكول وهو بالراحة التامّة عندما يكونان معًا، وبالألفة والمودّة؟

وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا أنزعج؟

* * *

أشرقت الشمس مباشرة على وجهي. كان الوقت ظهرًا. ولبثت مستلقيًا على الفراش بضع لحظات أحكُّ أثر لسعة بعوضة قرب أذني وأصغي للأصوات الخافتة في الفندق. ونهضت في نهاية المطاف، وسرحت ببصري في مرارة إلى زجاجة الشراب نصف الفارغة والقدح الذي وضعته بجانب سريري. . وتناولت منشفتي، وفكّرت أنّ الحمّام الكائن في آخر الممرّ لا بدَّ أن يكون خاليًا وأنّ استحمامًا طويلاً من شأنه أن ينعشني.

وبينما كنت أفتح الباب، كدت أن أدوس فوق كتلة ورقيّة خارجة، بدت لي باقة زهور. فرفعتها عن الأرض وعدت إلى حجرتي، فلم أجد فيها سوى زهرة واحدة، بيضاء نقيّة، من جنس الزنابق، وقد تكوّرت فيها أعضاء الذكورة. ويبدو أنّها قُطفت مع أوراقها الطويلة والكبيرة. كان في نهاية الأوراق بصلة النبات وهي أشبه ما تكون بقرنابيط أبيض كبير الحجم انتشرت جذوره الشبيهة بالشَعر إلى الخارج. وكان شيء من الطين ما يزال عالقًا بالقشرة الخارجيّة.

جلست على سريري حاملاً النبتة. كانت البصلة توحي بالضعف والهشاشة إلى أبعد الحدود، وكأنّ قلبًا اقتُلع من جسد وتُرك في الخارج كي يراه كلّ فرد. وكانت الزهرة تتراجع إلى الخلف وإلى الجانب بعيدًا عن انتظامها الدقيق والمتكامل. وضعت النبتة على الطاولة الجانبيّة، ولكنّني لم أستطع تحويل نظري عنها، فقد بدت لي غامضة تارة وتدعو إلى الرثاء تارة أخرىٍ وحتى خبيثة تارة ثالثة. لم أستطع تخيّل السبب من وراء وضعها خلف باب حجرتي ولا الشخص الذي تركها. هل كانت

تلك فكرة من أفكار هارولد الجهنّميّة لترويع فؤادي؟

لاح الفندق لي مخيفًا وبشعًا فغادرته بأسرع ما يمكنني. لم تكن لي أيّ شهيّة لتناول الخبز الفطير الحارّ والمغمّس بالدهن أو الكمّيّات الوفيرة من البطاطس بالكاري التي كان النزلاء يغرفون منها في غرفة الطعام كثيرة الضوضاء. وعلى الرّغم من استفسارات النادل القلقة، إلّا أنّني غادرت المكان بعد لقمتين اثنتين تناولتهما على عجل، وحثثت خطاي باتّجاه منطقة مدرستي القديمة، فوجدتها شاخصة كما كانت: سقيفة محاطة بحشائش وأدغال، وأطفال قليلو الحظّ يجلسون تحت شجرة التين البنغالي نفسها. جلت ببصري من حولي باحثًا عن المعلّم الذي كان يضربنا بعصا الخيزران كلّ يوم. لو رأيته لكنت غاية في السعادة ـ هو أو أيّ شخص آخر من الذين أعرفهم، حتى لو كان بائع السمك أو بائع الفطائر المقليّة الذي كان ينادي: إيه يا موكوندا، أهذا أنت؟ توجّهت إلى عربة مركونة قرب دكّة لبيع الشاي ـ الدكّة نفسها ولكنّها كانت أكبر حجمًا ومن حولها ناس غير الذين كنت أعرفهم، وطلبت من سائقها أن يقلّني إلى دولغانج رود.

انطلقت العربة، فشعرت بمذاق هواء الصيف دافئًا ومألوفًا في لساني، بغباره وشمسه وحبّاته الاستوائيّة الصفراء والبرتقاليّة اللون ونفحته الحارّة المختلفة الاختلاف كلّه عن هواء كلكتا الذي يجعل المرء ينزّ عرقًا. إنّ واجبي يحتّم عليّ إلقاء نظرة على مراتع صباي، ولكنّني لم أكن ميّالاً إلى ذلك، لأنّني لم أرغب في رؤية المنازل الجديدة التي شيّدت من فوق الحقول التي كنّا نلعب فيها. ولم أرغب في رؤية قلعتي القديمة المهجورة التي انتصب أمام بابها كشك لبيع التذاكر لمن يرغب في زيارتها.

دفعت أجرة العربة وتوجّهت إلى حديقة السيّدة بارنوم، فدخلتها من

فتحة في السور الخلفي. كانت الأشجار التي تحفّ ببِرْكة الزنبق قد نمت وأصبحت مظلّة تخفي معظم السماء عن النظر. وكانت حدّة حرارة النهار أخفّ هنا بسبب الظلمة الباردة المنبعثة من النباتات. وشاهدت زنابق الماء الكبيرة البنفسجيّة طافية فوق سطح ماء البركة اللزج والكثير الأوراق.

هل كنّا صغارًا ولم يمكننا السباحة فيها يومًا ما؟ استلقيت على بطني فوق العشب المجاور للبركة أداعب ذقني. تخيّلت أنني في خضمّ الماء، ووسط الأعشاب، وعلى مقربة منّي باكول تسبح داخل الظلمة وخارجها. وكنت أجدها وقد توارت عن أنظاري، فأحاول أن أناديها، لكنّ الماء يمحق كلّ الأصوات. وسبحت مرّة أخرى في اتّجاهي، وكان في وسعي مشاهدة ثيابها تطفو بعيدة عنها، فأتثبّت لأجد أن نهديها لم يعودا ذينك النهدين الصغيرين بحجم حبّتي خوخ وإنّما أصبحا نهدين كبيرين. فكّرت ألّا أنظر إليها ولكنّها استمرّت في السباحة وقبّلت شفتيّ.

ـ أأنت نائم يا موكوندا؟

فتحت عينيّ العمشاوين بسبب الضياء ثم أدركت أنّ الضوء قد بهت، فجلست واجفًا.

ـ كيف عرفتِ أنّني هنا؟ يبدو الحال وكأنّنا في الأمس مرّة أخرى!

ـ هجستُ أنّك سوف ترجع. فكّرت طوال النهار أنّك سوف ترجع، ولكنّك لم ترجع. . ولهذا أتيت إلى هنا أبحث عنك.

جلستْ على العشب غير بعيدة عنّي وكانت مرتدية ثوبًا بلون سحب الريح الموسميّة وقميصًا شذريًا، فبدت عيناها أشدّ غرابة عن ذي قبل. وابتسمتْ، فشاهدتُ ذلك السنّ المعوجّ. كانت تخفي شيئًا ما داخل ثوبها، وتضحك في تحمّس مكبوت على عهدها حتى عندما كانت

صغيرة. لم تستطع باكول أن تخفي عنّي سرًا ما مدّة طويلة.

سألتها وأنا أستلقي على العشب.

ـ حسنًا، ما هذا الذي تخفين؟

كنت أشعر أنّها قريبة جدًّا منّي، فأقول لها كلّ ما يمكنني أن أقول، ولكنّني على الرّغم من ذلك شعرت بخجل شديد في الوقت نفسه.

قالت:

ـ لا شيء.

ولكنّها لم تستطع الانتظار أكثر فأخرجت شيئًا من بين ثوبها، وقالت في انتعاش:

ـ هل تتذكّر هذا؟

ـ الناي! الناي الذي كان خاصّتي؟

ـ نعم، إنّه خاصّتك، الناي الذي اشتريته عندما ذهبنا إلى المهرجان. هل تتذكّر ذلك؟

مددت يدي إليه، فشعرت بملمسه الناعم الصقيل ومرّرت أصابعي من فوق الخيط الصغير الذي لففته من حول طرفيه حماية له، الناي الذي يرقى إلى اثني عشر عامًا، الناي الذي نسيته تمامًا، ها هي تحتفظ به طوال تلك السنين! وشعرت بشيء في أعماقي ينقلب رأسًا على عقب. مددت يدي وقدّمته لها، ولا أدري إن كانت قد تنبّهت للارتعاشة الخفيفة التي سرت في يدي.

قالت:

ـ ألا تريده؟

استلقيت على بطني من جديد ووضعت إحدى يديَّ في الماء ومرّرت أصابعي فيه، فشعرت بالمقاومة.

قلت:

ـ إنّه لكِ الآن. إنّني متأكّد أنّني لم أعد أعرف كيف أعزف عليه!

قالت:

ـ أتدري؟ لقد تعلّمت العزف عليه، فأنا الآن لم أعزف مجرّد هذه الأصوات...

ـ الشبيهة بالضراط؟

انفجرت ضاحكة ثم وضعت الناي بين شفتيها وضغطت عليه، ولكنّها ضحكت من جديد. وقالت متذمّرة:

ـ انظر ماذا فعلت؟ إنّني لا أستطيع العزف إذا ما بقيت على هذه الحال.

قلت:

ـ لنفكّر في لحن حزين.

حبست أنفاسي، وتجرّأت ناظرًا إليها مباشرة وأنا أفكّر في شفتيها وهما تمسّان الناي الذي كانت تمسّه شفتاي يومًا ما. فكرة ساذجة موغلة في ميوعتها ولكنّها أفرحتني في كلّ الأحوال.

ضحكتْ في صوت عالٍ من جديد، فضحكتُ بدوري عندما قالت:

ـ تبدو وكأنّك...

ـ ماذا؟ ألا يمكنك أن تكوني جادّة لحظة واحدة يا باكول؟ إنّنا لسنا في سنّ العاشرة وكأنّنا لا نستطيع التخلّص من نوبات الضحك.

وضعت الناي جانبًا، وقالت:

ـ لا يمكنني أن أتخيّل أنّنا نقدر على الضحك كما في الأيّام الخوالي. صحيح؟ يبدو أنّ زمنًا قد مرَّ على تلك الأيّام. هل يمكنك أن تتخيّل أنّنا صغار السنّ نسبح في تلك البركة؟ هل تتذكّر؟

ثم انتظرتْ كي أقول شيئًا ما.

استلقيت على ظهري وسرحت ببصري إلى السماء من بين الأوراق، فوجدتها رائعة الآن في وقت الأصيل، وقد بدأت الطيور تصدح من جديد وكأنّها انتعشت بقدوم المساء العليل. ماذا تتذكّر؟ ماذا تريد منّي أن أتذكّر؟ أم أنّها نسيت كلّ شيء وتحاول أن تتجاذب أطراف الحديث؟ هل مسَّها أحد من بعدي فجعلها تنسى؟

ولمّا رأت أنّ الوقت الممنوح لي للإجابة قد انتهى، رفعت الناي إلى شفتيها وتناهت منه أصوات عزف لحن سيبليوس، صافية، شفّافة، تعصر الفؤاد. كانت النغمات مشوبة برعشة خفيفة لأنّها كانت متوتّرة الأعصاب، وجاءت نغمة أو نغمتان على نحو خاطئ، ولكنّها بدأت من جديد. في كلّ مرّة كانت قد أغمضت عينيها، وأطبقت شفتيها، وغارت وجنتاها من تحت عظام الصدغين البارزين. واستطعت رؤية بقعة بنّيّة من تحت خدّها الأيسر. وبدأ شعرها يتطاير ويعبث بخدّيها في نسمات المساء، فهزّت رأسها في محاولة للتخلّص من شعرها. لم أرغب في أن تتوقّف عن العزف. مددت يدي ودفعت شعرها جانبًا مؤملاً أن أفعل ذلك من دون أن تتنبّه إليّ.

الحقّ أنّ ذلك لم يكن إلّا عذرًا لكي ألمسها، فتوقّفت. لقد لمستها على أيّ حال، ولم يعد في إمكاني أن أتوقّف. مسّدت خدّها، ومررت أصابعي على عظم فكّها، وتحسّست شكل حاجبها بأناملي، وهشاشة

جفنها المغمض وكأنّني رجل ضرير يحفظ الملامح لوقت آخر. ثم ضغطت على القرط الذهبي الغائر في شحمة أذنها وشعرت بطراوتها التي تشبه طراوة تويج الزهرة.

لا أتذكّر لماذا لم يتكسّر الناي بيننا أو عندما وضعته جانبًا أو كيف انزلق ثوبها عنها.

أتذكّر مذاق شفتيها ولسانها ورائحة أنفاسها الشبيهة برائحة عشب جُزَّ حديثًا، أو كيف تمكّنتُ من القول على الرّغم من أنّ شفتي كانتا فوق شفتيها:

ـ لماذا لم ترجع؟ لماذا لم ترجع؟ لقد انتظرتك.

كان الظلام قد أرخى سدوله عندما استلقى أحدنا بجانب الآخر، وتمكّنت أن أرى من خلال الفراغات الدائريّة بين الأوراق النجومَ وقد بدأت تظهر واحدة تلو الأخرى من وراء سماء بنفسجيّة اللون. وعلى بعد مسافة قصيرة، انطلق صوت قديم وقويّ يدندن بالنغمات الاستهلاليّة لأغنية كانت شائعة يومئذٍ. واستمرّ الصوت:

ـ بابول مورا، ينهارا...

تمتمت وأنا أبتسم دافعًا وجهي في شعر باكول:

ـ الموسيقى عذبة، ولكنّ الموسيقى التي تنساب إلى مسامعنا أشدّ عذوبة.

لكنّها همهمت:

ـ بل فظيعة. هل هذا هو ما فعلته بك كلكتا؟

فهمست:

ـ أفضال ميان، صَحيح؟ ما يزال يغنّي.

تململتْ في مكانها حتى استقرّ ذقنها في تجويف رقبتي، ولم أكن في حاجة لكي تخبرني أنّها كانت تفكّر في تلك الليلة التي عدنا فيها راكضين معًا من الآثار القديمة، وقبّل أحدنا الآخر في المرج الخالي الذي كان يلفّه الظلام وأصابنا الذهول لمرأى ضوء النجم والشهاب الذي انطلق في السماء السوداء.

* * *

عندما عدنا أدراجنا إلى المنزل، كان بابو نرمال يجلس عند الطرف الأقصى من الحديقة، محاطًا بالظلام. وكانت حافّة سيكارته الحمراء هي التي أرشدتنا إليه.

قلت وأنا أرنو إلى وجهه الذي كان يضيئه نور النجم عندما ربَّتُّ على فسحة من الأرجوحة بجانبه:

ـ ينبغي لي الذهاب.

قال:

ـ لِمَ العجالة؟ اجلس وتنشّق عبير زهرة الغاردينيا الرائعة وزهرة رات كي راني (سيّدة الليل) وكلّ الزهور التي زرعها أبي التي عبّقت الجوّ بأريجها. ألا تتناول العشاء وإيّانا ثم ترحل بعد ذلك؟ ألا يمكننا يا باكول أن...

لكنّني قلت قبل أن تتمكّن هي من الردّ:

ـ ينبغي لي اللحاق بالقطار. يجب أن أذهب. وسوف أعود مجدّدًا عندما تتيح لي الفرصة. وإذا ما احتجت إلى أيّ شيء من كلكتا ـ من كتب أو موسيقى؟

قال بابو نرمال:

ـ إنّني لم أسألك: ما سبب مجيئك إلى هنا؟ أنت لم تحضر إلى هنا لزيارتنا فحسب. صحيح؟

ابتسمت من دون أن أنظر إلى باكول:

ـ بل حضرت لزيارتكما. الحقّ أنّني جئت لزيارتكما لا غير.

* * *

عاد بي القطار إلى كلكتا، فجلست مرّة أخرى من دون أن يغمض لي جفن، ولكنّني لم أتنبّه للطبيعة خارج النافذة في هذه المرّة. لم أقدر على التفكير في أيّ شيء سوى بالطريقة التي تشبّثت فيها باكول بي مرتعشة، رافضة أن أذهب. فبعد كلّ هذه السنين لم أكن أنا وحدي الذي طغى عليَّ حنين كي يلتمّ شملنا من جديد! لقد غفوت قرب بركة الزنبق بعد أن مارسنا الحبّ واستيقظت من غفوتي لأراها ترنو إليَّ باهتمام شديد، وقالت:

ـ كيف يمكنك أن تستسلم للنوم؟ ونحن لا نملك إلّا وقتًا قصيرًا؟

كانت قد مرّرت أصابعها على وجهي، ثم انحنت وقبّلت جفوني المغمضة وشعرت عندئذٍ أنّ طائرًا مسّها.. وشعرت أنّ كلّ شيء كان خطأً وصحيحًا في الوقت نفسه.

قلت وأنا ما زلت ناعسًا:

ـ أنتِ تدغدغينني.

قالت في صوت لا يكاد يُسمع:

ـ بأيّ شيء تفكّر؟

ضحكت وقلت:

ـ لا شيء. إنّني بلا أفكار.

لم تجب، ولكن كان في وسعي أن أشعر بعينيها من فوق عينيَّ، ففتحتهما، وقلت وأنا تحت تأثير النوم:

ـ ماذا يا باكول؟

ـ ألم نمارس شيئًا غير صحيح.

ـ أهذا ما تظنّين؟ ألستِ سعيدة؟

قالت في تحمّس:

ـ لا. لماذا أكون سعيدة؟ أشعر كأنّني قطعت عهدًا على نفسي أن أفعل شيئًا ما طوال حياتي وها أنذا الآن فعلته.

استبدّ بي الآن سكون غريب، فضغطت على خصلة من شعرها بين أصابعي وقلت:

ـ لماذا تسألين إذًا؟

استرسلت في كلامها:

ـ لن نخبر بشرًا بشيء. اتّفقنا؟ لا أريدك أن تذهب وتفعل أيّ شيء، ينمّ عن غباء. لديك زوجة وطفل.

قلت وأنا أغمض عينيَّ من جديد وأجذبها إليَّ:

ـ أعرف ذلك. ولربّما يكون لديكِ زوج وطفل في القريب العاجل.

* * *

استلقيت الآن فوق سريري في القطار متبسّمًا ابتسامة سعيدة في الظلام. فبعد كلّ هذه السنين، كنت متأكّدًا من أنّنا ما زلنا نشعر بصلة لا يشعر بها أيّ شخص آخر في العالم. لم يعد ثمّة شيء آخر يهمّ، ولا حتى الاضطرار إلى ترك باكول.

كان الجزء الآخر من عقلي منشغلاً بقضايا أكثر ابتذالاً، فقد كنت أعلم أنّني يجب أن أواجه بابو أنغتي. ماذا سأقول له؟ فأنا لم أنفّذ طلبه. وأنا لم أذكر شيئًا عن الموضوع لبابو نرمال فضلاً عن عدم تهديده. ولم أذهب للقاء هارولد وبهيم أو لقاء أيّ شقيّ من أشقيائه الذين كانوا يخطّطون لتدمير بيتي القديم. ولم أعطهما أيّ توجيهات أخرى. ممّا لا شكّ فيه أنّهما سوف يبلغان بابو أنغتي عن كسلي وحتى خيانتي. وسوف يرتاب بابو أنغتي في أنّني توصّلت إلى صفقة مع سكّان المنزل. لم يكن يثق بأحد، ويفترض فرضيّات يدبّرها طوال الوقت لكلّ احتمال.

وعندما بدأ القطار يقترب بي أكثر فأكثر من ذلك العالم الذي يقوم على الصفقات التجاريّة والماليّة ويبتعد بي أكثر فأكثر عن بابو نرمال وعن باكول وعن بيتي القديم، اتّضح لي أنّه لا بدّ أن أفكّر في خطّة أجهض بها خطط بابو أنغتي الرامية إلى إخراجهما من البيت والاستيلاء عليه. لكن ما خططي؟

لا بدّ أنّني استسلمت للنوم، فقد استيقظت بعد أن استبدّت بي فكرة جعلتني أثب من فوق سريري متسارع النبض، فكرة تكاد تكون لا معقولة في بساطتها.

* * *

أربعـــة

قالت زوجتي عابسة على النحو الذي كانت تعلم أنّني لا أستطيع مقاومته:

ـ لم تتنبّه! الصغير يقف على قدميه، وكان ينبغي لك أن تشاهد النظرة التي كست وجهه عندما وقف!

كان الوقت هو مساء يوم عودتي من سونغارة.

قلت:

ـ آه، كان ينبغي له أن يقف في اليومين اللذين كنت فيهما بعيدًا.

رفعْته لكي أضعه في حضني وحاولت أن أتنبّه لزوجتي التي استأنفت حديثها، وتزوّدني بأخبار كلّ ما حدث في غيابي. فقد بدأت والدة بائع الحليب، وهي سيّدة عجوز وبدينة في الستينيّات من عمرها،

بإيصال الحليب إلينا بعد أن تمزجه بكمّيّة من الماء أكبر ممّا كان يفعله ابنها؛ كما أنّ شجرة المانغو في قطعة الأرض في الطبقة الأرضيّة بدأت تزهر أخيرًا ـ كم من الزمن الطويل مضى عليها وهي في ذلك المكان؟ منذ الأزل، صحيح؟ آه، وثمّة قطّة بدأت تنشر قذارتها في الشرفة الخلفيّة. فهل هذا نذير خير أم نذير شؤم؟ تقول والدة شامبا إنّ ذلك يعني ولادة أطفال آخرين في المنزل. أليس ذلك مثيرًا للضحك؟

ظننت أنّني كنت مصغيًا لها، ولكن أعتقد أنّني كنت أنظر بعيدًا لأنّها توقّفت بغتة وقالت:

ـ قل لي: ماذا قلتُ قبل قليل؟

ـ قلتِ: قل لي ماذا قلتُ قبل قليل.

لكنّها عقدت حاجبيها وقالت:

ـ لا تكن مزعجًا. قل لي ماذا قلتُ قبل قليل.

ـ قل لي ماذا...

راحت في قهقهات من الضحك وأمسكت بوسادة وقذفتها في اتّجاهي، وقالت:

ـ لا، إنّني جادّة. لم تكن مصغيًا إلى أيّ شيء.

صحيح، فأنا لم أكن أصغي إليها، فقد كنت منتشيًا نشوة وحشيّة منذ أن ضاجعت باكول، وكان يستحيل عليّ أن أستوعب أيّ شيء آخر. لم أشعر بذنب ولا بالنفور الذاتي، ولم أجد في تلك المضاجعة أيّ نوع من أنواع الخيانة الزوجيّة. كانت مضاجعة باكول حدثًا حتميًّا لا بدّ من وقوعه ومحدودًا وطبيعيًّا وواضحًا. صحيح أنّني كنت على خطأ، ولكن لم يكن في عقلي أيّ فسحة أو وقت لأفكار أخرى في ذلك المساء.

قلت منسحق الفؤاد وفي لهجة دالّة على الندم:

- بل كنت مصغيًا. كلّ ما هنالك هو...

غير أنّ عقلي كان منطلقًا إلى أمام في أفكاره، فتخلّصت من ابني واسترسلت:

- إنّني كنت أفكّر في تلك الرحلة. لديّ فكرة. أخبريني ما رأيك؟

جلست وفي عينيها نظرة فزع بعد أن أدركت مدى جدّيّة الاستشارة التي أبغيها منها. إنّني أتذكّر الآن ذلك النهار بقدر كبير من الشفقة والأسى. وكانت متأكّدة أنّ كلّ قراراتي كنت أتّخذها مع الأخذ بنظر الاعتبار العناية بها، بابني، وأنّني لن ألحق بهما أيّ أذى مهما كان قليلاً.

قلت:

- إنّ هذا البيت ليس بيتنا كما تعلمين. لقد مرًّ وقت طويل، ستّ سنوات، ولم يرجع العمّ سليمان ولم يرسل رسائل كثيرة بعد السنتين الأوليين. إنّه يكاد يكون بيتنا ولكنّه ليس بيتنا حقًّا.

قالت وقد بدت منزعجة وقلقة:

- نعم؟

- ربّما كانت العمّة والعمّ قد وافتهما المنيّة. من يدري ما الذي سوف يحدث إذا ما ظهر له وريث لا نعرف عنه شيئًا ويدّعي ملكيّته له؟ لقد تعلّمت أشياء كثيرة عن مهنتي الآن: فهذه الأشياء تحدث على الدوام، وعندئذٍ سوف نجد أنفسنا على حين بغتة على قارعة الطريق. إنّني أرغب في أن أستقلّ في عملي، كما أنّنا لسنا في حاجة إلى مثل هذا المنزل الكبير، خاصّة ونحن ثلاثة لا أكثر. أفكّر في بيع المنزل ما

دام في وسعنا ذلك والانتقال إلى مكان آخر أصغر حجمًا، وبذلك يكون كلّ شيء في مأمن وسيبقى لديّ مقدار فائض من المال استثمره في عمل خاصّ بي.

انتظرت ردّ فعلها.

قالت في ريبة:

ـ هل للأمر صلة ببلدة سونغارة؟

كنت في السنوات التي أنفقتها وإيّاها أتذكّر المكان، ولكن ذكرياتي كانت مدقّقة تدقيقًا جيّدًا أو هكذا تصوّرت.

قلت في صوت ينمّ عن استغراق في التفكير:

ـ إلى حدٍّ ما. فهي التي جعلتني منشغل البال. انظري إلى ما حدث في تلك البلدة. شقيق يخون شقيقه ويتركه من دون مأوى. فبمن تثقين إن كنت لا تثقين بشقيقك؟ ونحن هنا لا تربطنا أيّ صلة قرابة بالعمّ، بل نحن ننتمي إلى ديانتين مختلفتين!

ـ لكنّ المنزل يروقني، وتروقني أيضًا الشرفة وشجرة الليمون. ثم ماذا بشأن والدة شامبا والجيران؟ أين سنسكن؟ في مكان ما غريب وجديد وصغير! أنا لا أريد المال.

ـ ليست القضيّة متمثّلة بالمال وحده، إذْ قد نخسر الاثنين معًا: المال والدار. فبعد مرور عديد السنوات على التقسيم، وسوء حال البنغاليين في الباكستان الشرقيّة، فإنّ بعضهم بدأ بالعودة. إنّني أفكّر في المستقبل.

استلقت متنهّدة ودفنت وجهها في وسادة، وقالت في صوت مكتوم:

- لا أدري ماذا حلَّ بك؟ فأنت تسافر ليومين اثنين وتعود حاملاً أفكارًا غريبة. لماذا تشاورني في الأمر؟ فهل ستصغي إليَّ إذا قلت لا؟

كنت أعلم أنّها كانت تبكي في صوت غير مسموع من على وسادتها عند التفكير في ترك منزلنا الذي تحفّ به الأشجار، ولكنّني بدأت شخصيًّا أصدّق قصّتي. وقلت في نفسي إنّ الأحداث تشير إليك بالطريق في أغلب الأحيان. وطالما كنت أنا نفسي لا أشعر بالأمان من ناحية هذا البيت، فأنا أسكن فيه ولكنّني لا أملكه. فما السبب الذي يدفعني إلى أن أنفق حياتي، والآن حياة أسرتي، في منزل مستعار؟ كما أنّ معضلتي باتت عاجلة أخلاقيًّا أيضًا: إذ كيف يتسنّى لي أن أقف موقف المتفرّج في حين يتعرّض بابو نرمال الذي ربّاني إلى التشريد من بيته؟

* * *

ذهبت إلى العمل في اليوم التالي بشيء من القلق والانزعاج. وتساءلت في نفسي إن كان بابو أنغتي على استعداد للقبول بخطّتي. ولبثت طوال الصباح أنهض عن كرسيي كلّما سمعت شخصًا ما يدخل المكتب الذي لا يحتوي إلّا على حجرتين، ولكنّه لم يأتِ إلّا بعد الظهر. انتظرت قرب الباب. رشقني بنظرة استياء لدى وصوله، وقال:

- في مكتبي بعد خمس دقائق!

لم يطلب منّي الجلوس في هذه المرّة، بل انشغل بإخراج قطعة مخدّر من علبته وحشرها في فمه المحمرّ. وبعد قليل امتلأ فمه بالسائل، فلوّح لي كي أجلس وغمغم ببضع كلمات فسّرتها على أنّها: «اجلس، هات ما لديك من أخبار. هل خرجوا من المنزل؟».

هارولد وبهيم والآخرون لم يرجعوا بعد من سونغارة، وبهذا لا يعرف شيئًا عن غدري حتى الآن.

أخبرته بما خطر ببالي في القطار: أردت عمليّة مقايضة. ففي إمكانه أن يأخذ بيتي في كلكتا وهو أغلى ثمنًا من البيت العتيق في البلدة القديمة إذا ما أعطاني البيت في سونغارة. وكان شرْطي هو ألّا يعرف أحد بهذه المقايضة. ومن المقرّر أن تبدو العمليّة عمليّة بيع سهلة، وأن يعطيني المال للتعويض عن الغرف في قيمة المنزلين، وبهذا أحصل على رأس المال اللازم للبدء في عملي الخاصّ بي. تكلّمت في سرعة، مبهور الأنفاس أحيانًا، لكن كلامي كان سلسًا ولم يتلعثم لساني عندما كانت الأفكار تتدفّق وتشقّ طريقها في كلمات.

كان بابو أنغتي يمسح صلعته المتصبّبة عرقًا بمنديله المألوف القذر. وكان أوّل الأمر لامباليًا وليس متنبّهًا عندما بدأت الكلام.

لكنّه سرعان ما سرح ببصره إليّ وافترّ جانب فمه عن ابتسامة صغيرة ماكرة وأشار إليّ أن أكفّ عن الكلام ورفع مبصقته البرونزيّة القذرة التي كانت بهيأة وجه امرأة فاغرة فاهًا وبصق فيها بصاقًا أحمر اللون ومسح فمه. أشحت بنظري جانبًا وأصابني الغثيان على الرّغم من أنّني كنت قد ألفت عاداته. ورأيت خطّين من السائل الأحمر يرتسمان على التجاعيد القريبة من فمه، ثم حكَّ أسفل عنقه ونظر في إمعان إلى أظافره، وقال وهو يحسب حساب كلّ كلمة:

ـ إذًا هل أنا على صواب في فهمي لك؟

ثم بدأ يكرّر كلّ ما قلته له تمامًا.

المؤكّد أنّني كنت أريده أن يوافق على مقترحي. ولكن بما أنّني كنت أتمتّع بنعمه كما أظنّ، أو ربّما كان أملي مخالفًا لحكمي، فقد ظننت أنّه سوف ينظر إلى رفاهيّتي من صميم قلبه. وحتى عندما طرحت فكرتي عليه في ذلك النهار، فقد توقّعت منه أن يثنيني عن رأيي ويقول:

ـ لا تكن ساذجًا يا موكوندا! إنّها صفقة غبيّة، وأنا أحذّرك منها لأنّني أرى مصلحتك في أعماق فؤادي. ولو كان أحد غيرك، لأخرجت له لساني وتركته يضحك على نفسه.

بيد أنّه وافق من دون تردّد، وقال محاولاً ألّا يبدو ماكرًا:

ـ يا لك من ذكي يا موكوندا. ذكي جدًّا. سوف تحصل على ثروة طائلة وعلى مساحة كبيرة من الأرض غير مشيّدة وسوف يزداد سعرها زيادة هائلة. هذا وقد كنت أفكّر منذ زمن أنّ الوقت حان كي تبدأ بتأسيس مشروع خاصّ بك. لقد علّمتك كلّ ما أعرف كما تعلم، وسوف تنجح يا موكوندا. تذكّر كلماتي! أمّا هذا البيت الصغير القديم في زقاق جانبي من أزقّة كلكتا الذي تعرضه عليّ، فإنّ وضعه ليس مؤكّدًا، فلا حجّة حقيقيّة ولا وثائق. فهل أجازف به؟ لكن ربّما تعيّن عليّ المجازفة كي أساعدك لتشقّ طريقك. وسوف يساعدك المال الفائض على تأسيس مشروعك التجاري كما تقول.

كانت سرعة موافقته سببًا لارتياحي ولاشمئزازي في الوقت نفسه. فقد كان منزل العمّ سليمان في موقع ممتاز من مدينة كلكتا. وكان يعرف ذلك. التملّك هو استحواذ ويمثّل تسعة أعشار القانون، وهذا أحد مبادئه الجوهريّة في العمل التي علّمني إيّاها. فبعد ستّ سنوات، وحتى إذا ما ظهر لنا وريث مسلم، فما هي فرصة وقوفه في وجه بابو أنغتي وأشقيائه؟ سوف يبيع المنزل ويقبض الثمن في غضون شهرين اثنين. ومقابل هذا الشيء الأكيد حقًّا لمصلحته، فإنّني من وجهة نظر بابو أنغتي أتبنّى الجانب المعاكس والمتمثّل في المخاطرة بملكيّة بيت متنازع عليه في بلدة ريفيّة قد لا يحقّق نبوءات كبيرة وآمال عظيمة. لم يرغب بابو أنغتي في معرفة الأسباب الكامنة وراء جنوني. ربّما انتابه حبّ الفضول، وربّما ذهبت به الظنون أيّ مذهب، ولكنّه كان يريد الصفقة والتبادل أن

يكتملا قبل أن أتبيّن الأمر وأغيّر من رأيي. كان مثالاً للدبلوماسيّة، يتصرّف وكأنّني اقترحت توًّا صفقة لي من شأنها أن تغيّر مجرى حياتي. هذا صحيح، ولكن ليس على النحو الذي تخيّله هو شخصيًّا.

لكن على الرّغم من عجالته، فقد جعلني أخفّض من قيمة المبلغ الذي طلبته ثمنًا للمنزل في كلكتا، وبهذا بقي المبلغ أقلّ ممّا توقّعت.

أبعدت عن تفكيري أيّ حسن ظنّ بأنّه كان يتصرّف معي تصرّفًا أبويًّا، ولكن في حين كنت أغادر حجرته فإنّ الارتياح الكبير الذي استبدّ بي كان طاغيًا: لقد أضحى مستقبل بابو نرمال وباكول بين يديَّ، وسرعان ما سوف تصبح وثائق ملكيّة المنزل رقم ٣ في دولغانج رود ملكي أنا. وبهذا أمسى بيت طفولتي في مأمن، ولن يقع في أيدي غرباء يعقدون العزم على هدمه وتشييد مبنًى آخر في محلّه.

بعد مرور بضعة أيّام، وبعد أن أضفيت الصفة الرسميّة على كلّ شيء، جلست إلى مكتبي في الممرّ في مكتب بابو أنغتي، وبدأت في كتابة رسالة قلت فيها:

«عزيزي بابو نرمال.

يصعب عليَّ كثيرًا تفسير كلّ هذه الأمور، لكنّني اكتشفت مصادفة أنّني أعرف سمسار العقارات الذي اشترى منزلك من بابو كمال، وقد تمكّنت من إقناعه...».

أعدت كتابة الرسالة سبع مرّات ولم تصبح جاهزة للإرسال إلّا في نهاية اليوم. وقد أوضحت فيها أنّ بابو نرمال ليس مضطرًّا إلى التفكير في ترتيبات سكن أخرى، في الأقلّ طوال الوقت الذي أمتلك فيه قرارًا بشأن القضيّة، وأنّني كنت أتوقّع أن تسود هذه الحالة إلى الأبد. وأنّ في وسعه أن يستمرّ في السكن في دولغانج رود من دون قلق. وجاءتني منه

رسالة جوابيّة تنطوي على الارتباك والشكر وحبّ الفضول والاعتذار في محاولة منه للاحتفاظ بكرامته. وأكّدت رسالته أنّ المنزل لم يعد محاصرًا، وعبّر عن شكره وامتنانه لي الممتزجين بشيء من الذهول لأنّ التهديدات الموجّهة له ولباكول توقّفت. شعرت بالحزن والشفقة عليه وتركت رسالته جانبًا من دون إرسال جواب.

* * *

لم يكن انتقالنا من منزل العمّ سليمان ليخلو من منغّصات حتى لي شخصيًّا. فقد تخاصمت وزوجتي خصامًا مريرًا بشأن الأغراض والحاجيّات التي سوف ننقلها معنا. فأنا لم أرغب في أن أترك كتب العمّ سليمان التي غدت بالنسبة لي أصدقاء قدامى، بينما وطّنت زوجتي العزم على بيعها لبائع كتب قديمة. أمّا نوري، فإنّه لم يحبّب نفسه إلى زوجتي قطّ وهي التي كانت تمقت الشتائم والسباب وأحيانًا النقر بالمنقار. ولكنّني رفضت كلّ مناشداتها بالتخلّي عن الطائر أو إطلاق سراحه. وأرادت زوجتي أن تنقل بعض القطع الثقيلة من الأثاث سبق أن أعطيت لها مهرًا للزواج، ولكنّني كنت أعلم أنّ بيتنا الجديد أصغر من أن يضمّ بين جدرانه أسرّة بأربعة أعمدة وخزانات ملابس ضخمة بما فيها من نقوش. واستمرّت المعركة طوال المساء، وإذا كنت أذعنت وقلت لها نعم للخزانة، فإنّني عملت لقاء ذلك على ابتزازها بنقل مكتب العمّ. وأوينا إلى فراشنا هادئين ونستشيط غضبًا في الوقت عينه، واستيقظنا من النوم مكتئبين وفي أعماقنا ثورة هوجاء.

ولكن على الرّغم من كلّ ذلك، كنت منتشيًا لأنّني أنقذت باكول وأدركت أنّها في مأمن في منزلها بسببي، وأنّني حتى لو كنت غائبًا، إلّا أنّني كنت أهتمّ بها. لقد غيّرتني تلك الساعات القليلة التي قضيتها في سونغارة تغييرًا لا رجعة فيه، وأدركت أنّني لا أستطيع العيش في البقيّة

الباقية من حياتي على النحو الذي عشته في السنوات القليلة الماضية. شعرت بشيء جوهري يتحوّل في شخصيّتي ويتشكّل من جديد. وكان العزاء في نفسي الآن يتمثّل في أنّ بني البشر خُلقوا ليحبّوا غيرهم من الناس. لم أحاول أن أشرح هذا المفهوم لأيّ شخص، بل تشبّثت به وكأنّه نوع من أنواع التجلّي أو أنّه إشراقة إلٰهيّة آثرت أن تشرق عليَّ وحدي. على أيّة حال، ألم نحبّ والدينا، وذرّيّتنا وأصدقاءنا وأزواجنا وأطفالنا في الوقت نفسه وبأساليب متباينة؟ فلو أعلنت زوجتي في تلك اللحظة أنّها تحبّ رجلاً آخر إضافة إلى حبّها لي، فإنّني متأكّد من أنّني سوف أكون سعيدًا لذلك، لأنّني واثق من أنّني أستطيع أن أحبّ زوجتي وباكول بأسلوبين مختلفين. كنت أرى في ذلك قدري ومصيري، وهو أيضًا دفاع ضدّ الإثم والحزن اللذين استبدّا بي عندما شاهدت الألم الذي أتسبّب فيه لزوجتي والألم الذي لم يكن يعرف ابني لصغر سنّه أنّني أتسبّب فيه له. لن أتخلّى عن زوجتي وطفلي، هذا ما كنت واثقًا منه. قد لا تكون فكرة وجود عالم من غير باكول فكرة مقبولة.. ولكن على النحو نفسه، فإنّ التفكير في الحياة من دون طفلي الذكر أشبه بخواء عقيم لم أتمكّن من التفكير فيه.

لم أكن راغبًا في شراء بيت جديد من فوري. فبغض النظر عن مقدار المال الذي أملكه، فإنّني أردت استثماره في مشروع بناء؛ ولمّا كانت النقود مستثمرة كلّها في منزل سونغارة، فإنّني لم أكن أملك مالاً كثيرًا كي أنفقه. وساورني القلق بشأن مقدار المبلغ الذي سيتوافر لديّ عند نقطة الشروع بالمشروع بمفردي. بيد أنّ كلّ ما استطعت التفكير فيه هو التدبير والاقتصاد، ولهذا أردت أن أستأجر حجرتين في منزل في شيام بازار. صحيح أنّ المكان ضيّق وفي حيّ قذر فقير، ومجاري المياه الثقيلة فيه مكشوفة، والحمّامات عموميّة وقذرة، ويتعيّن علينا الوقوف في

صفّ طويل صباح كلّ يوم في انتظار دورنا لدخول المرافق الصحّيّة. وكان الرجال والأطفال يستحمّون من ماء صنبور في الفناء في حين كانت النساء ينتظرن أدوارهنّ للاستحمام في حمّامات منفردة. ثمّة إحدى عشرة أسرة في ذلك المنزل، وكانت تحفّ بنا من كلّ جانب مختلف الأسواق والدكاكين. فخارج حجرة نومنا تمامًا ثمّة منصّة تبيع الفطائر المقليّة طوال المساء، وكانت أبخرة السمن المقلي تعطّر أجواء حجرتنا إذا ما فتحنا نافذتها الوحيدة. وبحلول الليل يحتشد السكارى ويتحرّكون في غير انتظام على مقربة من منصّة الفطائر. وكانت تنساب إلى سمعنا في كلّ يوم أصوات الطيور والدواجن وهي تذبح في محلّ جزارة يبيع لحوم الدجاج والضأن لتعقبها بعد ذلك رائحة اللحم المقلي.

وفي صباح أحد الأيّام، توجّهت زوجتي إلى المرافق الصحّيّة فوجدت أنّ الطفل الذي كان سبقها في استعمال المرافق قد ترك على الأرض كومة من غائط خردلي اللون، وطأت عليها زوجتي وزعقت بصوت عالٍ:

ـ على الأرض؟ ما هؤلاء الأطفال الذين يربّيهم الناس فيتركون الغائط على الأرض؟

صاحت أمّ الطفل في صوت مرتفع:

ـ آه ه ه. ألسنا محظوظين بوجود الملكة فكتوريا بين ظهرانينا! كانت تعيش في قصر منيف، صحيح؟

صرخت زوجتي في صوت عالٍ وخشن تمكّنتُ من سماعه من الطبقة الأولى من دون أن أستدلّ عليه:

ـ احذري من الكلام بهذه اللهجة أيّتها الأمّ ناكيولار.

ـ وماذا سوف تفعلين؟ ترمينا في الشارع؟ زوجك رجل أعمال كبير

الشأن. صحيح؟ ويدير أعمالاً كبيرة، عالي المقام وصاحب نفوذ. أفلا نعرف ذلك؟

وانضمّت امرأة أخرى إلى المشاجرة وقالت مخاطبة زوجتي:

ـ بالله عليك! إنّ غائط الطفل ليس قذرًا. ألم تسمعي؟ بول الطفل ماء نقي من نهر الغانج! أنت أمّ، فلماذا تعترضين؟

وبعد أسبوعين اثنين انتقلنا من ذلك المنزل بعد أن عثرت على بيت آخر، يقع هذه المرّة على مقربة من كيدربور، وهي منطقة مزدحمة تقطعها خطوط سكّة حديد الترام المتّجهة إلى مختلف المناطق. وكنّا طوال المساء والنهار نسمع صوت أجراس الترام وأبواق الحافلات من تحتنا. وفي جوف الليل البهيم وبعد أن يخيّم الظلام الدامس والسكون التامّ وتهدأ حركة الترام، نستلقي يقظين نصيخ السمع لصوت طفل يبكي بكاءً حزينًا وينادي والده السكّير:

ـ بابا، بابا، أين أنت؟

وكان الصوت مرتفعًا يتناهى إلى الأسماع من جهات مختلفة والطفل يجوب الشوارع بحثًا عن أبيه. وبعد مضيّ دقائق عسيرة، يتوقّف عن الصياح: لعلّه عثر على والده مضطجعًا في سبات في مكان ما فيجرّه إلى البيت. وكنّا في نهاية الأمر نستسلم لنوم متعب ونستيقظ على أصوات نعيق الغربان وعربات الترام وهي تروح وتأتي من جديد.

المكان يتألّف من غرفة واحدة، ومطبخ موقّت، ولكنّه بعيد عن الناس، وثمّة حمّام على السطح. وكنت قد علّقت قفص نوري في السقف على مقربة من النافذة، وبدا الطائر قليل الصياح مقارنة بتلك الأيّام في حجرتي شيام بازار. وكان في وسعنا ترك طفلنا ينام على السطح مغطّى ببطّانيّة رفقة لعبه إذا ما توافر ظلّ. وهو يضحك من جديد

في بهجة وحبور. ووجدت الحيّ الجديد قد هدّأ من زوجتي قليلاً بعد أن تهيّأ لي أنّني لن أسمع نهاية لغضبها، ولعلّ السبب يرجع إلى حالة الإنهاك الشديد الذي عُرّضت له حياتنا الجديدة! وعندئذٍ بدأت أبحث عن عمل.

* * *

بيد أنّ الهدوء كان قصير الأمد، إذْ إنّ زوجتي كانت منذ البداية متشكّكة بشأن السبب الحقيقي وراء بيع المنزل. كما أنّ والدها أخذ يتردّد على زيارتنا كلّ بضعة أيّام، فيحرّضها ويزيد من وقع آلامها ومخاوفها. وبدأت السعادة المبكرة في زواجي تتضاءل وتنساب من بين أصابعي انسياب الماء في كفّ مضمومة.

لقد زوَّجني بارابابو ابنته بسبب مستقبلي الواعد. وعلى الرّغم من أنّني بلا أبوين، وعلى الرّغم من عدم وجود أيّ معلومات عن طبقتي الاجتماعيّة، فقد راقت لوالد زوجتي ـ أو ربّما حسب حسابًا دقيقًا ـ ملكيّتي وآفاق مستقبلي بما يكفي لكي يسلّمني إيّاها. لم تعجبه التغيّرات التي حلَّت بظروفنا مثلما لم تعجب ابنته. وكان يكثر من الترديد قائلاً:

ـ لماذا لا تكون ثريًّا؟ لقد احتفظنا بابنتنا وكأنّها زوجة مهراجا، وهي غير معتادة هذا الشقاء الذي تسبّب أنت فيه. لماذا؟

كنت أحسّ أنّ في أعماقه غلًّا عميقًا وليس حيرة. وقد بقيت زمنًا طويلاً أرتاب في جاذبيّتي له والزواج بابنته، إنّما سببه بيت العمّ سليمان وليس أيّ مزيّة أخرى أتمتّع بها.

ـ إنّها مسألة موقّتة حتى أباشر عملي.

فأزعجني قائلاً:

ـ لكن ما سبب وجود هذه المشكلة الخاصّة بالمال؟ هذا ما لا أفهمه. لقد بعت بيتًا كبيرًا في منطقة ممتازة، وينبغي لك أن تكون ثريًا! ولكن بدلاً من ذلك، ها أنت بخيل في الطعام، ولا تحصل على أيّ عقود. وتقول ماليني إنّ الأمر وصل بك إلى عدم شراء السمك يوميًا!

قلت مطبق الشفتين:

ـ إنّ المال المكتسب من عمليّة الشراء مرهون باستثمارات معيّنة.

ثم أشحت بنظري جانبًا لأنهي الحديث، وبدأت أرى في منظر والد زوجتي وهو يرتقي السلالم إلى غرفتنا المطلّة على السطح متأوّهًا ومتأففًا أمرًا لا يطاق وغير مبرّر. ورحت أنزعج من كلّ ما فيه أنفه الأكبر ممّا ينبغي ومنخراه كثيفا الشعر وذقنه المرتدّ إلى الوراء وأذناه الطويلتان اللتان كان يلفّ عليهما خيطه المقدّس القذر عندما يريد غسل يديه تحت الصنبور، فضلاً عن معظم الحديث الذي كان يتجاذبه مع ابنته إنّما كان همسًا، وكان يحدّق في اتّجاهي. وبعد أن انصرف وكرّرت زوجته طرح أسئلته عليّ وكأنّها من بنات أفكارها، قلت:

ـ أنت لا تفهمين شيئًا في أمور التجارة، فابتعدي عنها واتركيني أفعل ما أظنّه صحيحًا وصائبًا.

ـ أنت تكثر من الصياح في وجهي.

ـ إنّني لا أصيح بل أحاول أن أخبرك بشيء غاية في البساطة. دعيني وشأني في عملي ولا تتدخّلي فيه ولا تزعجيني. هل أحاول أن أعلّمك كيف تطبخين الطعام أو كيف تربّين غونام؟

لكنّها استرسلت في كلامها وكأنّها لم تسمعني:

ـ ليست هذه هي المرّة الوحيدة. فما إن أكلّمك حتى يكاد رأسي أن ينفجر. إذا طلبت منك أن تأتي لتناول الطعام فإنّك تبدأ في الصياح

قائلاً: ألا ترين أنّني منهمك في العمل؟ ألا يمكن للرجل أن يعمل في هدوء؟

ثم اندفعت خارج الغرفة مغمغمة:

ـ ما دام كلامي عن أيّ شيء يثير غضبك، فلن أتكلّم بعد الآن. إنّ غدًا لناظره قريب.

حالات صمت طويلة تخيّم على المنزل، ساعات ثقيلة ومتوتّرة لا يقطعها سوى بكاء الطفل الصغير. وكنت أسرع في الخروج وأذهب للجلوس على ضفّة النهر.. أراقب المراكب تمرّ من أمامي، والرجال نحيلي البنية يدفعون الأوتار في النهر لتشقّ قواربهم القديمة صفحة الماء. وفكّرت أنّهم سعداء. كانوا يعرفون ما عملهم، وكانوا يحصلون على طعامهم وشرابهم. ربّما كانوا محظوظين وبلا زوجات. كنت أحيانًا معذّبًا بالنفور الذاتي بسبب نفاقي وازدواجيّتي وبأسلوبي في جعل أسرتي تتعذّب وتتألّم، ولكنّني شعرت ـ وهذا ما أعرفه ـ أنّ الأسلوب الذي اتّبعته كان هو الأسلوب الوحيد الممكن. وفي يوم من الأيّام، كنت جالسًا على ضفّة النهر أراقب عربات الترام تمرّ من جانب والقوارب تمرّ من جانب آخر، فاستبدّ بي حنين لا أوّل له ولا آخر لذلك الزمان الذي كنت فيه بلا عائق يعوقني، خاليًا من الهموم، أتنزّه في الميدان في صحبة صديقي عارف ونتجاذب أطراف الحديث عن الكتب والنبات، وكدت أن أدفع بنفسي إلى النهر من شدّة يأسي. لقد أصبحت مدينة عارف لاهور في بلد آخر اليوم شأنها شأن مدينة العمّ سليمان راجشاهي. كلّهم من الماضي، أصدقائي من الماضي. أمّا أنا فوحيد تمامًا. كيف تخلّت عنّي القناعة وتخلّى عنّي الاطمئنان وراحة البال؟ لماذا تغلّب عليّ السخط والاستياء إلى هذا الحدّ؟ هل يستحقّ هذا العالم المتغيّر أيّ شيء، العالم الذي خسرت فيه زوجتي ولم أكسب فيه سوى حنين لشيء موغل

في البعد، لشيء ناءٍ جدًّا في ماضيَّ البعيد جدًّا؟

* * *

مرّت ستّة أشهر من دون حدوث أيّ تغيير. كنت وزوجتي نتكلّم ولكن نادرًا ما تجاذبنا أطراف الحديث. واكتسى وجهها الباسم قساوة وصراحة، وغالبًا ما كانت تفقد أعصابها. أمّا طفلي فقد بات نزقًا، سيّئ الطبع؛ وأُصيب جلده بنوع من الحساسيّة لم يستطع أحد تشخيصها، ولاقيت صعوبة فائقة في تدبير النقود لأطبّائه وأدويته. فظلّ الليل كلّه مسهدًا، باكيًا، ينشج ويحكّ جسده وفروة رأسه اللذين أصبحا محمرّين. وكانت رؤيتي له وهو يتعذّب هذا العذاب تسحق فؤادي وتقطّع أوصاله. وكانت الغرفة من فوق السطح علبة حامية في فصل الصيف، والنوم على السطح يعني التعرّض إلى عزف سيمفوني تؤدّيه أفواج البعوض من حولنا. كان والد زوجتي على حقّ، فنحن لا نملك من المال ما يجعلنا قادرين على أن نأكل كالأيّام الخوالي.

لا يبدو الأمر وكأنّني لم أبذل جهدًا، فقد اشتغلت أشغالاً صغيرة موقّتة مثل رئيس عمّال أثناء انتظاري فرص العمل التي لم تتوافر قطّ. وكان بابو أنغتي في أغلب الأحايين يمنحني هذه الأشغال الصغيرة بقدر من السخرية، ولكن بما أنّني مقاول مستقلّ من الناحية النظريّة، فإنّني لم أعد أتلقّى مرتّبي الشهري منه، وكان المجهول يعكّر أيّامنا. وكنت في الأسابيع التي لا تربطني بأيّ عمل أردّد في نفسي أنّني سوف أشتغل وأترك المنزل وأتمشّى حول المدينة وأنام فوق المصاطب في الميدان وأتناول الرزّ المتبّل بالبهارات ولا شيء غير ذلك. ومن حولي كانت جياد عظيمة بلون الكستناء تقضم العشب الأخضر الناعم، والأطفال بثيابهم البيض يركضون ويمرحون بالكرة ويصيحون بأعلى أصواتهم. كنت أشعر أنّني مرتاح قليلاً، فأستعير قدرًا من المتعة التي تستمدّها

الجياد من العشب والأولاد من لعبهم، فأستلقي تحت شجرة في الظلمة الباردة أهزهز رأسي من فوق مرفقي، أرنو إلى العالم من تحت وأتساءل في عجب إن كان لديه موطئ قدم لي!

قلت لنفسي إنّ الأمور لا بدّ أن تتحسّن. وكان الآخرون يردّدون أنّ الأعمال تحتاج إلى وقت طويل كي تنهض. سرعان ما سوف أحصل على نوع من الاستمارات التي ستحلّق بي إلى المكان الذي يتربّع عليه بابو أنغتي. وأجد نفسي أحيانًا أحلم ببناء بيت صغير لبابو نرمال ولباكول في حديقتهما وأبيع بقيّة العقار. المؤكّد أنّهما سوف يفهمان حاجتي. وفي أحيان أخرى، عندما تكون الأيّام أشدّ بؤسًا وتعاسة، سوف أقرّر بيع العقار في سونغارة إلى بابو أنغتي من دون أن يعرف أحد، تمامًا مثلما اشتريته. هذا إن كان ما يزال راغبًا فيه، ولكنّني سوف أتخلّى عن هذه الفكرة إذا ما حصلتُ على فرصة عمل واشتغلت رئيس عمّال في مكان ما. أحيانًا كنت أحصل على عمل مقاول ثانوي خارج كلكتا، في بلدات صغيرة، فأشعر ببعض الارتياح لابتعادي عن المنزل.

كنت في كلّ ساعة من ساعات كلّ نهار أفكّر في باكول.. كان الحنين إليها يهدّئ من أفكاري أحيانًا، ولكنّه في أحيان أخرى يسبّب لي توتّرًا لا يطاق بسبب عدم القدرة على البوح بذلك. أعلم أنّني خسرت زوجتي، ولكنّني كنت أعلم أيضًا أنّها في البيت رفقة طفلي، وأنّ كلّ هذه الأشياء المتناقضة باتت الآن هي حياتي التي لا يمكنني الهروب منها. أعتقد أنّ عبثيّتها هي التي حالت بيني وبين حتى محاولة الكتابة إلى بابو نرمال أو باكول. وكانت معرفتي بأنّهما في مأمن لأنهما يسكنان في منزلي هي التي تجعلني أتحمّل العبء كلّه وأواصل الحياة. ولكن ما الذي يمكنني أن أقوله لهما إذا ما كتبت لهما؟

* * *

عندما أضحى لدينا شيء من المال بعد بضعة أسابيع من تلك المقاولات الثانويّة، أخذنا غوتام إلى طبيب مختصّ لمعالجة حساسيّته الجلديّة. كانت زوجتي مكفهرّة، واجمة أكثر من المعتاد. وانتظرنا من دون كلام كي يستدعينا الطبيب، مدركين تمامًا أنّنا سوف نتشاجر إذا ما تكلّمنا. كان الطبيب من ذلك النمط من الأطبّاء الذين يحتفظون بمجلّات في غرفة الانتظار، فأخذت واحدة منها وكان على غلافها صورة امرأة فاتنة. قلّبت الصفحات من دون أن أقرأ ومن دون أن أنظر بأيّ قدر من الاهتمام إلى الحياة الخياليّة التي تكشف عنها. ثم توقّفت أمام إحدى الصفحات إذْ رأيت إعلانًا صغيرًا عن مرهم مُطَرّ للبشرة. رنوت إلى الصورة غير مصدّق. فالوجه ذو السمنة الورديّة المثاليّة يبدو مثل وجه باكول تمامًا.

غالبًا ما كنت في تلك الأيّام أضبط نفسي متلبّسًا بالنظر بعين الأمل والترقّب على ظهر ما أو كتف ما في الطرقات أو الحافلات أو عربات الترام بعد أن أكون قد لمحت من مسافة بعيدة ما يخيّل إليّ أنّه ظهر باكول أو كتفها. وعندما تستدير تلك المرأة المعيّنة، وألمح وجهها الغريب بدلاً من باكول، فإنّ خيبتي تكون بلا حدود. لكن هذه الصورة كانت أقرب إلى باكول من كلّ اللواتي ظننتهنّ إيّاها. لكنّها لم تكن باكول من كلّ النواحي، فشعرها كان غاية في الأناقة وبشرتها ورديّة إلى أقصى حدّ، كما أنّها لم تبتسم مثل هذه الابتسامة، ولم أستطع رؤية سنّها المعوجّ، أو ربّما هو في الجانب الآخر من وجهها.

قالت زوجتي في نبرة باعثة على السخرية:

ـ ما هذا الذي تنظر إليه بمثل هذا الاهتمام؟ امرأة فاتنة، صحيح؟

قلت وأنا أقلّب الصفحات متظاهرًا باللامبالاة:

ـ آه، لا شيء.

لم أكن أدرك أنّ زوجتي كانت تُنعم النظر إلى وجهي مدقّقة في ملامحي.

ـ كلّ امرأة هي حسناء فاتنة عندما لا تكون مضطرّة إلى الكنس والمسح وملء الماء طوال النهار. ثم إنّ الرجال يظنّونهنّ ساحرات الجمال!

قلت بعد أن نفد صبري:

ـ هيّا، أسرعي! أليس في وسع أيّ رجل أن يتطلّع إلى مجلّة من دون نقد؟ أتدرين كيف هو حالك؟

كنت قد عدت قبل قليل من رحلة حارّة ومنهكة استغرقت أسبوعين، حاولت فيها وضع حدٍّ لمشكلات برزت في موقع لمدرسة حكوميّة حيث وقفتُ طويلاً تحت أشعّة الشمس التي تغشي الأبصار، وكنت قد جئت إلى الطبيب قادمًا من المحطّة مباشرة تقريبًا. وأحسست أنّني غير مستعدّ للشجار مع زوجتي، ولكنّها كانت مفعمة بثورة مكبوتة بعد أن كانت مضطرّة إلى الاهتمام بمفردها طوال ذينك الأسبوعين بطفلنا العليل. لهذا لم تتوقّف.

ـ أفّ! يتصرّف الرجال تصرّفًا غريبًا في مثل سنّك. إنّني على دراية بذلك. فقد أخبرتني والدة بينو أنّها عثرت على صور بذيئة في أحد رفوف شقيق زوجها مخفيّة بين طيّات ثيابه. تخيّل أنّه أبٌ لطفلين وفي سن الأربعين. ثم هتفت زوجتي في عجب:

ـ يا إلٰهي! يا إلٰهي!

ثم تململت في جلستها وحوّلت الطفل المتصبّب عرقًا من كتف إلى آخر، واستأنفت الكلام:

ـ لا أدري إلى متى نضطر إلى انتظار هذا الطبيب. ثم ما الفائدة؟ لم نجد طبيبًا ذا نفع.

قلت:

ـ إنّه أفضل طبيب اختصاص في الجلديّة في كلكتا، هل من مكان آخر يمكننا الذهاب إليه؟

في تلك الدقائق العصيبة التي أطلّ فيها وجه الطبيب خارج غرفته وطلب منّا الدخول، تمكّنت من تمزيق الصفحة من المجلّة ووضعها في جيبي. وفكّرت أنّني أحسّ أنّ باكول تزداد منّي دنوًّا إذا كانت الصورة في جيبي حتى لو لم تكن صورتها. ففي وسعي أن أتطلّع إليها في وقت الفراغ.

بعد رجوعنا إلى المنزل، ووضع الطفل المنهك في سريره لينام، حشرت الصورة في خزانة ثيابي، تحت الأوراق وقوائم الحسابات حيث لا يمكن لزوجتي أن تتنبّه لها. ثم اغتسلت بماء الصنبور على السطح، وذهبت عاريًا ومنتعشًا أبحث عن شيء أرتديه. كان الماء البارد الذي صببته على جسدي ورأسي قد أعاد إليّ رواق مزاجي. وناديت زوجتي وأنا أسير على أطراف أصابع قدميَّ على السطح الحارّ:

ـ هل الطعام جاهز؟ إنّني جائع ولم أتناول طعام البيت منذ أسبوعين كاملين!

كانت ثيابي القليلة، التي تبدو بالية ورثّة الآن، مكوّمة عند طرف السرير، فما كان منّي إلّا أن قذفت بها قطعة فقطعة باحثًا عن قميص رقيق أرتديه في ذلك النهار الساكن الذي يرشح فيه المرء عرقًا.

نادت زوجتي من المطبخ:

ـ هل أنت هناك؟ الأرزّ جاهز، هلمّ لنأكل.

كانت نادمة بعد تلك المشاحنة وحريصة على راحتي.

لكنّني في تلك اللحظة كنت مبهور الأنفاس لا أستطيع الردّ عليها، مرتعش اليدين. فجلست على السرير في محاولة لتهدئة نفسي من دون أن ألاحظ كومة الثياب من تحتي.

انساب إليّ صوتها وهي تقول:

ـ أنت تتصرّف في برود بعد أن تضطرّني إلى الإسراع في إعداد الطعام، وها أنذا أنتظر والأرزّ الحارّ ينتظر وأنا مستيقظة منذ الفجر ولم تغمض لي عين في هذه الليلة إلّا قليلاً مع هذا الطفل الباكي...

عثرت بين طيّات كومة الثياب على رسالة، كانت زوجتي قد وضعتها هناك عندما كنت مسافرًا. ولم تكن أكثر من بضع جمل مكتوبة في عجالة بخطّ يد بابو نرمال ومفادها:

«آسف، بيد أنّ الأمر عاجل. أتمنّى أن تأتي لزيارتنا أنت وأسرتك. فالمناسبة لن تكمل من دونك. أمامنا أسبوعان، وسوف نتحدّث عندما تأتي. وسأوافيك بكلّ التفاصيل».

كانت الرسالة مطويّة حول بطاقة سميكة مطبوعة بحبر أحمر مع بقعة في إحدى زواياها من الزعفران الهندي الذي يبشّر بالخير ويجلب الحظّ السعيد.

الدعوى موجّهة إليّ لحضور زفاف باكول!

كان الزفاف قد جرى قبل يوم واحد، عندما كنت عائدًا بالقطار إلى كلكتا.

حملقت في البطاقة أطول ممّا ظننت، وعلى الرّغم من الغشاوة

التي ظلّلت عينيّ، فإنّ العبارة واضحة على البطاقة وضوح ضوء النهار. لقد أصبحت باكول الآن امرأة متزوّجة.

* * *

كانت أمامي كومة بيضاء من الأرزّ المتصاعد منه البخار، ينثال من أحد جانبيه عدس بالكاري الأصفر في حين احتفظ الجانب الآخر بصفائه ونقائه. وإلى جانب طبق الأرز، طاس يحتوي على قطعة صغيرة من السمك في مرق بالكركم الأحمر، ومن فوقها حبة فلفل حار خضراء اللون. جلست زوجتي بجواري، تغور أصابعها عميقًا في الأرز الذي كانت قد أتت على التهام نصفه.

جفلت لصوتها الذي قطع عليّ سلسلة أفكاري:

ـ ماذا؟ ألم يعد طعام البيت يعجبك بعد اليوم؟ لقد تمكّنت من الحصول على سمكة.

وبدت متألّمة نفسيًا أكثر ممّا هي منزعجة، الأمر الذي أخرجني من حالة الشرود التي تسبّبت بها بطاقة الدعوة إلى الزفاف. وهنا فتّتُّ كومة الأرزّ وشرعت أخلط قسمًا منه بالعدس. وكانت ثمّة خضراوات أُحضرت على شرف رجوعي إلى المنزل. الحقّ أنّنا لم نتناول مثل كلّ هذا الطعام في وجبة واحدة منذ أيّام، وفكّرت أنّها لا بدّ قد وفّرت مصروفها المنزلي أثناء مدّة سفري.

قلت وأنا أضع أوّل لقمة في فمي:

ـ إنّني منهك. لقد أدركني التعب من دون أن أدري بعد أن كنت أنفقت ساعات تحت الشمس وفي حمّى السفر، وفي الصياح على العمّال طوال النهار.

شعرت بغصّة في حلقي بسبب اللقمة الأولى التي تناولتها واضطررت إلى وضع كفّي على فمي لإبقاء الطعام فيه وتسهيل ابتلاعه. فحوّلت زوجتي من اهتمامها إلى تجريد السمكة من عظامها، وكانت محنيّة الرأس. وبعد أن كانت قد جلست متصالبة الساقين بجانبي على الأرض اعتدلت الآن وازدادت دنوًّا وهي تميل من فوق طبق طعامها.

قلت:

ـ بل الأمر أسوأ من ذلك، لأنّني مضطرّ إلى السفر في هذه الليلة مرّة أخرى. إنّني لا أحظى بلحظة واحدة من الراحة.

وضعت يدي اليسرى على الأرض لأشعر باستقرارها وبرودتها اللذين يبعثان فيَّ الطمأنينة أثناء كلامي.

وهتفتُ في عجب:

ـ ماذا؟ تسافر مرّة أخرى؟ وفي هذه الليلة؟ إلى أين؟ أنت لم تذكر هذا الموضوع من قبل!

في تلك الدقيقة التي أمضيتها جالسًا فوق السرير بعد أن فضضت رسالة بابو نرمال، هضمت الحقيقة المتمثّلة في أنّ عريس باكول يتحدّر من بومباي، وهو على ما يبدو واضحًا على بطاقة الدعوة للزفاف. وهذا يعني أنّها سوف ترحل عن بلدة سونغارة بعد زفافها مباشرة. وفكّرت في نفسي: كيف سيقدّر لي أن أراها مرّة أخرى بعد ذلك؟ ينبغي لي أن أراها قبل أن تسافر ـ هذا إن كانت ما تزال في سونغارة.

كنت قد وطّنت عزمي أن أسافر إلى بلدة سونغارة بقطار الليل. ولم أتمهّل في التفكير في الأمر في رويّة ولم أمنح نفسي سببًا عقلانيًا واحدًا من أجل السفر. إنّها حقيقة لا تقبل الجدل، حقيقة مُسلَّم بها: لا بدَّ لي

من الذهاب، لا بدَّ لي من رؤية باكول مرّة أخرى قبل أن تخرج من حياتي من دون رجعة.

* * *

أثناء عبوري هوغلي في ذلك المساء تحفّ بي حواجز الجسر الفولاذيّة العالية، ويحيط بي غرباء لا يتنبّهون إلى حضوري بسبب ما يدور في أذهانهم من أفكار وانشغال بال، أحسست وكأنّني بعد كلّ تلك الشهور الطويلة من المراقبة، أضحيت حرًّا ـ حرًّا من الزوجة والطفل والببغاء والبيت. وكنت وحيدًا برهة وجيزة، رجلاً يمكنه أن يفعل ما يشاء بحياته. رنوت إلى النهر وسمحت لنفسي بتذكّر بركة الماء في منزل السيّدة بارنوم. وفكّرت في ملوحة شفتيّ باكول وعبير أنفاسها برائحة العشب المجزوز حديثًا، وعظام كتفيها البارزة من تحت قميصها وشعرها الذي داعب أنفي وتسبّب في ضحكي.

اخترت السرير العلوي في مقصورة القطار كي أتمكّن من الاستلقاء والخلود بأفكاري لنفسي. ممّا يبعث على الدهشة أنّ القطار كان قليل الركّاب خاصّة أنّني كنت أسافر في مقصورة من الدرجة الثالثة تكون عادة مزدحمة بالمسافرين الذين يرشحون عرقًا جنبًا لجنب. اليوم لا أحد سوى راكب واحد في مقصورتي التي تتّسع لأربعة أسرّة، راكب ضخم الجثّة، يشبه شاربه فقمة البحر، ويرتدي مئزرًا. وكان في المقصورة طاولة تطوى، ونبتة في كيس مصنوع من قنب كلكتا، وصندوقا أمتعة من الصفيح، وأرنب أبيض اللون وردي العينين في قفص كان الرجل يطعمه أوراق شجر وشرائح جزر بعد دخوله المقصورة مباشرة. راقبته برهة وجيزة، وعندما ارتجّ القطار رجّة قوّة وابتعد عن رصيف المحطّة ـ متأخّرًا ساعة كاملة عن موعد انطلاقه ـ أغمضت عينيّ، وأبعدت الرجل عنّي، واستغرقت في التفكير في بركة الزنبق في

منزل السيّدة بارنوم. لو بذلت جهدًا أكبر بما يكفي لتمكّنت من أن أبعد عن ذهني بطاقة الدعوة للزفاف التي عثرت عليها في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم، وأشغله بباكول وهي تعزف الناي ومن ثم تقبّلني على جفني وسط احتجاجي. أكاد أشمّ رائحة شعرها، الصابون وبودرة الطلق التي كانت قد تعطّرت بها في ذلك المساء الذي طهت فيه طعام العشاء لي.

لكن ثمّة رائحة أخرى تشيع في مقصورتي عندما رأيت الرجل ذا الشارب يقف بجانبي ويقول:

ـ لا بدّ أنّك جائع يا أخي! لقد تأخّر القطار، فهل ترغب في تناول مقدار قليل من الخبز المقلي والبطاطس والمخلّل؟

كان الرجل يتكلّم باللغة الهنديّة، وكانت رائحة أنواع الطعام التي أتى على ذكرها تشيع في كلّ ذرّة من ذرّات هواء المقصورة، فسال لعابي لرائحة زيت الخردل في العنبة.

اعترضت وعبست وأغمضت عينيَّ من جديد، ولكن تناهى إلى سمعي صوت الرجل المسرور وهو يلوك الطعام ويتلمّظ به. فكّرت أنّ الساعة لا بدّ أن تكون بلغت الحادية عشرة، فما السبب الذي يدفعه إلى تناول الطعام الآن وفي قطار الليل؟ لكنّ الناس يشعرون بالحاجة إلى تناول الطعام في اللحظة التي يستقلّون فيها القطار.

استبدّت بي الفكرة برهة وجيزة غير أنّ القنوط الذي ألمَّ بي عصر ذلك اليوم، سرعان ما استولى عليّ من جديد. أغمضت عينيَّ ورأيت ابتسامة باكول الشيطانيّة، فابتسمت في الظلمة حزينًا. وفكّرت: كيف بدت في ثوب زفافها الأحمر والذهبي؟ هل فكّرت فيَّ؟ هل تمكّنت من شدّ شعرها الوحشي إلى الخلف كي تبدو بذلك مثل عروسة تقليديّة ومحتشمة؟

كان الرجل يقول وقد دنا بوجهه منّي:

ـ يا أخي! السرير الأسفل شاغر، فلماذا لا تنزل لتنام من فوقه؟ إنّني أشعر بالقلق وأنا وحدي هنا بينما السرير شاغر والقطار قليل الركّاب أيضًا.

قلت له معترضًا:

ـ لكنّني أرقد في المقصورة نفسها. أرجوك أخلد إلى النوم، ليس ثمّة خطر يحيق بك.

أشرق وجه الرجل، وقال:

ـ في الأقلّ أنت مستيقظ، وهذا ما يريح دماغي. إنّني لا أستطيع النوم من فوري في القطارات. لا بدَّ لي من إشغال نفسي بالكلام. لا بدَّ لي من الكلام بعض الوقت. ما اسمك يا أخي؟ وما مهنتك؟

رنوت إلى وجهه المتلهّف، وكان يميل من فوق سريري معتمدًا على مرفقيه في الوقوف في القطار المتأرجح، لا يبعد وجهه عن وجهي سوى بوصات. كان يستحيل عليّ الالتفات إلى الجانب الآخر والاستغراق في أحلام يقظتي من جديد.

قلت:

ـ سوف أهبط إليك، إن كان هذا يساعدك في النوم.

لكنّه استرسل في الكلام وهو يساعدني في بسط ملاءتي على السرير الخشبي المقابل له:

ـ وهل تقطن في بلدة سونغارة؟

ولكنّه لم ينتظر ردًّا منّي، فمضى يقول:

ـ لقد مضى على وجودي في البلدة خمس عشرة سنة، وكنت

أشتغل في البداية في تجارة الخشب، أمّا الآن، فإنّني أعمل في منجم الميكة. أتعرف ما الميكة؟

أومأت برأسي.

ـ بدأت العمل أثناء الحرب العظمى، وكان ثمّة طلب عظيم على الميكة، ولكنّ الطلب عليها انخفض كثيرًا بعد أن فقد البريطانيّون اهتمامهم بها. لكنّنا اليوم، وبعد الاستقلال، إذْ بدأنا في حكم أنفسنا بأنفسنا، بدأنا نستكشف أماكن أخرى. البريطانيّون لم يهتمّوا للأمر. صحيح؟

كرّرت من بعده:

ـ صحيح، لم يهتمّوا.

فقال:

ـ الBانديت يهتمّ، إنّه يبني الأمّة ـ يبني المعابد للهند الحديثة، ويشيد السدود ويحفر المناجم ـ لقد وعدنا بكلّ هذه الأشياء.

فهم الرجل عدم اهتمامي بكلامه على أنّه خلاف في الرأي، فقال:

ـ أعرفكم أنتم البنغاليّون مناهضون للبانديت. تقولون إنّ نهرو سيّئ وتقولون أيضًا إنّ غاندي سيّئ؟ عندما قُتل غاندي وكان قاتله من مهاراشترا[1]، أصابني العجب لأنّ القاتل لم يكن بنغاليًّا؟ أنت أيضًا منزعج لأنّني أذكر اسم هذين الزعيمين!

قلت:

---

(١) مهاراشترا Maharashtra: ولاية في غرب الهند على بحر العرب، عاصمتها بومباي، من أهمّ مدنها الأخرى ناغبور وبونا وشولابور، تشمل قسمًا من جبال غات والدكن وسهلاً ساحليًّا. تتمتّع بشهرة عالميّة في إنتاج القطن.. (المترجم).

ـ لست منزعجًا، معذرة، فأنا نعسان، وسأخلد إلى النوم الآن.

قال الرجل البدين:

ـ حسنًا، أنت على حقّ.

ثم جذب الملاءة من فوق رأسه وأضاف:

ـ لقد تأخّر الوقت وينبغي لنا أن ننام.

اندفع الهواء من النافذة، وكان أكثر برودة من ذي قبل، وبعد أن استسلم الرجل للنوم، فإنّ كلّ ما كان في وسعي أن أسمعه هو صوت عجلات القطار مندفعًا إلى باكول المتزوّجة حديثًا ـ وإلى زوجها.

تناهى إلى سمعي صوت الرجل في الظلام:

ـ هل أنت نائم يا أخي؟ أشعر أنّك لست نائمًا.

جلست في سريري مذعنًا، فجلس بدوره وأخرج من جيبه حبّات من اللوز المحلّى وقدّم لي بعضها، ثم طفق يتحدّث عن زوجته وعن عدم رضاها عن سونغارة. كما تحدّث عن عدم إنجاب زوجته أيّ أطفال وقال:

ـ وهذا ما يجعلني أشدّ تعلّقًا بالسيّدة أيّها الأخ. فأحدنا لا يملك غير الآخر. لكن من الذي سيهتمّ بها بعد وفاتي، من؟

قلت متأثّرًا بعواطفه، ولكنّني أردته أن يصمت:

ـ ربّما توافيها المنيّة قبل أن توافيك.

قال في صوت أقلّ تحمّسًا:

ـ كدت أن ألقى حتفي قبل بضعة أعوام. هل لي أن أخبرك بالشيء الغريب الذي حدث لي؟ أنت تعلم أنّ الميكة لا توجد تحت أعماق

سحيقة من الأرض، وأنت لا تضطرّ إلى حفر المناجم لأنّها قريبة من سطح الأرض، تبدو لمّاعة وفي حالة انتظار على بعد بضعة أقدام تحت الأرض. كنت يومئذٍ في مخيّم في وسط البراري على بعد مسافة قصيرة من بلدة سونغارة. في أيّ سنة؟ دعني أتذكّر... لا يمكنني أن أتذكّره ولكن ربّما قبل أربعة عشر عامًا، في حدود العام ١٩٤٠. كنت في مخيّم في تلك البقعة من الأرض، لا يحيط بي من جميع الجهات سوى البرّيّة الممتدّة إلى مسافات شاسعة. ولهذا لا عجب إن كانت زوجتي قد شعرت بالقلق عليّ. وكان ينساب إلى سمعي طوال الليل صوت الثعالب والبوم وأصوات أخرى لم أستدلّ عليها. وكان العمّال القبليّون الذين يرافقونني أنصاف سكارى أو في خدر، جالسين أو نائمين بالقرب من نيرانهم الموقدة. كان الوقت متأخّرًا ولكنّه لم يكن متأخّرًا جدًّا. لعلّه بواكير المساء، ولكنّنا كنّا غاية في التعب والإنهاك لأنّنا كنّا قد فرغنا قبل وقت قصير من العمل في نهار بدأ فجرًا. وكنت آخذ قسطًا من الراحة في خيمتي قبل العشاء، وعلى حين غرّة، ساد الهرج والمرج!

ـ ماذا حدث؟

اندفعت إلى خارج الخيمة فوجدت عمّالي وقد عقد الخوف ألسنتهم ويشيرون بأيديهم إلى السماء. رفعت بصري، فماذا رأيت يا أخي؟ ماذا رأيت؟ مركبة فضائيّة.

ـ مركبة فضائيّة؟

ـ مركبة. فضائيّة. نعم. شيء غريب يطير في السماء. في تلك اللحظة لم نعرف ما هي. وتساءلنا إن كان الجسم الغريب شهابًا. هل عانينا مشكلة في الرؤية؟ لا، كان الجسم دائريّ الشكل، متألّقًا ويحلّق من فوق مخيّمنا، ويدنو من الأرض دنوًّا شديدًا.

وهنا أمسك عن الكلام وقضم قطعة من فطيرته برهة وجيزة، ثم أضاف:

ـ وانهمك العمّال في الصلاة، وفي الصراخ، ويردّدون: أنّهم سيأخذون أرواحنا، هؤلاء الناس قادمون من السماء. وانتابني الخوف والهلع، فقد اقتربت المركبة الفضائيّة اقترابًا شديدًا، وكان في وسعنا أن نشاهد أنّها بيضويّة ومنتظمة وأنّها ليست نجمًا أو ما يشبه النجم. ولكن كان يتعيّن عليّ أن أكون الزعيم وأن أردّد:

ـ اهدأوا، اهدأوا أيّها الرجال.

وهدأ كلّ شيء من حولنا، ولكنّ الأنوار البيضاء الساطعة المنبعثة من المركبة غشيت كلّ شيء. وسمعنا طنينًا متواصلاً في آذاننا يشبه التذبذب. في تلك اللحظة لم أعرف شيئًا عن المركبة قدر ما عرفت عن رجالي.

أمسك الرجل عن الكلام مرّة أخرى واحتسى الماء من زجاجة رفعها إلى أعلى بعد أن قرّبها من فمه مسافة أربع بوصات محدثًا صوت قرقرة.

قلت وقد عيل صبري لمعرفة ما حدث:

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم؟ لا شيء. ظلّت المركبة تحلّق من حولنا بعض الوقت ثم ارتفعت في الجوّ وابتعدت. والتقيت رجالي من بعد ذلك وسألتهم:

ـ هل سبق لأحد منكم أن شاهد ما شاهدناه في تلك الليلة؟

ـ لا، لم يشاهد أحد أيّ شيء. ثم بدأ العمّال ينظرون إليّ وكأنّني رجل...

ثم نقر على جانب رأسه بسبّابته وأضاف:

ـ لو لم يكن العمّال في معيّتي وشاهدوا بأمّ أعينهم ما حدث، لظننت أنّني أنا أيضًا...

ثم نقر جبينه بإصبعه من جديد.

عندما استيقظت في الصباح، كان القطار متوقّفًا في محطّة سونغارة مدّة قصيرة من الزمان. وكان الرجل وأرنبه قد تواريا عن الأنظار. ولولا رائحة العنبة بالزيت الخردلي التي ما تزال تعبق في المقصورة، لظننت أنّه لم يكن في المقصورة، ولا حتى مركبته الفضائيّة. وفكّرت إن كنت قد شاهدت أنا وباكول ما شاهده ذلك الرجل قبل سنوات طويلة عندما كنّا في حقل المزرعة المرصّع بالنجوم؟ هل حدث ذلك قبل أربعة عشر عامًا؟ كانت صورة ذلك المساء ـ الضوء في السماء واقتراب باكول منّي والهلع الذي انتابنا كلينا ـ بالغة الحيويّة وكأنّها صورة من يوم أمس.

* * *

اصطفّت خارج محطّة القطار على نحو مألوف مجموعة من العربات، رؤوس جيادها وسائقيها مغطّاة بلفّاعات. وعلى الرّغم من حرارة الطقس وضيق النفس في كلكتا، إلّا أنّ الوقت هنا في سهل سونغارة المرتفع والمحاط بالغابة هو أواخر فصل الربيع البارد، حتى إنّني ارتجفت عندما أسرعت عربتي تشقّ طريقها من فوق السفح المنحدر في اتّجاه دولغانج رود. كنت قد عزمت على ألّا أضيّع الوقت بالذهاب إلى الفندق لأنّني خشيت أن تفوتني رؤيتها.

انعطفت العربة في سيرها من حول الناصية وبدأت تسير في دولغانج رود الذي كان خاليًا مع بوادر الضياء الأولى، الذي ما تزال السماء فيه تتأرجح بين الليل والنهار في الحافّة الغربيّة في حين كان

الشرق محتقنًا بلون الدم. وتذكّرت وقوفي فوق السطح في فجر يوم الاحتفال بإله المعرفة، وكان يومًا من أيّام شهر كانون الثاني الباردة، قبل عدّة سنوات، في انتظار باكول وأقربائها من دون أن يُسمح لي بدخول حجرة الاحتفال أثناء أداء شعائر الصلاة. نفحت سائق العربة أجرته على بعد مسافة قريبة من المنزل، وسمعت العربة بعد ذلك تطقطق مبتعدة. كنت أقف وحيدًا في الطريق باستثناء عاملين اثنين واقفين على مقربة من مقهى وملتفّين بلفاعين بلون الوحل. وكان في وسعي سماع صوت الندى يقطر فوق أوراق الشجر والعشب في هدأة الفجر العميق. وفي مكان ما، ثمّة طائر يحاول أن يجرّب صوته الذي لم يستعمله منذ الشتاء. ولاحظت أنّ الأرصفة كانت تتكدّس من فوقها هنا وهناك أكوام من بلاطات الميكة اللامعة. أنا شخصيًّا لم أتنبّه لوجودها لو لم يحدّثني عنها زميل المقصورة في قطار البارحة. التقطتُّ قطعة صغيرة من الميكة الفضّيّة ووضعتها في جيبي على أنّها رقية.

سرت في اتّجاه البيت وأنا أجرّ قدميَّ جرًّا. ولم أقدر على التفكير بما يمكن أن أقوله لباكول إذا ما التقيتها. وقد لبث رجل القطار يغمز لي ويبتسم وينقر جبينه. وأخيرًا وصلت البوّابة ورنوت إلى الداخل، لكنّني لم أجد ما يشير إلى حفل زفاف لم يمضِ عليه وقت طويل ـ ولا حتى خيمة منتصبة في الحديقة، ولا كومة من كراسٍ مطويّة، ولا نفايات متبقّية من المأدبة. وفكّرت: ربّما جرت مراسيم الزفاف والعشاء في مكان آخر وليس في المنزل!

وضعت يدي على سقّاطة الباب وفي اللحظة نفسها فُتح شبّاك من شبابيك الطبقة العليا في البيت، فُتح في البدء مصراع واحد، وأعقبه فتح مصراع آخر. وكان في وسعي أن أرى توهّجًا برتقالي اللون في اللحظة التي مالت فيها باكولَ إلى أمام لتفتح المصراع الثاني. وظننت أنّني

لمحت شعرًا منسدلاً وطرفًا من وجهها. والتمع شيء ما في الإشعاعات الأولى من نور الشمس الذي لا بدّ أنّه كان ذهبيًا.

ولكن قبل أن تتمكّن من رؤيتي أسرعت في الاختباء من وراء الجدار، وأنا أسمع قلبي يخفق بين جنبات ضلوعي خفقانًا فيه من القوّة ما جعلني مبهور الأنفاس إلى حدٍّ كبير. ولمّا تأكّدت من أنّها ابتعدت عن النافذة، ابتعدت بدوري وسرت مهرولاً لأخرج من دولغانج رود بعد أن مررت بمنزل السيّدة بارنوم وبقيّة المنازل حديثة البناء والمقهى ونادليه اللذين ازداد عددهما إلى أربعة، وهما يقفان على مسافة قريبة من الناصية حيث كان مكتب بابو نرمال. لم أستطع التفكير تفكيرًا عقلانيًّا متزنًا بشأن مغادرة المكان من دون أن أراها، أو أكلّمها بعد أن قطعت كلّ هذه المسافة من أجلها. لقد أتيت من أجل رؤيتها، ولكن ليس من أجل لقائها وهي متزوّجة رجلاً آخر. وهكذا لم أستطع أن أنهي رحلتي نهاية منطقيّة!

* * *

ليس لي في بلدة سونغارة أيّ شيء، ولكنّني لم أطق العودة إلى كلكتا. فلبثت في الغرفة الرخيصة التي كنت قد حجزتها لليومين المقبلين، مستلقيًا فوق السرير، أراوح بين غفوة ملؤها أحلام مزعجة ويقظة طويلة. لم أرغب في تناول أيّ طعام ولا في النهوض. وراودني إحساس أنّني لن أتمكّن من تحريك بدني فوق السرير حتى لو حاولت ذلك، وكأنّ ثمّة صخرة تحول بينه وبين الحركة. ولم أرغب في الاستحمام ولا في تنظيف أسناني بالفرشاة، إذ لم يعد يهمّني ذلك، لأنّني لا أملك إلّا مالاً قليلاً لا يكاد يكفيني لدفع أجرة الفندق. وأحسست بالبرودة في سونغارة خاصّة أنّني لم أكن أملك ثيابًا شتويّة، فاستلقيت وأنا أرتجف من تحت الغطاء الرثّ ومكثت على تلك الحالة

طوال النهار، رافضًا فتح النافذة والسماح بدخول نور الشمس.

وساورني الإحساس أنّني بعد أن كنت معشوقًا أصبحت الآن مرميًا في سلّة نفايات المكروهين، خارجًا من الظلّ البارد إلى الشمس الحارقة، خارج الملاذ إلى البرّيّة. وعرفت معرفة جيّدة وأنا في تلك الظلمة وذلك الارتباط أنّ اللوم لا يقع على باكول، ولكنّني شعرت على الرّغم من ذلك وكأنّها هجرتني.

* * *

لا أعرف كم من الوقت مكثت في الفندق، واستبدّ بي إحساس مريع بالشقاء، وفي نهاية المطاف جررتُ نفسي جرًّا وعدت إلى بيتي مرهقًا أشدّ الإرهاق، مشتّت الفكر لا أدري كيف أختلق الأعذار لأظهر أمام زوجتي. وعندما فتحت باب السلالم ووصلت السطح، تنبّهت في بادئ الأمر إلى أنّ باب قفص نوري مفتوح وأنّه ليس فيه. كان السطح يبدو متطاولاً، بلا حياة وخاليًا من دونه تحت أشعّة الشمس.

أمّا الشيء الثاني الذي رأيته فهو أنّ باب غرفتنا كان مقفلاً بقفله البرونزي الكبير، وعندما هبطت السلالم وتوجّهت إلى جارتنا التي كنّا نضع مفتاحنا لديها، رمقتني بنظرة غريبة وسلّمتني قصاصة ورق، وأغلقت الباب في وجهي من دون أن تنبس بكلمة واحدة، وهو أمر غير مألوف لأنّني كنت أنا وزوجتي نضحك دومًا من ثرثرتها وهذرها.

كانت قصاصة الورق تفيد: «إنّني ذاهبة إلى بيتي». ولم تضف شيئًا آخر. ولم تزعج زوجتي نفسها في وضع الورقة داخل مظروف وتغلقه كي تحول من دون أن يبدأ الجيران بالقيل والقال من حولنا.

لم يكن في وسع زوجتي أن تصطحب نوري معها إلى القرية. ولا بدّ أنّها ظنّت أنّ ترك باب القفص مفتوحًا سوف يسمح للطائر أن يعيل

نفسه بنفسه. ولكن كيف يمكن لذلك الطائر الأليف أن يجد قوته؟ لا بدّ أنّه لبث في القفص، مكوّرًا في إحدى زواياه كدأبه على رحيل أثر العمّ سليمان لا يجرؤ على الخروج، ينتظر وصولي وأنا أحمل إليه الفلفل الأخضر الحارّ والماء النقي.

عبثت بالقفص وفتّشت عن نوري وأنا أصدر الأصوات نفسها التي كان يردّ عليها. جلست القرفصاء في ركن من أركان السطح وأحسست بشمس الظهيرة الحارقة تشوي أخمص قدميّ، وفكّرت أنّ هذا عبث لا طائل من ورائه، فالمكان يخلو من أيّ أثر للونه الأخضر المألوف. لم تعد ثمّة مخالب تخربش من فوق كتفي، ولا منقار ينقر أذني ويبحث في طيّات شعري أو يسلّيني بعباراته وكلماته البذيئة.

وحلّقت من فوقي، في سماء كلكتا القذرة ذات اللونين الرمادي والأزرق طائرات ورقيّة مرحة، بينما سخرت الغربان من بعضها بعضًا بنعيبها ووثبت من على الحاجز.

* * *

دخلت غرفتنا في نهاية الأمر متسائلاً في عجب عن سبب رحيل زوجتي على ذلك النحو. كانت قد اعتادت سفري واعتادت رحلاتي الطويلة. فما السبب الذي جعلها تفكّر تفكيرًا مختلفًا في هذه المرّة؟

كانت الغرفة تبدو نظيفة ومرتّبة وكأنّ زوجتي كانت متمهّلة في ذهابها. ورأيت على الطاولة الصغيرة القريبة من النافذة كتب العمّ سليمان وقد رصّت رصًّا جميلاً فوق بعضها بعضًا، فضلاً عن مذياعنا الصغير القديم ودفتر التمرينات القديم المهلهل الذي كانت تدوّن فيه مصروفات البيت بدءًا من علبة الثقاب وانتهاءً بكلّ كيلوغرام من الأرزّ كانت تشتريه. وعثرت بين طيّات الدفتر على الصورة التي اقتطعتها من

المجلّة في عيادة الطبيب في ذلك اليوم، فضلاً عن بطاقة الدعوة لحضور زفاف باكول.

ثم عرفت بعد ذلك من كلام أحد الموظّفين في مكتب بابو أنغتي أنّ زوجتي ذهبت إلى المكتب أثناء غيابي، وكان بابو أنغتي أحد أقرباء أبيها البعيدين إضافة إلى أنّه ربّ عملي. ولم أتمكّن من الاستفسار من بابو أنغتي عمّا تمخّض من حديث بينهما، ولكنّني افترضت أنّها كانت قلقة من غيابي، فذهبت تسأله عن موعد رجوعي. ما الذي يمكن أن يكون قد قاله لها فتركت المنزل على ذلك النحو؟ فهي لم يسبق لها السفر وحيدة. وكانت تزور والديها مرّة واحدة في السنة، في مناسبة الاحتفال بإله المعرفة، وكنت أنا شخصيًا أوصلها إلى منزلها القروي.

المرجّح أنّ بابو أنغتي لم يستطع مقاومة انتهاز الفرصة ليكون خبيثًا عندما ذهبت زوجتي إليه لتتسقّط أخباري منه، وفي مستطاعي أن أتصوّر المشهد على هذا النحو: يدير بابو أنغتي الخواتم ذات الأحجار الزرق والصفر الغائرة في أصابعه، وهو يغري زوجتي لإخباره بالمعلومات بصوته المرتفع، ولا بدّ أنّه استنتج من جهلها عن سونغارة أنّني لم أخبرها عن البيت الذي أملكه فيها.

وكان المزمع أن يقول لها:

ـ الرجال فظيعون يا ابنتي، فهم يظنّون أنّ النساء لسن في حاجة إلى معرفة كلّ هذه الأمور. لا توجّهي اللوم إلى زوجك، فهو يبذل قصارى جهده من أجل إنجاح عمله. وممّا يبعث على الخزي والعار أن تضطري إلى عيش هذه الحياة الشاقّة الآن التي سوف تتغيّر يومًا ما! إنّ المنزل الذي يملكه في سونغارة والذي يعود أصلاً، بحسب ما علمتُ، إلى معلّمه القديم وابنته الشابّة، حسنًا، إنّ مثل هذا المنزل يصعب بيعه.

صحيح؟ عاطفة! أَلَا يفسّر هذا شيئًا ما؟ لقد التقيتهما، وهما محترمان. كما أنّ الابنة فاتنة، مثل زهرة، ومن شأنك أن تتعاطفي معهما من فورك.

كنت أخمّن هذا الكلام كلّه، ولكن على الرّغم من شكوكي، فإنّني لم أستطع أن أجعل من بابو أنغتي عدوًّا لي لأنّ عددًا كبيرًا من وثائقي يعتمد عليه، كما ينبغي لي الاستمرار في إشرافه على العمل كأنّ شيئًا لم يكن. ولم يقل شيئًا بدوره. قد أكون مخطئًا، لعلّه حاول أن يغطّي عليَّ، ولكن زوجتي قفزت إلى استنتاجاتها الخاصّة بها.

ولمّا لم تعد أدراجها بعد مرور أسبوعين، بدأت أشعر بالحنين إلى ابني، أكثر فأكثر. فكتبت لها رسالة مستفسرًا عن خططها وهل تريدني أن أذهب إليها وأجلبها مع الصبي في غضون الأيّام القليلة القادمة، لأنّني سوف أكون منشغلاً بعد ذلك على مدى بضعة أسابيع إذْ أعمل في مقاولة جديدة. بيد أنّ الرسالة ذهبت من دون أن أتلقّى أيّ إجابة.

* * *

خرجت لأتمشّى بعد شهر أو زهاء الشهر واستوعبت محيطي تمامًا، فالحرارة كانت أقلّ شدّة وكان في وسعي أن أشعر بالرطوبة في النسيم العليل الذي كان يمسّ بشرتي، وهو شعور رقيق يشبه ريشة عابرة، لأنّ النسيم جعلني أحسّ أنّ لي روحًا يمكنها أن تنفتح وتتمدّد. جلست فوق سور بجانب ممرّ سابلة وتحت مظلّة حافلات متداعية. كان النهار قد احلولك وتحوّل إلى غسق في وقت مبكر على غير عادته. وكانت السماء محمّلة بغيوم رماديّة ـ بنفسجيّة بدأت ثقيلة لا تستطيع البقاء طافية. وبعد برهة قصيرة، بدأ المطر ينهمر غزيرًا فأغمضت عينيَّ في ارتياح وامتنان، لأنّ هزيم الرعد والمطر كتم تغريد الطيور في ذلك

الوقت المتأخر من المساء. وتألّقت أوراق الأشجار التي تنتشر على جانبي الطريق بلونها الأخضر وتهدّلت ومالت من ثقل ماء المطر. كان كلّ شيء يبدو ممكنًا من تحت صوت المطر الهادر.

كانت الأسابيع القليلة الماضية أشدّ الأوقات كآبة في حياتي: فقد كنت أجلس وحيدًا على السطح، في تلك النهارات الحارقة، محاولاً أن أستوعب أوّل مرّة أنّ باكول لم تعد ملكي، فهي في مدينة غريبة وفي بيت جديد لا يمكنني تخيّله، ومضطجعة فوق سرير رفقة رجل ربّما تحبّه. وعندما أفلحت في طرد هذه الفكرة من رأسي، كانت فكرة أخرى تستبدّ بي: فقد جُزعت بسبب حساسيّة جلد غوتام، لا أعرف نوع العلاج الذي قد يتلقّاه في قرية زوجتي. انتابني حنين إلى رائحة طفولته وحليبه وصوته المزماري. وفكّرت أنّه لا بدّ مشتاق إليّ ولا بدّ أنّه يسأل عنّي في كلّ يوم. وعندما طردت هذه الفكرة أيضًا من رأسي، واتتني فكرة أخرى تنهش فيَّ: نوري المتضوّر جوعًا الذي ربّما مزّقته طيور أخرى أو قطط وهو يحاول العثور عليَّ، والعثور على طعام.

شعرت بالعجز وأنا أحاول التلفّت إلى أيّ شيء آخر، فالغرفة فوق السطح باتت مغبرّة، وكريهة.. ورميت ملابسي في كومة على الأرض لأرتديها من دون غسيل في اليوم المقبل. لا بدّ أنّ رائحة كريهة كانت تنبعث منّي، وإن لم يكن أمامي مَن أشكو له أمري سوى بائع الحليب الذي كان يأتيني يوميًّا، والذي لم أملك جرأة أن أخبره أنّني لم أعد أملك طفلاً بحاجة إلى حليب!

مرَّ شهران من دون أن أتلقّى أيّ جواب عن رسائلي المتكرّرة، فقرّرت أن أسافر إلى بلدة زوجتي لإقناعها في العودة. كانت المنطقة جميلة، ازدهرت من قرية صغيرة حتى أضحت بلدة بفضل المنازل الكبيرة المنتشرة هنا وهناك. وكان أحد تلك المنازل الكبيرة يملكه والد

زوجتي بارابابو. لم أخبر زوجتي أنّني قادم، لأنّني لم أكن متأكّدًا من السفر إليها إلّا في اللحظة التي ركبت فيها القطار. صراحةً، كنت متوجّسًا قليلاً من أمّها وخالاتها العدوانيّات، ذوات الصوت الهادر، ومن والدها.

وطّنت عزمي على أن أسير على قدميّ من محطّة القطار إلى بيتها وإن كانت المسافة بينهما ليست قصيرة، لأنّ ذلك من شأنه أن يمنحني وقتًا تهدأ فيه أفكاري. يضاف إلى ذلك، أحببت السير في ذلك الشارع الذي تضيئه أنوار زمرّديّة وتحفّ به أشجار المانغو. وكانت بعض المعابد القديمة تطلّ على الشارع في بعض أجزائه، مشيّدة وسط بساتين من أشجار باسقة موغلة في القدم. وبعد أن قطعت نصف الطريق شاهدت على الجهة الأخرى خزّان ماء عميقًا يكاد حجمه يضاهي حجم بحيرة صغيرة، وكان مملوءًا تعلوه الطحالب والأشنات الخضر، ويمكن، إن جلست ساكنًا أن تشاهد ظلال الأسماك وهي تنزلق سابحة فيه.

كان والد زوجتي يقطن في بيت يحتوي على مجموعة كبيرة من الأسر والحجرات الفسيحة المرتبطة ارتباطًا عشوائيًّا بعدد من الشرفات والباحات والممرّات. وكنت في بداية زياراتي لهم أتيه فيها. وعندما اقتربت من الباب الأخضر المثبّت بين جدران البيت ليمونيّة اللون، تضرّعت إلى آلهة المعابد التي مررت بها قبل قليل. كان الباب يؤدّي إلى الباحة الأولى من الدار وهي باحة كبيرة تحيط بها من كلّ جوانبها شرفة واسعة باردة وظليلة، يُقام فيها عادة كلّ عام احتفال الأسرة السنوي بالإلٰهة درغا التي قهرت الشرّ. وكنت أشاهد الشرفة وقد احتشدت بالناس والضحك والضوضاء ودخان البخور.. ولكنّها كانت خالية تمامًا في ضحى ذلك اليوم من أيّام الصيف.

كانت أسرة زوجتي تسكن في الغرف المشيّدة في الباحة التالية التي يمكن الوصول إليها بعد ارتقاء درجات سلّم قليلة العدد. وفي حين كنت أصعد الدرجات، قابلت وجهًا لوجه خالة زوجتي الكبرى، فانكمشت وكأنّني قاتل، ولكنّني ابتسمت وانحنيت، كدت أن ألمس قدميها، بيد أنّها أسرعت في الهروب منّي وكأنّها تحدّث نفسها:

ـ آه، أيّتها الأمّ. لا بدّ أنّ صنبور المياه مفتوح وفائض الآن. ينبغي لي أن أسرع.

عندما وصلت مجموعة الغرف التي تعود لحماتي وحماي، توقّفت قليلاً قبل الدخول وخلعت نعالي. وكان في وسعي أن أرى من خلال شبكة البعوض حماي يقرأ في إحدى الصحف وهو جالس حول طاولة مستديرة من المرمر، ولكنّني لم أشاهد زوجتي أو ابني. وهنا سعلت وطرقت على الباب، فرفع بصره إليّ، وعندما شاهدني لم يبتسم وإنّما قال:

ـ لقد أتيتَ؟

دلفت إلى الحجرة وجلست بجواره.

وقلت:

ـ كيف حالك؟

قال:

ـ هل أنت حقًّا في قلق بشأن حالتي الصحّيّة؟

قلت وقد وطّنت عزمي على أن أترك جانبًا المزاح:

ـ كتبت عديد المرّات لأخبرك أنّني قادم لاصطحاب زوجتي وطفلي، ولكنّني لم أتسلّم أيّ جواب عن رسائلي.

قال في حدّة وغضب:

ـ ماذا تتوقّع؟ لقد اكتشفت ابنتي أنّها مضطرّة للعيش في فقر مدقع لأنّك تعيل أسرة أخرى، وأنّك تحتفظ بصور نساء غريبات في خزانة ثيابك، وبعد هذا كلّه، تتوقّع منها أن تعود إليك؟ أيّ امرأة من شأنها أن تعود إن كانت تحترم نفسها؟

قلت وأنا أحاول أن أحتفظ بصوتي هادئًا:

ـ إنّني لا أعيل أيّ أسرة أخرى، وأنا لا أعرف ما الذي سمعته عنّي، ولكن ما تقوله غير صحيح.

ـ أليس صحيحًا أنّك اشتريت منزلاً كبيرًا في بلدة أخرى؟

ـ نعم، ولكن...

ـ هل أخبرت زوجتك عنه؟

ـ لا، ولكن...

ـ أليس صحيحًا أنّ البيت تملكه أسرة قديمة تعرفها أنت شخصيًّا، ويسكن فيه رجل وابنته؟

وبدأت أشرح:

ـ إنّك لا تفهم...

لكنّه هدر قائلاً:

ـ كفى! إنّني أفهم كلّ شيء. لقد وضعت كلّ مالك في هذا البيت، ولم تبعه، ولا أحد يعرف السبب. الكلّ يقول إنّك تبغي إعالة تلك الأسرة، ولكن ماذا عن ابنتي؟ لقد اضطرت إلى الانتقال من منزلها وبيع الحاجيات التي أعطيناها إيّاها في زفافها لتعيش في غرفة مستأجرة تفتقر إلى الراحة. هل هناك شيء آخر ينبغي لي أن أفهمه؟

قلت في صوت عالٍ مثل صوته:

ـ هل يمكنني أن أكلّمها؟

ـ وهل تظنّ أنّها تريد أن تكلّمك؟

ـ دعها تقرّر ذلك بنفسها.

قال في نبرة حادّة:

ـ عد إلينا بعد أن تبيع ذلك البيت. هذا هو مطلبها الوحيد. أمّا الآن، فلا ضرورة للكلام وإيّاها.

قلت:

ـ ابني. أين ابني؟

قال:

ـ عد إليه عندما تصبح أبًا مقتدرًا وصالحًا.

ثم رفع جريدته وكأنّني لم أعد في الغرفة.

نهضت غاضبًا من فوق الكرسي واتّجهت نحو الباب. وبينما كنت أنحني لوضع حذائي في قدميّ، شاهدت زوجتي تقف عند باب الغرفة الجانبي. كانت مصغية لحديثنا، فمشيت نحوها، ولكنّها تراجعت إلى الوراء، وكأنّها مذعورة، وفتحت فاها لتقول كلمة، ولكن مرَّ بها من وراء الباب المفتوح خيال شخص ما فبدت وكأنّها تثب إلى الخلف. وسرعان ما توارت عن الأنظار عائدة إلى الغرفة الأخرى.

عدت أدراجي إلى الباحة الأماميّة، فوجدتها ليست خالية هذه المرّة. كان ولدي يلعب على الشرفة رفقة صبي صغير آخر. كانا متقاربين في السنّ، في نحو الثالثة، وكان ولدي يضع في قبضته حصاة. فوضعها على الأرض في رفق ثم نهض وسار إلى حافّة الشرفة والتقط حصاة

أخرى من كومة حصى ووضعها بجانب الحصاة الأولى.

حدّقت فيه متسمّرًا من دقّة اللعبة التي كان يشغل نفسه فيها، ونسيت حضور الصبي الآخر والخادمة الجالسة بجانبهما. رفع ولدي بصره إليَّ مرّة واحدة، وعاد أدراجه إلى ممارسة لعبه. لم أستطع أن أتبيّن إن كان متجهّمًا يرفض الكلام أو أنّه لم يستدلّ عليَّ. وعندما تدحرجت حصاة من على جانب الشرفة، انحنيت كي ألتقطها، فمدَّ يده الصغيرة الورديّة المتغضّنة، اليد التي أحببت أن أمسك بها وأرفعها إلى أنفي وأنفخ فيها مدغدغًا إيّاه.

قلت متملّقًا:

ـ غولو، غوتام! انظر مَن هنا؟

ابتسمتُ له ومددتُ ذراعيَّ.

ابتسمت الخادمة وقالت:

ـ اسمه أكشاي. ناده بالاسم أكشاه فيأتي إليك.

وضعت الحصاة في يده وضممت قبضته، فرنا إليها مقطّبًا وعاد إلى لعبته.

خرجت من باحة الدار وأنا أشعر بأسلاك شائكة تشدّد من قبضتها على فؤادي.

جلست مدّة طويلة من ذلك اليوم بجانب بركة البلدة، محدّقًا إلى أشجار النخيل والموز التي كانت تظلّل حافّات الماء والدرجات التي توارت عن الأنظار تحت الماء، وإلى الصبيين السمراوين اللاعبين اللذين كانا يلجان الماء ويخرجان منه. ولمّا حان موعد قطار المساء، نهضت ونفضت ثيابي ومضيت في سبيلي.

خمسة

في الأيّام الأولى من زواجي، كنت أرى فكرة الانفصال والعزلة مرعبة. وقد حدثت مشادّة قويّة مع زوجتي في إحدى المرّات، لا أعرف سببها. فخرجت في نهاية الأمر موليًا من البيت قائلاً لها:

ـ لن أرجع.

وعندما رجعت بعد مرور بضع ساعات، لم أجدها في المنزل على الرّغم من أنّ الوقت كان أواخر المساء. وما زلت أتذكّر مدى الهلع الذي انتابني وأنا أفكّر بأنّها قد عادت أدراجها حقًّا إلى بيت والديها.

لكن بعد أن أصبح انفصالنا حقيقيًّا، فإنّني لم أشعر حقًّا بأيّ خوف، بل إنّني بدأت أشعر بعد مرور الأشهر السيّئة الأولى بنوع من الطمأنينة الباعثة على الإثم. عدت من العمل إلى غرفتي الخاوية على السطح، وطهوت شيئًا من الأرزّ والعدس بالكاري، وبعد أن تناولته

جلست وحيدًا على السطح أحسّ بنبض المدينة من تحتي، وأنظر إلى السماء المرصّعة بالنجوم من واحتي الصغيرة.. أحتسي شراب الرَّم والكسل يدبّ في أوصالي حتى يصل أناملي. لو سرت إلى حائط السطح لتمكّنت من مشاهدة عربات الترام تتحرّك مثل دعسوقات مضاءة فتئزّ الأسلاك الكهربائيّة من فوقها، وكذلك أنوار الأعمدة الصفراء في البيوت المحيطة بي.

كان الشارع يمتدّ من تحتي وأنا في الطبقة الثالثة من المبنى، وكان في وسعي أن أرى ظلال الناس المتضائلين في الصغر والمجهولي الهويّة وهم في رواحهم وغدوّهم من دون أن يهمّني أمرهم.

كانت عزلتي تامّة. كنت أثناء النهار أكلّم العمّال والمقاولين وأصحاب المباني، ولكن لم يكن لي أيّ شأن آخر مع أيّ شخص خارج نطاق الحديث عن العمل. ومرَّ بجانبي جاري معتقدًا أنّني رجل شرّير الطبع، لم أطرد زوجتي فحسب بل كنت مدمنًا على الشراب أيضًا. لم أقلق لهذا الأمر ولم أنزعج. وفي الأيّام النادرة التي كانت الوحدة تستبدّ بي، كنت أذهب إلى مطعم مزدحم من مطاعم المسلمين في دار ماتولا فآكل اللحم بالكاري والخبز الفطير، تاركًا لعقلي الفرصة لتقبّل الضجيج من حولي والشحوم في يدي.

كان كلّ شيء يبدو لي في منتهى البساطة. وفي ذهني فسحة كي أفكّر أو أحلم أحلام يقظة. رحت أشتري الكتب من جديد، بعد سنوات، وعدت إلى القراءة. وعندما كنت أسير في السوق في يوم من الأيّام، ولمحت بعض المتاجر التي تبيع أسطوانات موسيقيّة، دخلت بوحي الساعة واشتريت آلة ناي من خشب الخيزران جيّد الصنع. وتمكّنت على أثر محاولات متعدّدة من عزف معزوفة سيبليوس. وسرعان ما تحوّل سطح غرفتي إلى ما يشبه حديقة منزل السيّدة بارنوم وشعرت أنّ

باكول ترهف السمع إليّ من ركن مظلم.

عندما حلَّ فصل الشتاء واختفى البعوض في برودة الجوّ، وضعت سريري النقّال على السطح واستلقيت من فوقه أحتسي الشراب وأرنو إلى قبّة السماء المعتمة. في مثل هذه الليلة لمحت شهابًا، فعدت بذاكرتي إلى أثر الضوء المتّقد الذي لمحته أنا وباكول في السماء قبل سنوات.

وفكّرت إن كان ذلك الضوء قد انبعث من سفينة فضاء أو إن كان أهل الفضاء قد مسّوها ومسّوني بسحرهم، بأشعّتهم أو باهتزازاتهم في ذلك المساء، فغيَّروا منّا إلى الأبد.

ربّما يتعيّن عليَّ أن أذهب وأباغت باكول في بيت الزوجيّة في بومباي، ولكن ماذا سأقول لها وجهًا لوجه؟ ماذا لو بدت لامبالية بي وغير وديّة تجاهي كما هو شأنها أحيانًا، ومتسائلة عن سبب مجيئي إليها؟

لو سألتْ لاختلقتُ عذرًا وقلت إنّ عملي اضطرّني إلى القدوم إلى بومباي.

من شأنها أن تكلّمني كلامًا مؤدّبًا وربّما تقدّم لي شايًا، ونتجاذب أطراف الحديث عن بومباي وعن أسعار البطاطس وعن مهنة زوجها، ثم نفترق. وسوف يبدأ رضيعها (لا بدّ أن يكون لها رضيع) بالبكاء، وستقول إنّها مضطرّة لإنجاز عمل ينتظرها، وسيظهر زوجها للعيان ويسألها عمَّن أكون.

سوف أسافر إلى بومباي مستقلًّا القطار في الأسبوع المقبل. وسأجد لي عذرًا وأقول إنّ عملي تطلّب منّي الحضور إلى هناك. أمّا باكول، فسوف تثب عيناها من فرح واهتياج وتقول، أكاذيب! لقد جئت كي تراني! اعترف بذلك! وسوف أجذبها إليّ وسيغمرني الإحساس بأنّ

السنين أو الآخرين لا يفصلون بيننا.

سوف أسافر إلى بومباي، وبينما أقف في مكان ما على الشارع محاولاً أن أخمّن أين يقع منزلها، فإنّها سوف تنقر على كتفي، وسوف أبدأ الكلام بالقول إنّني جئت للعمل وسوف تقاطعني وتقول إنّها تعلم أنّني سوف أجيء إليها يومًا ما.

ابتسمت في نفسي في الظلام وأخرجت قطعة الميكة التي ظلّت في محفظتي طوال تلك الأيّام بوصفها تذكارًا من سونغارة. أشعلت عود ثقاب وأنعمت النظر في تألّق الميكة ووهجها، ثم أشعلت سيكارتي.

وفي الطبقة الأرضيّة من المبنى، نادى الطفل الحزين والده السكّير: بابا؟ بابا.. أين أنت؟ كدأبه بين ليلة وأخرى. وتلاشى صوته ثم علا، تلاشى ثم علا ثانية. ثم توقّف في نهاية المطاف.

* * *

مرّت سنتان على هذه الحال. وبدأت أعثر على أعمال أخرى أكثر استقلاليّة. وكان بابو أنغتي قد علّمني المهنة وأضحيت الآن رجل أعمال شديد البأس، وفي وسعي بثّ الرعب والهلع في نفوس الناس حتى يتخلّوا عن بيوتهم. لقد أصبح في وسعي أن أدفع الرشوة للموظّفين الحكوميين بكلّ يسر وسهولة، وأن أستأسد على العمّال ليعملوا أكثر ممّا هو مقرّر في المقاولة، وأن أوقف دفع المرتّبات لكبار السنّ، وأن أجعل العمّال يتضوّرون جوعًا إن غابوا يومًا واحدًا! وباتت لي خبرة في بيع العقارات وشرائها وفي استرقاق السمع لكلّ ما يُقال عن البيوت الكبيرة التي بدأت تتداعى وتنهار. وأصبحت أجني أموالاً أكثر لا أعرف كيف أنفقها. وكنت أرسل مبلغًا محترمًا من المال إلى زوجتي كلّ شهر. كنت أكتب لها في كلّ شهر، ومع المال، رسالة قصيرة أخبرها فيها عن العمل

الذي أؤديه وعن الطقس. وظننت بادئ الأمر أنّ انفصالنا موقّت، وأنّها ستعود وتنسى عامنا الماضي السيّئ، فأنا لم أخطّط لإبعادها، ولم أتصوّر أنّني سوف أفقد ولدي، وأنّها سوف تتعذّب عذابًا يكفيها كي تغيّر اسمه، ولكنّني لم أتلقّ أيّ جواب عن رسائلي. كانت على الدوام كاتبة متردّدة، تعوزها الثقة. كتابتها معوجّة وطفوليّة ومضغوطة في قوّة على الورق. وواتتني فكرة مفادها أنّ حماي ربّما كان يحجب رسائلي ونقودي عن زوجتي بعد أن رأى أنّني تجاهلت إنذاره، وأنّها لا تعرف شيئًا عنها. وإذا كان الأمر كذلك، فلا بدَّ أنّ عدم وفائي بدا لها فظيعًا لا يمكن غفرانه.

* * *

لم أرغب في العمل صحبة بابو أنغتي، ولكن لم يكن لي أيّ خيار آخر، لأن عملنا بات متداخلاً تداخلاً وثيقًا بمرور السنين. وهو من جهته لم يترك فرصة إلّا وبّخني فيها. وفي يوم من الأيّام، قال أثناء مغادرتي مكتبه:

ـ لم يصل المنزل في سونغارة، إذن، إلى سعر معقول بعد كلّ هذا الوقت. صحيح؟

ثم ضحك ضحكته المعهودة الصادرة من الأنف، وأضاف:

ـ متى ستستخدمه يا موكوندا؟ هل أنت رجل أعمال أم أنّك المهاتما غاندي؟

كانت عيناه تبدوان أصغر حجمًا في وجهه فبات منتفخ الأوداج. وكانت سنوات مضغ النبات المخدّر قد لوّثت أسنانه وشفتيه على نحو بات يصعب إصلاح شأنها. وكان في تلك الأيّام يتنفّس في صوت مسموع.

فكّرت أنّ المستحسن عدم الردّ عليه، فقد أصبحت صفقة سونغارة شيئًا من الماضي الآن، وكنت سامحت هذا المنحرف مرّات ومرّات. وبدلاً من ذلك، قلت له:

ـ سأرجع في الأسبوع المقبل لأنّني مضطرّ إلى السفر.

خطوت إلى الاستعلامات ـ وكان بابو أنغتي قد ازدهرت أعماله فخصّص ركنًا للاستعلامات ـ وبدأت أجمع بعض الأوراق من طاولتي القديمة التي كانت تحتلّ جزءًا منها. ثمّة امرأة ذات شعر رمادي جالسة وقد وضعت رأسها بين يديها من فوق الأريكة البنّيّة الوحيدة في الغرفة. ولم تكن قد دخلتُ لمّا دلفت إلى غرفة بابو أنغتي قبل ساعة من الزمان، ولم ترفع بصرها عندما قلّبت أوراقي أو تحدّثت إلى صانع الشاي. وعندما لاحظتُ رأسها يهتزّ إلى أسفل في حركة تنمّ عن نومها، أدركت أنّها كانت غافية؛ ولكن على الرّغم من غفوتها فقد ظلّت يدها ممسكة بصندوق أمتعة بنفسجي اللون بجانبها، وعليه رسوم تمثّل زهورًا ورديّة وأوراقًا خضراء على طراز تذكّرت أنّني شاهدته من قبل ـ لكن مثل هذه الأشياء كانت كثيرة الحدوث، وتساءلت عمّا تفعله في هذا المكان، إذْ نادرًا ما يشاهد المرء نساءً في مكتب بابو أنغتي. ثم غادرتُ المبنى من دون أن أحدث أيّ جلبة خشية أن أوقظها.

بعد مرور بضع دقائق من خروجي إلى الشارع المزدحم بالناس المتصبّبين عرقًا، سمعتُ مناديًا ينادي ويدًا تمسك بتلابيبي. فاستدرت وعلى شفتيّ احتجاج، فرأيت رجلاً نحيفًا يضع نظّارات على عينيه. كان رثّ الثياب، يحمل على كتفه حقيبة من قماش، وكان رأسه الأصلع يلمع بالعرق. ظننته عاملاً من العمّال، فقلت:

ـ إنّني في عجالة أيّها الأخ.

لم أكن أرغب في الوقوف في ذلك المكان ليخبرني الرجل عن الفوائد إذا ما كنت يساريًا أو عضوًا في حزب المؤتمر، لا ليس في ذلك الوقت، على الرّغم من أنّ مثل تلك الأحاديث كانت مصدر متعتي في أغلب الأحيان.

ـ ألا تعرفني يا موكوندا؟

قال الرجل مبتسمًا، وقد زالت الحيرة من على وجهه. كان قد حلق ذقنه فبدا مختلفًا تمامًا، ولكنّني أدركت من هو الآن.

ـ العمّ سليمان!

لفظت الكلمتين والرغبة تحدوني في أن أستدير وأطلق ساقيّ للريح وأبتعد عنه بكلّ ما أستطيع من قوّة، ومن المرأة الضئيلة الجالسة في الانتظار رفقة صندوقها البنفسجي.

قال العمّ:

ـ هلّا جلسنا في مكان ما لنشرب الشاي. إنّ عمّك مرهق جدًّا.

* * *

لم نحبّذ دخول مكتب بابو أنغتي والتحدّث فيه، لهذا توجّهنا إلى سوق شارع باوبازار البائس بحثًا عن مكان ملائم، فوجدناه شديد الازدحام: خضراوات وسمك وأزهار وكراس متقلقلة وطيور في أقفاصها وحليٌّ تافهة، ولعبٌ، كلّها منثورة تحت أقدامنا، والباعة يصيحون بأصوات عالية ويغدقون الأوصاف الكاملة على بضاعتهم. وبقينا على الدوام نفقد أثر العمّة لنرجع ونراها من جديد. وكنت في وسط الزحام كثيرًا ما يصطدم الصندوق بركاب الناس، فأتظاهر أنّني لا أسمع لعناتهم التي كانت تلاحقني. وأخيرًا عثرنا على أحد المطاعم

الصغيرة التي تحفّ بشوارع كلكتا، المطاعم ذات المصاطب الخشبيّة والأقداح المخضرّة المملوءة بالفقّاعات. ثمّة أقداح ثلاثة كهذه فوق طاولة يكسوها الزيت وفيها الشاي يتصاعد منه البخار. بدأ العمّ والعمّة يأكلان الخبز والبيض واللحم المقلي، أمّا أنا فكنت أشعر بالغثيان وأنا أرنو إلى الطعام. هل عرفا ما فعلته؟ هل علما أنّني قايضت المنزل الذي أودعاه أمانة في عنقي؟ وأنّه كان يُهدم ونحن نشرب الشاي؟ كانت الفكرة تلحّ عليَّ ولكنّني لم أتمكّن من إثارة الموضوع.

لم أسمع إلّا نادرًا عن الأحداث التي ذكرها العمّ سليمان في الباكستان الشرقيّة وصعوبة الحياة فيها في أوّل الأمر ومدى اشتياقه إلى كلكتا. وكان يؤكّد:

ـ تذكّرت أشياء غريبة أيّها الأخ: أبواق السفن في الليل وهي راسية في أرصفة التحميل، تنطلق في الأرجاء على نحو شبحي. الحقّ أنّني لم أتنبّه لها من قبل عندما كنت أقطن هنا، وقد شعرت هناك بتوق شديد وموجع لها. والمدرسة والأطفال. ظننت أنّني مرهق ومنهك بسبب غبائهم وبسبب استئساد التلاميذ الأكبر سنًّا على التلاميذ الأصغر سنًّا، ولكنّني بدأت أتساءل في عجب: هل اجتاز مونوهار امتحاناته؟ هل تعلّم سوديب كيف يلفظ الاسم: نظام الدين؟ هل هاجر أسلام إلى الباكستان الشرقيّة أم لبث في كلكتا؟ وهل شفيَ بائع الكتب في شارع الكلّيّة من إصابته بالأكزيما؟ لا شيء يبدو صائبًا هناك على الرّغم من أنّك إذا فكّرت بالأمور فإنّ راجشاهي ليست بعيدة جدًّا... إنّها وطن. صحيح؟ قد تكون كوخًا حقيرًا، ولكن إذا كان ذلك الكوخ وطنك، فإنّك لن تستطيع منع نفسك من الحنين إليه.

طلبنا شايًا إضافيًّا. وتساءلت في نفسي عن اللحظة التي سيطرحان فيها الموضوع، أم تراني أنا الذي ينبغي أن يطرحه؟

وأخيرًا قال:

ـ لقد ذهبنا إلى بيتنا القديم على وجه التأكيد.

وهنا قضم لقمة من فطيرة الخبز المقليّة واستأنف حديثه:

ـ ذهبنا إلى البيت مباشرة على أثر وصولنا محطّة القطار. وكانت عمّتك متأجّجة بالحماس وحبّ الاستطلاع، على الرّغم من أنّني حذّرتها من أنّ تسعة أعوام قد مرَّت على هجرتنا من البيت وأنّ الأمور والأحوال تغيّرت في غضون تلك الأعوام!

قالت العمّة:

ـ تبدو رجلاً كبيرًا الآن، ولو رأيتك في الشارع لما عرفتك.

نظرت في إمعان إلى قدح الشاي، وهنا مدّت العمّة يدها من فوق الطاولة ولمست وجنتي، وقالت:

ـ انظر إلى نفسك وحالك؟ أنت شديد الهزال، وقد غارت وجنتاك. وثيابك؟ ألست متزوّجًا؟ ألا يعتني أحد بك؟ أحيانًا استبدّت بنا الأسئلة.

قلت:

ـ أنتما لم تكتبا أيّ رسالة لي. لماذا لم تكتبا؟

ابتسم العمّ سليمان ابتسامته الرقيقة المعروفة، وقال:

ـ آه، يا أخي موكوندا! أنت لا تعرف ماذا حدث. في أغلب الأحيان لم أكن أنا ولا عمّتك نعرف أين سنقضي ليلتنا تلك، ولا من أين ستأتينا وجبة الطعام المقبلة. بذلت قصارى جهدي لأجل الحصول على عمل، ولكنّهم عزفوا عن قبول معلّمي المدارس في تلك المنطقة، وبخاصّة معلّمي مادّة التاريخ.

ثم ضحك، وأردف:

ـ لقد اشتغلت مساعدًا في دكّان لبيع الساعات. ما زلت أعمل مع الوقت، كما ترى، مؤرّخًا على نحو ما!

ثم ضحك من جديد.

قلت محاولاً أن أبدو من كلامي ممتعضًا من فكرة رجوعه، أو هكذا كان شعوري في تلك اللحظة:

ـ وماذا حدث لأسرتك؟

قال في صوت هادئ:

ـ ماذا كنّا نتوقّع؟ كان كلّ فرد يخبرنا بأن نستولي على أيّ منزل فارغ هرب منه أصحابه، ولكن ذلك العمل لم يبدُ لي صائبًا، لأنّني فكّرت أنّ أولئك الأصحاب قد يعودون إليه تمامًا مثلما فكّرنا نحن في أن نرجع إلى بيتنا في كلكتا. ولم نفكّر قطّ في أنّنا سنمكث هناك إلى ما لا نهاية، ولهذا بقينا نسكن في حجرات استأجرناها هنا وهناك، بعد أن تبيّن لنا أنّ منزل الأسرة شديد الازدحام فلا ننعم فيه بالراحة والهدوء.

قالت العمّة وهي تنظر نظرة طويلة ساخرة إلى شايها وهي تعدّل من ثوبها الساري على النحو الصحيح الذي تفعله كلّ امرأة أحيانًا:

ـ منزل الأسرة! أيّ أسرة؟ أيّ منزل؟ لقد نظروا إلينا نظرتهم إلى أيّ مغتصب... حتى أثناء زيارتنا.

قال العمّ:

ـ ذهبنا لنبحث عن منزلنا، فلم نجد إلّا الأنقاض. كانت مساحة الأرض تبدو كبيرة جدًّا، ولم أفكّر يومًا أنّ البيت كان كبيرًا إلى ذلك الحدّ.

كان الندم باديًا على عينيه، فلا يقوى على النظر إليّ نظرة مباشرة. وعلى الرّغم من أنّني أنا الذي ارتكبت الجريمة، فقد لاح وكأنّه هو المجرم وأنّ جرائمي باتت جرائمه.

قالت العمّة:

ـ لم يعرف أصحاب الدكاكين المجاورة شيئًا عنك، ولكنّهم طلبوا منّا الاتّصال ببابو أنغتي. ولحسن الحظّ أنّك وصلت من فورك، وإلّا كنّا نوشك أن ننفض أيدينا من الموضوع.

قلت:

ـ انتظرت زمنًا طويلاً، كما أنّني لم أتسلّم أيّ ردّ على رسائلي...

ـ لقد اضطررنا إلى التنقّل باستمرار، ولم أستطع إلّا الحصول على أعمال بسيطة...

قلت محاولاً أن أفكّر في شيء مقنع أقوله لهما.

ـ ... ثم حدثت أزمة ماليّة، وواجهت مشكلة في العثور على المال اللازم لدفع قوائم الحسابات والضرائب، فضلاً عن أنّني كنت سأخسر المنزل أمام أحد الطامعين فيه...

قال العمّ:

ـ لقد فقدنا أشياء كثيرة ولم تعد خسارة المنزل لتثير قلقنا. فقد قتل شقيقي وعمّي وابنه أثناء التظاهرات، ولم أعرف ذلك إلّا بعد مرور سنة. بحثت عنهم بحثًا طويلاً هناك. وعرفت أنّهم تعرّضوا إلى بقر البطون، ثم...

رمقته العمّة بنظرة غاضبة، وقالت:

ـ لماذا تعيد هذا الكلام الآن؟

ثم اختلست نظرات خاطفة من حولها خشية أن يكون قد استرق السمع أحد الناس.

ـ أنا شخصيًا لم أتوقّع أن أجد المنزل في مكانه، ولكن عمّتك كانت تتوقّع، وظلّت تردّد...

رمقته العمّة بنظرة ساخطة أخرى، وقالت:

ـ كلّ ما فكّرت فيه هو أن يمارس أولاد موكوندا اللعب فيه. إنّ النساء في مثل سنّي يردن أن يصبحن جدّات لأحفاد أيّ شخص! هذا كلّ ما قلته، ولم أقل شيئًا عن المنزل. وكنت أعرف أنّ الحياة شاقّة على كلّ الناس في تلك الحقبة من الزمن.

لاحظت أنّها كانت مثل العمّ، تحاول أن تجد الأعذار لتصرّفي الشائن.

قال العمّ:

ـ ... لكن لا بأس. هذه أمور عقيمة لا طائل من ورائها.

فقد مرّت عليها سنون طويلة، عمر! وماذا كنّا نتوقّع؟ أمامك حياة تتطلّب العيش، فهل في الإمكان الانتظار إلى ما لا نهاية؟

سألته:

ـ ماذا ستفعل الآن؟ هل ستمكث في كلكتا؟ يمكنني أن أعثر لك على مهنة، ويمكنك أن تعمل بمعيّتي، وإذا لم تكن راغبًا في العمل، فلا بأس، وسوف أهتمّ بك وأرعاك، فأنا لا أحد لي سواك. دعني أفعل ذلك من أجلك أيّها العمّ سليمان! تعال واسكن معي على سبيل التغيير!

كنت أرنو إلى وجهيهما في رغبة ملحّة، فأنا في الوقت الراهن رأيت أنّ العناية بهما تفوق أيّ شيء آخر عندي. فأنا سأعمل أوّلاً على

اصطحابهما إلى غرفتي وإعداد سريرين لهما وطهو الأرزّ الحارّ والعدس بالكاري. وبعد أخذ قسط من الراحة وقضاء الليلة، فإنّني سوف أبحث عن منزل يتّسع لنا نحن الثلاثة ونعيش معًا كما كنّا في الماضي. لن أسمح للعمّ بالعمل، بل سوف أشتري له الكتب والأسطوانات الموسيقيّة وأدعه يحيا حياة فيها متعة وفراغ كبيران. وسوف أشتري للعمّة ثيابًا جميلة وآلة أرغن تعزف بالقدمين، إذْ كانت ترغب دومًا بالحصول على هذه الآلة الموسيقيّة. سوف نعيش حياتنا معًا كما عشناها سابقًا، وسوف أعوّضهما عن كلّ شيء.

خفضت من بصري منفطر القلب حزنًا.

وسأل العمّ في اهتمام:

ـ لماذا تقول أن لا أحد لك؟ ألم تتزوّج؟ أليس لديك أيّ أطفال؟

فركت عينيّ وكذبت عليهما بخصوص زوجتي وابني وقلت لهما إنّهما مضطران إلى العيش في القرية لأنّني غالبًا ما أسافر خارج المدينة، وأنّ طقس كلكتا لا يلائم ابني المصاب بحساسيّة في الجلد. ورمقتني العمّة بنظرة متفحّصة اضطررت معها إلى أن أشيح بوجهي جانبًا.

وقالت:

ـ عندما يستقرّ الحال بنا هنا، سوف أحضّر له مرهمًا من شجرة الأزادرخت الوارفة الظلال لتدليك جسمه به. هذه الطريقة المنفصلة في العيش لا تناسب أسرة شابّة، كما أنّك تبدو غاية في الشقاء.

بدأ النادل ينظر إلينا نظرات تنمّ عن تذمّر، فيأتي ويمسح الطاولة بين الفينة والفينة كي ننهض ونغادر المطعم. وتنهّد العم وتململ في مكانه.

قال العمّ وهو يرنو إلى العمّة في دهشة:

ـ لقد تأخّر الوقت. ينبغي لنا الذهاب، فأنا لا أظنّني سأعثر على بيت بشير في سهولة بعد كلّ هذه السنين الطويلة.

حملت الصندوق والزهور عندما نهضا للانصراف. وكانت عندهما صرر أخرى حرصت العمّة على عدّها في لهفة، ثم رفعت بصرها إليّ ولمست وجنتي، وقالت:

ـ لا توجّه اللوم إلى نفسك! وهل كان في وسعك أن تفعل شيئًا آخر؟ فقد انتظرت في الأقلّ طوال تلك السنين. ثمّة أناس باعوا بيوتًا ما تزال وسائدها دافئة من أثر رؤوس أصحابها!

سرنا إلى موقف الحافلة، فوجدنا الجموع محتشدة وهواء المساء ثقيلاً، أصفر بسبب لون أضواء المصابيح. أغمضت عينيّ نصف إغماضة بسبب الإضاءة ونظرت إلى مسافة بعيدة، وقلت للعمّ سليمان:

ـ دعني أستدعي سيّارة أجرة لكما، ولا تستقلّا حافلة.

ضحك العمّ، وقال:

ـ آه يا أخي موكوندا! منذ متى كنت أستقلّ سيّارة أجرة؟ أنا شخصيًا لا أعرف حتى كيف أرشد السائق، ولا أستطيع أن أتلمّس طريقي، فقد تغيّر كلّ شيء! ما رقم الحافلة التي ينبغي لي أن أستقلّها؟ أما زال الرقم هو...

شاهدت حافلتهما تترنّح من مسافة بعيدة على خطوط الترام المفروشة بالحصباء من وراء حافلتين أخريين، وقلت:

ـ ها هي آتية، وسوف تقلّكما مباشرة إلى توليغونج.

سألني العمّ في خجل:

ـ ثمّة شيء واحد يثير استغرابي... يخصّ نوري...

قالت العمّة:

ـ هيَّا بنا، كم سنة يعيش الببغاء؟

قلت:

ـ كان الببغاء سعيدًا، سعيدًا وفي صحّة وعافية، ومن شأنه أن يسأل عنك على النحو الذي كان يسأله عندما كنت هنا.

رمقني العمّ بنظرة يشيع منها القلق وسأل:

ـ ثم ماذا؟

فبدأت أعترف قبل أن يطرح سؤالاً آخر:

ـ أيّها العمّ... إنّني...

تغيّرت إشارة المرور في هذه اللحظة وتقدّمت حافلتهما في اتّجاهنا، فهتف واتّجه إليها:

ـ لا بأس. كان الطائر سعيدًا في صحبتك، وهذا يكفي!

وناديت وسط الفوضى:

ـ ما عنوان بشير يا عمّي؟ كيف سأعثر عليكما، كما أنّكما لم تأخذا عنواني؟

لكنّ العمّ بدأ يرتقي الحافلة، وبغتة دفعه شخص ما، فترنّح في خطورة، وحاول أن يوازن صرّة يحملها في حين انتاب الرعب العمّة وأمسكت بذراعه.

ـ العنوان أيّها العمّ! العنوان!

دفع العمّ سليمان رأسه من فوق كتف رجل آخر، وحاول أن يذكر

العنوان في صوتٍ عالٍ، فصاح به الرجل منزعجًا:

ـ إذا أردت أن تتحدّث أيّها الأب، فعليك أن تترجّل من الحافلة ودعني أستقلّها.

رفعت صندوق الأمتعة ودفعته من خلفهما وفقدت أثر وجهيهما وسط حشود المسافرين الذين كان يدفع أحدهم الآخر بحثًا عن موطئ قدم ومقبض يد في الداخل، وبدأت الحافلة تتحرّك إلى أمام في سحابةٍ من دخان أسود. ركضت من ورائها، راغبًا في أن أستقلّها وأن أذهب إلى أيّ مكان يذهبان إليه. سبق لي أن ركبت حافلات وهي تسير طوال حياتي وأنا راشد. كان مدخل الحافلة الخلفي يحتشد بالناس. ولكنّني تمكّنت من التشبّث بالقضيب المعدني المجاور للباب وتعلّقت به حين بحثت قدماي عن فسحة صغيرة على موطئ قدم في الحافلة لكي أحشر إصبعًا من أصابع قدمي من فوقها. ثمّة أربعة رجال آخرون يقفون فوق تلك الفسحة ويحاولون حشر أنفسهم في الحافلة. ازدادت سرعة الحافلة وأحسست بيديّ تنزلقان من على القضيب المعدني الأملس، وشعرت بقدميّ تطآن ركضًا على الشارع حتى تعثّرتا، فتوقّفت. وكان ذراعاي يتهدّلان إلى جنبيّ من دون فائدة.

ازدادت حلكة الأضواء الساطعة بسبب ظلال الناس المتعثّرين بي مصادفة مثل العثّ. تسمّرت في وسط الشارع، وتجمّع الأهالي من حولي، حشودًا من الغرباء الذين كانوا يرومون الذهاب إلى بيوت أصدقائهم وأسرهم. ثمّة شوارع تمتدّ من وراء هذا الشارع، ومن خلفها شوارع أخرى، شبكة واسعة من الشوارع تحتشد بالغرباء، مئات الغرباء، آلاف الغرباء، أعداد لا تحصى من الغرباء، في مدينة لم يعد لي فيها صديق وحيث لا ينتظر أحد عودتي إلى البيت!

* * *

مشيت وقتًا طويلاً في ذلك المساء، وتوقّفت عند جسر كاليغات لأنظر إلى النهر من تحتي، أسود مثل جلد جاموس في الليل، وكانت الأضواء المنعكسة عليه تجاهد من أجل أن تومض على سطحه المخاطي اللزوجة. لم يعد ماء النهر ماءً بعد اليوم، بل رواسب زيتيّة متخلّفة نتنة وعفنة. لم أعرف سبب سيري كلّ تلك المسافة الطويلة، من باوبازار إلى كاليغات، وشعرت بألم في ساقيّ، وتذكّرت بغتة ذلك اليوم الذي طيَّرت فيه طيّارة ورقيّة مع زوجتي في منطقة الميدان، وكان الوقت عصر يوم شتوي، قبل نهاية زواجنا ببضعة أشهر. وكنّا قد تشاجرنا شجارًا طويلاً في الليلة السابقة، فاستيقظت مُوَطّن العزم على إصلاح ذات البين. وفكّرت في أن أصحب زوجتي وابني لقضاء يوم في الميدان لأنّهما لا يخرجان من البيت أبدًا. فذهبت واشتريت بضع طيّارات ورقيّة كبيرة وكلّ مستلزماتها من أحد الدكاكين في نهاية الزقاق، وعدت إلى المنزل متظاهرًا بالتحمّس وقلت:

ـ هيّا، إنّ منطقة سانكرانتي ليست بعيدة عن هنا! وعلينا أن نطيّر هذه الطيّارات! عاليًا.. عاليًا!

فسرحت زوجتي ببصرها إليّ في ذهول. فالمشاجرة التي اندلعت في الليلة الفائتة كانت واحدة من تلك المشاجرات العديدة التي احتشد بها الأسبوع.

وقالت:

ـ إنّني منهكة، فقد لبثت واقفة على قدميّ طوال النهار، يضاف إلى ذلك، منذ متى والنساء يخرجن من بيوتهنّ لينهمكن في تطيير الطيّارات؟

قلت:

ـ آخ، هيّا! إنّني أحاول أن أفعل شيئًا يبهجنا كلّنا.

سوف نخرج من المنزل ونستقلّ عربة الترام.

وصلنا الميدان، ولكنّنا قلّما وجدنا نسمة هواء. فقفز ابني في فرح، يلثغ ويصفّق في ابتهاج، يحدّق إلى الطائرات الأخرى التي كانت تزيّن السماء، منتظرًا طائراتنا كي تنضمّ إليها. طلبت من زوجتي أن تمسك بالطيّارة وترفعها عاليًا كي أتمكّن من جذب الخيط كي تطير، غير أنّها لم تفلح في رفعها رفعًا صحيحًا، وإن كان ذلك أمرًا غاية في البساطة، فقد كانت تتركها لتطير على مسافة منخفضة جدًّا أو في سرعة أو في وهن. وكانت تكثر من تعديل ثوبها وتقول:

ـ آه يا أمّي! هل يمكن للمرأة أن تفلح في مثل هذا العمل؟

أو كانت تجيل الطرف من حولها وتردّد:

ـ الكلّ يضحكون عليّ. هل يمكنك أن تشاهد أيّ امرأة أخرى في هذا المكان وتطيّر أمام الناس؟ هذا فظيع!

لم تشأ الطيّارة أن تطير، بل آثرت أن تبقى عاليًا بضع ثوان، ثم تبدأ بالهبوط هبوطًا منحدرًا ومتهوّرًا حتى تصطدم بالأرض وتتحطم. ربّما أنا شخصيًا فقدت حيلتي، ولكن أصبحت أكثر إحباطًا ووبّخت زوجتي كلّما ارتكبت هفوة، كما فقد ابني اهتمامه وجلس فوق العشب يسلّي نفسه بقطف أعواده، وبعد محاولات نجحت فيها زوجتي في جعل الطيّارة تشابك ثوبها وتحدث شقًّا فيها، ففقدت أعصابي وصرخت:

ـ لا نفع فيكِ. ألم تفعلي شيئًا في حياتك غير الأعمال المنزليّة؟ ثمّة نساء يتسلّقن الأشجار ويسبحن!

لكن ما إن خرجت الكلمات من فمي حتى استبدّ بي الندم، فتخلّيت عن الطيّارة وذهبت إليها بعد أن تهالكتْ على العشب وبدأت تبكي وتقول:

ـ إنّني منهكة، فقد كنت أعمل طوال النهار، وأشعر بألم شديد في ساقيَّ. لم يعد في وسعي أن أركض بعد الآن. إنّني مرهقة.

* * *

لبثت مستيقظًا حتى ساعة متأخّرة من تلك الليلة، أرتّب غرفتي في عصبيّة. فخزانة ثيابي لم تمتدّ إليها يد لتنظّفها منذ سنوات، وهيّأت صرّة كبيرة من ثياب قديمة ممزّقة وقذرة إلى حدٍّ لا يمكنني أن أتخيّل أنّ شحّاذًا سوف يهتمّ بها ويأخذها. وألقيت ثياب الساري القليلة التي كانت زوجتي قد خلّفتها من ورائها، وتوقّفت هنيهة أرنو إلى ثياب ولدي منذ أن رزقنا به. لا بدّ أنّه في نحو السادسة من عمره اليوم، ولم أره منذ أن كان في الثالثة. ولكنّني حشرت هذه الثياب في الصرّة أيضًا. وكانت رفوف المطبخ يعلوها الغبار وعلب التوابل الرماديّة اللون والكعك الملتصق أحده بالآخر وأشياء أخرى لا سبيل إلى معرفتها ملفوفة في علب ورقيّة وزحف عليها الدود، فرميتها كلّها خارج الغرفة. وخرجت الصراصير من أوكارها التي لم يزعجها أحد فيها منذ أمد طويل، ورتّبت كلّ أدوات المطبخ في ركن ووقفت أحملق فيها برهة وجيزة، وكان من بينها وعاء برونزي اشتريته أنا وزوجتي في أحد المهرجانات، وحجر الرحى التي صنعتها لها وعليها سمكة مبتسمة. ووضعت جانبًا ملعقة الأطفال الفضّيّة التي كنت اشتريتها على إثر ولادة طفلي لنسقيه الحليب بها. نادرًا ما استعملناها، لأنّه تحوّل من الرضاعة الطبيعيّة إلى القدح.

توجّهت إلى الغرفة الثانية وجذبت الكتب جميعًا من فوق الرفوف ووضعتها على الأرض وبدأت أصنّفها. كانت في معظمها كتب العمّ سليمان الذي كان قرأ مقاطع منها لي وكانت تحتوي في مجملها على شروحات مكتوبة بخطّ يده الجميل، وسقطت رسائل من كتابين اثنين،

وورقة شجر جافّة من كتاب ثالث. وكانت بين دفّات الكتب على الرفوف بيانات حسابيّة معنونة إلى بابو أنغتي، وكنت قد كتبت على إحداها بخطّ رديء: «لا بدّ أن تخبره أنّ في وسعنا إخراج الرجل العجوز من منزله في دارماتولا لقاء ثمن أقلّ. كما يحتمل سقوط صكّ مرسل إلى سوشانتا». وكنت قد دوّنت على أحد الكتب كتابة باللغة الإنكليزية تفيد: «عزيزي العمّ سليمان، مع أفضل تمنّياتي في عيد ميلادك، وأهنّئك في هذا العيد. موكوندا».

وعثرت بين كتبي على شهادة امتحانات دراستي المتوسّطة في مظروف بنّي، ورسالة من بابو نرمال، وهي الأخيرة قبل أن أقطع صلتي به:

عزيزي موكوندا،

يسرّني كثيرًا أن أسمع أنّك نجحت في امتحاناتك.

وعندما أخبرت باكول بها ضحكت. ولم تشأ أن تصدّقني إلى أن أطلعتها على رسالتك. ماذا تخطّط الآن؟ أملي هو أن تستمرّ في الدراسة وتحصل على شهادة البكالوريوس، ومن ثم تكمل دراستك. إنّ التعليم أفضل شيء يمكن أن تمنحه الحياة. والآن استمع إليّ، إنّني ألقّنك محاضرة ولكن سامحني فأنا رجل كبير السنّ، وقد عرفتك مُذ كنت طفلاً. أنت فتى ذكي ولامع وسوف تتحوّل الآن إلى رجل مثقّف، واسع القراءة. إنّ العواطف الجامحة تستبدّ بي على نحو غبيّ وأنا أراك وصلت هذه المرحلة الحاسمة من حياتك، وكنت أتمنّى لو كان في وسعنا الاحتفال بهذه المناسبة معًا، لكنّني نادرًا ما أسافر في هذه الآونة ربّما ستأتي يومًا ما إلى سونغارة بنفسك لزيارتنا، وعندئذٍ سوف نتجاذب أطراف الحديث عن الأيّام الخوالي. وفي هذه الأثناء، إذا عرفت أين

سوف تقيم، فأرسل لي عنوانك كي أزورك إذا ما جئت يومًا ما إلى كلكتا.

حبي وبركاتي

بابو نرمال

ملاحظة:

أرفق صكًا بمبلغ قليل، أرجو أن تصرفه في شراء شيء جميل ليكون هديّتي لك. لماذا تكرّر دومًا طلبك ألّا أرسل إليك المال بين حين وآخر؟ إنّني أتصرّف كذلك بدافع المحبّة.

لا أدري متى أويت إلى فراشي في تلك الليلة وسط كلّ تلك النفايات. كان رأسي يؤلمني وعيناي تؤلمانني أيضًا. ولم أرغب في الاستيقاظ من جديد. لكنَّ نعيق الغربان عكّر عليَّ صفو نومي كالمعتاد، ففتحت عينيَّ قليلاً، ثم جلست معتدلاً وأنا يقظ تمامًا.

سوف أتخلّى عن عملي. لم يفت الأوان بعد، فأنا لا يمكن أن أترك نفسي كي أتعفّن، فالوقت ما يزال باكرًا ولم أبلغ الثلاثين من عمري، وسوف أتعلّم كيف أكسب قوتي بطريقة أخرى، وأن أفكّر في شيء يختلف حتى لو كان الأمر يتطلّب بضع سنوات شاقّة. سوف أذهب إلى بابو أنغتي لتسوية الحسابات وأنهي خدمتي. وسأتوقّف عن الذهاب إليه.

* * *

عندما استيقظت في صباح اليوم التالي وفتحت الباب لبائع الحليب وجدته يمدّ يده برسالة مع الحليب، ويقول:

ـ لا بدّ أنّ هذه الرسالة وصلت بالأمس يا بابو، فقد وجدتها على عتبة بابك.

بعد أن مضى بائع الحليب في سبيله، فتحت مظروف الرسالة الكبير والخشن الملمس والمعنون إليّ بخطّ يد بابو نرمال. ليلة واحدة بعد أن قرأت رسالته القديمة من جديد. ولم يكتب أحدنا للآخر أيّ رسالة منذ أن أرسل لي بطاقة الدعوة لحضور زفاف باكول وغيّر من حياتي إلى الأبد. وتساءلت في عجب عن المفاجأة الجديدة المرفقة في هذا المظروف!

وجدت في داخل المظروف صورة تمثّل بيتًا كبيرًا يكاد يكون قصرًا منيفًا وفيه شرفة واسعة في وسطه تحفّ بها الغرف من كِلَا الجانبين المؤطّرين بأشجار النخيل، وأعمدة طويلة من النمط الذي كان سائدًا في يوم من الأيّام تصل إلى الطبقة الأولى فتذكّرني بأبنية من مثل المجلس البلدي في كلكتا، ومن فوق الأعمدة سطح ضخم قليل الفائدة. وفي مقدّمة الصورة ماء، وعند الأعمدة أمواج ودوّامات.

وأدركت في رجّة انتابتني أنّ المنزل هو ذلك الذي ذهبت لزيارته رفقة بابو أنغتي قبل زهاء ستّ سنوات، وهو المنزل القريب من النهر الذي حاول شراءه بوثائق مزوّرة، المنزل الواقع في مدينة... مانو هاربور، هذا هو، وفي وسعي أن أتخيّل الاسم، بالخطّ الأسود على لوح أصفر فوق رصيف سكّة الحديد قبل زمن طويل. كانت تلك هي المرّة الوحيدة التي شاهدت فيها بابو أنغتي يخسر أمواله وحياءه.

تقول رسالة بابو نرمال بعد أسطر قليلة من المزاح:

«الصورة المرفقة في هذه الرسالة تمثّل منزل والدة باكول القديم القريب من النهر. لقد غيَّر النهر من مجراه على امتداد عقود من السنين، وفي نهاية المطاف فاض عليه في السنة التي ولدت باكول. وقد حاول والد زوجتي بذل قصارى جهده ليحول من دون وقوع المصيبة ولكن بلا طائل. لقد قرأت الشيء الكثير عن الأنهار في ذلك الوقت، وعن ذلك الكاتب الذي قال: «الفيضانات حتميّة في بلدان فيها دلتا، لأنّها أسلوب الطبيعة في خلق أرض جديدة ومن العبث الذي لا فائدة منه إحباط مساعيها في هذا الشأن... ويكمن الحلّ في إزالة كلّ العقبات التي تعترض هذه النتيجة: وهذا صحيح بخصوص المنزل في مانوهاربور.

«ربّما تعلم قدرًا من هذه المعلومات: لقد ولدت باكول قبل أوانها، ولم يتمكّن أحد من الوصول إلى المنزل ليقدّم المساعدة الطبّيّة لذلك، توفّيت والدة باكول أثناء الوضع. وبعد وفاة شانتي، أصبح والدها (حماي) غريب الأطوار إلى حدٍّ ما، إذْ أصرَّ على البقاء في المنزل على الرّغم من أنّ الطبقة الأرضيّة كانت تغمرها المياه مع كلّ رياح موسميّة، وعلى امتداد سنين طويلة كان يظلّ عالقًا داخل البيت أسابيع طويلة، وانساب إلى مسامعي أنّ الأهالي كانوا يذهبون إليه بالقوارب حاملين له الطعام، وكان يرمي لهم إلى أسفل بالسلال المربوطة بالحبال، ولكنّه لم يشأ الرحيل عن المنزل. للناس اهتمامات غريبة لا يمكن لغيرهم أن يفهمها. وقد تبدو لاعقلانيّة، ولكنّها في نظر أصحابها صحيحة ومفهومة».

كانت رسالة طويلة، انتقلت بعدها إلى الصفحة الثالثة، ويبدو لي كأنّه أرادها أن تكون سيرة شخصيّة، وأنّه كان في حاجة إلى شخص ما على دراية بالمنطقة وتضاريسها كي يحدّثه عنها. وراودني الإحساس في أنّه كان يخاطبني في رسالته وكأنّني ولده. وبعد أن تطهّرت من الكراهية

الذاتيّة في الليلة الفائتة، بدت الرسالة مثل مرهم للشفاء وصلني بالبريد. وقد عقدت الرسالة الصلة بيني وبين العالم الذي كان يعيش فيه جزء منّي لم تنل منه بعد التطوّرات الأخيرة، وإن كان ذلك على نحو غير محدّد الملامح ويفتقر إلى الوضوح.

ومضت الرسالة تقول:

«قرّرت الحكومة قبل بضع سنوات أن تشيّد سدّة في أعلى النهر. وقد اكتملت السدّة في نهاية الأمر. وبغتة هدأ النهر بعد كلّ تلك السنوات الحافلة بالفوضى، لكن لا بدَّ أنّ منطقة أخرى غمرتها المياه بسبب السدّة، لكنّ المنزل بقي في مأمن من خطر المياه، وقد مضى على ذلك عام أو عامان. (ومن شأن الحديقة أن تغدو مكانًا خصبًا للمتحجّرات).

«قضايا أشدّ أهمّيّة وخطورة: فقد تلقّينا بعض الأنباء المحزنة قبل بضعة أيّام وهي التي دفعتني إلى التعجيل بكتابة هذه الرسالة إليك. فقد توفي والد زوجتي قبل عشرة أيّام أو زهاء ذلك، أنا غير متأكّد. وقد مات وحيدًا، بعيدًا عن أسرته، ولكن هكذا شاء هو، ولا يمكنني أن أتظاهر في هذه المرحلة من عمري أنّني كنت مرتبطًا به. فقد كنت ألومه دومًا، عن حقّ أو من غير وجه حقّ، على وفاة زوجتي. غير أنّ الحقيقة تبقى ماثلة وهي أنّه كان جدّ باكول وأنّها كانت متعلّقة به وببيت أمّها. وقد تناهى إلى سمعي أنّ بعض الأطراف اجتمعت في البيت مدّعية بملكيّته لها ـ يبدو أنّ الأراضي والبيوت هي التي تظهر جانب الجشع والطمع في نفس كلّ إنسان. ثمّة موكّل عجوز يقول إنّ المنزل منزله من الناحية الأخلاقيّة، وأنّ ثمّة جارًا يدّعي بملكيّته له ثمنًا لقروض كان والد زوجتي قد اقترضها منه على ما يبدو على مدى سنين. وثمّة سمسار عقارات من كلكتا أرسل رجاله لأنّه على ما يظهر دفع مبلغًا من المال

لقاءه في صفقة نصب واحتيال قبل بضعة أعوام. هؤلاء الأشخاص يبحثون كلّهم عن حجّة البيت الأصليّة التي تبدو أنّ والد زوجتي خبّأها في مكان ما. ولا يمكن لأحد من هؤلاء الزعم بملكيّة البيت من دون هذه الحجّة».

تسارعت أنفاسي وتمنّيت لو أنّه يدخل في صميم الموضوع، وشعرت أنّني لم أقرأ في حياتي رسالة طويلة مثل هذه الرسالة.

تقول الرسالة في صفحتها التالية:

«إنّ المنزل حقّ شرعي لباكول، وهي الشخص الوحيد الذي يعرف مكان الحجّة. وكما أوضحت لك، فقد كان جدّها غريب الأطوار، وعاش وحيدًا، ولم يثق بأحد، ولم يثق حتى بالمصارف. وتتذكّر باكول كيف خبّأ وثائق البيت في عمليّة كانت تشبه اللعبة، وذلك في زيارة قمنا بها قبل سنوات. أنا شخصيًّا لا أملك فكرة عن هذا الموضوع لأنّه طلب منها أن تحلف اليمين على الاحتفاظ بذلك سرًّا، وكانت هي تنظر إلى الأسرار نظرة جادّة إلى أبعد الحدود. وسوف تسافر إلى مانوهاربور في الأسبوع المقبل في محاولة لاستعادة الحجّة، وإذا كانت الحجّة موجودة في محلّها، فإنّها سوف تقرّر ما تفعله بميراثها.

«أمّا أنا شخصيًّا، فأرغب في بيع المنزل لأنّني لم أشعر يومًا بصلة تربطني به، بل على العكس، لأنّه يمثّل دومًا من وجهة نظري قبر زوجتي. ولم أستطع أن أرغم نفسي على العودة إلى هناك بعد كلّ السنوات التي مضت على وفاتها. أعرف أنّ باكول ممتعضة من هذا الأمر دائمًا، ولكنّني لا أملك حولاً ولا قوّة إزاء ذلك. فإذا قرّرت حقًّا أن تبيع المنزل، فإنّني سوف أقدّر لك مساعدتك في هذا الشأن. وفي اللحظة التي نحصل فيها على ثمن البيع، فإنّنا سوف نبدأ بتسديد

أموالك. إنّ سخاءك في هذا البيت في سونغارة ثقيل الوطأة عليَّ ولا أطيق راحة إلّا بعد أن أكون قد سددت لك الدين، وإن بقي ذلك قاصرًا في التعبير عن شكري وامتناني لك لأنّك أنقذت بيتي.

«أعلم أنّ باكول ستشعر بقلق وانزعاج عظيمين إذا ما عرفت أنّني طلبت منك مدَّ يد العون إليَّ. فهي، كما تعلم، ترفض مساعدة أيّ شخص، حتى لو كانت من أبيها، لكنّك من وجهة نظري مثل ابني، وإذا لم أطلب العون منك فمن أين أطلبه إذن؟ إنّني أحرّر هذه الرسالة إليك في الليل، وسوف أرسلها بالبريد أثناء نزهتي الصباحيّة على قدميَّ كي لا تعرف باكول بأمرها. سوف أكون غاية في الامتنان لك لو تمكّنت من السفر إلى مانوهاربور، وكأنّك تسافر مصادفة، كي تساعدها في هذه القضيّة.

«إنّني مضطر إلى البقاء في سونغارة: وأنا مضطرّ إلى ذلك بسبب كلبي ـ الآخرون من الناس المتعلّقون بكلابهم هم وحدهم الذين سوف يعتقدون أنّني في كامل قواي العقليّة ـ ولكن هذا الكلب لا يستطيع البقاء في قيد الحياة من دوني. يضاف إلى ذلك، فإنّني، كما تعلم جيّدًا، لا أفهم كثيرًا في الأمور ذات الصلة بالعقارات والأموال، غير أنّني قلق بشأن محاولة باكول معالجة هذه القضيّة بنفسها. لهذا، فإنّ الأمل يراودني في أن تصلك هذه الرسالة في الوقت المحدّد كي تكون هناك في رفقتها».

ثمّة أشياء كثيرة في الرسالة أثارت قلقي، لكنّ الذي شغل ذهني بعيدًا عن كلّ هذه الأمور في تلك اللحظة هو: ماذا تفعل باكول في منزل جدّها المدمّر في مانوهاربور؟ أين زوجها ولماذا لم يرافقها؟

وسرعان ما بدأ عقلي يستطلع الجوّ ويجس النبض: هل اتّضح أنّ

الزوج رجل غير ملائم لا يثق به أحد؟ هل انفصلت باكول عنه وعادت إلى المنزل حيث يقطن والدها؟ لكن مهما كان الوضع، فإنّ بابو نرمال فكّر فيَّ، فيَّ أنا من دون أيّ شخص آخر في هذا الوقت العصيب الذي تمرّ به باكول. تشبّثت بهذه المعلومة ـ ففي رأيه، أنا الوحيد الذي يمكنه أن يساعدها. وأخيرًا سوف ألتقيها وسوف تكون بمفردها، تمامًا كما تخيّلت.

سوف تكون هناك بمفردها، لكن هذه الفكرة أثارت الهلع في نفسي أيضًا: باكول وحدها في تلك البقعة المنعزلة، في تلك البرّيّة، ومن حولها تتحرّك كلّ أسماك القرش! تذكّرت مدى بعد المنزل عن الدكاكين وعن محطّة القطار، وعن المساحات الشاسعة من الأراضي المحيطة به والتي تجعله متواريًا عن أنظار الآخرين. فلو صرخت بأعلى صوتها لن يسمعها أحد. حاولت ألّا أقلّب هذه الأفكار في رأسي، بيد أنّني كنت أعرف على نحو أفضل من أبيها المخاطر التي قد تتعرّض لها في بيئة لا تتّفق وميولها. فالسمسار القادم من كلكتا الذي جدّد سعيه من أجل الحصول على المنزل لا يمكن أن يكون غير بابو أنغتي على الرّغم من احتمال وجود سماسرة آخرين.

دسست يديَّ في أحد قمصاني وأخذت بعض النقود من خزانة الثياب وأطلقت ساقيَّ للريح، وأنا أهبط درجات السلّم لأستقلّ سيّارة أجرة وأذهب إلى محطّة القطار. كانت الرسالة مؤرّخة قبل أربعة أيّام، ولا بدّ أنّ باكول وصلت مانوهاربور. لقد ضيّعت مساءً بطوله في حين كانت الرسالة ملقاة طوال الليل على عتبة بابي! ليس لي وقت أضيّعه.

كلّ ما كان عقلي يردّده ترديدًا لامفهومًا في وقت بدأ فيه القطار يغادر سيلداه تحت نور شمس الساعة العاشرة صباحًا هو: انظر إلى النجوم، انظر، انظر إلى النجوم. انظر إلى كلّ اليراعات...

حاولت أن أتذكّر اسم الشاعر، ولكنّ الاسم الوحيد الذي قفز إلى ذهني هو هارولد.

* * *

عندما دخل القطار مدينة مانوهاربور، قفزت منه قبل أن يتوقّف. وبدت الرحلة التي استغرقت ستّ ساعات وكأنّها ثماني أو عشر ساعات، إذْ كان القطار يتوقّف عند كلّ محطّة قائمة على جانب الطريق من أجل المسافرين وباعة الشاي والخضراوات وغيرهم. وكانت القاطرة تئزّ وتئنّ وتنفث دخانها وسط مناظر طبيعيّة قوامها برك المياه والخضرة التي وجدتها ساحرة. وفي هذه الرحلة، تمايلتُ إلى خارج الباب لتعبث الريح في شعري، ولتمرق المناظر الطبيعيّة من جانبي كأنّ النظر إلى الأفق من شأنه أن يزيد مانوهاربور قربًا منّي.

كانت العلامة الدالّة في المحطّة جديدةً، وما تزال صفراء اللون وعليها كتابة باللون الأسود، ولكنّها كانت أكبر حجمًا وحرفًا. كان للمحطّة رصيف من الخرسانة بدلاً من التربة المطروقة، والحواجز فيها مصنوعة من الحديد وليس من خشب الخيزران، وكان الناس فيها أكبر عددًا ممّا كنت أتذكّر، وحصلت على عربة ركشة أمام بوّابة المحطّة، ولمّا أخبرت سائقها عن المكان الذي أروم الوصول إليه، قال:

ـ آه، هكذا نلقّب بابو بيكاش دائمًا، ولم يكن ليعير ذلك أيّ أهمّيّة، فهو يعلم أنّنا نعتقد بأنّه نصف مجنون.

ثم بدأ يقود العربة ويقول:

ـ سمعت أنّ بيته معروض للبيع، ولهذا أرى كثيرًا من الناس يذهبون إليه في هذه الأيّام.

هتفت في دهشة:

ـ من هم؟ هل تتذكّر أحدًا منهم؟

قال سائق العربة:

ـ لقد اصطحبت رجلاً ما إلى هناك في هذا الصباح، وكان رجلاً نحيلاً، طويل القامة، ولكنّني أسمع أنّ غيره من الناس ذهبوا إلى ذلك البيت أيضًا يا بابو. ماذا تقول عمّن يغلب عليهم الطمع من الناس؟ أتمنّى من الله أن يبعدني عن مثل هذا الطمع.

أسرع السائق في قيادة عربته، ومئزره بخطوطه المربّعة يصل أعلى ساقيه النحيفتين قاسيتي المظهر.

وقال:

ـ ما دام لديّ كمّيّة قليلة من الطعام آكلها وقطعة قماش تستر جسدي. فإنّني سأكسب رزقي يا بابو بعرق جبيني وليس بموت الآخرين. هل تفهم يا بابو؟

توقّف عن القيادة والتفت إليّ وهو ما يزال جالسًا على مقعده يمسح العرق على وجهه بردن قميصه، ومضى يقول:

ـ قضى الرجل نحبه وحيدًا؛ وحيدًا، هل تفهم يا بابو؟

والآن يأتي هؤلاء الأقارب الذين لم يهتمّوا لأمر باغلادادو في حياته ليبيعوا أرضه وبيته وليولّوا الأدبار بعد ذلك مع النقود.

حاولت أن أقحم نفسي في الكلام، فقلت:

ـ إنّني في عجالة من أمري، فهل في وسعك...

لو كنت أتذكّر موقع المنزل، لترجّلت من العربة وسرت إليه على قدميّ. وهنا التفت أمامه إلى الطريق وتنهّد، وبدأ يقود العربة من جديد.

قال مبهور الأنفاس:

ـ البشر نسور يا بابو، ثق بي، هل تفهم؟ يقول الناس إنّ زوج ابنته رجل طيّب القلب، ولكن هل يكفي هذا؟ هل اهتمّ لأمر والدِ زوجته المستوحد عندما كان يحتضر؟

قلت وقد فاجأتني صورة بابو نرمال الأرعن والغليظ القلب:

ـ صحيح؟

ـ لا، أنت لا تفهم، ولا أيّ شيء! وقد انتهى المطاف بباغلادادو المسكين إلى أن يقوم ابن خادمه العجوز بحرق جثمانه من دون أن يحضر أحد من أفراد أسرته. والآن قل لي: هل هذا صائب، حتى لو كان الرجل مخبولاً قليلاً؟

تشبّثت في هذه اللحظة بمقبض العربة التي بدأت الآن ترتقي جانبًا مرتفعًا من الطريق القذر. واسترسل السائق في كلامه:

ـ لكن ماذا في وسعك أن تقول، فهو ليس له سوى تلك الابنة الوحيدة، وقد قضت نحبها، البنت المسكينة، ولكن ما الذي يمكنها أن تفعله حتى لو كانت في قيد الحياة؟ هل كانت تستطيع أن تشعل الحطب لحرق جثّته؟ ماذا يفعل رجل من دون ولد؟ أقول لك يا بابو، إنّني رجل فقير ولست ملّاك أراضي مثل باغلادادو، لكنّ الله من فوق باركني بأن رزقني بولدين يتّصفان بطول القامة وقوّة البنية، يناولانني حفنة من الأرزّ في يوم لا أقوى فيه على جرّ هذه العربة، ويمسكان شعلة متوهّجة لإشعال الحطب وحرق جثّتي.

بدأنا نقترب من الطريق نفسه الذي بدا أشدّ فوضى. وترجّلت من عربة الركشة أمام الشرفة الممتدّة إلى مسافة عميقة التي جلست فيها ذات يوم رفقة بابو أنغتي. وكانت كراسي الخيزران نفسها موجودة في الشرفة، ويمكنني أن أقسم اليمين إنّ تلك البقعة البنّيّة اللون التي أفسدت جدار

الشرفة إنّما هي البقعة نفسها التي قذف عليها بابو أنغتي بصاقه. تلقّى سائق الركشة أجره ومضى في سبيله.

شيء واحد لا غير كان مختلفًا عن الزيارة السابقة، وهو أنّ كرسيًا من كراسي الخيزران كان يحتلّه الآن هارولد.

* * *

كان يرتدي ثيابه نفسها: بدلة قديمة لمّاعة وربطة عنق رفيعة ذات خطوط صفر لمّاعة أيضًا، وبنطال قصير عليه بمقدار بوصتين كاشفًا بذلك عن جوربين أسودين باليين يغطّيان كاحليه. ولكن على الرّغم من ذلك، فقد لاح مثل مدير مدرسة محترم، متقدّم في العمر وليس شقيًّا من الأشقياء. رفع بصره إليّ وابتسم ابتسامة مشرقة لمّا رآني، وهتف في دهشة:

ـ آه، يا موكوندا، أيّها الصبي! تسرّني كثيرًا رؤيتك! لم أعرف أنّ الرئيس كان يبعث تعزيزات من ورائي.

ثم خفض صوته وقال:

ـ دعني أخبرك أيّها الرجل أنّ هذا العمل يجعلني مخدوعًا. فقد أخبرني الرئيس أن أذهب وأبحث عن حجّة المنزل ـ إنّ هذا اللوطي العجوز الذي قضى نحبه خبّأها في جحر ما داخل هذا القصر الهائل الذي كان يملكه. وأنا مضطرّ إلى أن أمثّل دور المشتري وأن أتجوّل في أنحائه وأعثر على الحجّة. وهل تعرف أيّها الرجل؟ وعلى سبيل تغيير الموضوع، يقول الرئيس لي: لا تكن فظًّا، فثمّة فتاة هنا تقوم بالإجراءات اللازمة في عمليّة البيع، لهذا فإنّ كلّ ما ينبغي لي عمله هو العثور على تلك الحجّة الهاربة، وقد دفع لأحدهم مبلغًا من المال عربونًا عن المنزل، وكلّ ما يحتاج إليه الآن هو الوثائق، في هدوء وعلى

جناح السرعة. لكن قل لي: كيف؟ أعطني عملاً منظّمًا فأنجزه لك أيّها الرجل. من السهل أن تخرج تلك المادّة من معدة الرجل بأن تجعله يسعل فيقذف الحجّة، ولكنّ التعامل مع النساء يختلف، فأنا لم أنشأ على الاستشاد على الجنس اللطيف. لا يا ولدي!

في هذه اللحظة جاءت باكول إلى الشرفة الأماميّة، ولا أدري إن كانت قد استرقت السمع لهارولد، ولكنّها لم تبدِ أيّ إشارة تدلّ على أنّها تعرفني، بل رمقتني بنظرة لامبالية وسريعة، وقالت موجّهة الكلام لهارولد:

ـ إذا كنت مستعدًّا أنت وزميلك. . .؟

ثم استدارت وعادت أدراجها من حيث أتت من دون أن تنتظر كي نلحق بها. وهنا لوى هارولد قسمات وجهه مقلّدًا عبوسها وأشار إليّ كي أتبعه.

قالت باكول في صوت تردّد صداه في الحجرة الخاوية:

ـ الطبقة الأرضيّة في حال يرثى لها. يؤسفني أن أقول ذلك. وكما تلاحظان، فإنّ النهر كان يغمر هذا المكان في كلّ عام لم يشهد المنزل أيّ ترميمات ولا صيانة. كان جدّي يسكن في الطبقة العليا إلى أن وافته المنيّة!

كانت تتكلّم في أدب جمّ، ينمّ عن شخصيّة هادئة متجرّدة أثارت ارتباكي. هل يا ترى تظنّني حقًّا قد أتيت من أجل الاحتيال عليها وغشّها؟ أم أنّ هذا كلّه جزء من خطّة محكمة؟

تجوّلنا في المنزل وانتقلنا من غرفة إلى أخرى، وكانت باكول تفيض في الشرح وتسهب وتعتذر عن كلّ الغبار المنتشر في أرجاء المنزل. وكانت نبرتها أثناء الكلام نبرة وصفيّة تخلو من الانفعال، لا

تتوقّف لسماع أيّ ردٍّ منّا. وتمكّنت من الاستدلال على اللوحات الزيتيّة العفنة التي أتت عليها الفطريّات بتأثير الرطوبة في الطبقة الأرضيّة منذ زيارتي السابقة التي رافقت فيها بابو أنغتي، والثريّات التي كان يرنو إليها وهي ما تزال معلّقة بالسقف وقد اكتست بلون رمادي بسبب الغبار ونسيج العناكب فلم تعد تبعث أيّ ضياء. ومررنا بحجرة البليارد الفسيحة المغلّفة بالخشب والمنضدة التي تعلوها كراسٍ بلا أرجل وصناديق مكسورة وصور مؤطّرة. وفكّرت في عجب عمّن يكون قد استعمل كلّ هذه الأشياء في ماضي الزمان. الشيء المؤكّد هو أنّها لن تستعمل أبدًا في المستقبل.

كان هارولد يندفع في أنحاء المنزل وكأنّه حشرة بساقين طويلتين يحدّق هنا وهناك. ولمّا شاهد نظرة باكول الساخرة موجّهة إليه، أسرع في القول:

- النمل الأبيض أيّتها السيّدة. إنّ المرء لا يستطيع أن يبالغ في الاعتناء بالأشياء. لا أريد عقارًا يحتشد بدود الخشب. أرجو المعذرة...

ثم نقر على خشب خزانة كأنّه يريد أن يتأكّد من أنّه لم يتأثّر بعفونة الرطوبة والفطريّات.

صعدنا إلى الطبقة العليا من فوق درجات سلّم تصدر صريفًا واضحًا، فشاهدت في ذلك المكان الذي لم تسبق لي رؤيته أثاثًا فكتوريَّ الطراز، وبدأ كلّ ما رأيناه وكأنّ أصحاب البيت خرجوا قبل قليل للتنزّه. ثمّة آلة كاتبة من فوق منضدة كتابة ذات غطاء لفّاف مؤلّف من أضلاع خشبيّة متوازية ومكسوّ بالسخام، وفيها ورقة؛ وشاهدت كوبًا فارغًا وصحنًا اكتسيا بلون بنّيّ بسبب الغبار على منضدة جانبيّة. ثم مررت من

أمام مرآة ذات إطار هائلة في حجمها ويعلوها الغبار حتى إنّني لم أتبيّن من هيأتي سوى ظلّ واهٍ وكأنّني أنظر من عينيْ رجل نصف أعمى. وخطونا من بين سحب السخام ونسيج العناكب وكراسٍ ومناضد شبحيّة وأسرّة بأربعة أعمدة وسقف وخزّانات لأدوات المائدة وصور معلّقة على الجدار لا يظهر منها شيء باستثناء فطريّات سوداء اللون وقاذورات وسيقان عناكب تسرع لحضور حفلة شيطانيّة.

وفي ركن إحدى الغرف، ثمّة خزانة ذات واجهة زجاجيّة مزركشة، فمال هارولد من حولها لينعم النظر اليها، وأشار إليّ قائلاً:

ـ اللعنة! انظر إلى هذا أيّها الرجل! ألا تظنّ أنّ الرئيس سوف يروقه؟

كانت الخزانة تحتوي في داخلها على خمسة رفوف زجاجيّة، يحتوي أحدها على تماثيل صغيرة تمثّل رجالاً ونساءً وآلهة وأطفالاً وحيوانات، يصل عددها إلى العشرات، وكلّها من العاج. وكان خشب الخزانة مُطعّمًا أيضًا بالعاج. وكانت بعض تلك التماثيل منتصبة والبعض الآخر قد سقط على وجهه في الغبار الذي يغطّي الرفوف.

وفاجأني صوت باكول:

ـ رائعة، صحيح؟ ولا تقدّر بثمن! وهي تمثّل أيّام الاحتفالات الخمسة بالآلهة دورغا وكلّ الأحداث المختلفة التي تجري في كلّ يوم منها، كلّ ما ينقص منها هو المفتاح الذي فُقد، ولهذا، فعندما يسقط أحد التماثيل فإنّه يظلّ كذلك إلى ما لا نهاية.

واسترسلت في حديثها ونحن ننتقل إلى غرفة أخرى:

ـ كما تلاحظانِ، فإنّ حال الطبقة العلويّة أفضل من ناحية متانة البنيان. لقد رتّبت أموري حتى يبدو كلّ شيء نظيفًا عند مشاهدتكما إيّاه

فيكون المظهر جميلاً. لكن لا بأس، فقد وصلتما في وقت مبكر لم أتوقّعه. والضرر الذي لحق بالطبقة الأرضيّة ليس بذلك السوء الذي يمكن تصوّره إذا ما أخذنا في الحسبان أنّ مياه الفيضان كانت تغمره في كلّ فصل من فصول الرياح الموسميّة إلى ارتفاع يصل قدمين اثنين. المرجّح أن يعرف الزبائن المرتقبون هذا الوضع من سكّان المنطقة ـ وهم يطلقون عليه اسم البيت الغريق، ولهذا ليس ثمّة فائدة في إخفاء هذه الحقيقة.

وهنا التفتت إليّ وإلى هارولد ورفعت من حاجبها، ومضت قائلة:

ـ طبيعي أنّ زبائنكما ـ أو أنتما ـ قد لا ترغبان في الاحتفاظ بالمنزل أبدًا.

ثم هزّت كتفيها وأضافت:

ـ ربّما تريدان هدمه، وإذا كان الأمر كذلك فإنّكما في ورطة، لأنّ هذا البيت متين البنيان، ولن ينهار من دون معركة.

في هذا الوقت كنّا نطوف من حول الشرفة العريضة الممتدّة على طول المنزل، لكنّنا لم نتمكّن من أن نشاهد من ورائها أيّ شيء تقريبًا سوى الأشجار، أشجار الباكول وحدها التي سرعان ما سوف تزهر ويعبق الجوّ بأريجها. الملاحظ أنّ هذا الجزء من الشرفة كان نظيفًا، ولاح لي كأنّ شخصًا يعيش فيه.

قالت باكول في صوت خفيض أكثر من ذي قبل:

ـ هذه هي واحدة من غرف النوم العلويّة، وثمّة أربع غرف أخرى غيرها.

كانت الغرفة نظيفة، تفوح منها رائحة زكيّة وكأنّها ما تزال في قيد

الاستعمال، وفيها سرير واحد لنفر واحد يعلوه غطاء أخضر اللون، وكان لوح السرير الرأسي بسيطًا. أمّا خزانة الثياب فمصنوعة من خشب اعتيادي، في حين كانت تعلو منضدة الزينة مرآة طويلة. وكانت النافذة تطلّ على شجرة كادت أغصانها أن تدخل الغرفة. شجرة باكول أخرى. وعلى الجدار ثبّتت صورة شانتي، والدة باكول، يحيط بها إكليل رقيق يابس، أمّا رماد البخور فكان على منضدة أمامها. وبدت الأمّ شبيهة بباكول تمامًا عندما مارسنا الحبّ معًا في بلدة سونغاره عصر ذلك اليوم ـ وكان رفضها الاستدلال عليَّ قد جعل كلّ شيء يلوح بعيدًا جدًّا وغير حقيقي اليوم.

لبثت أنا وباكول لحظة في الغرفة من دون كلام، ونسينا أمر هارولد. تذكّرت كيف طغى عليها الحنين لأمّها طوال حقبة طفولتها وكم بذلت من جهد محاولة إخفاء ذلك الحنين. وراودني إحساس بالتعاسة، ولكن لم يكن في يدي حيلة. لم يكن في وسعي أن أمسك بها وأقول لها: هذا أنا، ويمكنك أن تقولي ما تشائين.

مرّت اللحظة، وعاد صوت باكول من جديد:

ـ أظنّ بقيّة الغرف ليست نظيفة تمامًا، ولكن يمكنكما مشاهدتها أيضًا، فغرفة نوم جدّي تحتوي على خزانة ثياب رائعة النقوش وسرير بأربعة أعمدة وسقف غاية في الفخامة.

ثم أردفت متسائلة:

ـ وما مصير الأثاث؟ أهو جزء من الصفقة؟

قال هارولد ملتفتًا إليّ:

ـ الأمر متروك لك وللوالد لاتّخاذ قرار بشأنه أيّتها السيّدة.

ليس لدينا أيّ تمييز. . . ربّما يهوى الرئيس بعضه. إيه؟ إنّه يعشق النقوش الخشبيّة، كالخزانة العاجيّة. . . هل يروقك قسم منه؟

سبقتهما قليلاً والرغبة تحدوني في أن أنأى بنفسي عن اهتمام هارولد الجشع بأثاث باكول، وخرجت إلى الشرفة وتنفّست نفسًا عميقًا متسائلاً في عجب ومؤمّلاً أن تكون هذه لعبة معقّدة تمارسها باكول. عاجلاً أم آجلاً، سيتحوّل هارولد إلى رجل فظّ ويطالب بالحجّة ويبدأ بحثه عنها، فكيف ستوقفه عند حدّه؟ سوف يعثر عليها في نهاية المطاف، فأنا على الرّغم من كسله وشعره لا أعلم أنّه أخفق في شيء.

استطعت أن أشاهد النهر بعيدًا عن المنزل، وأنا في مكاني في الشرفة، وقد تحوّل الآن إلى جدول ضحل وابتعد بعض الشيء عن مجراه القديم.

وفجأة صكّ سمعي صوت باكول وهي تقول لي:

ـ ثمّة سدّ الآن في أعلى النهر، وبهذا أصبح هذا المنزل عقارًا جيّدًا. يومًا ما كانت له حديقة تبلغ مساحتها أكرين[1] اثنين ظلّت في معظمها مطمورة تحت سطح الماء طوال تلك السنين الماضية. أمّا اليوم، فقد بانت للعيان من جديد، إضافة إلى مساحات شائعة من الحقول أيضًا.

* * *

وصلنا أعلى درجات السلّم بعد أن أكملنا جولتنا في الطبقة العليا. وهنا توقّف هارولد وقال مخاطبًا باكول:

---

(١) الأكر: مقياس للمسافة يساوي ٤٠٤٧ مترًا مربّعًا (المترجم).

ـ إذا لم يكن لديك أيّ اعتراض أيّتها السيّدة، فإنّني أحبّ أن أقوم بجولة وحدي في أرجاء المنزل. إنّ استثمارًا بمثل هذا الحجم يتطلّب إلقاء نظرة طويلة وجيدة.

واستدار قبل أن تتفوّه بكلمة ودخل إحدى الغرف.

أمّا أنا فلحقت بها وهبطنا الدرجات واتّجهنا إلى الشرفة الأماميّة. وكانت قد سبقتني وكأنّها غير متنبّهة لوجودي. وبعد أن أصبحنا متحرّرين من هارولد بضع دقائق، بات يتعيّن عليّ أن أسألها: ما معنى هذا كلّه؟ كيف يمكنها أن تظنّ أنّني جئت إلى هنا لاغتصاب البيت منها؟ ينبغي لها أن تعلم أنّني هنا من أجل أن أكون في صفّها وليس في صفّ هارولد. كيف يمكنها أن ترتاب في ذلك؟ يتعيّن عليّ أن أحذّرها من أنّ هارولد ليس ذلك المشتري الجيّد أو الجدير بالثقة، وأنّه جاء إلى هنا محاولاً العثور على وثائق المنزل، وأنّ الخطر كلّه يكمن في تركه يجول في البيت ـ وأنّها في حاجة إليّ وأنّ بابو نرمال على حقّ، وبغضّ النظر عمّا تظنّه بي، فإنّها محتاجة إلى أن أخبرها بكلّ هذه الأمور.

ولمّا وصلنا مقدّمة الشرفة، قلت:

ـ إنّني مضطرّ إلى أن أكلّمك يا باكول...

غير أنّ الشرفة لم تكن خالية، إذْ كان يجلس على أحد الكراسي الخيزران وكأنّ البيت ملكه، رجل في مثل سنّ بابو نرمال، وله وجه ينمّ عن يسر الحال، مشرق بما فيه من اكتناز وعرق. وكان يرتدي مئزرًا خفيفًا أبيض اللون وقميصًا مجعّدًا على الطراز الحديث ومزيّنًا بأزرار ماسيّة لامعة. وكان يقف بجانبه خادم بدا ذاويًا وآسفًا في الوقت نفسه، ويهزّ مروحة مصنوعة من سعف النخيل من فوق رأس سيّده الذي أخذ الصلع يزحف إليه.•

توقّفنا بغتة، فنهض من مجلسه عندما رآنا، وقال في صوت جهوري أجوف:

ـ مرحبًا أيّها السيّد! وأنتِ أيضًا يا باكول، أنت لا تعرفينني ولكنّي أعرفك!

نظرت باكول إليه مندهشة، ولكنّه أضاف:

ـ كان جدّك ووالدي صديقين ودودين، بل أعظم صديقين! لا بدّ أنّك سمعت بذلك. كان والدي اسمه أشوين موليك واسمي بكلّ تواضع راثين موليك.

قالت باكول:

ـ لم أسمع بالاسم.

قال الرجل مخاطبًا باكول وداعيًا إيّاها للجلوس في شرفة دارها وكأنّ الدار داره:

ـ اجلسي.

فامتثلت وهي تشعر بدوار.

ـ آه، حسنًا، شيء طبيعي، لكن من أين لك أن تعرفينني؟ فأنت أيّتها الطفلة المسكينة لم تتردّدي على هذا البيت إلّا نادرًا! غريب!

ثم فتح علبة فضّيّة تحتوي على مخدّر وقدّمها لنا، وقال:

ـ لا؟ ألا تريدان شيئًا من هذا المخدّر؟ حسنًا، كما قلت قبل قليل: غريب حقًّا. قلّما عرفتِ شيئًا عن هذا البيت في حين أعرف أنا كلّ بوصة فيه وكلّ أسرة جدّك وأصدقائه. لقد لعبت هنا في طفولتي وقمت بتسيير قوارب ورقيّة في النهر وفي الطبقة الأرضيّة عندما بدأت المياه تغمرها. يا لها من ذكريات جميلة! ويا لذلك الطبق من الكاري

المدهش الذي كان يعدّه طبّاخ جدّك! ووالدتك أيضًا... شانتي... وأنا، كنّا نلعب معًا بعضًا من الوقت على هذه الشرفة نفسها! كانت تشعر بالخجل إلى حدٍّ ما، وكلّما كانت تخسر في اللعب، تنفجر باكية! تفيض عيناها بالدموع! آه يا راثين موليك، كفَّ عن استعمال كلمة فيضان في هذا المنزل، إنّها كلمة مزعجة، كلمة كارثيّة! بعد كلّ ما حلَّ بهذا البيت من خراب!

كنت أحدّق إلى الرجل في ذهول تامّ. فقد كان يبدو وكأنّه ممثّل في أحد الأشرطة السينمائيّة التافهة أو المسرح الشعبي، يثير الضحك، ولكنّه يُنذر بخطر ويُتوقّع منه الأذى.

لاحت باكول وقد عيل صبرها، وقالت بنبرة صوتها الحادّة التي عرفتها منذ سنين:

ـ كيف يمكننا مساعدتك بابو راثين؟

ثم حوّلت من أنظارها إليَّ وقالت له:

ـ لقد حضر هذا السيّد إلى هنا في مهمّة، لذا فإنّني أعتذر، ولكن...

قال في أسًى:

ـ آخ، الشباب دومًا في عجالة من أمرهم. أعرف السبب الذي دفع بهذا السيّد إلى الحضور إلى هنا أيّتها الطفلة، والسبب حضور الرجل الآخر أيضًا. ولهذا السبب أتيت. طفلتي العزيزة، منذ سنين طويلة، كان أبي يقول لجدّك: «بابو بيكاش عليك أن تبيع هذا المنزل الوحشي، فإنّه سوف يبتلعك، قم ببيعه، وإن راقك الأمر، فسوف أشتريه! وقد دفع له أبي المال عربونًا منذ سنوات وأخذه جدّك الطيّب بابو بيكاش ـ وإلّا كيف تظنّين أنّ جدّك كان يعيش؟ هه؟

وبغتة أضحى الرجل مشاكسًا، ولكنّه ليّنَ من نبرته مرّة أخرى واسترسل في حديثه:

ـ لقد اعتنى والدي رحمه الله بجدّك وأرسل له الطعام أثناء الفيضان. . . وقد جرحتِ مشاعري الآن، لقد زالت ثقتي من الإنسانيّة أيّتها الطفلة! فأنا أسمع من الآخرين كلامًا مفاده أنّ هذا البيت معروض للبيع ـ من وراء ظهري! من وراء ظهري في حين كانت أسرتي قد دفعت مقدّمًا آلاف الروبيّات ثمنًا له. وسألت نفسي: هل هذا صحيح؟ ولهذا جئت لأستطلع الأمر بنفسي.

تناهى إلى سمعي نقيق ضفدع، وصوت أجراس عربة ركشة. كان الخادم ما يزال يقف من وراء سيّده يهزّ المروحة المصنوعة من سعف النخيل، وإن كان شبه نائم. رنوت إلى باكول فوجدتها وكأنّها ترتعد، فالتفتت إليّ وتفوّهت بثلاث كلمات أوضحت كلّ شيء، وكأنّ نفحة قويّة من نسيم منعش هبّت بغتة علينا:

ـ قل شيئًا يا موكوندا!

قلت:

ـ إنّني متأكّد من أنّ والد باكول لم يكن له قصد في الاحتيال على أحد أيّها السيّد. إنّنا لا نعرف شيئًا عن أيّ تفاهم ربّما تكون قد توصّلت إليه مع جدّ باكول. وفي مثل هذه الحالة نحن بحاجة إلى الاطّلاع على بعض الوثائق، إلى عقد موقّع بينك وبين صاحب الدار تتطلّبه الإجراءات القانونيّة. . .

تكلّم الرجل كلامًا سريعًا يعوزه الوضوح:

ـ وثائق أيّها السيّد! هل هناك وثائق تنمّ عن تفاهم بين رجلين إذا ما ساعد أحدهما الآخر على امتداد السنين وأمام مرأى كلّ سكّان

مانوهاربور، بالطعام والمال والأدوية والخدم؟

قلت في ثقة متزايدة اكتسبتها من كلّ سنوات التعامل ببيع العقارات وشرائها:

ـ ومع هذا، فإنّني لست سوى وكيل عن البائع. فكيف أفعل شيئًا من دون الرجوع إلى الوثائق الأصوليّة؟

كنت أعلم أنّ الرجل ليس سوى برغش من دون وثائق، وأنّني يجب أن أبعده مثل فراشة فوق عجلة طاحونة.

كان في وسعي أن أشعر بعينيْ باكول مسمّرتين عليّ، ولكن على نحو مختلف الآن، في دهشة وليس في حدّة أو توتّر. كان الدافع الذي أدّى برائين موليك إلى المجيء إلى منزل أسرة باكول لا يقلّ جشعًا عن جشع هارولد، لكن ظهوره كان يمثّل خلاصًا لي، فقد كان تدخّله قد وضعني أنا وباكول في صفّ واحد. وطفق يجادل، مستخدمًا التهديد تارة والكلام المعسول تارة أخرى، فتركته يتكلّم على سجيّته. وكلّما ازداد إلحاحًا، قارعت حجّته بالحجّة، وازداد شعوري بالسعادة لأنّني قادر على استخدام سيفي بمهارة ـ وأمام باكول. ولم أستطع منع نفسي من التباهي زهوًا إلى حدٍّ ما، فاسحًا المجال أمامها كي تدرك إدراكًا شاملاً أنّني أقف إلى جانبها وإلى جانب بابو نرمال، وأنّني جئت إلى هنا من أجل إنقاذها وإنقاذ بيتها العتيق.

تناقشنا نقاشًا مطوّلاً بدا وكأنّه امتدّ دهورًا، نهض من بعده رائين موليك ومضى في سبيله وقاطعًا العهد على نفسه بأنّنا لم نسمع كلمته الأخيرة. كنت أعرف أنّنا ربّما لم نسمع، ولكن يبدو لنا أنّ الخطر زال حتى وإن على نحو موقّت وكان مفيدًا لي: ففي وسعي أن أكلّم باكول قبل أن يعود هارولد من جديد. وفكّرت أنّني أستطيع الآن أن أوضّح كلّ شيء لها.

قلت:

ـ لقد حلمت يا باكول آلاف المرّات أنّنا سوف نلتقي من جديد، ولكن ليس على هذا النحو الذي التقينا فيه الآن. أصغي إليَّ الآن. ينبغي لنا أن نتكلّم، فلا وقت لدينا كي...

قالت وقد بدت مستغرقة في التفكير:

ـ حسنًا، الحياة مليئة بالمفاجآت. صحيح؟ لا شيء يحدث بحسب ما نتوقّعه أو نحلم به. ينبغي لكلامنا أن ينتظر قليلاً ـ علينا أن ندخل ونرى ذلك الرجل ـ ما اسمه، هارولد؟ ما الذي يمكن أن يكون قد فعله طوال هذه المدّة داخل المنزل؟ إنّني لا أصدّق كلمة واحدة ممّا يقول، ويبدو لي شنيعًا أكثر من أيّ شخص آخر سبق لي أن قابلته. كيف يمكنك العمل مع هؤلاء الناس يا موكوندا؟

وهنا دخل هارولد علينا في الشرفة وكأنّه يعلم أنّ دوره حان للظهور، وبدا مستاءً ومنزعجًا ينفض الغبار عن شعره وربطة عنقه. لقد كان مأمورًا بالعثور على حجّة المنزل أو انتزاعها من مكان ما في المنزل بالتملّق والتزلّف والاختفاء بعد ذلك، ولكن نظرًا لسعة البيت فإنّ مثل هذا الطلب غير معقول، والواضح أنّه لم يحقّق مبتغاه. وهنا رشق باكول بنظرة اعتدائيّة، وقال:

ـ هذا المكان تعمّه الفوضى وفي حالة يُرثى لها، ولا أظنّه في حالة تصلح للبيع والشراء. والوثائق يا سيّدتي. دعيني ألقي نظرة إلى الوثائق من فضلك قبل أن أتفوّه بأيّ شيء عن قرارنا.

ثم اختلس نظرة سريعة في اتّجاهي كي أؤيّد كلامه، وأردف:

ـ إيه يا موكوندا! لا يمكن عمل أيّ شيء آخر من دون الوثائق. صحيح؟

وبينما كان يرمقني بنظراته لأوافقه كلامه وأؤيّده، لمع في ذهني خاطر جديد بدا لي واضحًا جدًّا فيما بعد. لماذا لم يخطر ببالي من قبل؟ كان هارولد يعتمد عليَّ لأسانده: كنّا نذهب معًا في مهمّات مماثلة كثيرة، بل لا تعدّ ولا تحصى! وكان يوليني ثقته وكان يعتقد أنّ بابو أنغتي يثق بي أيضًا. لو أقنعته أنّني أفضل منه في الحصول على الوثائق من باكول، وأنّ معرفتي بالبيت وأهله سوف تؤتي ثمارها في وقت لم تنفع فيه تهديداته ومداهناته، وأنّني سوف أسلّم الوثائق بالإنابة عنه إلى بابو أنغتي، فإنّ ذلك سيكون كافيًا لإخراجه من المشهد.

قالت باكول:

ـ الحجّة ليست هنا، ويؤسفني القول إنّني لم أعثر عليها بعد.

رشقني هارولد بنظرة، وقال:

ـ ربّما يمكننا أن نعثر عليها يا سيّدتي أنا وصديقي.

قلت لها:

ـ لا بدّ لكِ من إطلاعنا على حجّة البيت إن أردتِ بيعه.

ثم التفتُّ إلى هارولد وقلت:

ـ إنّني أعرف أسرة هذه السيّدة، وقد طلب منّي بابو أنغتي متابعة القضيّة هنا لأنّني سبق لي أن زرت هذا البيت سابقًا وإيّاه قبل بضعة أعوام... وأنت على دراية بالأمر. لهذا فإنّنا لن نقرّ الصفقة في هذه المرحلة...

رنوت إلى باكول وابتعدت قليلاً عن هارولد كي لا يشاهدني وأنا أؤشّر لها بنظرة تدرك معناها منذ أيّام طفولتنا: «لا تقولي شيئًا، وثقي بي».

قلت لها:

ـ امنحيني أنا وصديقي لحظة من الزمان نناقش فيها قضيّتين، وبعدئذٍ يمكننا التوصّل إلى قرار مناسب حول كيفيّة المضيّ قدمًا في الصفقة.

قالت:

ـ سوف أنتظر في داخل المنزل، أنتظرك أنت وصديقك.

تنحّيت بهارولد جانبًا وقلت له:

ـ إنّها لا تمتلك الوثائق أو إنّها لا تريد مفارقتها. وفي الحالتين، لا يمكننا إرغامها وانتزاعها منها بالقوّة، فهي صعبة المراس، وأنا أعرف كيف أعالج القضيّة إذْ ينبغي لنا التزام جانب الحيطة والحذر.. أنا أعرف هذه الأسرة، ويمكنني أن أقنعها أنّنا نسعى حقًّا إلى شراء المنزل، ولكن سوف يتطلّب هذا الأمر بعض الوقت لأنّها بحاجة إلى أن تثق بأحد ما ثقة تكفي حتى تكشف عن الوثائق. ولهذا لا أعرف جدوى في بقائنا هنا، لأنّها سوف تشعر برهبة وحذر أكثر ممّا هي عليه في الوقت الراهن، والآن ما عليك سوى الرجوع إلى بابو أنغتي، وسوف أنتزع الوثائق منها أو من أسرتها في غضون اليومين القادمين، وأنا متأكّد من ذلك.

لاح عليه الارتياب برهة وجيزة، غير أنّ منطق الحال والكلام الذي تفوّهت به، وأنّني فتى بابو أنغتي الموثوق به، كانت كلّها كافية لإقناعه. وابتسم ابتسامة سريعة ولم يتردّد، وقال بعد أن سدّد قبضته إلى كتفي:

ـ حسنًا أيّها الرجل. أتمنّى لك التوفيق! سوف أرجع وأخبر الرئيس، ولكن حذارِ يا بنيّ، فأمامك عمل شاق قبل أن تخلد للنوم.

ثم لوّح بيده مودّعًا، واتّجه نحو ممرّ السيّارات. فما كان منّي إلّا أن لحقت به لأتأكّد من رحيله.

سبق أن مارست مثل هذه الحيلة أثناء عملي من دون أن تكون لي مصلحة شخصيّة فيها. وبعد أن انصرف هارولد ومضى في سبيله، استبدّ بي التعب والإرهاق بسبب جدالي وحيلتي، وسرى ألم في رقبتي، وشعرت بذبذبات بالقرب من عيني اليمنى، وكانت مؤلمة. وكدت أن أنسى أنّ باكول كانت تنتظرني.

لم يكن يروقها الانتظار قطّ. ولهذا قالت لي لمّا رأتني:

ـ هل أفلحت في التخلّص منه؟ متى تعلّمت امتلاك مثل هذه القدرة على الإقناع؟ رجلان رحلا في غضون ساعة واحدة. هل لي أن أستدعي المشتري الآخر كي تتمكّن من ممارسة سحرك عليه؟

قلت لها:

ـ هل يمكنك التزام الهدوء مدى دقيقتين لا غير؟

استدارت على عقبيها وبدت مستاءة، ولكنّ الغضب كان قد استبدّ بي فلم أتوقّف عن الكلام.

ـ كيف تجرؤين على الحضور إلى هنا بمفردك؟ نعم، في وسعك عمل كلّ شيء، نعم، أنت غير خائفة من أيّ شيء، هذا هو حالك دومًا، لكن هل ثمّة ضير لو رافقك زوجك، ولو على سبيل العون والمساعدة حتى إن كنت غير محتاجة إليه؟ أتعرفين مدى خطورة هذا العمل؟ إنّ نزاعات الملكيّة تجذب اهتمام السماسرة والأشقياء. لماذا لم يستطع بابو نرمال الحضور؟ أليس في بيع بيت زوجته ما يكفي من الأهمّيّة؟ بل آثر البقاء هناك من أجل كلب؟ ماذا سيفعل لو أصابك هارولد بمكروه؟

لاح كلامي وكأنّه وابل من الشتائم والسباب، فقاطعتني في حدّة وهي تبتسم ابتسامة ساخرة:

ـ سماسرة وأشقياء مثلك؟

ـ يمكنك أن تبتسمي يا باكول. لأنّك لا تقدّرين مدى خطورة الأمر!

قالت لي:

ـ أبي حقًّا! لا بدَّ أنّك أتيت إلى هنا لأنّ أبي طلب منك الحضور، فهو يظنّني غير قادرة على فعل أيّ شيء بمفردي. صحيح؟

ـ كان يتعيّن عليَّ أن أدرك ذلك. لقد خمّنت حدوث مثل هذا الشيء في اللحظة التي رأيتك فيها، ولكنّك أتيت رفقة ذلك الشخص الآخر، وكان مظهرك يدلّ على أنّك تريد شراء حصّتي! ولم أكن واثقة من سير الأمور إلّا في اللحظة التي أبعدت فيها راثين موليك.

وانفجرت مرّة أخرى في وجهها:

ـ راثين موليك حملٌ وديع مقارنة بهارولد ـ وبالأعمال التي يؤدّيها. يمكنني أن أفهم بابو نرمال، فهو رجل لم يسبق له أن عاش في الواقع. ولكن زوجك... المؤكّد أنّني لا يجب أن ألومه على أيّ شيء، لكنّ الأمر سيّان يا باكول. كيف سمح لكِ بالمجيء وحدك؟

ـ لماذا تكثر من الحديث عن زوج يا موكوندا؟ ألا تعلم ما حدث؟ أعني، ألم يخبرك بابا بشيء؟

ـ يخبرني؟ يخبرني بأيّ شيء؟

رنت إليَّ ثم رمت برأسها إلى الوراء وضحكت، ثم تمكّنت من أن تقول وسط ضحكاتها المجلجلة:

ـ أتظنّ حقًا. . .؟ آه. . . أنّك تبدو. . .

كنت أعلم أنّني أبدو مرتبكًا وغاضبًا، أرشح عرقًا، منكوش الشعر وسخيفًا. وتملّكني دافع قويّ كي أمدّ يدي وأصفعها صفعة قويّة على وجهها إن لم تتوقّف عن الضحك، ولكنّها قالت في نهاية الأمر:

ـ ليس لي زوج، ولم يكن لي أيّ زوج. ألم يخبرك بابا أنّ الزواج ألغي؟ ظننته أرسل إليك رسالة ليخبرك بذلك! وظننتك تعرف ما حدث.

قالت وقد لاحت عليها ابتسامتها الشيطانيّة المعهودة:

ـ نعم، ألغي، فقد اكتشفوا أنّني لست عذراء وأنّني ضاجعت رجلاً متزوّجًا، فأطلقوا سيقانهم للريح لينجوا بجلدهم، وكان العريس أكثرهم سرعة في الفرار. وقد اضطررت إلى أن أبوح لإحدى القريبات، بعد أن حلفت اليمين على أن تبقي الأمر سرًّا، بأنّني كنت مرتبطة بعلاقة غراميّة مع رجل متزوّج، ولم أزدْ على ذلك القول شيئًا. ولمّا اقترب موعد الزفاف ولم يبق سوى أسبوع واحد حتى ألغوه! فغمرني فرح عارم؛ ولكن بابا تميّز غضبًا وحنقًا، وأنفق أسابيع طويلة يغمغم قائلاً إنّ أسرة العريس ذات عقليّة بالية ومتخلّفة وإنّني نفذت بجلدي منها. ولام نفسه لأنّ العريس كان معلّم تاريخ فظنّ أنّه قد يكون زوجًا مثاليًّا لي. أنا شخصيًّا لا أدري السبب الذي دفعني إلى الموافقة على الزواج. ولكنّني في ظلّ حياتي الرتيبة في سونغاره التي لا تشهد أيّ تغيير، وفي ظلّ الوحدة والسأم وانعدام الأمل في الخلاص، كنت أفكّر أحيانًا أنّ أيّ شيء أفضل من هذا كلّه حتى ولو كان الزواج برجل غريب. كان الرجل يبدو مرضيًا إلى حدٍّ كبير، وكان يسكن في مدينة بومباي ـ ولكن مع اقتراب يوم الزفاف شعرت أنّني لا أستطيع الزواج، لا أستطيع الزواج فحسب. وبدا كلّ شيء مستحيلاً ولا سبيل للخلاص من هذا الزفاف

سوى نشر إشاعة والأمل في وصولها إلى مسامعه.

قلت متسائلاً:

ـ لماذا لم تخبريني؟ لماذا لم تخبريني؟ كنت قريبًا منك في ذلك الوقت، كنت في سونغاره، وكنت مقيمًا في أحد الفنادق البائسة، أقتل نفسي بالتفكير في أنّك في أحضان رجل آخر!

سرحت ببصري إلى وجهها الباسم، فاجتاحتني ثورة هوجاء: كيف يمكنها أن تكون بهذه الدرجة من نعومة البال في قضيّة كادت أن تحطّم حياتنا نحن الاثنين؟ وكيف أمكنني قطع كلّ تلك المسافة الطويلة من أجل الذهاب إلى سونغاره من دون أن ألتقيها حقًّا ومعتقدًا أنّها قد تزوّجت؟ كم كان الأمر بسيطًا لو أنّني لم أهرب في ذلك الصباح! وكم كانت غبيّة عندما لم تخبرني بما حدث؟ يا لتلك السنين التي ضاعت هدرًا منذ ذلك الربيع البائس الذي فقدتها فيه وفقدت زوجتي وولدي دفعة واحدة! آه، ما الذي كان من شأنه أن يحدث لو لم ألتق أنا وباكول من جديد؟

* * *

تمشّينا في صمت برهة من الزمان في الأراضي المحيطة بالمنزل. كانت الأرض تبدو ذات مظهر غريب، موغل في القدم، لأنّها كانت مغمورة بالماء زمنًا طويلاً، مكسوّة بكلّ أنواع النفايات مثل قطع الأخشاب والأسماك الميتة ووعاء مزجّج بالميناء ومنبعج الجوانب، تلك التي انتشرت في كلّ مكان وكأنّ المدَّ ألقى بها إلى هذه البقعة.

جلست باكول على درجات الشرفة الخلفيّة المكشوفة في وجه الضوء والهواء بعد سنين من الغرق. وكانت السماء الملبّدة بالغيوم رماديّة وبيضاء من فوقنا، فبات النسيم رقيقًا وكأنّه نسيم المساء وإن كان

الوقت ما زال عصرًا. وتمكّنت من رؤية الماء على بعد مسافة قصيرة تمتدّ وراء قطعة أرض من طين يابس وجافّ لا بدّ أنّها كانت حديقة مغمورة بالماء!

قالت باكول:

ـ كان أبي يتصرّف تجاهي على هذا النحو دومًا. ألا تتذكّر كيف وعدنا بأنّه سيأتي بنا في إجازة لبضعة أيّام إلى هذا المكان، ولكنّه أبعدك إلى كلكتا على حين بغتة بدلاً من ذلك؟ ولم يسمح لي على مدى سنين طويلة بزيارة جدّي، ثم أحضرني إلى هنا مرّتين، مرّة عندي ـ وفي المرّة الثانية عندما بلغ من الكبر عتيًا فلم يعد في مقدوره أن يتعرّف عليّ. وعندما جئنا إلى هنا، كان بابا مجافيًا وباردًا، وفي كلتا الزيارتين عدنا أدراجنا بعد مرور ليلتين اثنتين وقد تجشّمنا عناء كلّ ذلك السفر الطويل.

حاولت أن أصغي إلى حديثها عن بابو نرمال، ولكنّني لم أستطع التفكير إلّا بهذا الشيء: إنّها غير متزوجة، وإنّه لا أثر لأيّ زوج. باكول ليس لها زوج. ولم يكن لديها زوج، بعد سنوات من الغيرة لم يعد لي أحد كي أغار منه. لو كانت ترغب فيّ حتى هذا اليوم (وكيف يمكنها ألّا ترغب؟) عندئذٍ في وسعنا... لكن إذا لم تعد راغبة بي بعد الآن؟ بدت لي مستغرقة في التفكير في كلّ شيء إلّا فينا نحن الاثنين.

قالت باكول في هذا الحين:

ـ كان هذا الرجل راثين موليك على صواب، فأنا لا أعرف شيئًا عن هذا المنزل إلّا من القصص والصور. فعندما داهم المرض جدّي، لم أكن أعرف عنه شيئًا. وعندما قضى نحبه، فإنّنا لم نعرف بوفاته إلّا بعد عشرة أيّام! والآن، ها أنا هنا في هذا المنزل في نهاية المطاف، وثمّة غرباء يجوسون في أنحائه ويقيسونه ويقدّرون ثمنه، ويعقدون

الصفقات من حوله. وفي طريقي إلى هذا البيت، لبثت أتساءل في دهشة عمّا سوف أفعله عند وصولي. فكّرت في أنّني قد أبيعه، وفي ذلك أنجع الحلول، اذْ ما الذي يتعيّن عليَّ فعله في هذا القصر القديم المهلهل البعيد عن كلّ مكان؟ ولكن؟ ولكن...

وهنا ضحكتْ واستأنفت كلامها:

ـ لا بدّ أنّني ورثت عن جدّي شيئًا ما. فأنا أظنّ أنّني لا أقدر على بيعه حتى لو كان ما يزال الماء يغمره، حتى لو كان أجوف مثل ثمرة جوز هند وتحتشد فيه الأرضة. آه. صحيح إنّني أطلعت هارولد عليه وما إلى ذلك، لأنّني لم أستطع أن أفعل ما يخالف بعد أن وافقت على لقائه، لكنّ التفكير فيه، في هارولد وفي أيّ شخص آخر يشبهه، وقد استولى عليه، يصيبني بالخدر.

عندما استأنفت كلامها مرّة أخرى، ومضت عيناها:

ـ إنّ كلّ حجرة من حجرات هذا المنزل تجعلني أفكّر في أمّي. وهذا كلّ ما املكه منها. إنّ والدي لا يستطيع إرغامي على بيعه. لا!

قلت:

ـ أنت تعرفين طباع بابو نرمال... فهو غارق في متحجّراته وقطع الخزف والمزارات المخروطيّة. لعلّه لم يدرك أنّك متعلّقة بهذا المنزل. وهو يحاول أن يكون واقعيًّا مرّة واحدة، وهو يريدك أن تحصلي على المال من أجل البقاء في قيد الحياة.

وهنا ضحكتُ في محاولة لتخفيف الجوّ، ومضيت أقول:

ـ والآن انظري إلى الغلطة التي اقترفها.

قالت من دون أن تتمكّن من السيطرة على الرعشة في صوتها:

ـ يمكنك أن تضحك ما شاء لك الضحك. إنّه إنسان رائع صحيح؟ شارد الذهن، تائه في دنيا القارّات والملوك، ولكنّه لم يترك فسحة في تفكيره لي. فهو مشغول البال، ولكن هل فكّر يومًا ما بما يساورني من شعور إذا ما...

أمسكت عن الكلام برهة وجيزة، ثم أخذت نَفَسًا عميقًا وأضافت:

ـ إنّني لا أتوقّف عن الكلام. أخبرني عن حالك. كيف حال ابنك؟ لماذا تخلّيت عن عملك؟

لكنّني سألتها:

ـ ماذا فعلت بحجّة المنزل؟ هل هي في مأمن؟

ـ أرسلتها بالبريد يا موكوندا. هذا ما أقدمت عليه في اللحظة التي عرفت فيها أنّني لن أبيع البيت. لقد أودعت ثقتي بدائرة البريد والبرق الهنديّة وائتمنتها على ثروة حياتي وأرسلت الحجّة بوساطتها إلى بابا! قبل ثلاث ليال. وقد ذهبت مباشرة إلى المكان الذي كانت الحجّة مخبّأة فيه وأحسنت تغليفها وأرسلتها برسالة مسجّلة إلى سونغاره. لهذا لا ينبغي لك أن تقلق بشأن إنقاذي من براثن صاحبك بابو أنغتي. هذا البيت بيتي الآن.

* * *

دفعني هذا الارتياح إلى الثرثرة والهذر في الكلام، فجلست من فوق الدرجات وأخبرت باكول عن زوجتي وابني، وكيف أنّني لم أرهما بعد تلك اللمحة الخاطفة عندما ذهبت إلى قرية زوجتي بعد مرور بضعة أشهر على رحيلها من بيت الزوجيّة. وأخبرتها كيف أنّني اشتقت إلى رؤية ولدي وأنّني ما زلت أحلم به كما رأيته آخر مرّة، وكان طفلاً صغيرًا لم يتعوّد المشي بعد، ولكن والد زوجتي كان عنيدًا لا يقاوَم ولم تجب

زوجتي على رسائلي قطّ، ولم يعرفني ابني إلّا بعد فوات الأوان.

أخبرتها عن الرحلات التي قمت بها إلى قرية زوجتي على مدى سنين، مؤملاً في كلّ مرّة أن يسمحوا لي بدخول المنزل ولكنّهم كانوا يصدّون عنّي في كلّ مرّة من أمام الباب. لي طفل وليس لي طفل في الوقت نفسه. كم كان ذلك العرّاف الأعور على صواب!

وأخبرتها عن العمّ سليمان والعمّة اللذين عادا من الباكستان الشرقيّة، وعن الرجل الذي لازمني في القطار وأخبرني أنّه شاهد مركبة فضائيّة.

وفي نهاية المطاف، أحسست بالجفاف في حلقي. فبعد سنوات طويلة من العيش وحيدًا، شعرت أنّ صوتي بدأ يرنّ في أذني، فأمسكت عن الكلام.

* * *

تمشّينا فوق الأرض الطينيّة واتّجهنا إلى الماء الساكن، الذي لم يعد نهرًا واسعًا كما كان عليه عندما جئت إلى مانوهاربور رفقة بابو أنغتي، بل أضحى جدول ماء هادئًا ومسطّحًا. كيف أمكنه أن يُغرق البيت ويتسبّب في وفاة والدة باكول. لاح في تلك اللحظة عاجزًا حتى عن إقلاق راحة الغرين الذي يتلاشى فيه، طبقة سوداء حريريّة وملساء.

خلعت باكول نعالها ومشت فوق الطين الرطب، فلحقت بها وشعرت بالطين البارد يتسلّل بين أصابع قدميّ. وجلست على عجيزتها عند حافّة الجدول، فازدادت حافّات ثوبها الساري بللاً.

كلّ شيء هادئ باستثناء صوت طائر بعيد ورتيب. أسندت باكول ذقنها على ركبتها، وشعرها يحجب وجهها وبدت مستغرقة في التفكير. ارتجفت من فوق صفحة الماء حشرة طويلة الأرجل مخلوقة من خطوط

رفيعة مستقيمة، فلمستها بأنملي فطارت بعيدًا. تساءلت عمّا يدور في ذهن باكول من أفكار. هل فات الأوان علينا؟ هل تغيّرت مشاعرها؟ هل تكلّمتُ بأكثر ممّا ينبغي عن زوجتي وابني؟ لماذا تبدو بعيدة عنّي، تمرّر يدًا كسولاً في الماء وتسرح ببصرها نحو الضفّة الأخرى وكأنّها نسيت أنّني قريب منها؟

وعندما جاءت أخيرًا زهرة حمراء طافية على صفحة الماء واتّجهت إليّ، أرسلتها إلى باكول مؤملاً أن تراني. وهنا تخلّت عن إخفاء وجهها من وراء شعرها والتفتت وابتسمت إليّ أوّل مرّة في عصر ذلك اليوم ابتسامتها المعهودة، ومدّت يدها إلى يدي، فتلاقت أصابعنا وتشابكت من تحت الماء.

وتلاشى كلّ شيء: الزهرة والبيت المدمّر من ورائنا والطفلان المحدّقان إلينا من كوخ طيني على الجانب الآخر من النهر. يدها في يدي، فلم أستطع سماع شيء ولا رؤية أيّ شيء. مسّدت كلّ إصبع من أصابع يدها إلى أن انسلّ كلّ واحد منها من بين قبضتي. وانساب إلى مسامعي صوت الماء وهي تدفعه بيدها المحرّرة إلى الأمام وإلى الخلف. ولاح على مدّ البصر قاربٌ مسطّح معتم.

وقالت باكول في نهاية المطاف:

ـ موكوندا؟

لم أردّ عليها.

قالت وهي تجذب ذراعي:

ـ من أين لي أن أعرف ما أفعل؟ ماذا كنتَ تتوقّع؟ أن أكتب إليك رسالة أخبرك فيها أن تتخلّى عن زوجتك وعن ولدك؟ وأن تعود للعيش وإيّاي الآن. أنا لا أستطيع الاستمرار على هذا النمط من الحياة. كلّ

شيء يبدو خطأ، كلّ يوم من أيّام حياتي يبدو وكأنّني لم أحيا إلّا نصفه من دونك. . . أهذا ما تريد أن أقوله لك؟

في مكان ما، بعيد جدًّا، تناهى إلى الأسماع صوت سفينة بخاريّة. ربّما كان النهر الحقيقي الواسع يصبّ في البحر في نقطة ما بعيدة عن الأنظار، ولكن على مرمى من أسماعنا.

شعرت أنّ الهدوء شمل كلّ شيء وتوقّف النبات عن الحركة، والنسيم عن الهبوب والعبث بشعرنا تمامًا مثلما توقّف النهر عن الجريان والسحب البيض عن المرور من فوق رأسينا، كما توقّف الطائر عن السقسقة وتجمّد الطفلان في مكانيهما على الجهة الأخرى من النهر.

وصكّ سمعنا الآن صوت السفينة البخاريّة، قريبًا هذه المرّة، وحزينًا وأجوف.

لاحظت شيئًا غريبًا وهو أنّ ثوبها الساري كان بلون ورقة موز خضراء، وأنّ حافّاته مزيّنة بنقاط ليمونيّة الشكل وأنّ قرطيها الصغيرين الذهبيين بهيئة سمكة، وأنّ السلسلة الذهبيّة الرفيعة نفسها ما تزال معلّقة من فوق عظم الترقوة لتختفي في قميصها الأبيض. اقتفيت أثر السلسلة بطرف إصبعي.

باتت ثيابنا الآن مبلّلة في قاع النهر الرمادي، وأقدامنا تغور في الطين، في حين كان شعر باكول مسدلاً وأحد قرطيها انزلق وازداد عدد الأطفال المتفرّجين علينا في الضفّة الأخرى من طفلين إلى سبعة أطفال، يثبون إلى أعلى وإلى أسفل، مشيرين وهاتفين بكلمات لم نتبيّنها، ولكنّني لم أعر كلّ ذلك أيّ أهمّيّة.

كلّ ما كنت أشعر به هو أنّ الحياة طمست النهر أخيرًا ووصلت إليّ.

* * *

شكر وتقدير

بيَّن لي كريستوفر ماك ليهوس - القارئ المثالي والمحرّر الرائع - كلّ ما هو متيسّر أمام ناشر ما ليكون كذلك حبره اللامرئي في كلّ صفحة.

واستخدم دافي دايال قدراته الهائلة في الإقناع ليجعلني أُطلعه على مخطوطة الرواية في وقت كنت غير متأكّدة منها فلا أستطيع مفارقتها، وبات نتاج قلمه اللاذع في الحواشي آخر أحاديثي وإيّاه.

شكرًا جزيلاً لشروتي ديبي لمواظبتها وأوصافها التي قدّمتها للبيوت القديمة الآيلة للسقوط والتي أدرجتُ بعضًا منها في هذه الرواية؛ وللورا بالمر لما قدّمته من مودّة وكفاءة تبعثان على الاطمئنان؛ ولنايانجوت لاهيري التي أنقذتني من ارتكاب هفوات في ميدان علم الآثار؛ ولكاثرينا بيلينبرغ التي كانت آخر مصفاة وأكثرها دقّة؛ ولكتابات دوهان دسوزا التي

علّمتني ما يخصّ الفيضانات؛ وراجديب مخرجي لكلّ ما انطوت عليه الرواية من أحداث شائعة. أمّا الأغنية القبليّة فهي مقتبسة عن إحدى أغنيات فيرير أيلوين بعنوان ليفز فروم ذا جنغل (أوراق من الغاب).

وقد أسهم الأصدقاء (لا سيّما بي. أم. سي ولاديز سانغيت) وأفراد الأسرة في تيسير ظهور هذا الكتاب لكونهم على مقربة منّي. ومن بين هؤلاء ميريام بيلهيغيو وكرستين ويت ـ هانسون وعدي روي ومانيشيتاداز وآرونداتي روي وشارمي روي وكافيتا سغارا ماكريشنان وأنجيلا سميث الذين سامحوني على متطلّباتي المختلفة التي كانت غير موفّقة في توقيتاتها، والتي كانت منصبّة على استمالة مودّتهم وعطفهم ومن ضمنها قراءة مسوداتي. أمّا موكول كيسافان وإيفان هوتنيك وسيخاغوش وتوماس أبراهام وبراتيك جالان ورام غوها فقد قدّموا لي التشجيع المتواصل والمعلومات الداخليّة، في حين وفّر لي عدي كومار ما كنت أحتاج إليه من مكان وتجهيزات.

شكرًا جزيلاً أيضًا لأمّي وأبي ولمكتبتهما على ما قدّماه لي من فسحة في حياتيهما ورفوفهما، ولشاندرا دوراي وسوكانتا خدوري اللذين زوّداني بالمفردات اللغويّة، ولبسكوت الذي أوضح أنّ المفردات اللغويّة ليست معبّرة تعبيرًا تامًّا كالذيل والعينين وكفّ الحيوان.

أشكر أيضًا والدتي التي أخذت قصصًا سبق لي أن دوّنتها في كتب الدراسة المنهجيّة على محمل الجدّ، وهو ما فعلته أيضًا عندما أخذت في الحسبان مخطوطات هذه الرواية ولجعلها إيّاي أؤمن أنّني سوف أفرغ من كتابتها بترديد عبارة «سوف أفرغ من كتابتها».

أخيرًا إلى آر ـ وليس لحالات الصمت الأفضل فحسب.

المؤلفة

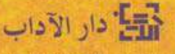
تُرجمتْ هذه الرواية الهنديّة إلى ست عشرة لغة عالميّة. وهي صورة إبداعيّة عن ثقافة محليّة يمتزج فيها الماضي الموغل في قدمه مع الحاضر الذي لا يستطيع إبطاله والخروج به عن دائرة الحنين القاتل: أموليا المهاجر من مدينته إلى سونغارة سعيًا وراء الرزق وهربًا من ملل يؤرقه، وزوجته كانابالا التي ابتعدت عن أهلها، وابنهما نرمال الذي هام حبًا بتاريخ بلاده العريق. وتمتدّ الأحداث على مدى ثلاثة أجيال، ويظلّ الحنين إلى الحبّ عنصرًا طاغيًا: الحب الكارثي بين نرمال وشانتي، والحب المأساوي بين السيّدة بارنوم وعشيقها، والحبّ بين ابنة نرمال والفتى موكوندا اليتيم المجهول الأصل.

هي رواية الحنين المستحيل، حنين يطحنه الزمن والعادات ووضاعة البشر واستغلالهم. رواية عن تاريخ الهند السياسي المفعم بالاضطرابات العنيفة والآمال العظيمة والخيبات المريرة. رواية عن الطبيعة المفقودة والهجرة والعزلة والحبّ.

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة معرض الشارقة الدولي

للكتاب للترجمة والحقوق





هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥
ص.ب ١١-٤١٢٣ بيروت

